النظرية الاجتماعية وقضايا المجتمع

صراع الحضارات على ساحة المرأة والشباب

الكتاب الثانى

دكتور علـى ليـلة



مكتبة الأنجلو المصرية

النظرية الاجتماعية وقضايا المجتمع

"صراع الحضارات على ساحة المرأة والشباب"

دكتور علي ليلة

أستاذ النظرية الاجتماعية

جامعة عين شمس

الكتاب الثاني

٢٠١٥



مكتبة الأنجلو المصرية

بطاقة فهرسة

ليلة ،علي .

النظرية الاجتماعية وقضايا المجتمع : صراع الحضارات على ساحة المراة والسياسة

تألـيـــف الدكتور علي ليلة

17× 24 ســـم

1- الاجتماع ، علم

2 - المراة

3- الشباب

أ – العنوان

رقـــم الإيداع :2014/25689 تصنيف ديوى :301

978-977-05-2951-5: ISBN

طبع فى جمهورية مصر العربية بمطبعة محمد عبد الكريم حسان

مكتبـة الانجلـو المصريـة 165 شارع محمد فريد القاهرة – مصر

تليفون : 23914337 (202) ؛ فاكس : 23957643 (202)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com
Website : www.anglo-egyptian.com

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يدرك المتأمل لتفاعلات نظامنا العالمى المعاصر أنه عالم منقسم على ذاته، ليس بين القوى الكبرى وحدها، كما كان الأمر فى زمان الحرب الباردة. كذلك ليس بين القوى التى بدأت شموسها تسطع على نظامنا العالمى الجديد كالصين والنمور الأسيوية، وبين القوى العالمية التقليدية التى تتشبث بتلابيب نظم عالمية تنسحب من على المسرح، الواحد تلو الأخرى. بل ظهر تقسيم عالمى جديد، يقسم نظامنا العالمى المعاصر إلى الشمال والجنوب، الشمال الذى يضم القوى الاستعمارية القديمة والجديدة، والتى تعيش حالة من الرفاهية التى إعتمدت قديما على سلب خيرات مجتمعات الجنوب، وهى الخبرات التى ضمت ما هو موجود فى باطن الأرض وعلى سطحها. والتى بلغت فى مداها حد إختطاف البشر لكى يستفاد من طاقة عملهم لدفع عجلة النمو الاقتصادى. وأضيف إليها حديثا محاولة ترسيخ تخلف هذه المجتمعات، من خلال إستبعادها نسبيا من تقسيم العمل الدولى كقوى منتجة، اللهم للخامات التى تحتاجها الدول المتقدمة. وتحويل مجتمعاتها إلى أسواق، يدعم ذلك الدور الذى يلعبه الاعلام وتكنولوجيا المعلومات. الذى عمل على تعميق ثقافة ومنظومات قيم الاستهلاك، حتي يتكيف إستهلاك الجنوب، مع إنتاج الشمال بحيث أصبح ذلك يعنى ظهور شكل جديد من أشكال الاستعمار كمدخل لإستمرار الاستغلال.

فى المقابل توجد مجتمعات الجنوب التى خضعت للإستعمار، دون إدراك فى البداية لطبيعته، كما خضعت للإستغلال وسلب الموارد والخيرات. قانعة بالفتات الذى تحصل عليه من بقايا مائدة القوى المستعمرة. يجسد ذلك ما قاله أحد حكامها التقليديين، « كنا لا نعرف أن لدينا فى باطن الأرض بترولا، فأخبرونا بذلك ولما عجزنا عن إستخراجه، أخرجوه لنا من باطن الأرض، ثم باعوه لنا فى أسواق العالم، ثم أعطونا نصيبا وأخذوا نصيبهم الذى هو من حقهم". ونظراً لتردى الأوضاع المعيشية فى الجنوب، برغم أن غالبية مجتمعاته غنية بمواردها. فقد بدأت هذه المجتمعات تدرك أن مواردها تسلب، وإنها قادت

تطوراً خاطئا، حيث دخلت مرحلة الاستهلاك قبل أن تدخل مرحلة الانتاج، ومن ثم فقد زاد إعتمادها على الغير. ومع إزدياد الفقر وتردى الأوضاع، تطور الوعى، الذى تنامى وتحول من وعى رخو، إلى وعى صلب يدرك الحق، ويعمل بإتجاه إمتلاك وتعبئة القوة التى تفرض هذا الحق. وبدأت خطواتها على طريق المقاومة، إبتداء بالمقاومة التى حصلت بموجبها على الاستقلال، وحتى المقاومة الناعمة لبناء التجمعات والاتحادات. لكى تشكل قيمها المضافة قوة يمكن أن يكون لها دورها الفاعل على الصعيد العالمى، وفى هذا الإطار قام الاتحاد الأفريقى ومجلس التعاون الخليجى، والاتحاد المغاربى، والأسيان، ومجموعة شنغهاى، إضافة إلى التكوينات التى ظهرت فى أمريكا اللاتينية وأماكن أخرى من العالم.

وأمام صحوة الجنوب أدركت القوى العالمية ذات الوعى الاستعمارى أنها تقف على سطح من الرمال التى بدأت تتحرك. فالموارد الخام تكاد تفلت من يدها وتسيطر عليها القوى الوطنية، كما تكاد الأسواق أن تتبدد من خلالها أغراقها بإنتاج وطنى، أو على الأقل بإنتاج دول الاتحادات والتكوينات التى تشكلت. ومن الطبيعي يقوى ذلك صوت مجتمعات الجنوب لتطالب بإستحقاقات تاريخية، نظير سلب خيراتها ومواردها. لذلك تحركت مجتمعات الشمال من أجل مزيد من أحكام السيطرة على مجتمعات الجنوب، ولجأت لتحقيق ذلك إلى آليات عديدة، منها أنها عرضت على هذه المجتمعات المساعدات تعبيراً عن نزعة خيرية وإيثارية زائفة. من ناحية لربط أوضاع هذه المجتمعات بالمساعدات لتصبح ألية للسيطرة عليها، وإخضاعها فى المستقبل. إضافة إلى أن هذه المساعدات تستخدم عادة لتنشيط بيع سلع مكدسة لديها فى مخازنها، أو لتسريع دوران عجلة الانتاج فى الدول المانحة. ولأن القوى العالمية الليبرالية قد تأكد إنتصارها فى الثلث الأخير من القرن العشرين، حيث أصبح القطاع الخاص هو الذى تولى قيادة التنمية والتحديث فى مجتمعات الجنوب. فقد وجدنا أن القوى الاستعمارية نشطت للسيطرة على إقتصاديات مجتمعات الجنوب، تارة من خلال تأسيس شراكة عضوية بين القطاع الخاص الأجنبى والقطاع الخاص

الوطنى، حتى تستطيع السيطرة الاقتصادية، ومن ثم السياسية على الأوضاع فى مجتمعات الجنوب. وهى الشراكة التى تكون دائماً لصالح القطاع الخاص الأجنبى، بينما يقنع الشريك الوطنى ببعض الفتات. وبذلك لعبت هذه الشراكة دورها فى تأسيس حالة من الاستقطاب الاجتماعى والطبقى فى مجتمعات الجنوب، وإرتباطا بذلك زادت إحتمالات تفجر الصراعات الداخلية، كما زادت مساحات التهميش الاجتماعى.

وحتى تحكم القوة الاستعمارية الطوق على رقبة مجتمعات الجنوب، فإنها أبدعت الشركات المتعددة الجنسية، والتى وإن شكلت تطوراً رأسماليا وتنظيميا فى مجتمعات الشمال، إلا أنها إستخدمت كألية لضبط آداء إقتصاديات الجنوب، حيث تصل ميزانيات بعض هذه الشركات إلى ما يوازى ميزانية دولة أو عدة دول. إذ تستفيد هذه الشركات من ظروف الإنتاج، المواتية لزيادة الأرباح فى مجتمعات الجنوب من ناحية، إضافة إلى أنها تستخدم فى الضغط على الاقتصاديات والحكومات الوطنية إذا تطلب الأمر ذلك من ناحية ثانية. بالإضافة إلى ذلك فقد عملت القوى العالمية بإتجاه تفكيك هذه المجتمعات إلى قطع صغيرة، بحيث يحقق هذا التفكيك أهدافا كثيرة. فتفكيك هذه المجتمعات إلى وحدات صغيرة يعنى من ناحية أنها سوف تتحول إلى مجتمعات ودول منفصلة غير قادرة على المشاركة - بسبب صغرها - فى تقسيم العمل والانتاج الدولى. ومن ثم تظل وحدات سياسية صغيرة، معتمدة وغير قادرة على تحقيق أى مستوى من مستويات الاكتفاء أو الاستقلال الذاتى. وقد تضافر مع التفكيك إشعال جذوة الحروب الأهلية بين الوحدات المفككة، أو التى لديها قابلية التفكيك والانفصال، بحيث تؤدى هذه الحروب والصراعات، إلى مزيد من تهيئة الظروف لإخضاع مجتمعات الجنوب للقوة الاستعمارية والمهيمنة فى الشمال. ومن ثم تظل تلجأ إليها طلبا للمساعدات أو السلاح، تخرب بواسطته مجتمعاتها بأيديها، حتى إذا فرغت من الحروب، فإنه يكون عليها أن توجه كل جهودها بإتجاه إعادة البناء. الذى سوف يستغرق زمنا طويلاً يبقى مجتمعاتها مفتوحة كأسواق، تحصل من خلالها على سلع الاستهلاك الجاهزة، مقايضة بما تبقى لديها من

مواردها الخام. إضافة إلى إستهلاك عائد بيع الموارد الخام فى شراء السلاح، أو فى إعادة بناء ما دمرته الصراعات والحروب. وعلينا أن ننظر أمامنا إلى حالات واضحة للعيان فى عالمنا العربى، العراق الذى كان دولة متماسكة، تفكك بفعل التدخل الأجنبى، والآن تدخل وحداته أو طوائفة فى حروب وصراعات مع بعضها البعض. والسودان الذى تفكك بعضه عن بعضه الآخر وإختار طريق الاستقلال، ويبقى البعض الثالث الذى تقوى لديه الآن قابلية التفكيك. وسوريا التى تحتاج – بسبب الصراعات الداخلية والأهلية – إلى قرون كى تستعيد واقعها الماضى، المتماسك والمتطور، بحيث إصبح الحديث عن بناء المستقبل فيها ترفا.

وإلى جانب الآليات الاقتصادية والسياسية لإبقاء مجتمعات الجنوب تحت السيطرة، تستخدم القوى العالمية فى الشمال آليات أكثر نعومة وإن كانت أكثر حسماً، وأبرز هذه الاليات تكنولوجيا الاعلام والمعلومات. التى تبث كثيراً من القيم والمعانى والمضامين السلبية، التى تزدهر فى أرض مجتمعات الجنوب، ومن ثم تأتى على البقية الباقية، مما لديها من رصيد محدود، من المحتمل ان يستخدم فى أى تنمية أو تحديث مأمول. حيث تخترق هذه المضامن المجال الأسرى، فتضعف قيمة الأسرة فى نظر الشباب، إضافة إلى أن آليات الاستهلاك وأسواقه قد يسرت الوسائل، التى من الممكن أن يشبع من خلالها إحتياجاته اليومية دون الحاجة إلى الأسرة. فأطعمة الكنتاكى ومكدونالدز متوفرة فى الأسواق، ويمكن الاعتماد عليه كبديل لطعام الأسرة، والأفلام الاباحية والدردشة من خلال الانترنت كافية لتحقيق الإشباع الجنسى والعاطفى. إضافة إلى أن الاعلام فى بعض مجتمعات الجنوب يميل إلى أن يجعل الأسرة عبئ فى نظر شرائح عديدة من الشباب. لذلك قل الاقبال على الزواج، وإرتفعت نسبة العنوسة، الأمر الذى يسر الإطار لكى تصبح العلاقات بين الجنسين اكثر مرونة وإنحلالا.

وبعد أن أضعفت العولمة التى تعبر عن التوجهات الحضارية والمصلحية للقوى العالمية من قيمة الأسرة ككل، فإنها إتجهت إلى تكسير عظامها، وتفكيك بنياتها من خلال تقويضها من الداخل، وإشاعة الفوضى على ساحتها. تأكيداً

لذلك أنه إذا كانت الحضارة الغربية تعانى من فوضى الحياة الأسرة، بسبب غياب النموذج الأخلاقى الموجه للحضارة. فإنها أرادت نقل هذا المرض إلى مجتمعات الجنوب – الحضارية منها وغير الحضارية – حتى يصبح "الكل فى الهم سواء". وحتى تمتلك شرعية هذا الأختراق لأوضاع الأسرة، فإننا نجدها قد رفعت شعارات حقوق المرأة، مؤكدة عليها دون التأكيد على حقوق الأخرين داخل الأسرة. ومن ثم فقد أسست التباين بين المكانات الأسرية، بعد أن كان الاتساق والتجانس بينها هو الذى يشكل القاعدة. بالإضافة إلى ذلك فهى قد شقت عصا الوحدة الأسرية بين الزوج والزوجة، حيث أستوعبت المرأة الثقافة الحديثة المؤكدة على حقوق الإنسان، بينما الرجل ما زال مبقيا على ثقافته التقليدية. الأمر الذى ادى إلى صراع منظومات القيم داخل الأسرة، وترتيبا على ذلك صراع السلوكيات، ونتيجة لذلك إنتشرت الفوضى على ساحة الحياة الأسرية. بالإضافة إلى ذلك فقد نشرت هذه التكنولوجيا كثير من السلوكيات المنحرفة على ساحة الحياة الأسرية، كالخيانات الزوجية، وغشيان المحارم، وحالة من التحرر الأخلاقى، الذى مزق الأسرة من الداخل، وأطاح العلاقات الاجتماعية السوية فى غالب مجتمعات الجنوب.

بالإضافة إلى ذلك فقد لعبت تكنولوجيا الاعلام والمعلومات دوراً فاعلاً فى تشوية كثير من سلوكيات الشريحة الشبابية فى مجتمعات الجنوب، فقد عملت هذه التكنولوجيا بإتجاه توسيع مساحة الغريزة على ساحة الشخصية الشابة. وبسبب المعانى والمضامين الغربية التى أخترقت فضاءنا الثقافى، أصبحت هذه المعانى والقيم هى التى تشكل مرجعية لسلوكيات هذه الشخصية. وهى المرجعية التى دفعت إلى أنفصال الشباب عن سياقاته الاجتماعية والأخلاقية، حيث أصبح الاعلام وتكنولوجيا المعلومات هى مصدر قيمة الأساسية. وهى فى الغالب قيم منحرفة، قادت إلى عديد من الظواهر، كالتحرش وتدفق الجنس غير المنضبط فى الشارع إلى حد الإغتصاب. وقد ساعد على ذلك أن الأخلاق العامة للمجتمع وهنت، وأن القانون أصبح رخواً، بحيث لم يعد يوجد فى مواجهة السلوكيات المنحرفة أو اللاأخلاقية رادع. وقد قاد الشباب حالة من الانفصال عن سياقاتهم

العائلية والاجتماعية، لأن هذه السياقات لم تعد تشبع إحتياجاتهم على المستوى المعنوى أو المادى.

ونتيجة لذلك طفحت على ساحة الكتلة الشباب أمراضا عديدة، من هذه الأمراض التطرف الدينى الذى تنامى حتى بلغ حد إرتكاب العنف، ذلك لأن الشباب وجد نفسه فجأة بين حضارتين متباينتين. حضارة القوى العالمية والغربية التى تبث معانى ومضامين لا أخلاقية فى الغالب، تزيد من مساحة الغريزة فى شخصية، ومن ثم فبإمكانها أن تدفعه إلى ممارسات وسلوكيات غريزية منحرفة. وبين حضارة إسلامية أصبحت بعض مضامينها جامدة، لم يبذل الفقهاء جهودا لتجديدها، بحيث تكون قادرة على التفاعل مع تفاعلات العصر، ومن ثم فهى غير قادرة على توجيه سلوكيات البشر، التى يأتونها فى حياتهم اليومية. وفى قلب هذا الفراغ الأخلاقى والدينى، كان من الطبيعى أن يبحث الشباب عن يقين. فإتجهوا إلى بعض فترات الماضى حيث سقطوا أسرى إعتناق أفكار فقهاء متشددين، بدأوا بالسعى للحفاظ على النص الدينى، وإنتهوا إلى حالة من الحرفية المتصلبة. والتى لا تتيح أى مرونة أو تأويل، أو تسلم بمتطلبات وإحتياجات العصر، وعلى أساسها أنفصلوا عن مجتمعهم وناصبوه العداء وكفروا كل من حولهم.

فريق آخر من الشباب، لم يبحثوا عن يقين دينى ولكنهم تركوا العنان لغرائزهم التى توجه سلوكياتهم، خاصة أن هناك فراغ أخلاقى يساعد على ذلك، وان القانون رخو وغير صارم عاجز عن ردع الغرائز. لذلك تزايدت وقائع التحرش فى الشارع المصرى، بلا حياء من القائم به أو من يشاهده، الأمر الذى تطور فى أحيان كثيرة إلى حد الاغتصاب، عنوة وفى الشارع أحيانا. وبلغ التطرف اللاأخلاقى حد إغتصاب الطفولة، وقتلها بعد إغتصابها، تعبيرا عن طاقة غريزية مركبة ومضاعفة، الأمر الذى إستنفر المجتمع، لأنه رأى أن فى مثل هذه الأفعال إطاحة بإستقراره. وقد توازى مع ذلك بداية إنتشار موجات الإلحاد الدينى بين الشباب، بتأثير الاختراق الثقافى من ناحية، ومن ناحية ثانية بتأثير تفكيك الدين الذى قام به مدعوا الفقه والفتوى، والعلم بالدين، من ناحية

ثانية. لقد سعى الشباب إلى التخلى عن المرجعية الدينية، حتى يبعدوا عن ذواتهم مشاعر الاحساس بالذنب، ومن ثم يصبح الحاد بالنسبة له، هروبا من المعايير الدينية والأخلاقية، التى تنظم سلوكياتهم بما يتوافق مع المعانى الدينية والأخلاقية للمجتمع.

ذلك يعنى أننا إذا رغبنا فى الحفاظ على مجتمعاتنا وتاكيد إستقرارها وتماسكها، فإن علينا أن تعمل بإتجاه تاكيد الاحياء الحضارى والدينى والأخلاقى حفاظ على هويتنا. حيث يعنى التأكيد على الهوية بناء درع أخلاقى وثقافى يحمى المجتمع من الأختراق، ويتضافر مع ذلك ضرورة تبنى السياسات الاجتماعية، التى نستطيع بواسطتها الحفاظ على الأسرة بإعتبارها الوحدة المحورية فى بناء المجتمع. حيث يتطلب الحفاظ على الأسرة أن تكون فيها ثقافتها الواحدة المتجانسة، ومنظوماتها القيمية المتفق عليها، تلك التى قد تستوعب بعض قيم الحداثة، غير أنها تستند بالأساس إلى مرجعيتها الحضارية والدينية والأخلاقية لتنظيم العلاقات داخل البناء الأسرى، وبين أعضائها. أو لتعيين المكانات والأدوار داخل الحياة الأسرية، بما يساعد فى تأكيد تضامنها وتماسكها، فتماسكها يعد المدخل لتماسك وإستقرار المجتمع.

والله الموفق اولاً وأخيراً

على ليلة

الرحاب ٢٠١٥

الفصل الأول

أوضاع الأسرة والمرأة

على ساحة الحضارة الغربية

الفصل الأول
أوضاع الأسرة والمرأة
على ساحة الحضارة الغربية

تمهيد

الحضارة كائن عضوى متطور، تنطبق عليه قوانين الكائن العضوى، من حيث النشأة والنمو والنضج والاكتمال، إستنادا إلى ذلك فقد تواجه الحضارة الموت، إلا إذا إستطاعت أن تطور من داخلها طوراً حضاريا جديداً. وليدا أو نتاجاً حضاريا، يعيد إنتاج دورة الحضارة. وإذا كان بناء الحضارة يتمحور حول طاقتها أو نواتها الصلبة، فإن إستمرار تماسك هذه النواة، أو لنقل الجوهر الحضارى فى جوانبه المعنوية والمادية يؤكد قوة الحضارة كما يؤكد تماسكها. فإذا لم يتحقق التماسك والاستقرار، والحفاظ على جوهر الحضارة، فإن الحضارة تنهار وتتشرذم أو تتشظى طاقتها، وتخلى الساحة لقيام حضارة جديدة. وإرتباطا بذلك فقد تنسحب الحضارة دون أن تترك أية تكوينات حضارية تعقبها. بيد أن الأمر المهم الذى نريد التأكيد عليه، يتمثل فى ان أى حضارة يكون لها عادة نموذجها الموجه، الذى يتشكل من مجموعة المبادئ والقيم والمعانى، التى تشتق منها القواعد، والمعايير التى تنظم التفاعل الواقعى، وفى الغالب يكون لهذا النموذج الموجه طابعة المثالى، والدينى فى أزمنة كبيرة.

ونحن إذا تأملنا الحضارة الغربية، فإننا سوف نجد أنه برغم أن بعض عناصرها ترجع إلى الفكر اليونانى والرومانى القديم، إلا أنها حصلت على طاقة قوية ودافعة من الديانة المسيحية، التى شكلت جوهر معانى وروح هذه الحضارة. بحيث شكلت التعاليم والمبادئ المسيحية النموذج المعنوى الموجه لهذه الحضارة لقرون عديدة، بدأت مع ميلاد السيد المسيح، وحتى القرن الرابع عشر. حيث دفعت مجموعة من الانحرافات الدينية التى حرفت مسيحية السيد المسيح عليه السلام، والتى كان من نتائجها قيام حركة الاصلاح الدينى، والتى شكلت الطلقة الأولى فى فصل بنية الحضارة الغربية عن نموذجها الروحى الموجه.

وإستمرت التداعيات عبر الثورة العلمية وعصر التنوير، وحتى الثورات الصناعية والسياسية، حيث حل العقل الإنسانى المبدع للعلم والمحدد لإتجاه التقدم محل التوجيهات الدينية. وحيث حلت المعانى العلمانية محل المعانى المسيحية، على الأقل فى ضبط تفاعلات المجال العام، وتراجع الدين بمعانية ليلعب دوره فى تنظيم تفاعلات المجال الخاص. وبديلاً لغياب النموذج الموجه، والمحدد لإتجاه الحضارة الغربية، فقد إزدهر الفكر التجريبى، حيث حاول العقل الأوربى إبتكار أخلاق تستند إلى الحقائق العلمية. بيد أن الحقائق العلمية متغيرة، وإدراك العقل المنتج لها نسبى بطبيعته، ومن ثم تآكلت الثوابت، وأصبح التجريب والتغير النسبى هو الذى يحكم منطق الحياة، والتفاعل الحادث على ساحتها فى مختلف المجالات.

وبسبب تراجع معانى النموذج الموجه، برز المنطق النفعى الموقفى والفردى، حيث يأتى الانسان السلوك الذى يحقق نفعه ومصلحته، بغض النظر عن المجموع والجماعة والمجتمع. ومن هذا المنطق بدأت تتشكل الطاقة الشريرة للحضارة الغربية، التى أعتمدت بالأساس على الإشباع الغريزى العارى من المثاليات، ونتيجة لذلك بدأت تقع ممارسات تفرض نظما إجتماعية تبلورت نتيجة لخبرات إنسانية وقعت على ساحة تاريخ الإنسان. من هذه الممارسات تدفق الغريزة الجنسية بإتجاه الإشباع الذى يتحقق بعيداً عن ضبط آية معايير إجتماعية أو إنسانية. ومن ثم تناثرت الممارسات الجنسية فى كل إتجاه، بعيداً عن الضبط المسيحى الطاهر الذى ربط الجنس بالإنجاب. ونتيجة لذلك وقعت الممارسات الجنسية على ساحة هذه الحضارة قبل الزواج بين غرباء لا رابطة بينهم، وإنفضت الأسرة وفقدت قيمتها، حينما وجد كل طرف إشباعه الجنسى إضافة إلى أحتياجاته الأخرى خارجها. وساعد على ذلك بطبيعة الحال تكنولوجيا منع الحمل وتنظيم الانجاب، حيث إبتكرت الحضارة وسائل منع الحمل، وتحقيق الاجهاض بدون أذى أو ضرر، لتقضى على كل القيود التى قد تقف فى مواجهة الجنس الصريح والمتدفق.

ولم يتوقف شر الحضارة عند هذا المستوى، بل تطور فى إتجاه خاطئ آخر، حيث أطاح الجنس بثوابت أقرتها الأديان، وعبرت عن جوهر الفطرة

الإنسـانية. وإذا كان الله قـد خلـق البـشر ذكـوراً وإناثـا، إتسـاقا مـع الطبيعـة البيلوجية للإنسـان. فقـد تجـاوزت الحضـارة الغربيـة الشريـرة هـذا التصنيـف الدينـى والطبيعـى، فهـى لم تقنـع بزواج رجـل وأمـرأة فقـط، يكون السـلوك الجنسى بينهـما مدخلا للمتعـة المؤقتة، وطريقـا للإنجاب ودوام النـوع الإنسـانى. بـل قـصرت الجنـس عـلى المتعـة فقـط دون آيـة إعتبـارات مثاليـة او إنسـانية، وفى نطـاق ذلـك أباحـت هـذه الحضـارة زواج رجـل برجـل، أو أمـراة بأمـرأة. كـما رأت أن هنـاك سـبعة أجنـاس مـن حيـث التركيبة البيلوجية للبشر وليسـت جنسـين فقط، وإعتبرت هـذه الزيجات جميعـا أنماطـا مـن الأسر. وفى نطـاق ذلـك تسـاقطت أو تآكلـت الأسرة بمعناهـا الطبيعـى، وتآكلـت معهـا قيـما ومعـانى كثـيرة، وقد قامت الحركة النسـوية بتنظيرها وفلسـفاتها المتنوعة لتشـكل تبريراً فكريـا منحرفـاً لمثـل هـذه الأوضاع.

وإرتباطا بذلك وقعت ظواهر إنحرافية عديدة، أبرزها ظهور الأسرة التوليفية، التى تفتقد العلاقات العاطفية بين أعضائها، كما برز التخلى السهل للأم عن الطفولة التى أنجبتها، خاصة إذا كانت أنثى، حتى لا تشكل عبئا على حياتها. وفى مواجهة ذلك أسست الدولة التنظيمات التى تستوعب هذا النمط من الطفولة، وعرفت المجتمعات الغربية الطفولة خارج الزواج "غير الشرعي" وإعترفت بكامل حقوقها. ونتيجة لكل هذه الممارسات والأوضاع السابقة، إنتشرت حالة الأنومى حيث غابت القيم والمعايير التى تستند إلى نموذج أخلاقى، وتنظم تفاعلات الحياة الأسرية. وهى الحالة التى أثرت سلبيا وبصورة حتمية على الحياة العامة للمجتمع، وهى السلبيات التى تهدد فى النهاية بزوال الحضارة وإنهيار المجتمع. ثم هى الحالة التى شخصها فرنسوا فوكوياما بعنوان كتابة "نهاية نظام" أى نهاية حضارة ونهاية مجتمع، وهو ما نعرض له فى الصفحات التالية.

أولا: تشكل قوة الحضارة الغربية

تـــدرك الحضـــارة باعتبارهـــا قـــوة تتحـــرك عـــبر التاريـــخ وتســـعي إلي تشـــكيل ثقافاتهـــا ومجتمعاتهـــا ، كـــما تســـعي أيضـــا لامتـــلاك الآليـــات التـــي تلعـــب دورهـــا في

تنامـي هـذه القـوة والحفـاظ عليهـا . ونسـتند في فهمنـا للحضـارة كقـوة إلي مفهـوم القـوة كـما طرحـة عـالم الاجتـماع هربـرت سـبنسر، وهـو المفهوم الذي نقلـه عن علـم الطبيعة ، والـذي يدخل في نطـاق مـا يسـمي بقانـون اسـتمرار القـوة Persistence Of force . حيـث يـدرك سـبنسر القـوة بإعتبارهـا تتشـكل مـن خـلال بعديـن، الأول أن القـوة تعـرف مـن خلال تجسـدها في المـادة ، وعلي هـذه النحـو فهـي تـدرك بإعتبارها موجـودة ، أو تدرك من خـلال وجودها . ومن خـلال البعد الثاني تـدرك القـوة مـن خـلال كونهـا مـادة فاعلـه ، وهو مـا يعني أن القوة تتشـكل مـن المـادة والطاقة . إسـتناداً إلي ذلـك فـإن مكونـات القـوة "المادة" و"الطاقـة" لا تتغـير في كميتها ولكنهـا قابلة للتحول فقـط مـن شـكل إلي آخـر . ويتبـع ذلـك ان القـوة وهي الجوهـر النهائي لـكل الوجود هـي بالمثل لا تتغـير في كمهـا ، بـل تبقـي مسـتمرة . وطالمـا أن القـوة موجـودة ، فـإن العلاقـات التـي بـين القـوي تسـتمر كـما هـي ، وهـي قـد تخضـع لبعـض التحـولات ، إلا أن هذه التحـولات لا يجـب أن تنتقص مـن كمها شـيئا (١).

ويعطينـا هربـرت سـبنسر مثـال يوضح فاعليـة قانون اسـتمرار القوة في الحيـاة الاجتماعية، بقولـه لنسـلم بـأن كميـة الجهـود والأنشـطة التـي يؤديهـا أي مجتمـع تتناسـب وكميـات القـوي الطبيعيـة التـي أمدتـه بهـا بيئتـه . ونوضح ذلـك بحقيقة أن المحصـول الطيب يؤدي إلي نشـاط كبير في كل نطاقـات العمـل ، وأن القـوي الاجتماعيـة الموجـودة في الحركـة والتـي نتجـت أو تحققت من خـلال إنتـاج القمـح هـي أساسـاً مـن خلـق طاقـة الإشـعاع الشـمسي . عـلي هـذا النحو يبـدو العالم أو أيـا مـن قطاعاتـه كالحضـارة بإعتبـاره يتشـكل مـن المـادة والطاقة أو القـوة . والقـوة لا توجد في الطبيعـة سـاكنة ، بـل توجـد عـلى هيئـة تكوينـات تخضـع باسـتمرار للتغـير المسـتمر (٢). وإذا كنا نتحـدث عـن الحضـارة بإعتبارهـا قـوة فـإن ذلك يعنـي أن القانون الـذي تخضع له الحضـارة ، وهو قانـون إسـتمرار القـوة ، مـن الطبيعـي أن نجـد فاعليـة موازيـة لـه في التكوينـات أو العنـاصر التي تضمهـا الحضـارة .وإرتباطـا بذلـك مـن الـضروري توفـر أربعـة شروط أساسـية نراهـا هامـة لكونهـا تضمـن إحتفـاظ الحضـارة بطاقتهـا ، وإعمالهـا في الإتجـاه الملائم .

ويتعلـق الـشرط الأول بـضرورة إمتـلاك الحضـارة للنمـوذج الموجـه ، وهـو النمـوذج الـذي يتضمـن تصـور للحضـارة والمجتمـع كـما ينبغـي أن تكـون ، ومـن شـأن هـذا النمـوذج أنـه يحـدد للحضـارة الاتجـاه الـذي ينبغـي أن تسـير فيه، والطريـق الذي عليها أن تسـلكه . بحيـث يصبح هذا النمـوذج هـو الهـادي الموجـة للمنتمـين لهـذه الحضـارة علي كافة المسـتويات ، سـواء علي مسـتوي السـلوك الحضـاري للحضـارة ذاتهـا ، أو آداء مجتمعاتهـا ، او عـلي مسـتوي آداء البـشر في مختلـف مجـالات الحيـاة الاجتماعيـة . وترجع قيمة هـذا النموذج الموجه في انه يشـكل المرجعية الحية التي يقـاس عـلى أساسـه صـواب الآداء الحضـاري للحضـارة أو المجتمـع أو البـشر . وهـو أشـبة بالنموذج المثـالي Ideal Type الـذي تحـدث عنـه عـالم الاجتـماع ماكـس فيـبر ، ويلعـب النموذج المثـالي دوره ليـس في توجيـه الحضـارة فقـط ، ولكـن في تحديد مـدي التزام الحضـارة بمعانية ، أو مـدي إنحرافها عـن مقتضياتـه. إضافـة إلي أنـه يحـدد عـادة سـبل إسـتعادة الحضـارة لطبيعتها عن طريـق العودة بإتجـاه الالتـزام بمعـاني النمـوذج الموجـه للحضـارة . ويتمثـل الشرط الثـاني في أنه نظـرا لأن القوة لا تتغـير في كميتهـا سـواء في هيئـة وجودهـا كـمادة أو طاقـة ، إلا أنهـا قد تتحـول من حيـث فاعليتها في إتجاهـات أو قنـوات غـير مواتيـة لتطـور المجتمـع . مثـال عـلي ذلـك أنـه بعـد أن تجلـت فاعلية الحضـارة الإسـلامية، في القـرون التـي شـهدت التأكيـد عـلي مثـل الحضـارة الاسـلامية التـي قـادت التوسـع الاسـلامي عـلي خريطـة العـالم. إذا بقـوة هـذه الحضـارة تتجـه إلي الإكتفـاء بالـترف، حيث تجلـت عـلي هـذه السـاحة فاعليـة الحضـارة، وهـي حالة أشـار إليها العـالم العربي عبـد الرحمن بن خلـدون في تحليلـه لأطـوار الدولـة حيـث نجـد أن فاعلية الحضـارة تنفق في السـاحات التي لا تدفع إلي تطـور الحضـارة بقـدر مـا تدفـع إلي تبديد الطاقـة في حاضر الحضـارة دون مسـتقبلها. إذ يوجد فـارق بـين أن تتجـه فاعليـة الحضـارة إلي تطوير العلـم والتكنولوجيا ومختلف جوانـب الحياة، وبين إنفـاق ذات الطاقـة في مجـالات لا تدفـع إلي تطـور المجتمع .

ويتصـــل الـــشرط الثالـــث بإمكانيـــة ان تـــؤدي الطاقـــة فاعليتهـــا في الإتجـــاه الايجـــابي ، ويتحـــدد الاتجـــاه الايجـــابي لفاعليـــة الطاقـــة الحضاريـــة بعـــدة إعتبـــارات،

منهـا أن تعمـل الحضـارة في إتجاه الاتسـاق مـع قوانين الكـون. وهـي القوانين التـي تعكس الفطرة الانسـانية في طبيعتهـا النقيـة والطاهـرة كما تعني إيجابيـة الحضارة أن تكـون متوازنة. حيث تعمل طاقـة قوتهـا في أتجـاه تطويـر المـادة المتصلة بوجود الحضـارة ، وهو ما يعرف بتأكيـد التراكم المادي للحضـارة ، كـما تعمـل هـذه الطاقـة في ذات الوقـت عـلي تطوير الجوانـب الروحيـة. وفي ظل هذا التـوازن تمتلـك الحضـارة القـدرة المتصاعـدة علي التطور المـادي والروحـي ، ويختل تـوازن الحضارة إذا هـي قـد ركـزت عـلي جانـب دون آخـر. بحيـث تصبـح الفجوة بـين الجوانـب الماديـة والروحية سـاحة لنمـو عديـد مـن الظواهـر التـي قـد توقـف أي إنحـراف لتطـور الحضـارة . ويعـد إمتـلاك الحضـارة لإيمـان بعـد محـورى يفـرض عليهـا التمسـك بمثل وقيـم محـددة ، تجعل الحضـارة تعمل للصالـح الانسـاني العـام، سـواء عـلي الصعيـد الداخـلي أو الخارجي ، بحيـث تبرز قيم العـدل والحق والقـوة، بإعتبارهـا موجهات عامـة للحضارة .

وإرتباطـا بذلـك يؤكـد الـشرط الرابـع عـلي الطابع السـلبي لآداء الحضـارة وهـو الآداء الذي تحـدده جملـة المـؤشرات الإيجابيـة لقيـاس آداء الحضـارة ، كأن تعمـل الحضـارة بغـير قيـم الحـق والعـدل. فتسـلب الآخريـن ممتلكاتهـم المادية وتراثهـم الروحي ، فتصبح حضارة باطشـه دون قيم أو مثـل ، أو أن تدفـع طاقتهـا في تطويـر الجوانـب الماديـة عـلي حسـاب الجوانـب الروحيـة. ومـن ثـم فهـى قـد تتطـور إقتصاديـا وربما فكريـا غير أنها لا تتطـور روحيا بنفـس القـدر ، فتصبح حضارة باطشـة لا تراعـي مطلقـا المثـل ولا القيـم أو المبـادئ. وفي هـذه الحالـة فهـي حضـارة تتخلـق في نطاقهـا بـذور فنائهـا الـذاتي ، في هـذه الحالـة فهـي قـد تكـون حضـارة يقودهـا عقلهـا المنحرف إلي تحقيـق التراكـم المـادي، غـير أنهـا تكون عادة حضـارة بلا قلـب ولا روح ، تعمل بإتجـاه القضاء علي جوانـب أساسـية في الفطـرة الانسـانية ، وتهبـط بمسـتوي الآداء المثـالي للحضـارة إلي مسـتوى مـادي بحـت وربمـا إلي مسـتوي غريـزي تفقـد في إطـاره الحضـارة معانيها .

إســتناداً إلي ذلــك ، فإننــا إذا تأملنــا واقــع الحضــارة الغربيــة اليــوم فســوف نــدرك مشــهدا يتضمــن عنــاصر متناقضــة . حيــث يــبرز أمامنــا مــن ناحيــة التطــور

العلمـي والتقـدم التكنولوجـي الـذي تحقـق، إضافـة إلي حالـة الرفاهيـة التـي بلغتها نوعيـة الحياة الغربيـة عمومـا. بحيـث إمتلكـت هـذه الحضـارة مصـادر قـوة متنوعة عـلي الأصعـدة الاقتصادية والسياسـية والاجتماعيـة والثقافيـة، وقبـل كل شـئ العسـكرية . فمـن الناحيـة الاقتصاديـة حققت هـذه الحضـارة تطـور إقتصادى تجسـد في مسـتويات عاليـة من الانتاجيـة، التى إتجهـت علي أثرها نحـو فتـح أسـواق العـالم لتصريـف السـلع المنتجـة، إضافـة إلي تأمـين السـيطرة عـلي مناطـق المادة الخـام لتضمـن إسـتمرار دوران عجلـة الإنتـاج . وبسـبب التطـورات السياسـية التـي وقعـت عـلي صعيـد النظـام العالمـي في أعقـاب سـقوط الاتحـاد السـوفيتي، أصبحـت القـوة الغربيـة الرأسـمالية هـي القـوة المسـيطرة عـلي النظـام العالمـي ، بحيـث بـدات تلعـب دوراً أساسـيا في إعـادة ترتيـب الأوضـاع السياسـية، عـلي الصعيد العالمي بما يشـكل مصدراً لدعم السـلوك السـياسي لهـذه الحضارة .

بالإضاقـة إلي ذلـك فقـد سـعت الحضـارة الغربيـة للترويـج لنوعيـة حياتهـا عـلي الصعيـد العالمـي ، ليـس رغبـة في الارتقـاء بنوعيـة الحيـاة في مجتمعـات الحضـارات الأخـرى في مجتمعـات الجنـوب المتخلفـة ، بـل لتؤسـس بيئـة محيطـة ومواتيـة لنظامهـا الاجتماعي تشـكل الاطـار الدافئ لاسـتمرار بقائهـا وإطـراد تقدمهـا. ثـم هـي إتجهـت مـن الناحيـة الثقافيـة لنـشر ثقافتهـا عـبر العـالم، تخـترق عناصرهـا الثقافـات القوميـة لـكي تعيد تشـكيلها بمـا يتلائـم وتحقيق الأمـان الثقافى للحضـارة الغربيـة. حتـي لـو تطلـب الأمـر إكتسـاح هـذه الثقافـات ، بـل وتشـوية مقدسـاتها الدينيـة حتـي تفصـل كل مـا هـو غـير غـربي عـن جـذوره . ذلـك يتحقـق بإسـتخدام تكنولوجيـا الإعـلام والإعـلان والمعلومـات المتطـورة ، والتي لا تمتلك مجتمعـات الجنوب القدرة عـلي مواجهتها. حتـي تسـتأنس الوضـع الحضـاري العالمـي لصالحهـا ، بحيـث تعمـل بإتجـاه القضـاء عـلي أيـة معارضـة ثقافيـة او حضاريـة محتملـة ، ثـم هـي حضـارة قـد إمتلكـت مصـادر القـوة العسـكرية التـي تجعلهـا تتحـرك بخيـلاء وثقـة عـلي الصعيـد العالمـي. فميزانيـة الدفـاع الأمريكي تعـادل الآن ميزانيـة دفـاع عشريـن أكـبر دولـة في العـالم بعدهـا ، وفي عـام ٢٠٢٠ سـوف تعـادل ميزانيـة الدفاع الأمريكيـة جملـة ميزانيـات الدفـاع في العـالم بأكملـه (٣). هـذه القوة تتحـرك علي الصعيـد العالمي

دون تحـدي حقيقـي لهـا، تفـرض إسـتغلال الآخرين لسـلب خيراتهـم دون رادع، كما تفـرض عليهم فتـح أسـواقهم لاسـتقبال منتجاتهـا ، بـل وإسـتهلاكها أيضـا. ذلك بالإضافـة إلي فرض نوعيـة حياتها ، بـل وإعـادة تشـكيل مجتمعـات كاملـة وفـق مصالحهـا ولـو حتـى باللجـوء إلى فرض ذلـك بالقوة الأمثلـة الحيـة عـلي ذلـك في العراق وأفغانسـتان والسـودان والبقيـة تأتي .

ويكشـف تأمـل السـلوك العالمـي لقـوة هـذه الحضـارة أنهـا قـوة شريـرة يتضـح ذلـك مـن تحركهـا عـلي الصعيـد العالمـي ، فهـي أما مدمرة لاسـتقرار الشـعوب، فى ظل دعاوي شـعارات كاذبة كـما حـدث في العـراق. أو مفككـة لأوصالهـا كـما حـدث في السـودان، أو تسـعي إلي تبديـد تراثهـا كـما حـدث في أفغانسـتان، أو تسـعي لاحداثـة علي الصعيـد العالمي بخاصـة الصعيد الاسـلامي . ثم هـي إلي جانـب ذلـك ترتكـب خطيئتـين ، الأولي أنهـا تسـلب خيرات الأخريـن عنوة وبالقـوة ، إن لم يكـن مبـاشرة ، فمـن خلال أسـاليب مخادعـة حتي تؤمن الحصـول عليها. والثانية أنهـا تلعب دوراً محوريـا لتبديـد القيـم النظيفـة أو الطاهـرة في حيـاة الشـعوب، فهـي الحضـارة التي أبدعـت أفلام الجنـس ، وصنعـت لـه تكنولوجيـا متقدمـة. وهـي الحضـارة التـي إبتكـرت – قبـل ذلـك - ثقافـة الجنـس بأفكارهـا وقيمها وسـلوكياتها، وتسـعي علي الصعيد العالمي لاعادة تنشـئة عـالم بأسره وفق هـذه الثقافـة لتخلعها مـن تراثهـا وجذورها.

ولا يتوقـف الطابـع الشريـر لهـذه القـوة عـلي صعيـد آدائهـا الخارجـي فقـط، ولكنـه يشـكل طبيعـة التفاعـل داخـل هـذه الحضـارة ذاتهـا ، وعـلي سـبيل المثـال نجـد أنـه برغـم التقدم المـادي الـذي حققتـه هـذه الحضـارة فـإن هنـاك إخـلال بمبـادئ العـدل الاجتماعـي. حيـث نجـد أنـه برغـم الغنـي والتراكـم الاقتصـادي الـذى تحقـق في الـدول الصناعيـة الغربيـة وبخاصـة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة والـدول الاسـكندنافية، إلا أننـا نجـد أن مسـاحة الفقـر تتسـع في ذات الوقـت، وأحيـان توجـد شريحـة واسـعة تعـاني مـن الفقـر المدقـع . بالإضافـة إلي ذلـك فإننـا نجـد أن هـذه الحضـارة قـد اكـدت عـلي الجوانـب الماديـة والغريزيـة، فإتسـعت مسـاحتها في حيـاة البـشر والمجتمـع ، وقلصـت في نفـس الوقـت مسـاحة الطاقـة الروحيـة، التـي بإمكانهـا

أن تلهـم البـشر بـكل القيـم والمعـاني النبيلـة. الأمـر الـذي أكـد عـلي تخليهـا عـن القيـم والمثـل كموجهـات للتفاعـل عـلي الصعيـد الداخـلي ، بحيـث أدي هـذا التخـلي إلي تخـلي عـن ذات القيـم والمثـل عـلي صعيـد التفاعـل العالمـي . ذلـك يدفعنـا إلي التأكيد عـلي أن قوة الحضارة بـدأت تكتسي بالطابـع الشريـر ، حيـث هـذه القـوة الشريـرة تعمـل عـلي الصعيـد العالمـي لتعيـد تشـكيل عـالم بكاملـة وإخضاعـة لخدمـة مصالحها. وهي في الداخل تنطلق بتسـارع علي صعيـد التطور والتقدم العلمـي والتكنولوجـي ، ومسـتوي الاشـباعات الماديـة والغريزيـة، فى مقابل تآكل يقع علي مسـتوي المثـل والقيـم والمعـاني الروحيـة . ومـن ثـم فهـي حضـارة تتحكم فيهـا الجوانـب الماديـة والغريزية كطاقـة تحـرك قطارهـا ، ومـن ثـم فهـي إذا إسـتمرت عـلي هـذا النحـو فإنهـا سـتواجه نقطـة نهاية تدمـر فيهـا ذاتها .

ثانيا : متغيرات تشكل القوة الشريرة للحضارة الغربية

أشرنـا في الفقـرة السـابقة لقانون إسـتمرار القوة، والطبيعـة العامة للقـوة الدافعة للحضارة الغربيـة، سـواء مـن حيـث طبيعتهـا حركتها عـلي السـاحة العالمية ، أو مـن حيث التفاعـل الحادث بداخـل أبنيـة هـذه الحضـارة ، بمـا يحـدد مسـارها عـلي الصعيـد العالمـي . وهو مـا يعنـي أن القوة الدافعـة للحضـارة الغربيـة ذات طبيعـة سـلبية وشريـرة بالأسـاس . الأمر الذي يفـرض علينا في هذه الفقـرة محاولـة التعـرف عـلي طبيعـة المتغـيرات التـي شـكلت الطبيعـة الشريـرة للحضـارة الغربية عـلي هـذا النحـو . وذلـك لأن هـذه القـوة الشريرة تكتسـب طبيعتها هـذه، ثم تسـعي إلي التغلغل في مختلـف تكوينـات المجتمـع فتعيـد تشـكيلها بمـا يفـرض عليها طبيعتهـا كذلك ، وهـو الأمر الذي فعلتـه سـواء فيـما يتعلـق بالمـرأة أو الأسرة أو المجتمـع، ونعـرض فيـما يـلي لمتغـيرات تشـكل هـذه القوة .

١- غياب المرجعية وسقوط النموذج الحضاري الموجه : أشرت في الفقرة الأولي إلي أن للحضارة قوة تدفعها في إتجاهات محددة ، بيد أن قوة الحضارة تحتاج إلي النموذج الحضاري الموجه أو المرجعية التـي تضبـط آداؤهـا وتوجهاتها ، بحيث ينظم النمـوذج حركة الحضارة ، ويؤمـن إحتفاظها بطابعها

الانساني ويحفظ عليها قيمها . وترجع أهمية النموذج الموجه للحضارة من خلال كونه المسئول عن توجيه التفاعل الحادث داخل الثقافة والمجتمع، وبذلك تصبح كل العناصر القائمة في الواقع الاجتماعي موجهة بتوجهات النموذج الحضاري. الأمر الذي يتطلب أن يكون النموذج الحضاري محدداً، وأن تكون توجيهاته واضحة ، وأن يكون قويا في معانية ومضامينة ، وأن يكون مستوعبا في بناء شخصية البشر أبناء هذه الحضارة بحيث يكون قادراً علي توجيه سلوكيات البشر في مختلف المجالات الاجتماعية . وإذا كان من الطبيعي أن يشكل النموذج المرجعية التي تستلهمها سلوكيات البشر في حياتهم اليومية، فإن ضعف المرجعية من شانه أن ينشر الفوضي في مجالات الثقافة والمجتمع . ومن المعتقد أن النموذج الموجه للحضارة الغربية قد سقط أو حدثت قطيعة معه بفعل عوامل ومتغيرات عديدة .

ويتمثل العامل الأول في الصراع الديني والثقافي والسياسي الذي وقع في أوربا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، والذي تضمن صراعاً دينيا - دينيا حيث شارك المجددون من داخل المسيحية في نقد ممارسات الكنيسة الكاثوليكية حينئذ. بحيث إنتهي هذا الصراع إلي تراجع الدين عن أن يشكل ضابط إيقاع التفاعل الاجتماعي ، غير أن ذلك أدي إلي تفجر صراع آخر علي جبهتين، الأول الصراع بين التفكير العلمي والفكر الديني. بحيث أدي هذا الصراع إلي إفلات العلم والتفكير العلمي من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، وبذلك تحررت العلوم الطبيعية أولا ثم العلوم الإنسانية بعد ذلك. وفي الجهة الثانية تحررت السياسة والمجتمع السياسي من الشرعية الدينية . وقد كان من نتيجة هذه التحولات أن رفعت شعارات العلمانية ، حيث التأكيد علي العقل الانساني القادر بالإستناد إلي العلم علي تأسيس التقدم ، إضافة إلي التأكيد علي ضرورة إنسحاب الدين من ضبط التفاعل الحادث في الحياة الدنيا . وقد كان ذلك يعني القطيعة مع المرجعية الدينية من ناحية ، والتأكيد علي قدرة العقل البشري علي تنظيم واقعة الدنيوي من ناحية ثانية ، إضافة إلي الاعتماد علي نتائج العلم بإعتباره الموجه للتطور الاجتماعي من ناحية ثالثة. وإذا كان العلم والعقل يشكلان قاعدة العلمانية الأوربية ، فإننا نجد أن نتائج العلم والعقل لم تكن ثابتة

ولا يقينيه ، فالعلم تجريبي بطبيعته ومن ثم فالحقائق التي قد تصبح موضع تأكيد اليوم قد لا تصبح علي هذا النحو غدا (٤). الشاهد علي ذلك التغير الذي يصيب كثيراً من الحقائق العلمية ، الأمر الذي يعني أن يقين العلم في المستقبل سوف نحاول أن نصل إليه من خلال التجريب ومنطق المحاولة والخطأ .

وإرتباطا بذلك فقد حدثت ثورات فكرية علي العقل ذاته توضيحاً لذلك فإنه إذا كان العقل الآداتي Instrumentel Reeson هو العقل الذي أكد عليه فكر النهضة والتنوير . وهو العقل الذي يسعي إلي إبتكار المعرفة العلمية، ثم تحويل هذه المعرفة العلمية إلي تكنولوجيا، تستهدف الارتقاء بالأوضاع الانسانية للبشر في المجتمع . غير أننا نجد أن المجتمع الصناعي والمجتمع التكنولوجي أفلت من السيطرة الانسانية عليه، بل إننا نجد أن أنماط هذه المجتمعات التي نتجت عن إعمال العلم والتكنولوجيا، قد إتجهت إلي السيطرة علي الإنسان وخنق حريته، سواء داخل هذه المجتمعات أو على الصعيد العالمى. بحيث تحول الإنسان إلي جزء من الألة التي يعمل عليها ، الأمر الذي دفع عالم الاجتماع ماكس فيبر، إلي التأكيد علي أننا قد تحولنا في ظل التكنولوجيا الحديثة إلي أمة من عبيد . هذا بالإضافة إلي أن التكنولوجيا قد إختزلت القدرات الإنسانية، ونقلتها إلي الآلة التكنولوجية، وعلي هذا النحو فكلما تقدمت الحضارة التكنولوجية كلما ضعفت سيطرة الإنسان والنزعة الإنسانية عليها . ذلك دفع إلي قيام ثورة فكرية تنادي بضرورة التأكيد علي العقل المتأمل Contompelative Reason ، القادر علي تأمل ما حوله. وإدراك معانية بهدف إعادة توجية التطور الاجتماعي في الاتجاه، الذى يستطيع من خلاله الإنسان توسيع مساحة حريته وإختياراته ، بل واستعادة سيطرته علي التفاعل الحادث في المجتمع (٥). بالإضافة إلي ذلك فإننا إذا تأملنا هذه التحولات التجريبية التي تحدث فيما يتعلق بالعلم والعقل، فسوف نجد أنها أضعفت النموذج الديني الموجه للحضارة، غير إن العقل والعلم اللذان حلا محل الدين لم يستطيعا تطوير نموذج موجه له أركانة الثابتة في قيادة التطور الاجتماعي. الأمر الذي يعني أن القوة الحضارية التي تقود بالحضارة تستند إلي حقائق علمية هي متغيرة بطبيعتها ، غير ثابتة تعتمد

دائما منطق المحاولة والخطأ .

ويشكل إنسحاب المجتمع التقليدي العامل الثاني في القطيعة مع النموذج الدينى الموجه للحضارة، وإذا كان الدين يشكل قاعدة الثقافة والتنظيمات الاجتماعية في المجتمع. فإن إنسحاب الدين دفع إلي إضعاف المجتمع التقليدي الذي كان هدفا واضحاً لهجوم كافة مفكري التنوير ، فهو المجتمع الذي تزدهر فيه الشقاقات الاجتماعية والثقافية والدينية والعرقية . هذا المجتمع هو الذي يبدع من خلال التطور ثقافته ومعاييره التي ينشأ أعضاء المجتمع وفقا لها، ومن ثم فهي التي تضبط إيقاع التفاعل الاجتماعي الحادث في المجتمع . في هذا الاطار فإننا نجد أن علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا حتي فترة طويلة من القرن العشرين يعتقدون أن المعايير الاجتماعية من تأسيس المجتمع. وعلي النحو فإن القواعد الثقافية حسبما يذهب كليفورد جريتس Clifford Greetz تنسب جوهريا إلي المجتمع لأنه الذي أنتجها (٦) من خلال التفاعل الاجتماعي عبر المراحل التاريخية المتعاقبة التي مر بها ، وهو الأمر الذى يبتعد بالأخلاق الثقافية والقواعد الاجتماعية عن أن تكون إبداعاً فرديا . إرتباطا بذلك فإننا نجد أن بعض مفكري عصر التنوير كانوا علي حق، حينما أكدوا أنه من الصعب أن يعمل المجتمع بفاعلية بدون التحريمات السماوية التي يفرضها الدين، والروابط غير العقلانية بين البشر، إضافة إلي الولاءات والواجبات، التي تفرضها الثقافة والتراث المتدفق عبر التاريخ. تأكيدا لذلك يذهب ألكس توكفيل إلي ضرورة التسليم بأهمية المعايير الأخلاقية في تفعيل آداء الديموقراطية الليبرالية الحديثة . وإرتباطا بذلك كتب توكفيل بتوسع حول أنواع العادات والمعتادات الأخلاقية الضرورية لدعم نظام الحكومة (٧). وبديل لهذا المجتمع التقليدى طرحت شريحه من مفكري التنوير صيغة المجتمع الحديث، الذي تنسحب منه التكوينات والروابط التقليدية ذات الطبيعة الجماعية. هذا المجتمع يستند إلي صيغة العقد الاجتماعي بين البشر العقلاء ، الذين يتعاقدون مع بعضهم للحفاظ علي حقوقهم الطبيعية كبشر، ويبدأون السعي لتحديد الأخلاقيات التي ينبغي أن يتبناها البشر في المجتمع. وفى هذا الإطار نجدهم قد سعوا إلي تأسيس نظم

كالحكومات الدستورية، والتبادل المستند إلي قوانين السوق، بإعتبارها الأطر المنظمة للسلوك الانساني ، لتحل محل المجتمع المحلي المستند إلي التقاليد والدين والموروثات الثقافية . بالإضافة إلي أنتاج القيم والمعايير الاجتماعية التى لا تكون من أنتاج المجتمع، قدر ما تكون من انتاج الأفراد ، فهم الذين يؤسسون قواعد ومعايير التفاعل (٨). وهو ما يعني رفض أن تكون الثقافة والمعايير من صناعة المجتمع بل يؤسسها الأفراد ، ويغيرونها حسب إحتياجات تفاعلهم في مختلف مجالات المجتمع .

ويتمثل العامل الثالث في نمو الفلسفات التي تعصف بكل ما هو مستقر في الحياة الاجتماعية ، ويبدأ هذا العامل بظهور الماركسية التي حاولت تحليل المجتمع بإعتبار أن واقعة المادي، هو الذي يشكل أساس الطاقة المحركة للمجتمع، مع دفع الثقافة والأخلاق إلي خانة المتغيرات التابعة ، والتي تتغير بتغير التكوينات الاقتصادية. ، وبذلك شكلت الماركسية الطلقة الأولي في هز مكانة الأخلاق العامة وتقليص قوتها كطاقة دافعة لتحريك المجتمع . ثم ظهرت الفلسفة الوجودية التي أكدت علي أن منظومات الأخلاق ذات طبيعة فردية بحتة ، وأن الإنسان هو الذي يؤسس أخلاقة الفردية ويلتزم بها دون أن تتطرق لوجود أخلاق عامة ينبغي أن تلتزم بها . ومن الطبيعي أن تكون الأخلاق الفردية ذات طبيعة متغيرة وفردية ونفعية ولا قداسة لها . وهو ما يعني أن الفلسفة الوجودية قلصت من قيمة الأخلاق العامة ، ثم جاءت فلسفة العبث واللامعقول ، لتؤكد عبثية الحياة وما يحدث في المجتمع ، وهو ما يعني أن فلسفة العبث واللامعقول خلعت المعقولية عن الأخلاق والمجتمع ، وفضلت أن تترك التفاعل الاجتماعي يتدفق بصورة عشوائية .

فإذا تأملنا التفاعلات التاريخية السابقة فسوف نجد أنها أسست قطيعة مع الدين ، فلم تعد القيم الدينية تشكل مرجعية للسلوك البشري ، ومن ثم فقد سقطت المرجعية الدينية وإلي الأبد. بالإضافة إلي ذلك أنسحب المجتمع التقليدي بكل التكوينات الاجتماعية التى تشكل بنيته والتراث الثقافي الذي كان يتشكل من القيم والعادات والتقاليد والأعراف، التي كانت تلعب دورها إلي جانب

الديـن ، الـذي يشـكل قاعدتهـا ، في تنظيـم التفاعـل الاجتماعـي وتوجيـه سـلوكيات البـشر . وحـل محـل ذلـك المجتمـع العلـماني بطبيعتـة ، والـذي يعتمـد عـلي العلـم في تنظيـم أوضـاع المجتمـع ، ولمـا كانـت حقائـق العلـم متغـيرة وتجريبيـة بطبيعتهـا. غـير مرتبط بالمـاضي وإنما هي مشـدود إلي المسـتقبل ، ومـن ثـم فلـم يكـن هنـاك يقـين يحـدد مسـارها. ذلـك بالإضافـة إلي إنسـحاب المجتمع التقليـدي بمرجعياتـه الجماعيـة والتراثيـة ، ليحـل محلـه المجتمع الحديـث الذي يؤكد عـلي الفردية والقيـم المرتبطـة بهـا، والمؤكـدة علي المصالـح الفردية دون مصالـح الجماعة ، وهـي التوجهات التي أكدتهـا الفلسـفات الفرديـة كالوجوديـة والفوضويـة كالعبـث أو اللامقعـول . ونتيجـة لذلـك وجدنا المجتمـع العلـماني الغـربي يسـتمر في الوجـود، وتتأسـس تفاعلاتـه دونما نمـوذج موجه يحتكـم إلية ، لقـد سـقطت القيـم والمعايـير الأخلاقيـة التـي كانـت تحـدد الصـواب والخطـأ، ولم تحـل محلها قيم أو معايـير جديـدة .

٢- القطيعـة بـين مـا هـو اجتماعـي وثقـافي ومـا هـو بيلوجـي : شـكلت العلاقة بـين ما هو اجتماعـي ثقـافي ومـا هـو بيلوجـي محور من المحـاور التي دار حولهـا بحث وحـوار، وفى هذا الإطار لا تغيـب عنا المدرسـة البيلوجية التي رأت أن السـلوك الاجتماعي يرتبـط بالتكوين البيلوجي للبشر. ثـم ظهـر عالم الاحرام الشـهير سـيزاري لومـبروزو، ليؤكد أن التكويـن البيلوجي والتشريحي للأنسـان يشـكل قاعـدة سـلوكه الاجتماعـي ومـن ثـم الأجرامـي . غـير أن العلاقة بـين الاجتماعـي والبيلوجي إكتسـبت قوتهـا مـن الأسـهامات التـي قدمها كل مـن عالم الاجتماع هربرت سـبنسر وعـالم البيلوجيا إيراسـموس دارون. حيـث دار حـوار غير محسـوم حول نسـبة قانـون التطور لأي منهـما ، هل وصل هربـرت سـبنسر إلي قانـون التطـور في المجال الاجتماعـي ثم نقله دارون إلي المجـال البيلوجي. أم أن دارون وصـل إلي القانـون في نطـاق البيلوجيا ثم نقله هربرت سـبنسر إلي النطاق الاجتماعى. غير انه بغض النظر عن حسم الخلاف في أي أتجاه ولصالح أي منهما فالمؤكد وجود علاقة بين ما هو بيلوجي ومـا هـو اجتماعـي . وذلك بإعتبار أنهـا عناصر مكونة لكون واحد يخضع لقانـون واحد كذلك، وإن تعدلـت مضامـين هـذا القانون بحسـب السـياق الكـوني أو الوجودي الـذي يطبق فيـه . وترتيبا علي

ذلك فليس من المنطقي وجود تناقض بين القوانين المنظمة للتكوينات البيلوجية وتلك المنظمة لحالة الاجتماع. الأمر الذي يلغي إدعاء إمكانية انفصال ما هو بيلوجي عن ما هو اجتماعي، فمكونات الكون ومجالاته مترابطه ، والطاقة تنتقل من مجال إلي آخر . تأكيداً لذلك يري هربرت سبنسر أن هناك تحولات للطاقة داخل مجالات الكون ، حيث يري أن الكون يتشكل من عدة مستويات، أولها المستوي الطبيعي الخارجي الذي يشمل المناخ والسطح وتضاريسه والحياة النباتية والحيوانية التي تنمو في إطاره. بينما يضم المستوي الثاني البشر بخصائصهم الفيزيقية، ودرجة القوة والنشاط والتحمل المرتبطة بطبيعتهم ، ثم المستوي الاجتماعي والثقافي الناتج عن تفاعلهم . وهو ما يعني أن الخصائص البيلوجية والنفسية هي التي تشكل أوضاع المجتمع (٩).

إستناداً إلي ذلك دار حوار حول علاقة البيلوجي بالاجتماعي، بحيث أكد البعض علي وجود علاقة حتمية بين ما هو بيلوجي وما هو اجتماعي ، أي بين التكوين البيلوجي للذكر أو الأنثي وبين المعايير والأدوار الإجتماعية التي تعين للرجل أو المرأة في المجتمع. بل أن البعض قد رأي أن القاعدة البيلوجية للبشر هي أساس سلوكياتهم الاجتماعية .

فيما يتعلق بهذه القضية نستطيع أن نرصد وجهات نظر عديدة . أول وجهات النظر هذه ذات طبيعة كلاسيكية ترجع إلي القرن الثامن عشر ، حيث تؤكد علي أنه ليس هناك إختلاف تشريحي بين الرجل والمرأة ، بل يكمن الاختلاف في الترتيب المختلف لأجزاء الجسم . فقد أكد فالوبس منذ القرن السادس عشر علي أن كل الأجزاء الموجودة في جسم الرجل حاضرة عند المرأة وإن بشكل مختلف . وفي هذا التصور لا تشكل الحقائق اليلوجية والتشريحية أساساً أو قاعدة للإختلافات الثقافية والاجتماعية بين الجنسين . وتذهب وجهة النظر هذه إلي أنه إذا كان النظام الاجتماعي يعد تجليا لتصور الخالق للنوع الإنساني ، فإن ذلك ينفي الحاجة إلي الاستعانة بالحقائق البيلوجية كي يوضح لنا لماذا لم تصبح المرأة داعية أو وارثة للثروة (١٠). في أعتاب هذا النموذج المؤكد علي نموذج الجنس الواحد One Sex model ظهرت نماذج عديد تتابعت حتي بداية

القـرن العشريـن، أكـدت في غالبهـا عـلي الجنـس الثنائي . أول من عـبر عن وجهة نظر هـذه النماذج هـو الطبيـب البريطـاني والترهيـب Walter Heaoe بتأكيـده أن "النظـام التناسـلي مختلـف بنائيـا ووظيفيـا بـين الذكـر والأنثـي . ونظـراً لأن الأعضـاء الأخـري في الجسـم تتأثـر بهـذا النظـام ، فإنـه مـن المؤكـد ان يسـتتبع ذلـك وجـود إختـلاف جـذري بـين الذكـر والأنثـي ، ومـن ثـم بـين الأدوار المنوطـه بـكل منهـما ، برغـم تكاملهما مع بعضهـما البعض (١١). وإسـتطراداً لذلك أكدت دراسـات الجيـل السـابق مـن العلـماء في مجالات علـم النفس التطـوري وعلـم البيلوجيا الاجتماعيـة Socio-biology ، وعلـم الجينـات التطـوري عـلي الطبيعـة الإنسـانية بإعتبارهـا تشـكل نقطـة البدايـة لأي علـم اجتماعـي (١٢). إرتباطـا بذلـك فإننا نجد أن القـدرات الجينية التي يتزود بهـا الكائن العضوي لهـا أهميتهـا في تحقيـق قدرتـه عـلي التكيف في مرحلـة مبكرة من تطـوره . ويؤكد هـؤلاء الباحثون أيضـا أن التأثـير الجينـي لا يطـول الخصائـص الفيزيقيـة فقـط ، ولكنـه يطـول الخصائـص العقليـة بنفـس القـدر . حيـث تـؤدي هذه التأثـيرات الجينية إلي إنتاج إطرادات سـلوكية ليس عـبر الثقافات الإنسـانية فقـط ولكـن عـبر الكائنـات العضويـة كذلك . في هـذا النطاق طـور علم النفـس التطوري سلسـلة مـن الفـروض القابلـة للإختبـار فيـما يتعلـق بالتأثـير الجينـي علي السـلوك الأنسـاني ، وهي الفـروض التـي لقيـت تأكيـداً تجريبيـا واضحـاً . وبرغـم أن كثـيراً مـن هـذه الدراسـات لم يسـتطيع الربـط بـين هـذه الاطـرادات السـلوكية وأجـزاء معينـة مـن التكويـن الجينـي البـشري Gienome ، فإنـه مـن المتوقـع أن يتحقـق ذلك خـلال عدة عقـود قادمـة (١٣).

وإرتباطـا بذلـك فقـد كشـف علـماء النفـس التطوريـين أن الاطـرادات السـلوكية لهـا علاقة بالتكويـن الجينـي للبـشر . مثـال عـلي ذلـك أننـا إذا تناولنـا السـلوك الايثـاري، فسـوف نجـد أن ريتشـارد واوكنـز قـد جعلنـا عـلي وعـي بعكـس مـا يذهـب إليـه كارل ماركـس Karl Marx الـذي أكـد أن الأنسـان ليـس لديـه إسـتعداد جينـي للتضحية بمصالحـه الفردية مـن أجل بقـاء التجمعات التـي تتشـكل مـن الآخريـن كالأمـة والقبيلـة (١٤). بالإضافـة إلي ذلـك يوجـد دليـل جوهـري عـلي أن الايثاريـة تسـود بـين الكائنـات الفرديـة التـي تشـترك في نفـس الجينـات بصـورة واضحـة، مـن

خلال التشابك أو التشارك الجيني . وإستناداً إلي هذه الحقائق فإننا نتوقع أن يتصرف الآباء بإيثارية تجاه الأبناء والأحفاد دون انتظار لمقابل، بينما نجدهم يمارسون درجة أقل من الايثارية مع أبناء العمومة والخئولة، الذين يشاركونهم قدراً أقل من التكوين الجيني ، وهؤلاء بدورهم يتصرفون نحوهم بإيثارية أكثر من الأقارب فى الدائرة القرابية الأوسع أو من الغرباء .

وقد أكد عالمي الأنثروبولوجيا مارتن دالي Martin Daly ومارجوت ولسون على هذا المدخل بقوة في تحليلهما للقتل Homocide . حيث برهنا من خلال ما يمكن أن يسمي بوجهة نظر دارونية محدثه علي أن وقوع القتل يتناسب عكسيا مع درجة الإقتراب الجيني بين القاتل والضحية . حيث أكدا بناء علي دراسة واسعة للسجلات الشرطية، نتيجة تتناقض مع ما يشاع أن معظم القتل يقع داخل السياق العائلي . إذا تضح لهما إنخفاض معدلات القتل بين الأقارب البيلوجيين ، في مقابل ذلك، فإننا إذا سلمنا بتساوي مختلف الظروف، فإننا نجد ان القتل ينتشر بين البشر الذين ليست بينهم قرابة جينية، مقارنة بالبشر ذوي القرابة الجينية كالقتل بين الأباء والأبناء والأخوة . بل إننا نجد ان المشاركة في الشفرة الجينية تؤثر علي طبيعة التفاعل الاجتماعي بين المشاركين فيها . وعلي هذا النحو لايتفاعل البشر نتيجة للتعلم الفردي في كل فترة من الزمن ، ولا نتيجة لقواعد الوارثة المستندة إلي آليات ثقافية خالصة ، ولكن من خلال تأثير التقارب أو المشاركة الجينية (١٥) .

وإتساقا مع ذلك فقد لاحظ علماء النفس التطوريون أن الذكور والأناث يتبعون إستراتيجيات تناسلية مختلفة تقودهم إلى تأسيس اختلاف بين الذكور والأناث . إذ تميل الأناث إلي التأكيد علي إرتقاء نوعية رفاقهم في الزواج مقارنة بالآخرين ، بينما يميل الذكور إلي نقل الحد الأدني من جيناتهم إلي الجيل التالي، بحد أدني من الاستثمار الأبوي من خلال الميل لمعاشرة أكبر قدر من الأناث . بحيث نجد أن هذه الاستراتيجية مسئولة عن ظواهر عديدة، منها ان الذكور لا يميلون إلي الاقتصار علي إمرأة واحدة مقارنة بالأناث ، كما تختلف غيره الذكور علي الأناث . إذ يخشي الذكور وجود علاقة لاناثهم بشخص آخر ، لأن

هـذه العلاقـة قـد تتضمـن الأبـوة، في مقابـل أن الإنـاث يكـن أكـثر إهتمامـا بالتضمـن العاطفي أو المشـاعري مـع رفاقهـم في الـزواج (١٦) . ومـن المظاهـر التـي تؤكـد عـلي القاعـدة الجينية للسـلوك الاجتماعـي ، تلـك الظاهـرة المتعلقـة بسـوء معاملـة الأطفال . وفي هـذا الصدد تنبـه كل من "مارتن ديـلي" و "مارجـو ولسـون" إلي التقاريـر التـي تؤكـد المعـدلات المتصاعـدة لسـوء معاملـة الأطفال ، وإشـتبهوا في ان يكـون للآبـاء البديلـين دور في هـذا الصدد . حيـث وجدوا نتيجة للدراسـة المتعمقة لهـذه التقاريـر ان الأبـاء البديلـين يميلـون عـادة لأن يكونـون أقـل إهتمامـاً بالأطفـال مقارنـة بالآباء الطبيعيـين (١٧). إذ تؤكـد البيانـات التـي حصلـوا عليها عن هـذه المجتمعـات ، وفي كل المناطق أن الأطفـال يعانـون مـن سـوء المعاملـة مـن قبـل أزواج الأم أو الآبـاء البديلـين، بقـدر يصـل إلى عـشرة مـرات وحتـي إلي مـا يزيـد عـلي مئـة مـرة مقارنـة بالآبـاء الطبيعيـين، وأرجعـوا ذلـك إلي التباعـد الجينـي (١٨) إضافـة إلي ظـروف إجتماعيـة أخري .

وإسـتطراد لهـذا الطـرح المؤكـد عـلي تأثـير المتغـيرات البيلوجيـة عـلي السـلوك الاجتماعـي ، وجدنـا أن العلـوم البيلوجيـة في القـرن التاسـع عـشر تتطـرف بهـذه العلاقـة بـين البيلوجـي والاجتماعـي إلي موقـف مضـاد للمـرأة. حيـث وجدنـا ان العلـوم البيلوجيـة والانسـانية حتـي نهايـة القـرن التاسـع عـشر تؤكـد عـلي تفـوق الذكـور عـلي الأنـاث ، سـواء مـن حيـث الخصائـص البيلوجيـة أو النفسـية الاجتماعيـة . وهـو التفـوق الـذي كان مـبرراً لتمييـز الذكـور عـلي الإنـاث، سـواء في نمـط العمـل أو في مسـتوي الأجـر الـذي يحصـل عليـه كل منهـما ، ويتطـرف بروكـس W.K . Brooks بهـذا الموقـف ليؤكـد عـلي الدونيـة الفعليـة للمـرأة. ويؤسـس إسـتناداً إلي ذلـك بعـض التأمـلات التـي تشـير إلي أنـه ليـس هنـاك شيكسـبير Shakekespeare إمـرأة، ولا رافائيـل Raphael ولا هانـدل Handel إمـرأة . إضافـة إلي تأكيـدة عـلي تنـوع الذكـر وميلـه إلي التغيـير في مقابـل ميـل الأنثـي إلي الثبـات (١٩). وتأكيـداً لذلـك يذهـب كل مـن باتريـك جيـدر Patrick Gedds وأرثـر طومسـون Arthur Thomoson إلي التأكيـد عـلي وجـود إختـلاف بـين الذكـور والانـاث . فالذكـور يميلـون إلي إنفـاق الطاقـة بينـما يميل الانـاث إلي الاحتفاظ بها، الذكور يعيشـون

علي الخسارة أو الفقد علي حين تعيش المرأة علي الكسب . وإرتباطا بذلك يري كل من باتريك جدز وأرثر تومسون أنه من الحقيقي بالنسبة للأنسان كما بالنسبة للحيوانات العليا أن الذكور أكثر نشاطا active وفاعلية energetic وتحمسا eager وعاطفية Oaxionate وتقلبا Variable علي خلاف الاناث الأكثر سلبية Passive ومحافظة Conuervative وبطأً Sluggish وإستقراراً (٢٠). وقد أستمرت وجهة النظر هذه مسيطرة في العقود السبعة الأولي من القرن العشرين ، وأن كانت مخففه من حيث التأكيد علي دونية المرأة . حيث حاولت وجهة النظر هذه التأكيد علي أن ثمة تباين بيلوجي بين الرجل والمرأة . وأن ثمة حتمية بيلوجية تتميز بخاصيتين، الأولي التأكيد علي الأيديولوجيا الجنسية Sexual والتي تعني التأكيد علي الصورة المنتشرة للجنس Sex . والثانية أن بإمكان العلم بصورة عامة، وعلم البيلوجيا بصفة خاصة، أن ينظم المسائل المتعلقة بدور المرأة في المجتمع . حيث يؤدي الربط بين الخاصيتين إلي تشكل موقف تاريخي وتصوري، يجعل من الضروري التمييز بين الطبيعة والمعايير الاجتماعية، وأن الأولي، أى الطبيعى والبيلوجي هو الذى تحدد هوية الأخيرة (٢١). حيث تؤكد مختلف مواقف وجهة النظر السابقة علي أن البنية البيلوجية للانسان هي التي تشكل قاعدة لأدواره الاجتماعية .

وأستمرار لما سبق تظهر وجهة نظر ثالثة تتضمن قدر من المعقولية والاعتدال ، وهي وجهة النظر التي تناولت قضية العلاقة بين الجنس Sex بالمعني البيلوجي والنوع Gender بالمعني الاجتماعي . تؤكد وجهة النظر هذه علي ان الحقيقة الاجتماعية، كأدوار المراة أو الرجل، ليست أسيرة متغير واحد بعينة ، ولكنها نتيجة لمتغيرات عديدة، بيلوجية وبيئية واجتماعية وثقافية علي السواء . الحقيقة الاجتماعية ذات طابع كلي بالأساس ومن الخطأ أن نحاول أدراك طبيعتها والتأكيد علي تشكلها بمتغيرات جزئية ، بيلوجية كانت أم ثقافية، أو الإشارة إلى حقيقة أن المتغيرات البيلوجية هي المتغيرات القاعدية ، بإعتبار أن الانسان يولد بها. غير أن الكائن البشري بعد ولادته يصبح صفحة بيضاء يرسم المجتمع عليها خريطتة . ولذلك فإننا نذهب مع عالم الاجتماع إميل

دوركيـم الـذي اكـد عـلي أنـه وأن كان للمتغـيرات البيلوجيـة تأثير، غير أنهـا لا تلعب الدور الحاسـم في تحديـد جملـة الأدوار الاجتماعيـة التـي يقـوم بهـا الشـخص في الحيـاة الاجتماعيـة، بصـورة صارمـة ومحـددة . قصـاري مـا تفعلـة أنهـا تؤسـس لـدي البـشر مـا يمكـن أن يسـمي الاسـتعداد العـام للقيـام بـأدوار اجتماعيـة معينـة دون أخـري(٢٢)، غـير ان هـذا الاسـتعداد يمكـن أن تعيـد المتغـيرات الاجتماعيـة تشـكيله ليلعـب الشـخص أدوار اجتماعيـة يفرضهـا عليـه المجتمـع . وهـو مـا يعنـي أننـا فيـما يتعلـق بالعلاقـة بـين المتغـيرات البيلوجيـة والاجتماعيـة نكـون امـام حالتـين، الأولي ان تتطابـق المتغـيرات أو الاسـتعدادات البيلوجيـة مـع الأدوار الاجتماعية، فيقوم الشـخص في هـذه الحالـة بـأدواره الاجتماعيـة بمسـتوي مثـالى. والثانيـة أن لا تتطابـق الاسـتعدادات البيلوجيـة مـع الأدوار الاجتماعيـة التـي يقـوم بهـا الشـخص ، وفي هـذه الحالـة فـإن الشـخص يقـوم بهـذه الأدوار وأن كان ذلـك بمسـتوي متوسـط وليـس أمثـل . ويؤكـد عـالم الاجتـماع فلفريـدو باريتـو عـلي وجهـة النظـر هـذه مـن خـلال نظريتـه عـن الرواسـب "Residuals" . في هـذا الاطـار يؤكـد باريتـو عـلي أن في أعـماق الشـخصية الانسـانية تكوينات ذات طبيعة بيلوجية وسـيكلوجية سـماها "بالرواسـب" وأن المشـتقات Derviations هـي تجليـات اجتماعيـة لهـذه الرواسـب يدخـل في نطاقهـا الأدوار والسـلوكيات. وفي هـذا الاطـار فـإن الرواسـب وإن كانـت ثابتـة وواحـدة، إلا أن المشـتقات "السـلوكيات والأدوار الاجتماعيـة" متغـيرة ومتنوعـة كذلـك . ويذهـب باريتـو إلي أن الراسـب الواحـد يمكـن أن يشـكل قاعـدة لجملـة مـن الأدوار الاجتماعيـة فراسـب "الجنـس" يمكن أن يدفـع رجـل الديـن والمتصـوف إلي إدانتـة والتعـالى عليـه ، وفي نفـس الوقـت هـو ذات الراسـب الـذي يدفـع البعـض إلي إحـتراف البغـاء (٢٣). ومن ثم نجـد أن فلفريدو باريتو يـري أن العلاقة بين الرواسـب أي المتغـيرات البيلوجيـة والمتغـيرات الاجتماعيـة المحـددة لـلأدوار الاجتماعيـة قويـة وإن كانـت ليسـت حتميـة صارمـة. بـل تمتلك درجة مـن المرونة التي مـن خلالها تقـدم الطاقة والدعم البيلوجـي لعديـد مـن المتغـيرات الاجتماعيـة المتنوعـة ، بـل والمتناقضـة فيهـا بتنـوع العمـل بـين الجنسـين بصـورة واضحـة ، بحيـث تؤدي الأنـاث أدواراً "تعبيريـة" يوفرن من خلالهـا العناية والأمن

للأطفـال ، ويقدمـن الدعـم العاطفـي . بينـما يكـون عـلي الرجال مـن ناحية أخـري أن يـؤدوا أدواراً مسـاعدة ، أي يـزودا العائلـة بمصـادر الـرزق والمعيشـة . ونظـراً للضغـوط المفروضـة عـلي دور الرجـل العامـل، فـإن النزعـة التعبيريـة والعاطفية لـدي المرأة سـتكون بمثابة عنصرا إسـتقرار وراحة وإطمئنـان للرجـل . وسـيكون مـن شـأن هـذا التقسـيم التكامـلي للعمـل القائـم علي أسـس التمايز البيلوجـي ، غـير الصـارم ، بـين الجنسـين أن يؤمـن التضامـن داخـل للعائلـة (٢٤).

وقـد إتجـه التنظـير النسـوي الـذي بـدأ يسـيطر منـذ بدايـة العقـود الثلاثـة الأخـيرة للقـرن العشريـن وحتـي الآن، ليقـدم وجهـة نظـر رابعـة، تتجـه إلي رفـض هـذا التمييـز بإعتبـاره يشـكل مقدمـة للتأكيـد عـلي الحتميـة البيلوجيـة. التـي يـري البعـض وفقا لها أن ثمـة إختلافـات بيلوجية تتصـل بالتكويـن الجسـمي للإنسـان – كالهرمونـات والكروموزمـات . وحجـم الدمـاغ والمؤثـرات الجينيـة – بإعتبارهـا المسـئولة عـن فـروق فطريـة في سـلوك الرجـال والنسـاء وهـي الفـروق التـي نلاحظهـا في مختلـف الثقافـات(٢٥). وتتطـرف وجهـة النظر هـذه بموقفها إلي نهاية الطـرف المقابل للموقـف الأول . حيـث تميـز بـين الجنـس Sex للدلالـة عـلي الفـروق التشريحيـة والفسـيولوجية ، وبـين النـوع الاجتماعـي الذي يعني المعايـير والتصورات والتوقعـات الاجتماعية . ومـن ثم المكانات والأدوار الاجتماعيـة التـي تتصـل بـكل جنـس من الجنسـين، لذلك نجـد أنه إذا إعتبرنـا الجنس Sex نتـاج بيلوجـي، فـإن النـوع الاجتماعـي Gender يعـد نتـاج ثقـافي بالأسـاس (٢٦). وهـو مـا يعنـي رفـض أن تكـون الحتميـة البيلوجيـة أساسـاً للتميـز بـين الجنسـين في المعايـير والأدوار الاجتماعيـة. حيـث ينفصـل مـا هـو بيلوجـي عـن المعايـير والأدوار الاجتماعيـة التي يتم شـغلها بغـض النظر عن الطبيعـة البيلوجيـة لشـاغل هـذه الأدوار .

وتسـتمر وجهـة النظـر هذه لتؤكد أن العلاقـة بين ما هو بيلوجي واجتماعي يسـير في حركة عكسية ، مع تحرك ما هو أجتماعي بإتجاه ما هو بيلوجي . حيث يري البعض أن النزعة البطريركية عنـد الرجـل هـي التـي فرضـت بالقـوة تصنيـف الأدوار الاجتماعيـة ، التـي فـرض البعـض منها علي المـرأة . وقـد أدي دوام قيامهـا بهـذه الأدوار لفـترات تاريخية طويلة إلي تحولها مـن أدوار أو صفات

مكتسبة- وفق التصور الماركسي – إلي خصائص وأدوار ذات طبيعة فطرية. وإرتباطا بنظرة القوة الذكورية التي تفرض علي المرأة أدواراً معينة تحاول كاترين ماكينون Catherine Mackinnon تعريف المرأة بأسلوب بنائي من خلال تأسيس علاقة بين مفهوم المرأة والمفهوم الماركسي عن الطبقة . غير أن إدراكنا وأن وافق علي مفهوم الصراع الطبقي بالمعني الماركسي من قبل أي منهما تجاه الآخر. واستمرار لهذا النهج قارنت سيمون دي بوفوار قهر المرأة بقهر اليهود والسود في الولايات المتحدة، أو قهر البيروليتاريا في المنظور الماركسي . وعلي خلاف ماكينون وصلت بوفوار إلي نتيجة أنه في حين أننا نجد أن خصائص كل أشكال القهر مشتركة بما فى ذلك، القهر المفروض علي المرأة ، إلا أن التنظير بشأن قهر المرأة لا ينبغي أن يتحقق بنفس المنطق . فبرغم أنه يمكن إفتراض أن تسعي البروليتاريا إلي ذبح الطبقة البرجوازية، غير أن المرأة لا تحلم ولا تفكر في القضاء علي الذكور، فالرابطة التي تربط المرأة بمن يفرض عليها القهر ليس لها نظير . ذلك يعني أن تقسيم الجنسين يعتبر حقيقة بيلوجية وليست واقعة عارضة في التاريخ الانساني ، وصراع الجنسين ينبثق من داخل العلاقة بين المرأة والرجل، والمرأة لا تستطيع أن تكسرة (٢٧). وتتطور وجهة النظر هذه لتنقلنا إلي تطرف جديد ، حيث تري بعض الإتجاهات النسوية في العقد الأول من الألفية الثالثة أن هناك وجود للحتمية البيلوجية ، غير ان هذه الحتمية تؤكد تفوق الأناث علي الذكور بصورة جذرية من الناحية الروحية والعقلية ، وأيضا من الناحية الأخلاقية (٢٨).

ذلك يعني أننا إذا تأملنا الفكر الغربي فيما يتعلق بالعلاقة بين المتغيرات البيلوجية وتقسيم العمل الاجتماعي بين الأناث والذكور، فسوف نجد مواقف وتوجهات متناقضة . تتراوح بين التأكيد علي تطابق تقسيم العمل بين الرجل والمراة مع التباينات البيلوجية بينهما، حيث يتميز الرجل علي المرأة، وهو ما يمنح المتغيرات البيلوجية كل الفاعلية. وبين المواقف والتوجهات المضادة، التي وإن أكدت علي الحتمية البيلوجية بإعتبارها المتغيرات الفاعلة ، التي ميزت المرأة علي الرجل . وبين الموقفين المستقطبين موقف يؤكد أن المتغيرات البيلوجية

تمنح الأنسان الاستعداد العام للقيام بأدوار معينة في المجتمع ، وهو ما تدعمه المتغيرات الاجتماعية أو ترفضه، في مقابل موقف متطرف آخر يؤكد علي إنفصال المتغيرات البيلوجية تماما عن تقسيم العمل وتوزيع الأدوار الاجتماعية، الأمر الذي يجعل توزيع الأدوار بين الأناث والذكور مسألة إجتماعية بحتة . ويشير ذلك في مجملة إلي غياب النموذج الحضاري الموجه فيما يتعلق بالعلاقة بين المتغيرات البيلوجية والاجتماعية ، أو فيما يتعلق بتوزيع الأدوار الاجتماعية ، الأمر الذي يؤدي إلي تضمن الواقع لكل وجهات النظر والمواقف هذه، حيث تعتبر جميعها تجليا لغياب النموذج الحضاري الموجه .

٣- التناقض مع متضنات قانون التحول : أشرنا إلي القانون الذي أكد علية هربرت سبنسر والذي ذهب إلي تحول الطاقة عبر مستويات الكون بخاصة الأرض من كونها حالة سديمية إلي تكوين صلب تتشكل الحياة علي سطحها . غير أنه بالإضافة إلي قانون إنتقال الطاقة ، طرح هربرت سبنسر قانون آخر يتعلق بتطور الحياة علي سطح الأرض، سماه قانون التحول من المتجانس إلي المتباين . حيث يؤكد هربرت سبنسر أن هذا القانون ذو طبيعة كونية شاملة يستند إلي أن المادة في حركة دائمة ، وهي في حركتها تخضع لخاصيتين، الأولي خاصية التباين التي يتحقق بواسطتها الانتقال من حالة تجانس المادة إلي حالة لا تجانسها . والثانية خاصية التكامل التي تسير جنبا إلي جنب مع خاصية التباين (٢٩)، غير أن التكامل تعد الخاصية الأكثر اهمية ، إذ علي أساسها تميل المادة لأن تصبح متكاملة بصورة دائمة بعد أن تباينت . بمعني أن تكون مضغوطة مع بعضها بصورة أكثر تماسكا ، ومن الطبيعي أن تتضمن هذه العملية نوع من التباين . إذ تتجمع الأجزاء المتجانسة مع بعضها لتشكل مكونا أو عنصر يتباين مع العناصر أو الأعضاء الأخري للكون أو الكائن العضوي ، فالقانون يصدق علي كليهما . ويوضح سبنسر فاعلية هذا القانون في النطاقات الطبيعية والجيولوجية والحيوانية والانسانية والاجتماعية والثقافية علي السواء(٣٠). وتجسيداً لذلك فإننا إذا تأملنا التطور الكوني والإنساني فسوف ندرك فاعلية واضحة لهذا القانون، وذلك يعني أن حالة تجانس المادة

إذا وجـدت في أي مرحلـة تاريخيـة، تعـد مـؤشراً عـلي التخلـف مـا دام التبايـن، هـو مـؤشر التطـور والتقـدم الـذى لم يتحقـق بعـد .

ويصـدق هـذا القانـون عـلي الأوضـاع الاجتماعيـة كما يصـور السـياقات الثقافيـة والفكرية . وإذا كان التبايـن قـد بـدأ بعمليـة الخلـق ذاتهـا، حينـما خلـق اللـه حـواء مـن ضلـع لأدم التـي أختلفـت معـه بعـد ذلك من حيث بنيتهـا التشريحية والنفسـية ، فإن هذه الواقعـة الغيبية تحتوي عـلي دلالـة رمزيـة لصـدق هـذا القانـون. وفي محاولـة توضيـح فاعليـة هـذا القانـون عـلي الصعيـد الاجتماعـي فسـوف نجـد ان حالـة المشـاعية الأولي المتجانسـة فقـدت تجانسـها لـكي تحـل محلهـا حالـة متباينـة يخضـع لهـا العـالم الاجتماعـي. فقد تمايـزت القرية عـن المدينة ، ثم تمايـزت المدينة إلي مـدن تجاريـة وصناعيـة وسـياحة ، إلي آخـر فاعليـة عمليـة التبايـن عـلي هـذا المسـتوي . وإذا تناولنـا الأدوار التـي يقـوم بهـا البـشر داخـل المجتمعات ، فسـوف نجدهـا هي الآخري قـد تحركت مـن حالـة الأدوار المتجانسـة، كـما في الحالـة المشـاعية الأولي حيـث كانـت أدوار الأنـاث كالذكـور ، وأحيانـا معكوسـة. ثـم بـدأ تبايـن الأدوار عـلي أسـاس الجنـس Sex البيلوجي ، ثم تحركـت عملية التبايـن لتؤسـس تباينـا جديـداً عـلي أسـاس السـن ، فالكبـار لهـم أدوارهـم كـما للشـباب والصبيـة الصغـار. ثـم تحركـت ذات العملية لتؤسـس تباينا في حزمة الأدوار الاجتماعية إسـتناداً إلي متغيرات اجتماعيـة أخـري كالتخصـص تـارة، والمسـتوي الاجتماعـي الاقتصادي تـارة أخري، والمرجعيـة الأثنية تـارة ثالثة .

فـإذا تأملنـا الأوضـاع التـي بلغتهـا الحضـارة الغربيـة المعـاصرة فإننـا سـوف نجدهـا فيـما يتعلـق بالمـرأة تسـير في الاتجـاه المعاكـس لهـذا القانـون . وإذا كانـت الثقافـات عـبر العـالم وثقافـة المجتمـع التقليـدي تضمنـت تباينـا لأدوار الرجـل والمـرأة ، وكذلـك للثقافـة المرتبطـة بـأدوار كل منهـما ، بحيـث بـرزت مـؤشرات عديـدة عـلي ذلـك . حيـث قـد بـدأت حركـة التناقـض مـع هـذا القانـون مـع سـقوط المرجعيـة الدينيـة وإعـلان الأيديولوجيـا كنسـق فكـري وأيديولوجـي موجـه للتفاعـل عـلي صعيـد الحضـارة الغربيـة. فى هـذا السـياق طرحـت إعلانـات المسـاواة بـين الرجـل والمـرأة، وهـي وإن كانـت ملائمـة للواقـع الأوربي الـذي كانـت المـرأة تعـاني في إطـاره مـن

الغبن ، إلا أن طرح المساواة بصورة مطلقة شكل مرضا ينخر في بنية هذه الحضارة . فإلي جانب تأكيد هذه الحضارة علي المساواة في الأدوار المهنية بين الرجل والمرأة، الأمر الذي دفع المرأة إلي المشاركة بقوة في قوة العمل وسوق العمل. الأمر الذى ادي إلي إنعكاس ذلك علي هيئة إنهيار وتفكك إنتشر على ساحة الحياة الأسرية ، وهو الإنتشار كان له آثارة السلبية العديدة علي إستقرار المجتمع. وقد بدأ التجانس ينتقل من التجانس في الأدوار المهنية، إلي التجانس في المظهر والملبس، فقد أخذ الرجال يتحركون نحو إرتداء الملابس والزي الخاص بالنساء كلبس ألوان خاصة بالنساء وأحيانا التحلي بأقراط الأذن وإطالة شعورهم وتضفيرها كالنساء. في مقابل أن النساء بدأن يتحركن بإتجاه إرتداء أزياء الرجال وربما قص شعورهم كالرجال ، حيث يتحرك كل جنس بإتجاه التجانس مع الجنس الآخر. بالإضافة إلي ذلك فقد اصابت مقولة التجانس الجسد ذاته ، ولنأخذ جسد المرأة علي سبيل المثال ، حيث تقلص التباين بين العام والخاص فيما يتعلق بالجسد . في إطار ذلك عبر الجسد حدود الخصوصية إلي ساحة العمومية فما يراه الزوج من جسد المرأة قد يري بعضه الغرباء الأخرون وقد تتزين المرأة لزوجها ، غير انها تتزين بدرجة أكثر بالنسبة للآخرين . في الحضارة الغربية تتسع مساحة عري الجسد، حتي يراه الكافة الخاص والعام علي السواء ، بل نجد أن الثقافة الغربية خلعت القداسة والاحترام عن الجسد ، تلك التي كانت تتخذ من المحافظة علي خصوصيتة وقاية له ، هذه الحضارة تتفنن الآن في عرضه ، حيث تعرضه النساء لقاء أجر في الشوارع، كما تعرضه علي الأشرطة الممغنطة . ويصل الأمر إلي أقصي حالاته سوءاً حينما يطول التجانس أكثر السلوكيات او الأدوار خصوصية حيث ظهور الزواج بالشبيه . أي زواج رجل برجل والمعاشرة من خلال ما يعرف بالجنسية"المثلية"، أو زواج أمرأة بإمرأة من خلال ما يعرف بالممارسة "السحاقية" حيث نجد ان نسبة زواج الشبيه بالشبيه بلغت ما يتجاوز ثلث زيجات الحضارة الغربية، وهو زواج لا يتناقض مع قانون التحول من التجانس إلي التباين فقط ، ولكنه يتناقض مع قوانين الوجود الانساني ومن بينها قانون الفطرة الأنسانية ذاته.

٤- مسئولية المتغيرات الاقتصادية عن إنهيار الأسرة : المتأمل لتطور

علاقة الإقتصاد بالأسرة يكتشف إتساع مساحة الاقتصاد في الحياة الاجتماعية علي حساب البنيات العائلية، حيث تحقق هذا الاتساع في فترات تاريخية متتابعة، بداية كان العمل العائلي والاقتصاد العائلي هو المعتمد في الاقتصاد التقليدي القديم. وقد تآكل هذا الشكل الاقتصادي لصالح ما يمكن أن يسمي بالاقتصاد العام ، أي الخارج عن البنيات العائلية ، سواء كان رسميا أو غير رسمي . وقد انتقل الاقتصاد العائلي إلي ما يمكن أن يسمي بالاقتصاد الحرفي، حيث يوجد تداخل بين الاقتصاد والعائلة ، من ناحية أن غالبية أفراد الأسرة هم الذين يعملون في الورشة الحرفية . إضافة إلي التجاور أو التطابق المكاني بين مكان سكني العائلة ومكان ورشة إنتاج السلع ، ذلك إلي جانب ان الحرفة كانت في الغالب تنتقل بالوراثة داخل أجيال العائلة . ثم ظهر الاقتصاد الصناعي، الذي أكد علي ضرورة الانفصال عن العائلة، سواء من ناحية القيم التي يعمل وفقا لها، فقيم ومعايير وقواعد المؤسسات الانتاجية تختلف حتما عن نظائرها في التكوينات العائلية ، يضاف إلي ذلك التباعد المكاني بين سكني الأسرة وموقع المؤسسة الانتاجية. بحيث يعني إنتقال العامل من نطاق الحياة الأسرية إلي نطاق العمل في المؤسسة، حيث العمل وفق منطق ومعايير حياة جديدة ومختلفة. إلي جانب ذلك فإننا نجد أن الحياة الاقتصادية عملت علي تجزيئ الحياة العائلية ، فأفراد الأسرة قد يعملون في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية المختلفة ومن ثم لا تجمعهم ثقافة مهنية واحدة، سوي الثقافة الأسرية التي أصبحت الآن في ظل نوعية الحياة هذه ضعيفة وغير مؤثرة . وهو ما يدفع إلي مزيد من إضعاف الحياة الأسرية.

بالإضافة إلي ذلك تذهب دراسات عديدة إلي أن المتغيرات الاقتصادية، قد لعبت دوراً بارزاً في توسيع مساحة الدور الاقتصادي للمرأة ، وهو التطور الذي أدي في النهاية إلي تفكك وإنهيار الأسرة . ويمكن رصد تأثير المتغيرات الاقتصادية علي المرأة والأسرة من خلال عدة أبعاد هامة، حيث يتمثل البعد الأول في إنتقال بعض أفراد الأسرة بخاصة الرجل للعمل في المصنع أو المؤسسات الاقتصادية، وهم الرجال الذين كانوا يعملون وفق متطلبات الحياة

الأسريـة . وعـلي هـذا النحـو فـإذا كان الاقتصـاد العائـلي أو الحـرفي قـد دعـم الحيـاة الأسريـة ، فإن الاقتصـادي الصناعـي والانتـاج الاقتصادي قـد أدي إلي إنهيار التكوينـات العائليـة والقرابية كالعائلة الممتـدة ، والإبقـاء عـلي العائلـة النوويـة، التـي قيـل أنهـا تلائـم النظـام الصناعـي الحديـث (٣١)، وبدورهـا بـدأت تتعـرض هـي الأخـري لمصـادر تفـرض عليهـا التفـكك والانهيار .

بالإضافـة إلي ذلـك وقعـت تغـيرات كبـيرة فيـما يتعلـق بالمعايـير الإجتماعيـة المتعلقـة بـالأسرة ، وهـو التغـير الـذي وقـع ضمن تغـير معياري شـامل سـببته التكنولوجيا الحديثـة والحوافز الاقتصاديـة لجـذب المـرأة إلي سـوق العمـل (٣٢). ومـن أهـم مـؤشرات ذلـك التغير الـذي حدث في أجـر المـرأة نسـبة إلي أجـر الرجـل في معظـم المجتمعـات بعـد الصناعيـة . وقـد قابـل ذلـك تحـرك المـرأة ذاتهـا للإلتحـاق بقـوة العمـل المدفوعة الأجـر ، إضافـة إلي أن ذلك قد شـهد إرتفاعاً في دخول النسـاء (٣٣). ونتيجـة لذلـك تؤكـد عديـد من الدراسـات التي رصدت مشـاركة المـرأة في قوة العمل ، أن مشـاركة المـرأة في ١٩٦٠ لم تقفـز فقـط مـن ٣٥٪ إلي ٥٥٪ في الفـترة مـن ١٩٦٥ إلي ١٩٩٥ ، ولكن تراجعـت مشـاركة الرجـل في المقابـل مـن ٧٩٪ إلي ٧١٪ عـن نفـس الفترة.

وإرتباطـا بذلـك فقـد حـدث تغـير في مسـتويات أجـر الرجـل والمـرأة ، حيـث توضـح بعض الدراسـات التـي أجريـت في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة أن ثمـة تغـيرات قـد حدثـت في الأجـور في الفـترة مـن ١٩٤٧ ، أي بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة وحتـي ١٩٩٥ . حيـث مـن المثـير ان نلاحـظ أن متوسـط أجـور الذكـور بعـد أن إنخفضـت نسـبيا في فـترة مـا بعد الحـرب، قـد إتجهـت إلي الارتفاع مـرة ثانيـة في السـتينيات مـن الألفيـة الثانية . واسـتمرارا لذلك فقد ارتفع متوسـط أجـور الرجال في السـبيعينيات عـن مـا هـو عليـه الآن . وفيما يتعلـق بدخول النسـاء فإننا نجد أنهـا إنخفضت خلال فـترة الأربيعينيـات مـن الألفية الثانية، بسـبب ترك الأناث العمل في الأعـمال الحربية ، بينما إتجهت الأجور إلي الارتفاع بعد ذلك، وإسـتمرت هذه الزيادة حتي اليوم (٣٤). وبرغم أنه كان من المتوقع أن يكون لمشـاركة المرأة في قوة العمل الإقتصادية وحصولها علي الدخل المنتظم تأثير علي إسـتمرار

وتماسك بناء الأسرة . إلا أن الدراسات أكدت أنه في الفترة التي انخفضت فيها أجور المرأة وارتفعت أجور الرجال انخفضت فيها معدلات الطلاق وانهيار الأسرة ، بينما شهدت الفترة التي ارتفعت فيها أجور المرأة معدلات عالية من الانفصال والطلاق . وتفكك الأسرة (٣٥).

إلي جانب ذلك فقد بدأ إقتصاد العولمة ينزع المرأة من سياقها الأسري إلي سوق العمل ، حيث تدفع القوي العالمية المسيطرة التفاعل في هذا الاتجاه، مزودة بفاعلية الإعلام والشركات المتعددة الجنسيات . في هذا للاطار تتحدد علاقة المرأة بالعولمة من خلال بعدين ، الأول يتمثل في تعاون الدولة القومية والشركات متعددة الجنسية في دفع المرأة – من خلال إغراءات عديدة – للمشاركة في القوة العاملة . والثاني أن النساء أصبحن يشكلن أحد عوامل الجذب في تشكيل الاستراتيجيات الإقتصادية للشركات متعددة الجنسية . وذلك بسبب توفرهن كقوة عمل وإنخفاض أجورهن بما يساعد فى تحديد إختيارات هذه الشركات، فيما يتعلق بالموقع والأجور. ولذلك نجد أن الشركات متعددة الجنسية قد إتجهت للأستعانة بالنساء ، بخاصة في صناعات التصدير كصناعة الألكترونيات والملابس والنسيج والأحذية والألعاب البلاستيكية والمنتجات الاستهلاكية (٣٦). بإعتبار أن أجور النساء منخفضة مما يساعد علي دعم القوة التنافسية لهذه السلع التصديرية في السوق العالمي .

وقد شكل هذا المسلك الاستراتيجية الاقتصادية للنمور الآسيوية، حيث أكدت غالبية الدراسات علي أهمية وجود النساء كقوة عمل في دول هذه المنطقة (٣٧). حيث وفرت قوة العمل النسائية في كل من كوريا الجنوبية وتايوان ، وهونج كونج ، وسيغافورة إشباع الحاجة إلي الطلب علي العمالة الرخيصة الأجر، من أجل النمو الاقتصادي السريع والملحوظ الذي مارسته هذه الدول (٣٨). كما إعتمدت كل من الفلبين وماليزيا على طرح الاعلانات التي تجذب بها المستثمرين الأجانب لتأسيس المشروعات بالإعتماد علي العمالة النسائية وحتي علي الأطفال (٣٩). إضافة إلي أن الشركات متعددة الجنسية تخطط لإنشاء مناطق لصناعات التصدير في كل من إيران وفيتنام ومنغوليا .

وتركز الدراسات الحديثة المتعلقة بالشركات المتعددة الجنسية في امريكا الجنوبية علي أهمية توظيف النساء في مستحضرات التجميل، علي طول الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك. حيث تنتشر المناطق الحرة التي تركز علي توظيف النساء بنسبة كبيرة، كما إنتشرت الورش الصغيرة والمحلات في الشوارع الخلفية، وجميعها يعتمد علي العمالة النسائية بدرجة واضحة (٤٠). وفي أفريقيا حدثت نفس الظاهرة تقريبا، حيث بدأت جنوب أفريقيا في التوسع في إستخدام النساء كعاملات في المصانع، بعد أن كان عملهم مقصور علي العمل في المنزل . وفي مورشيوس أنشئت اول منطقة حرة مخصصة للتصدير في القارة الأفريقية . وقد ركزت هذه المنطقة علي صناعة الأقمشة والملابس، كما أنها قامت بتوظيف النساء كعاملات فيها (٤١). بالإضافة إلي ذلك فإن قرب شمال أفريقيا من أوربا جعل بلدانها مواقع جذابه لإنتاج الشركات المتعددة الجنسية ، وكانت العمالة النسائية هي العمالة المفضلة للعمل في مصانع الألبسة المقامة في مراكش بالمغرب ، بإعتبارها عمالة حسنة السلوك (٤٢). ويرجع ميل الشركات المتعددة الجنسية إلي توظيف النساء إلي إنخفاض أجورهن ، حيث يتم توظيف النساء في أحيان كثيرة بأجور دون حد الكفات. إضافة إلي عدم إدراجهن في تنظيمات نقابية ، وإعتبار اشتراكهم في قوة العمل مسألة عارضة للتهرب من الالتزامات القانونية ، في ظل قناعة ثقافية تؤكد أن الأدوار الأصيلة للمرأة هي الأدوار المنزلية كما تؤكد علي ذلك غالبية الثقافات .

إلي جانب ذلك لم تكتف الظروف العالمية المعاصرة المخططة بواسطة القوي المسيطرة علي العالم بقصر عمل المرأة داخل نطاق المجتمع القومي ، بل إنطلقت موجات الهجرة النسائية إلي كثير من المجتمعات، باحثة عن فرص العمل والدخل أو الأجر في إطارها . وخلافا للخبرة التاريخية للمجتمعات الصناعية توجد كثير من الدول النامية مثل بنجلاديش والفلبين وسيريلانكا التي تعتمد علي الأجور، التي تحولها عاملات المنازل المهاجرات من بلادهن (٤٣). وإرتباطا بذلك فقد إزدهرت تجارة الجنس العالمية التي تعتمد بالأساس علي بغاء النساء والأطفال في آسيا وأفريقيا (٤٤)، حيث يأتي هؤلاء النساء والأطفال عادة من

عائلات فقيرة في المناطق الريفية . وتلاحظ إحدي الدراسات أن عدد من يمتهن الجنس في بانكوك يساوي ١٠٪ من عدد العاملات في الشركات المتعددة الجنسية . وفي هذا الاطار ترتبط تجارة الجنس بإستثمارات الأعمال الدولية والشركات المتعددة الجنسية والقواعد العسكرية الأمريكية . وتري بعض المؤسسات المالية العالمية وبعض الدول تطوير هذه الصناعة كحل لأزمات الديون(٤٥). ومما يثير السخرية أن حكومات هذه الدول تلعب دوراً رئيسيا في تطوير هذا الشكل من عمالة النساء غير الرسمية ، بينما تقوم في الوقت نفسة بتمجيد فضيلة النساء العاملات في المصانع (٤٦).

إرتباطا بما سبق، فقد أشرنا في بداية هذه الفقرة إلي حاجة كل حضارة إلي قوة دافعة تدفعها عبر مراحل التطور المتتابعة زمانيا وأيضا في إتساعها أفقيا . وفي العادة تنطلق الحضارة في نطاق جغرافي معين يحتوي أحيانا علي مجتمع واحد هو الحامل لرسالة الحضارة أو عدة مجتمعات تعبر ثقافاتها ونوعيات حياتها الاجتماعية عن مضامين هذه الحضارة . والحضارة التي يكتب لها البقاء والسؤدد عادة هي الحضارة التي تسعي لاقتراب الانسان من كماله ، وهو الكمال الذي يكمن في التوازن بين الجوانب المادية الغريزية والجوانب الروحية في بنيته. ثم هي الحضارة التي تحترم الاحتياجات الانسانية جميعا ، تحترم العقل مثلما تحترم الروح كما تحترم إشباع الغرائز ويشكل إنساني . وهي الحضارة التي تؤكد علي معاني الخير والعدل والحق والمساواة لكل البشر سواء الذين ينتمون إليها أو الخارجين عن حدودها . ونحن إذا تأملنا الحضارة الغربية المعاصرة فسوف نجد أنها قد خانت جملة التصورات الايجابية التي أشرنا إليها والتي ينبغي أن تتحلي بها الحضارة ، بل إننا إذا تعمقنا الأمر فسوف نجد ان قوة شريرة تدفع بهذه الحضارة بإتجاه فنائها .

فقد سقطت عن هذه الحضارة مرجعيتها أو نموذجها الموجه ، وهي المرجعية التي تشكلت من المعاني التي قدمتها الديانة المسيحية متداخلة مع ثقافة وقيم ومعايير المجتمع التقليدي . فقد ذهب كل ذلك أدراج الرياح وأعلنت العلمانية المتطرفة التي تعتمد في تنظيم حياة الانسان بعيداً عن آية قوي غير إنسانية ،

ولما كان العلم والعقل تجريبي بطبيعته بحكم تتابع تغير متغيرات الواقع، الذى يشكل إطار عملهما معاً. فقد أدى سقوط النموذج الموجه إلي أن الحضارة الغربية مدفوعة بقوتها بدأت تبحث ، عشوائيا عن نموذجها الذي تحتكم في تفاعلاتها إلي معاييره، وفي هذا الاطار طرحت نماذج موجهة عديدة وفي غالب الأحيان متناقضة. وفي كل الأحيان كان الزمن يتجاوزها دائماً، وتضافراً مع ذلك بدأت مساحة عدم اليقين تتسع ومعها تتسع مساحة العشوائية، التي تحكم وجود وتفاعل الحضارة .

وإذا كان سقوط المرجعية الدينية المسيحية التي تضمنت معاني الخير والحب لكل البشر، أحد ملامح الشر المميز للقوة الدافعة للحضارة ، فإن الطابع الشرير أو السلبي الثاني للقوة الدافعة لهذه الحضارة يتجسد في محاولة تفكيكها لعناصر الكون، من خلال تأكيدها في النهاية علي إنفصال الاجتماعي عن البيلوجي الذي يشكل قاعدة له. بحيث ينطلق الاجتماعي سوا كان معايير أو أدوار، غير متضافر مع إرتباطاته البيلوجية لكي يضرب عشوائيا في كل إتجاه. بحيث لا تمتلك الحضارة مثلا رؤية جامعة، حول طبيعة العلاقة بين البيلوجي والاجتماعي، أو حول طبيعة الأسرة ، هل هي الأسرة المشروعة "زوج وزوجة"، أم أن الاسرة المستندة إلي زواج المتشابه هي النمط المفضل كالأسرة "المثلية" أو "السحاقية" . ما هو النمط المشروع اجتماعيا ما دام الدين قد أنسحب عن ضبط الحياة الاجتماعية . وقد اسلم ذلك إلى ملمح شرير آخر لهذه الحضارة وهو التناقض مع القانون الكوني الشامل الذي يؤكد علي التحول من المتجانس إلي المتباين. حيث تدفع القوة الشريرة الحضارة الغربية إلي آفاق تتناقض فيها مع قانون التحول الشام ليحل التجانس الذي يؤذن بفناء العمران، التجانس في الثقافة التجانس في الملبس بين الذكور والأناث، التجانس في السلوكيات والأدوار الجنسية ، حتي سقوط الانسان إلي ما دون مرتبة الحيوان . بل والسعي لنشر هذا التجانس السلبي علي عالم بأسرة بكل وسائل الترهيب والترغيب، إبتداء من المساعدات لشراء المواقع ، ومروراً بالحصار لفرض الركوع ، وأخيرا بالسلاح وشن الحرب لفرض الخضوع . ثم تأتي الخاصية السلبية

والأخيرة والتي تتمثل في دفع المرأة إلي سوق العمل وانتزاعها من أدوارها الأسرية، فإنهارت الأسر وانتشر التفكك والانحراف في المجتمع . لقد كانت المرأة هي أكثر نطاقات هذه الحضارة تأثرا بهذه القوة الشريرة ، فقد فككت أدوارها ، وأدي ذلك إلي تفكيك الأسرة وانهيار المجتمع .

ثالثا: تفكيك الحضارة الغربية لمكانة وأدوار المرأة

أشرنا فيما سبق إلي أن ثمة ظروف تضمنها التحول الأوربي في العصر الحديث، لعبت دورها في نشر حالة من الأنومي أو الأزمة المعيارية بمكانة المرأة في المجتمع. ولما كانت هذه الظروف في غالبها ذات طبيعة سلبية، فقد كان من المنطقي أن يشكل إسهامها وتفاعلها مع بعضها البعض، في إنتقال القوة أو الطاقة السلبية من السياق الاجتماعي ، لتؤثر فى بناء أدوار المرأة، فتنشر فيه حالة من الفوضي . فبعد ان كانت أدوار المرأة مقننة في المجتمع التقليدي، وبصورة تلقائية تطورت عبر العصور ، فإذا برواد الحركة النسوية وبعض مفكري الحضارة الغربية، يسعون إلي رفض التقنين التقليدي لأدوار المرأة، ليحلوا محلة تقنين إداري عقلاني جديد، يلغي كل التراث السابق دون أن يحل محله بنية معيارية تنظم سلوكيات البشر . ومن فقد تخلق فراغ أخلاقي، شكل فضاءً تضمن عديد من السلوكيات السلبية، وهو الأمر الذي أدى في بعض منه إلي تفكيك أدوار المرأة بمنطق عشوائي بحت، هدد بتفكيك بنية الحضارة ذاتها . وحتي يتحقق ذلك فقد كان الطبيعي أن تنتقل فاعلية هذه القوة أو الطاقة السلبية التي انتقلت من السياق ، عبر المرأة إلي الأسرة والمجتمع، لتنتج آثار سلبية علي كل مستوي جديد تطرقه، وكلما انتقلت هذه القوة من مستوي إلي آخر ، فإنها تزداد قوة وعمقا في فاعليتها . غير أننا قبل أن نعرض لهذه الآثار، فإننا نشير إلي أننا ندرك بناء أدوار المراة بإعتباره بناء يتشكل حول المرأة، التي تشغل مركز هذا البناء ومحوره. ومن هذا المركز تنطلق أدوار الجنس والإنجاب والتنشئة الأجتماعية، والآداء الاقتصادي، والحفاظ علي الثقافة والأخلاق العامة. حيث ندرك هذه الجوانب بإعتبارها أدوار تؤديها المرأة في ظل تقنين الحقوق

والواجبات وصيغة التوقعات المتبادلة، التي يفرضها ويتضمنها بناء المجتمع ، بإعتبار ان هذه الأدوار تؤدي في إطار التفاعل مع الآخرين. علي هذا النحو فإن هذه الأدوار تشكل بناء تشغل المرأة مركزه، له أنساقه وتماسكة سواء علي قطب السلب او الإيجاب. وقد كان طبيعيا أن تعمل الطاقة السلبية التي تدفقت من سياق الحضارة الغربية بإتجاه تفكيك هذا البناء لتنشر العشوائية والفوضي، التي تنتج بدورها آثار سلبية علي ساحتة ، وسوف نتعرض فيما يلي لبعض جوانب هذا التفكيك الذي أصاب بنية أدوار المرأة .

١- فوضي الدور الجنسي وعشوائيته: بسبب غياب النموذج الموجه والطابع التجريبي لمنطق وفكر هذه الحضارة ، فقد كان منطقيا أن تقفز هذه الروح الشيطانية أو تنتقل إلي ساحة الجنس لتصيبة بالتشوه . بداية نؤكد أن كل الحضارات قننت السلوك الجنسي وأحاطتة بالضوابط الكاملة ، وإذا كانت المسيحية التي شكلت في مرحلة تاريخية سابقة المرجعية التي قاطعتها الحضارة الغربية . فإننا نجد أن المسيحية قننت السلوك الجنسي الذي ربطته بالإنجاب بالأساس ، فالغريزة لديها إرتبطت بالضرورة . حقيقة أن هناك خروجات علي هذا السلوك والأدوار الجنسية كما قننتها الحضارة في صورتها المثالية ، إلا أن هذا الخروج يظل دائما في نطاق الأستثناء الحرام الذي تجرمه الحضارة .

علي خلاف الضبط الكامل الذي مارسته المسيحية للسلوك الجنسي، فإننا نجد أن الحضارة الغربية قد فضت قيود هذا الضبط وتركت السلوك الجنسي للمرأة يتدفق في فضاءات عديدة بلا قواعد ضابطة . وهو ما يعني تفكيك بنية الدور الجنسي للمراة . بداية يعد مفهوم الجنس بمعني Sex وهو الذي يميز الجنسين ويفصل بينهما ، وإلي حد ما يشكل أساس لعديد من المعايير الاجتماعية التي تحدد الأدوار الاجتماعية لكل جنس حسب مستوي جديد نسمية بالجنوسية أو النوع الاجتماعي Gender . إرتباطا بذلك فإننا نجد أن تصور الجنس عند المرأة والرجل في إطار المجتمع التقليدي، يستند إلي إستراتيجية الفصل بين الجنسين، وهو الفصل الذي يؤكد علي إمتلاك كل من الذكر والأنثي لبنية بيلوجية متباينة نسبيا، وهو التباين الذي يشكل قاعدة لتباين معياري

وإجتماعـي أخـر ومـوازي . عـلي هذا النحو يؤكـد بروكـس W.K.Brooks وباتريك جيـدز Patrick Geddes أن الحقائـق البيلوجيـة تـبرر أن المعايـير الاجتماعيـة لهـا أساسـها في الطبيعـة . ومـن ثـم فـأي محاولـة لتغيـير المعايـير الاجتماعيـة القائمـة المنظمـة للجنـس سـوف تكـون لـه آثـاره المدمـرة بالنسـبة للحضـارة وحالـة إجتـماع البـشر ، لأن ذلـك من شـأنه أن يكون مضـاد للقوانـين الطبيعية . وهـو مـا يعنـي في النهايـة أن الحتمية البيلوجيـة يفترض أن تشـكل قاعدة تبرر المعايـير الإجتماعية. في هـذه الحالـة فـإن بإمـكان العلـم أن يحـدد لنـا مـا يجـب أن تكـون عليـه معاييرنـا الإجتماعيـة، طالمـا أن العلـم قـد تمكـن مـن تشـخيص القاعـدة البيلوجية للبـشر (٤٧). وبغـض النظر عـن تأويل البعـض لهـذا الموقـف بإعتبـاره موقفـا تقليديـا ومحافظـا ، إلا أننـا يمكـن أن نؤوله بكونـه موضوعيا ، بإعتبـار أن التكويـن البيلوجـي لـكل مـن الرجـل والمـرأة يفـرض أن يشـتركا في بعـض الأدوار، بينما أدوار أخـري تظـل اكـثر إرتباطـا بالطبيعـة البيلوجيـة لـكل منهـما، دون أن نسـقط أسري الموقـف المتطـرف في محافظته.

وإذا كان ذلـك يشـير إلي أن ثمـة تقييـد جنـسي للمـرأة ، فقـد ظهـرت بعـض الدعـوات التي تدعـو إلي كـسر هـذه القيـود أو الحواجـز لتتدفـق الطاقـة الجنسـية في كل إتجاه ، حرة غـير مقيدة بـأي حاجـر. حتـي تنخلـع مـن خصوصيتهـا لتكتسـب طبيعـة عامـة مـن حيـث الزمـان الشـخصي أو المـكان . وقـد تمثلـت الخطـوة الأولي في إتجـاه إسـقاط الحواجـز بـين الذكـر والأنثـي في التسـاؤل حـول السـبب في أننـا نتحـدث عـن جنسـين فقـط "ذكـر وأنثـي"، بينـما أن هنـاك أجنـاس عديـدة تحتـاج لأن تكـون لهـا شرعيتهـا كذلـك . وأنـه إذا كانـت القاعـدة البيلوجيـة هـي التـي شـكلت أساسـا لجنسـين فإنـه عـلي مـا تؤكـد جابـل روبـين وسـيمون دي بوفـوار أن ذات البيلوجيـا يمكـن أن تشـكل أساسـاً لفئـات جنسـية عديـدة قـد يكونـوا ثلاثـة أو خمسـة أو حتـي عشرة أجنـاس بدلاً مـن جنسـين فقـط (٤٨). وحسـبما تذهـب سـاندرا بـم Sandrabem فإنـه بالإمـكان تصنيف البشر عـلي درجـات مقيـاس الذكوريـة الأنثويـة Masculinity-Feminity إلي أربعـة فئـات ١-الأنثويـون Fiminine وهـم البـشر الذيـن حصلـوا عـلي درجـات عاليـة عـلي مقيـاس الأنـاث ، ودرجـات

منخفضـة عـلي مقيـاس الذكـور . ٢- الذكوريـون Masculine وهـم الأشـخاص الذيـن حصلـوا عـلي درجـات عاليـة عـلي مقيـاس الذكـورة ودرجـات منخفضـة عـلي مقيـاس الأنوثـة . ٣- الخنثويـون Androgynous ، وهـم الأشـخاص الذيـن حصلوا عـلي درجات عالية علي كل مـن مقاييس الذكورة والأنوثـة . ٤- ثـم الأشـخاص غـير المتباينـون Undifferentiated وهم الأشـخاص الذيـن حصلوا علي درجـات متدنيـة عـلي مقاييـس الأنوثـة والذكـورة عـلي السـواء(٤٩). ويمكـن أن نضيـف إلي هـذه الفئـات ثلاثـة فئـات أخري منهـا . ٥- المتحولونTranssexuals' الذين يشـعرون بأنهم محشـورون في الجسـم الخطـأ ، كـما يشـعرون بـأن جنـس Sex جسـمهم لا يتـلاءم وجنـس Sex عقولهـم . ٦- اللوطيـون Homo Sexual وهـم الذكـور الذيـن يجـدون متعتهـم الجنسـية وهـو يتصلـون بـذات الجنـس ، وفي الغالـب يأنفـون مـن التعـاشر جنسـيا مـع الجنـس الآخـر . ٧- السـحاقيونLesbians وهـم الإنـاث الشـواذ جنسـيا الذيـن يجـدن متعتهـن الجنسـية في التعـاشر مـع ذات الجنـس مـن الأنـاث (٥٠). وهـو مـا يعني أن الممارسـة الجنسـية التي يشرعهـا المجتمع الغـربي إنتقلت من نطاق مـا هـو خـاص إلي نطـاق مـا هو عـام، حيث أصبحـت الفـوضي والتعدد هـي تميز السـلوك الجنسى. فلـم يعـد الـدور الجنـسي محـدداً بالتزامـات معينـة، بـل أصبـح يعـبر عـن دعـوة إلي مشـاعية أكثر تراجعـاً مـن المشـاعية البدائيـة، قـد تتبـادل فيـة المرأة الجنـس مع رجل مـن خارج الكيـان الأسري ، وقـد يكـون الجنـس موضـع مبادلة مـع امـرأة أخري .

ويسـتمر النسـويون في تفكيـك دور الجنـس حينـما تؤكـد جابـل روبـين قائلـة "أننـي أشـعر أن الحركـة النسـوية ينبغـي أن تحلـم بأكـثر مـن إلغـاء القهـر المفـروض عـلي المـرأة ، إذ عـلي الحركـة أن تناضـل مـن أجـل إلغـاء أدوار الجنـس والسـلوكيات الجنسـية الملزمـة . إن الحلـم الـذي أعتقـد أن لـه تاثـير عـلي بدرجـة أكـثر يتحـدد بـضرورة ان نحلـم بمجتمـع جنثـوي لا وجـود فيـه لتبايـن النـوع الجنـسي فيـه . مجتمـع لا قيمـة فيـه للتشريـح الجنـسي في تحديـد مـا هيـة الشـخص ، ولا مـاذا يفعـل، ولا مـع مـن يقيـم الشـخص علاقـة حـب"(٥١). وفي موضـع آخـر يذهـب فيتنجشـتين مؤكـدا عـلي أن وجـود الخنثويـين Hermaohrodites والمتحولـون جنسـيا

Transsexuals' يبرهـن عـلي صعوبـة تصنيف البشر بإعتبارهم إناث أو ذكور، حيث سـتظل هناك بعـض الحـالات عـلي الحـدود الفاصلـة غير محـددة وغامضـة. فـإذا كان الخليع Grays والسـحاقي Lesbian والمثـلي Transvestite والمتحـول جنسـيا Transsexuals والبـين جنـسي Intersexed يعانـون مـن التمييـز ضدهـم في المجتمـع المعـاصر. فـإن ذلـك يرجـع إلي خطـأ في أيديولوجياتنـا ومعاييرهـا الاجتماعيـة، فيـما يتعلـق بالجنـس والسـلوكيات الجنسـية للبـشر ، وهو مـا يعني وجود أنـواع جنسـية عديـدة وليـس مجـرد جنسـين فقـط إذا تناولنـا الأمـر بمنطق بيلوجـي (٥٢).

٢- الجنـس المبـاح فيـما قبل الـزواج : إذا كان إلغاء القيود المفروضة عـلي الجنس، في علاقة الإنسـان بالمحيطـين بـه يبيـح تدفقه في كل إتجـاه وجانب، من غـير آية معايير إجتماعيـة يفترض أن تنظـم حركتـه وتعـين حـدوده . فـإن ذلـك قد تضافر مع سـقوط قيود اخـري كانـت مفروضه، وهى القيـود التـى تفـرض عـلى ممارسـة الجنـس في الفـترة السـابقة عـلي الـزواج ، بحيـث يختـزل الـدور الجنـسي هنـا إلي سـلوك يسـتهدف إمتاع الـذات، دون أن يلعب دوراً أجتماعيا لـه إلتزاماته بما فيها أنـه تفاعـل مـع الآخـر، وفق معايير اجتماعية سـوية . حيث أصبحت الممارسـات الجنسـية السـابقة عـلي الـزواج هـي الشـائعة الآن عـلي سـاحة الحضـارة الغربيـة، تأكيدا لذلك مـا ذهبت إليه دراسـة أجريـت في بريطانيـا حـول مفهـوم العلاقـات الجنسـية السـابقة علي الـزواج، أو التي يمكـن أن تقع خارجـة، حيـث أبرزت الدراسـة مـا يوضحة الجـدول التالي:

جدول رقم (١)

مفهوم العلاقات الجنسية في بريطانيا

قبل الزواج وخارجه

نوع العلاقة	خطأ تماما	خطأ غالباً	خطأ أحياناً	نادراً ما يكون خطأ	ليست خطأ على الإطلاق	أوصاف أخري	المجموع
ممارسة الرجل والمرأة للعلاقة الجنسية قبل الزواج	٨٪	٨٪	١٢٪	١٠٪	٥٨٪	٥٪	١٠٠٪
ممارسة شخص متزوج لعلاقة جنسية مع شخص آخر غير زوجها / زوجتة	٥٢٪	٢٩٪	١٣٪	١٪	٢٪	٤٪	١٠٠٪
ممارسة ولد وبنت لعلاقة جنسية قبل بلوغهما سن ١٦	٥٦٪	٢٤٪	١١٪	٣٪	٣٪	٣٪	١٠٠٪
العلاقة الجنسية المثلية بين شخصين بالغين من نفس الجنس	٣٩٪	١٢٪	١١٪	٨٪	٢٣٪	٨٪	١٠٠٪

بالإضافة إلي ذلك تتوفر الأدلة التي تؤكد أنه مع نهاية الخمسينيات من القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية، وجد ان حوالي ٦٠٪ من "العرائس" كن علي حالة حمل أثناء عقد القران. وأن "العرسان" الذكور

أجـبروا عـلي الـزواج بهـن ، مــن خـلال ضغـط الأقـارب عـادة ، وهــو مـا يعنــي أن ممارســة الجنــس فيــما قبــل الــزواج ســلوك شــائع وغــير مرفــوض، كــما هــو واضــح بــين الشــباب في هــذه الفــترة. غــير أنــه قــد تــم تخفيــف نتائجهــا أو آثارهــا إســتناداً إلي معيــار مســئولية الرجــل، الــذي عليــة في الغالــب ان يتــزوج ممــن كان ســببا في حملهــا. ويؤكــد ذلــك إرتفــاع معــدلات الــزواج القهــري في الولايــات المتحــدة، بســبب حمــل الأنثــي خــارج نطــاق الــزواج.

ويشـير تأمـل هـذه الظاهـرة إلي إمكانيـة إرجاعهـا إلي عـدة عوامـل ، مـن هـذه العوامـل التقـدم الـذي تحقـق في التكنولوجيـا الطبيـة ، وبخاصـة إختراع حبـوب منع الحمل وتطور مسـتوي سـلامة عمليـات الاجهـاض ، الأمـر الـذي أتاح للمـرأة التحكم في سـلوكها الإنجابي. وقـد تمثل التأثير الأسـاسي لحبـوب منـع الحمل والثورة الجنسـية التـي ترتبت علي ذلك في قلب حسـابات المخاطرات الجنسـية رأسـا عـلي عقـب . ومـن ثـم فقـد لعبـت دوراً في تغيـير سـلوك الذكـور الجنـسي أكـثر من تغيـير سـلوك الأنـاث . طالمـا أن حبـوب منـع الحمـل قـد أتاحـت للمـرأة ممارسـة الجنـس، دون أن تقلـق حـول النتائـج الاجتماعيـة أو الاقتصاديـة المترتبة علي الحمـل. إضافة إلي أنها حـررت الرجال مـن المعايـير التـي تفرض عليهم مسـئولية عن النسـاء الذين تسـببوا في حملهن . تأكيـداً لذلك نتائج دراسـة أجريـت حـول أسـتخدام موانع الحمل في الممارسـات الجنسـية خارج الـزواج ، حيث أظهرت الدراسـة أن ٨٠،٦٪ مـن الأنـاث والمراهقـين البيـض إسـتخدموها فيـما قبل الـزواج في مقابـل ٤٨،٥٪ مـن المراهقـين المكسـيكيين الأمريكـين . ومـن بـين هؤلاء الذيـن مارسـوا الجنس خارج نطـاق الزواج حملـت واحـدة مـن كل إثنتـين مـن المكسـيكيات الأمريكيـات، في مقابـل واحدة مـن كل أربعة من الأمريكيـات البيضـاوات (٥٣). ويرتبـط بذلك تطـور تكنولوجيا الاجهاض الآمـن ، حيث لعبت هاتين الوسـيلتين دوراً هامـا في إشـاعة حالـة شـاملة مـن التحـرر الجنسي ، كانمـا الحضارة هـي التي تخلق الحاجـة ، وهـي التي تؤمن الوسـائل لإشـباع هـذه الحاجة.

ويمكـــن القـــول بـــأن التســـاهل بشـــأن التحـــرر الجنـــسي ، أو مـــا يمكـــن أن يســـمي بالليبراليـــة الجنســـية قـــد بـــدأ كأيديولوجيـــا غربيـــة منـــذ الســـتينيات مـــن القـــرن

الماضي حيث أخذ التحرر الجنسي في التزايد في الثقافات الغربية بشكل خاص خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الماضية قي أكثر المجتمعات الغربية حداثة . ويمكن القول بأن أتساع مساحة التحرر الجنسي كانت وظيفة أو نتيجة لشيوع وسائل الترفية والإمتاع في الحياة الحديثة، وما تعرضه وسائل الإعلام المختلفة كالسينما والتلفاز والانترنت. حيث نجد ان كثيراً من المراقبين يعتقدون أن ثورة الاتصالات الحديثة، هي من مسببات التحرر لا من نتائجه، وذلك بإعتبارها قد لعبت دوراً أساسياً في توسيع مساحة الجنس في بناء الشخصية الغربية، وكذلك في بناء نوعية الحياة في المجتمعات الغربية .

ويعد إنهيار الثقافة ومعايير المجتمع التقليدي من العوامل المسئولة عن حالة الانهيار الأخلاقي الحادثة في المجتمعات الغربية ، وهو الانهيار الذي يرمز له عنوان كتاب "فرنسوا فوكوياما" "نهاية نظام The end of order" ، ويقصد به إنهيار المجتمع والحضارة الغربية، برغم تعصبه لهما. ويمكن القول بأن الانهيار الأخلاقي الذي تعاني منه المجتمعات الغربية يرجع بالأساس للقطيعة التي حدثت مع المرجعية الدينية، في مقابل إعلان العلمانية الغربية المتطرفة ، وهو الأمر الذي أسقط مقاييس الحلال والحرام عن هذه الحضارة . بالإضافة إلي ذلك فقد إنهار المجتمع التقليدي والروابط التقليدية التي تشكل أساساً لرأس المال الاجتماعي ، ولم تحل محلها روابط تشكل سياقات دافئة وضابطة للبشر . في هذا الإطار من الخطأ القول بأن المجتمع التقليدي متناقض مع التقدم أو التطور التكنولوجي . فقد نجحت التجربة اليابانية ، وتجربة بعض مجتمعات النمور الأسيوية في تأكيد تحديث يستند إلي تضافر بين قيم وثقافة المجتمع التقليدي ومستويات رفيعة من التكنولوجيا المتطورة (٥٤). بالإضافة إلي ذلك فإن الحضارة الغربية برغم تآكل المرجعيات الثقافية بسبب القطيعة مع الدين وثقافة المجتمع التقليدي، مازالت عاجزة عن تطوير معايير تتولي ضبط التفاعل الاجتماعي بين البشر. معايير تقدم لهم المثل والطهارة والنقاء والتعالى الروحي، المعادل لاتساع مساحة الحياة المادية وتضخم الغرائز ، وقادرة علي كبح جماحها . ونتيجة لذلك إنتشرت حالة من الأنومي التي تشكل في حد ذاتها

مرجعية لاضفاء الشرعية علي أي سلوك وكل سلوك بغض النظر عن متضمناته الأخلاقية، وإتساقه مع قوانين الطبيعة وشرعة الكون ، تأكيداً لذلك تساهل المجتمعات الغربية ودعمها لقيم التحرر الجنسي.

ذلك يعني أن تفكيك الدور الجنسي، غير الملتزم بمؤسسة الزواج في الحضارة الغربية، كان من ناحية نتيجة لمجموعة من العوامل والظروف التي فرضت علي الحضارة الغربية، التي إحتوت علي متضمنات مدمرة لهذه الحضارة، كما أنه سوف ينتج آثاراً من ناحية أخري أو نتائج من شأنها أن تفكك بنية الأسرة كمقدمة لتفكيك بنية المجتمع .

٣- فوضي إنجاب المرأة الغربية : تتفق الحضارات جميعها، علي أن الإنجاب يشكل دوراً مشروعاً للأم، غير أن ذلك ينبغي أن يتحقق من خلال الشرعية الأسرية . بيد أننا إذا تأملنا أوضاع المرأة الغربية، فسوف نجد أن مفاهيم الحرية الجنسية لديها، كان من الطبيعي أن يحدث نتيجة لها، أن تنتشر ظاهرة الحمل. الذي قد يجهضه البعض وقد ينجبة البعض الآخر خارج الشرعية ، وهو ما يعني إضرار المرأة بالدور الإنجابي والخروج به من دائرة السواء إلي ساحة الإنحراف . تأكيداً لذلك تذهب عديد من الدراسات إلي أن زيادة خصوبة المرأة غير المتزوجة ليست محدودة، فهي إلي جانب أنها عالية نسبيا في المجتمعات الغربية بخاص الولايات المتحدة ، إلا أنها آخذة في التصاعد ، فقد بدأت تتحرك من عشر ولادات حية لكل ألف إمرأة إلي ٥٠ ولادة حبة بين عامي ١٩٥٠-١٩٩٠.

بالإضافة إلي ذلك، فإننا نجد أن هذه النسبة ليست متساوية في مختلف المجتمعات المحلية في الولايات المتحدة الأمريكية، فهي تميل لأن تتركز في بعض المناطق، التي لا تشكل فيها الأبوية قيمة أو معياراً حقيقيا . أما بالنسبة للفئات العرقية ، فإننا نجد أن السود الأمريكيين لديهم أعداداً أكبر بصورة مطلقة من الأبناء غير الشرعيين مقارنة بالبيض . وإرتباطا بذلك يصبح من الضروري أن نلاحظ نسبة الأطفال غير الشرعيين في الولايات المتحدة الأن، أكثر من نسبتهم في مجتمعات السود التي درسها "موينهان Moynihan" وكتب عنها تقريره

الشـهير في منتصـف السـتينيات مـن القـرن العشريـن (٥٦). وفي دراسـة أكـثر حداثـة أجريـت عـلي الأنـاث الـلائي أنجـبن ولم يكـن متزوجـات ، إتضـح أن غالبيـة هـؤلاء الأمهـات قـد أصبحـن حوامـل في العشرينيـات مـن عمرهـن ولم يكـن متزوجـات حينئـذ ، وأنهـن إمـا أن يكـن قـد تزوجـن الأبـاء المسـئولين عـن حملهـن أو تخلـين عـن البنـاء مـن أجـل التبنـي (٥٧). وإتسـاقا مـع ذلـك فإنـه مـع بدايـة الثمانينيـات مـن القـرن العشريـن فإننـا نجد أن مـا يقترب من ثلثـي الأمهات البيـض تخلصوا مـن حملهـن وهـن في العشرينيـات ولم يكـن متزوجـات حينـما حملـن (٥٨). ذلـك بالإضافـة إلي أن غالبيـة الأنـاث السـود بنسـبة بلغـت ٩٧٪ أنجـبن وهـن في عمـر العشرينيـات، برغم أنهـن مازلن لم يتزوجـن حتـى الآن. وبرغـم أن تخـلي بعـض الأمهـات الائي أنجـبن بصـورة غير شرعية عـن أطفالهن ليـس شـائعا بـين السـود الأمريكيـين، فقـد كشـفت دراسـة عـلي البيـض عـن نتائـج سـلبية للغايـة بالنسـبة لهـؤلاء الـلاتي إحتفظـوا بأبنائهـن، مقارنة بهـؤلاء الذين تخلـوا عنهم من اجـل التبني (٥٩).

فـإذا أنتقلنـا مـن الولايـات المتحـدة الأمريكيـة إلي القـارة الأوربيـة فسـوف نجـد أن الـدول الصناعيـة بإسـتثناء اليابـان قـد خـبرت معـدلات عاليـة من الأطفـال غـير الشرعيين ، وهـي معدلات تتصاعـد في نفـس الوقـت بسرعـة عاليـة . وبينـما شـهدت بعـض المجتمعـات الأوربيـة كفرنسـا وبريطانيـا زيـادة في معـدلات الأطفـال غـير الشرعيـين مقارنـة بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة ، فـإن الزيـادة لديهـا تصاعـدت مـع ذلـك بمعـدلات درامية . وتعد نسـبة الـولادات غير الشرعيـة في الدول الاسـكندنافية هـي الأعـلي في العـالم ، وأنهـا في زيادتهـا لا تقـارن بما هـو حادث في الولايـات المتحدة الأمريكيـة . برغـم أن معني اللاشرعـي Illegitimacy في الدول الاسـكندنافية وبعض الدول الغربية الأخـري، مختلـف عـن ما هـو في الولايات المتحدة وبقيـة دول العالم. لأنه من الشـائع والمعترف به أن يعيـش الذكـور والأنـاث مـع بعضهـم – Cohabitation ، وحيث يكبر الأطفال في نفس المعيشـة مـع أبائهـم البيلوجيـين . عـلي خـلاف ذلـك نجـد أن ألمانيـا لديهـا نسـبة منخفضـة من الأطفـال غير الشرعيـين ، ونسـبة الأطفـال غـير الشرعيـين في إيطاليا أكـثر إنخفاضـا ، وهي حالة تعكـس التأخير في تضمـين الأيديولوجيـا الليبراليـة في قوانين الطـلاق (٦٠).

ذلـك يعنـى أن دور الأم في الأنجـاب غـير الشرعـي للأبنـاء ، ثـم الابقـاء عليهـم يعيشـون مـع أمهاتهـم في نفـس المعيشـة ، أو إسـتخدام حملهـن لغـرض الـزواج القهـري بالأبـاء المتسـببين في ذلـك مـازال قائمـا. وأن مسـألة التخـلي عنهـم للتبنـي سـواء مـن قبـل مؤسسـات تتـولي رعايتهم أو تبنيهـم في نطـاق أسر بديلـة، إجـراء مـن شـأنه أن يـضر بتنشـئة هـؤلاء الأبنـاء . فهـم برغـم الدفـئ الاجتماعـي الرسـمي الـذي قـد يتلقونـه مـن المجتمـع ، فإنهـم إلي جانـب هـؤلاء الذيـن لم يجـدوا التنشـئة الاجتماعيـة المواتيـة مـن قبـل الأسر البديلـة المفككـة او المجتمع، يصبحون ضحيـة ونتيجة ظـرف إسـتثنائي طـارئ. يحـاول المتصلـين بهم "الأم ، والمجتمـع " أن يجعلونه عاديـا، ثم أنهم علي مـا سـوف نوضـح يشـكلون أغلبيـة إجتماعيـة، كـما يشـكلون شـوكة تـؤلم خـاصرة المجتمع .

٤- تقليـص دور الأم في عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة : مـن الطبيعـي أن تلعـب الأم الـدور الرئيـسي في عمليـة التنشـئة الاجتماعية بحيـث يتضافر دورها مع دور الأب ، حتي تتمكن الأسرة من تنشـئة سـوية للأبناء . غير أن أننا إذا تأملنا دور المرأة الغربية في هذا الصدد فسـوف نجد أن عملية التنشـئة الاجتماعيـة للأبنـاء لا تتـم بالمسـتوي الملائـم، بسـبب ظروف ترجـع إلي الأم بالأسـاس بغض النظـر عـن الطـرف الـذي يتعامـل مع الأبنـاء . بداية نجد أنـه إسـتناداً إلي البيانات التـي عرضنا لها، أننـا نجـد أن هنـاك ميـلاً من قبـل الأمهات في العشرينـات، إلي التخلي عن أبنائهن الـلائي حملن بهن مـن خـارج الـزواج للتبنـي . وفيـما يتعلـق بالعوامل المسـئولة عـن تخلي المرأة عـن أبنائهـا للتبني ، فإننـا نجـد أن هنـاك عوامـل عديدة، منها الرغبة في التعليم العالي ، أو أسـتكمال الدراسـة في المرحلة الثانويـة وقـت الحمـل مـن بين العوامـل . بالإضافة إلي أن جنـس الطفل بلعـب دوراً في هذا الصدد، حيـث تميـل الأمهـات إلى التخـلى عن الأنـاث بدرجة اعلي من التخـلي عن الذكور، وذلك بنسـبة ١:٢ ، أو بسـبب الكبر في السـن وقـت الإنجاب، إضافة إلي عـدم وجود عمالة منزلية للمسـاعدة. حيث أكدت هذه العوامل دراسـة اجريت في المجتمع الأمريكي، علي عينة قومية من النسـاء اللائى يتراوح عمرهن بين ١٥-٤٤ سـنة . ونحن إذا تأملنا هذه العوامل مجتمعه فسـوف نجد أن جميعها ليسـت

عوامـل قويـة تسـتوجب – عـلي الأقـل مـن وجهـة نظـر الثقافـات الأخـري – التخـلي عـن الأطفـال مـن أجـل التبنـي ، اللهـم إلا إذا كان تبريـر ذلـك يكمن في ضعـف عواطف الأمومة ذاتهـا، خاصة أن الحمـل مـن المحتمـل أنـه قـد حـدث في غالـب الأحيـان في ظـل ظروف سـلبية إلي حـد كبير .

فـإذا حاولنـا التعـرف عـلي الظـروف التـي تتـم فيهـا التنشـئة الاجتماعيـة للأطفال فسـوف نـدرك الطبيعـة السـلبية التـي تتـم في إطارهـا . مـن بين هـذه الظـروف أنه وفقا للدراسـة الشـهيرة التـي أجرهـا موينهـان Moynihan فإننـا نجـد أن غالبيـة الأطفال تربوا في ظـل زوج الأم (٦١). وأن هـذا الأب البديـل غالبـا مـا يكون أقـل إهتماما برعايـة الأبناء مقارنة بالأبـاء الطبيعيـين ، وأن الأبناء يخضعـون عـادة لصنـوف مـن المعانـاة عـلي يـد هـؤلاء الابـاء (٦٢). في هـذه الحالة تصبـح الأم هي المسـئولة مسـئولية مضاعفـة ، فهـي التـى قـد حملـت في الطفـل خارج نطـاق الزواج . ثـم هي من ناحيـة أخـري التـى تزوجـت شـخصا غريبا علي الطفـل لن يسـاهم في غالب الأحيـان في نشر الدفئ المحيـط بالطفـل في نطـاق الحيـاة الأسريـة . وهو ما يعني مسـئولية الأم عن أختزال وتشـوية عملية التنشـئة الاجتماعية السـوية والمتوازنة .

ويعـد الطـلاق مـن العوامـل التـي تـترك أثرهـا عـلي إسـتكمال التنشـئة السـوية للطفل، في هـذا الاطـار يمكـن أن نلاحـظ مـن وجهـة النظـر المؤكـدة عـلى إسـتقرار الطفـل ، أن كونـه يولد لأم خـارج نطـاق الـزواج الشرعـي يعـد في حـد ذاتـه جانبـا مـن مشـكلة اجتماعيـة أوسـع . غـير أنـه بالنسـبة للأطفـال الذيـن يولـدون لأبـاء مـن زواج شرعـي ، نجـد أن نسـبة ٤٥٪ منهم طلـق آباؤهم وهـم في سـن الثامنـة عـشر . وفي بعـض المجتمعات المحلية كتلك التي يسـكنها الأمريكيون السـود ، فـإن نسـبة الأبـاء المطلقـين تكـون أعـلي . الأمـر الذي يدفـع إلي الزواج بعـد الطلاق، بحيـث نجد أن فـترة الطفولـة تفـرض عـادة في كل خـبرة طـلاق قـدر من المسـئولية عنها عـلي عائق المـرأة، وهو ما يعنـى أنـه في ظـل هـذه الأوضـاع الأسريـة المفككـة، فإنه مـن الصعـب أن تتحقق تنشـئة اجتماعية سوية .

ويعـــد الـــدور الـــذي تلعبـــه دولـــة الرفاهيـــة في حيـــاة الأسرة الغربيـــة غـــير كافي

للأرتقاء بعملية التنشئة الاجتماعية ، وذلك يرجع إلي أن دولة الرفاهية لم تحل المشكلة الحقيقية المتعلقة بها والمتمثلة في حالة الانهيار الأسري . حقيقة أن الدولة تقوم بدور الأب بالنسبة للأسرة، حيث توفر للأم والأطفال الموارد التي تيسر تأمينهم ونموهم ، غير أنه من المشكوك فيه أن تكون دولة الرفاهية صالحة لكي تكون بديلاً لدور الأب في عملية التنشئة الاجتماعية . ذلك يعني أن دولة الرفاهية لم تستطع إلغاء التكلفة الاجتماعية عن إنهيار الأسرة، وذلك علي عكس اليابان التي لم تعاني من مسألة التفكك الأسري (٦٣). وإذا كانت دولة الرفاهية لا تساعد علي هذا النحو، برغم مساعداتها للأسر في تأسيس تنشئة اجتماعية سوية ومتكاملة ، فإن الأسر المفككة نفسها قد تعجز مواردها أحيانا عن أنجاز هذه التنشئة بالمستوي الملائم. وفي هذا الإطار أكدت دراسات عديدة علي ان الأسر المنهارة تعتبر متغيراً مستقلاً هاما لتفسير إنتشار الفقر . وذلك يرجع إلي أن الأسرة ذات العائل الواحد "الأم في غالب الأحيان" سوف تفقد نصف دخلها الاقتصادي تقريبا، مقارنة بالأسر التي يحصل فيها الأبوين علي دخل . ومن ثم فسوف ترصد هذه الأسر المنهاره مالاً ووقتا وطاقة أقل لتعليم الأطفال وتنشئتهم . وذلك ينتج بطبيعة الحال من المعطيات التي تؤكد ، أنه في أعقاب حدوث الطلاق وبقاء الأم وحدها ، أو أن تعيش الأم منذ البداية مع طفلها ، فإن دخل الأسرة سوف يشهد تقلصا مباشراً بغض النظر عن المستوي الاقتصادي الاجتماعي للأبوين قبل الزواج (٦٤). ونحن إذا تأملنا المعطيات السابقة فسوف نجد أن الظروف الاجتماعية الاقتصادية التي تحققت فيها التنشئة الاجتماعية لم تكن في الغالب مواتية ، وأن المرأة لعبت دوراً اساسيا في تأسيس هذه الظروف. إما من خلال الانجاب خارج الشرعية الزواجية ، وأما بسبب الطلاق وحجز الشرعية الأسرية ، وأما بسبب دولة الرفاهية التي حاولت حل المشكلة إقتصاديا إلا أنها عجزت عن مواجهة جوانبها الاجتماعية والثقافية. بحيث أعاقت هذه الظروف جميعها الأم عن أن تنجز تنشئة اجتماعية بمستوي انساني سواء بالنسبة للطفل أو المجتمع .

٥- **تـآكل دور المـرأة في الحفـاظ عـلي الأخـلاق العامـة :** الإفـتراض الأسـاسي الـذى ننطلـق منـه يتمثـل فى أن المـرأة تلعـب دوراً أساسـيا في عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة، التـي تتضمـن نقـل تـراث المجتمـع مـن جيـل إلي الجيـل الـذي يليـه. وذلـك بإعتبـار أن الأم هـي الأكـثر إقترابـا مـن الطفـل ، ومـن ثـم فبإمكانهـا مسـاعدته عـلي إسـتيعاب هذا الـتراث بما يتضمنـة من قيـم ومعايير . غـير أننـا إذا تأملنـا هـذا الأمـر، فسـوف نجـد أن المـرأة قـد نشـأت وتفاعلـت في نطاق نوعيـة حياة منهـارة المعايـير كـما أشرت . العوامـل المسـئولة عن ذلـك تمثلت من ناحيـة في التغـيرات الاقتصادية والتكنولوجيـة التـي فرضـت تغيـير نوعيـة الحيـاة في مجتمعـات الغـرب . بالإضافـة إلي أن دولـة الرفاهيـة ذاتهـا لعبـت دوراً في أنهيـار المعايير بعد أن كان المأمول ان تلعـب دوراً في دعمها والارتقاء بهـا بشـكل إنسـاني. يضـاف إلي ذلـك أن هـذه المعايـير أصابهـا الضعـف بسـبب التحـول في المعايير، والـذي نتـج بالأسـاس عن التغـيرات الثقافيـة والأيديولوجية ، وهـي التغيرات التـي تضمنت تقليص تأثـير الديـن عـلي الحيـاة في المجتمـع ، وانتشـار الدعـوات الأنثويـة، التـي طالبـت بإطـلاق حريـات المـرأة في كل مجـال واتجـاه . إضافـة إلي تنامـي شرعيـة المذاهـب الفرديـة، التـي تؤكـد دائمـاً عـلي الإمتـاع الـذاتي للفـرد Self-Gratification ، وتحقيـق الـذات Self-realization بإعتبارهـا معايـير تسـبق آيـة إلتزامـات اجتماعيـة خاصـة بـالأسرة أو المجتمـع (٦٥).

ذلـك يعنـي أننـا أمـام حالـة أنهيـار معيـاري وأخلاقـي ، أشـبه مـا يكـون بحالـة الأنومـي الدوركيميـة، حيـث أصبحـت السـلوكيات تتدفـق في أطـاره بـلا ضوابـط وبـلا توجيـه معيـاري. في نطـاق هـذا الوضـع أطلقـت الغريـزة الجنسـية بـلا حـدود، إرتباطـا بذلـك بـارك المجتمـع المعـاشرات الجنسـية أفقيـا خـارج الأسرة، ورأسـيا إبتـداء مـن فـترة المراهقـة فصاعـداً . ونتيجـة لذلـك إرتفعـت عـلي نحـو مـا أشرت نسـبة الحمـل خـارج نطـاق الـزواج ، بحيـث وصلـت نسـب الحمـل خـارج الـزواج إلي معـدلات كبـيرة. وإذا كان ذلـك يعـد طاعـة لمعايـير فرديـة تؤكـد عـلي الإشـباع الـذاتي والفـوري إسـتناداً إلي إعتبـار الألتزامـات الاجتماعيـة، فإنـه يعـد تجـاوزاً وتخليـا عـن المعايـير الدينيـة والثقافيـة والأخلاقيـة للمجتمـع التقليـدي . وإذا كان ثمـة رد

علي ذلك، بأن لكل سياق إجتماعي معاييره ، فإنه من غير المنطقي أن نحكم علي المجتمع العلماني في الألفية الثالثة، بمعايير المجتمع التقليدي أو بالمرجعية الدينية . فإن الإجابة علي ذلك تشير إلي حالة المجتمع الياباني، وهو من أقوي الدول الصناعية وكذلك حالة النمور الأسيوية ، التي حققت إنجازات تحديثية وصناعية عالية ، ومع ذلك مازالت القيم الأخلاقية والثقافية والدينية قوية ، وكذلك ما زالت العائلة التقليدية علي تماسكها (٦٦). غير ان التعثر الأخلاقي الحقيقي يتمثل في تخلي الأمهات عن أبنائهن الذين ولدوا خارج الزواج المشروع ، ونظراً لأن معايير المجتمع لا تدين ذلك ، فإننا نري أن الأمهات اللائي يتخلين طوعاً عن أبنائهن من أجل التبني أمر أو سلوك يشير إلي تآكل عواطف الأمومة ذاتها ، ويزداد الأمر سوءاً حينما يتم التخلي عن الأبناء الأناث والابقاء علي الذكور ، الأمر الذي يشير إلي إختيار "اللعبة" أو "الدمية" المفضلة بغض النظر عن عواطف أمومية أو أنسانية .

علي هذا النحو تتأرجح مضامين التنشئة الاجتماعية والأخلاقية بين الأم "المرأة" التي تعيد إنتاج المعايير المتضمنة في حالة الفوضي أو الأنومي الأخلاقية. المعايير التي تمجد الجنس في أي أتجاه ، والتخلي عن الأبناء بسبب تآكل العواطف الأمومية ، يدعم ذلك تكنولوجيا حبوب منع الحمل وتكنولوجيا الاجهاض المتطورة ، حتي إن بعض التيارات بشرت بثورة جنسية. وبين المعاير والقيم الذي يدرك مفكروا الغرب لزوميتها حتي لا ندفع بهذه الحضارة الغربية إلي نهايتها. وهو التأكيد الذي ذهب إليه فرنسوا فوكوياما الذي طالب بضرورة العودة إلي المعايير الأخلاقية والدينية حتي لا تتآكل الحضارة التي بدأت تدرك لا أخلاقية مفاهيمها وقيمها ومن ثم تحاول خداع نفسها . حيث يشير إلي ذلك دانيل باتريك موينهان Daniel Patrick Moynihan بإطلاقة تعبير "تضييق تعريف الانحراف" بسبب زيادة عدد العائلات ذات العائل الواحد ، وإرتفاع معدلات الطلاق ، وإرتفاع معدلات الولادات غير الشرعية . حيث ذهب موينهان إلي أن مفهوم الأسر قد إتسع ليشمل أي شكل من إشكال السكني المعيشية، بغض النظر عن تضمنها للأب أوالأم أو أبنائهما البيلوجيين . وفي نفس الفترة

قام مكتب الاحصاء في الولايات المتحدة الأمريكية ، بمواصلة الخداع ، وإستبدال مصطلح "الولادات غير الشرعية "Illegitimate births بمصطلح "المواليد لنساء غير متزوجات Births to Uunmarried Women" . ذلك يعني أن كل جيل يميل إلي رؤية معايير الجيل السابق بنوع من الحنين والشوق إلي عودتها غير أنه يفشل عادة في إدراك المشكلة التي سببت تغيير هذه المعايير (٦٧).

لقد أدي هذا التآكل أو الانهيار الأخلاقي إلي تأثر حالة الثقة الاجتماعية Social Trust . في هذا الإطار يعد رأس المال الاجتماعي داخل وخارج العائلات ظواهر منفصلة ، يمكن أن تكون بينهما علاقة عكسية في نطاق المجتمعات العائلية ، غير أننا نجد أنهما يرتبطان إيجابيا في المجتمعات المتقدمة كالولايات المتحدة الأمريكية . حيث توجد روابط إمبيريقية واضحة بين الاستقرار ونوعية حياة العائلة، وقابلية الطفل لأن يؤسس إرتباطات تعاونية مع البشر والجماعات خارج نطاق العائلة . وفي نطاق هذا الحد الأدني فإن الطلاق والأبوية المفردة من شأنهما أن يحرما الأطفال من الاستفادة من نموذج الأب، وشبكة علاقات وإرتباطات الأب في المجتمع المحلي . بالإضافة إلي تقليص الثقة في رمز السلطة وهو الأمر الذي يلعب دوراً أساسيا واضحاً في تشكيل علاقات الطفل بالأخرين الكبار (٦٨).

المراجـــــــــع

١. عـلى ليلـة، هربـرت سـبنسر والتصـور العضـوى للمجتمـع، المكتبـة المصريـة للطباعـة والنـشر والتوزيـع، سلسـلة النظريـات الاجتماعيـة، الكتـاب الرابـع، ٢٠٠٦، ٧١.

٢. نفس المرجع، ص ٧٧.

٣. عـلى ليلـة، الأمـن القومـى العـربى فى عـصر العولمـة، تفكيـك المجتمـع وإضعـاف الدولة، الكتـاب الثـانى، مكتبـة الانجلـو المصريـة، ٢٠١١، ص ٣١٢.

٤. بـول هيرسـت وجراهام تومبسـون، مسـاءلة العولمـة، الاقصاد الدولى وإمكانـات التحكم، المـشروع القومـى للترجمـة، ترجمـة إبراهيـم فتحـى الكتـاب رقـم (١٠٠)، المجلـس الأعـلى للثقافـة ١٩٩٩، ص ٧٨.

٥. زولتـان تـار، النظريـة الاجتماعية ونقـد المجتمع، الآراء الفلسـفية والاجتماعية للمدرسـة النقديـة، ترجمـة عـلى ليلة، المكتبـة المصرية للطباعـة والنشر والتوزيـع، ٢٠٠٤، ص ٦٤.

٦. بول هيرست وجراهام توميسون، مرجع سابق، ص ٩٣.

7. Aron, Raymond, Main Currents of Social Though, Marion Bogars, New York, 1264, p, 114.

8. Ibid, P, 132.

9. Moi, Toril, Sex, Gender and the Body, Oxford University Press, 2002, P. 10.

10. Ibid, P, 17.

11. Ibid, p, 25

12. Ibid, p, 27.

13. Ibid, p. 32.

١٤. عـلى ليلـة، النظريـة الاجتماعية الحديثة، الإنسـاق الكلاسـيكية مكتبـة الانجلو المصرية، ٢٠١٤، ص ٢١٣.

15. Daly, Martin & M. Wilsan, Children as Homocide

Victims "in" Gelles and J.U, Loncoster "eds" Child Abuse and Neglect, Biosocial Dimensions, Aldine de Grugter, New York, 1987, p. 112.

16. Ibid, p. 116.

17. Ibid, p. 119.

18. Ibid, 123.

19. Fukuyama, Francis, the End of Order, the Social Marked Foundation, 1997, Pp. 7-8.

20. Ibid, p. 13.

21. Ibid, p. 17.

22. Ibid, p. 32.

23. Durkheim, Emile, Division of Labar in Society Trans By George Simpson, New York, the Free press, 1966, p. 48.

٢٤. على ليلة، النظرية الاجتماعية الحديثة، الأنساق الكلاسيكسة، مرجع سابق، ص ٣٧٦.

٢٥. نفس المرجع، ص ٣٨١.

٢٦. على ليلة، هربرت سبنسر والتصور العضوى للمجتمع، مرجع سابق ص ٨٣.

٢٧. نفس المرجع، ص ١١١.

28. Lionel, Tiger, Manufacture of the Evil, Ethics Evolution and Industrial System, Marion Bogars, New York, 1987, Pp, 19-21.

29. Ibid, p, 27.

30. Ibid, p. 43.

31. Ibid, p, 44.

32. Ibid, p. 47.

33. Francis Fukuyama, Op, cit, p 47.

34. Ibid, p, 51.

35. Ibid, p, 52.

36. Ibid, p. 63.

37. Ibid, p, 64.

38. Ibid, p, 83.

39. Ibid, p, 91.

40. Lionel Tiger, Op, Cit, P,56.

41. Ibid, p, 43.

42. Ibid, p, 44.

43. Toril Moi, op, cit, p, 112.

44. Francis Fukuyama, Op, cit,p132.

45. Ibid, p, 133.

46. Ibid, p, 132.

47. Ibid, p, 137.

48. Ibid, p, 142.

49. Ibid, Pp, 157-159.

٥٠. بول هيرست، جراهام تومبسون، مرجع سابق، ص ١٧٨.

51. Francis Fukuyama, Op, cit, p, 147.

52. Ibid, p, 163.

53. Ibid, p, 164.

54. Ibid, p, 167.

55. Martin Daly & M, Wilson, Op, cit, p, 101

56. Ibid, p, 113.

57. Toril Moi, Op, cit, p, 143.

58. Francis Fukuyama, Op, cit, p, 73.

59. Ibid, 131.

60. Ibid, 133.

61. Lione Tiger, Op, cit, p, 71.

62. Francis Fukuyama, Op, cit, p, 82.

63. Ibid, Pp, 117-119.

64. Ibid, p, 121.

65. Ibid, p,152.

66. Ibid, p, 154.

67. Ibid, p, 127.

68. Ibid, p, 159.

الفصل الثاني

تأثير الاختراق الحضاري

على أوضاع المراة فى مجتمعاتنا

الفصل الثانى

تأثير الاختراق الحضارى

على أوضاع المراة فى مجتمعاتنا

تمهيد

تحركت الحضارة الغربية فى مسيرتها التاريخية، بعيداً عن مرجعيتها الدينية والأخلاقية من خلال واقعتين، الواقعة الأولى تمثلت فى أنفصال الحضارة الغربية، عن مرجعيتها الدينية. وهو الانفصال الذى بدأ بحركة الاصلاح الدينى وإشتعال الحروب الدينية المدنية، ووقوع الثورات العلمية، وهى التفاعلات التى تعرض لها عصر التنوير بالبحث والدراسة. حيث إنتهى الأمر إلى التأكيد على العقل الإنسانى، المبدع للفكر والعلم، والذى بإمكانه تنظيم الحياة الدنيا التى يعيش فى نطاقها الإنسان. وبذلك برز التأكيد على العقل والعلم والحياة الدنيا، بعيداً عن الإيمان بالغيبيات، وهى العناصر التى شكلت بناء العلمانية. بينما تشكلت الواقعة الثانية، التى أثرت على المجتمع والحضارة الغربية فى الثورة الصناعية، التى أكملت تراجع الدين من المجال العام إلى الخاص، ثم شرعت فى إعادة تشكيل المجتمع ونوعية حياة البشر فى إطاره.

ولما كانت الأسرة هى الوحدة المحورية فى بناء المجتمع، والمرأة هى المكون المحورى فى بناء الأسرة، فإننا وجدنا أن هذه التغيرات التى أستغرقت أربعة قرون تقريبا تؤثر على بناء الأسرة والمجتمع. حيث بدأت هذه التفاعلات السلبية بخروج المرأة إلى العمل، وإمتلاكها لدخل إقتصادى منفصل، ومن ثم عدم تفرغها للحياة الأسرية، بل وإهمالها فى أحيان كثيرة. الأمر الذى نشر الفردية فى الحياة الأسرية، ونتيجة لذلك إرتفعت معدلات الطلاق وإنهيار الأسر، كما برزت ظاهرة إنحراف الحداث. وإرتباطا بذلك ظهرت أمراض إجتماعية عديدة أبرزها إنتشار تعاطى وإدمان المخدرات، إلى جانب إنتشار الإستغلال للصغار. وكذلك إنتشار الاغتصاب والبغاء، والجنس المتحرر من أية قيود حضارية أو ثقافية، الأمر الذى حط فى النهاية من شأن المرأة، حتى تحولت من إنسانه خلقها الله بطبيعة مكتملة، إلى مجرد أنثى تعد مصدراً للمتعة، أو آلية لتتجير سلعة

مـن خـلال آليـات الاعـلان والاعـلام، وبذلـك إنهـارت مكانـة المـرأة فى المجـال الخـاص والعـام عـلى السواء.

وقـد كان مـن الطبيعـى أن تقـود هـذه المظاهـر السـلبية المتعلقـة بالمـراة إلى عديـد مـن التأثـيرات السـلبية التـى طـرأت عـلى الحيـاة الأسريـة، ولعبـت دوراً محوريـا فى إنهيـار الأسرة، الذى تجـلى مـن خـلال مظاهـر عديـدة. أول هـذه المظاهـر يتمثـل فى تـآكل البنيـة القيميـة والأخلاقيـة لـلأسرة، حيـث إنتـشرت القيـم الفرديـة والأنانيـة. التى دفعـت إلى الإنفصـال عن الجماعيـة الأسرية ووحدتهـا العضويـة، والـشروع بـدلا مـن ذلـك بالإتجـاه إلى إشـباع الرغبـات الفرديـة، حتـى الخيانة الجنسـية التـى أضفيـت عليهـا الشرعيـة، وأصبحـت مكونـا بـارزاً فى بنيـة هـذه الحضـارة. يضـاف إلى ذلـك ظهـور أشـكال أسريـة أطاحـت بالمعنـى الأصيـل لـلأسرة، حيـث ظهـرت الأسرة المثليـة، التـى تسـتند إلى زواج رجـل برجـل، والأسرة السـحاقية حيـث زواج إمـرأة بإمـرأة. إذ بـدأت تنتـشر هـذه الأنمـاط الأسريـة الشـاذة، حتـى أنها تمتعـت بالحمايـة والمنعـة القانونية فى بعـض المجتمعات الغربيـة. إضافـة إلى ظهـور الأسرة التوليفيـة التـى تتشـكل مـن زوج وزوجـة، لكل منهـما زواجه أو زواجاتـه السـابقة التـى نتـج عنهـا أطفـال، بحيـث نجـد أن تكوين هـذا النمط من الأسر لـه طبيعة الشـاذة. حيـث أخـوة فى أسرة غربـاء عـن بعضهـم البعض، ومع ذلك يعيشـون تحت سـقف واحد، وفى هـذا السـياق قـد ترتكـب إنحرافات عديـدة حتى إختراق نطـاق المحارم، وفى هـذا الإطار لعبت تكنولوجيـا الجنـس فى إتجـاه التعجيـل بإنهيـار الأبنيـة الأسرية.

ونظـراً لأن الحضـارة الغربيـة تعمـل بإتجـاه تأكيـد قوتهـا، والحفـاظ عـلى سـيطرتها عـلى العـالم، فإنهـا حاولـت السـيطرة عـلى الحضـارات الأخـرى، بخاصـة الحضـارات الشرقيـة، والحضـارة الاسـلامية بالأخـص. وقـد إنطلقـت محاولـة سـيطرة الحضـارة الغربيـة عـلى الحضـارات الأخـرى مـن خـلال أسـاليب عديـدة أبرزهـا تكنولوجيـا المعلومـات والاعـلام. التـى إسـتهدفت فـرض تـآكل قيـم الحضـارة الاسـلامية وثقافتهـا، المسـتندة إلى قيـم ومبـادئ دينهـا، وإلى نـشر ثقافـة الاسـتهلاك، وكذلـك نـشر ثقافـة تعاطـى وإدمـان المخـدرات أو إرتـكاب الجرائـم والقتـل. بحيـث

بـدأت الأسرة فى مجتمعاتنـا تعيـش فى ظـل أوضـاع خطـرة، تجلـت مـن خـلال بعـث أشـكال أسرية وقعـت فى المـاضى السـحيق، ليعـاد إنتـاج فعاليتهـا فى مجتمعنـا المـصرى المعـاصر. مثـال عـلى ذلك إسـتدعيت آليـة الخلـع، التـى تعنـى تطليـق المـرأة للرجـل إسـتناداً إلى واقعـة تاريخيـة محـدودة، ثـم إعاقـة تفعيـل آليـات الحفـاظ على الحيـاة الأسرية، الأمـر الـذى أدى إلى إرتفاع الطلاق لأسـباب واهيـة، وهـو مـا يعنـى إنتشـار حالـة مـن الاسـتهانة بالحيـاة الأسريـة. يضـاف ذلـك ظهـور الزواج العـرفى بأشـكاله وانماطـه المتعـددة، التى تخـرج جميعها على الشرعيـة، ومن ثم الابتعـاد عن الحياة الاجتماعيـة والأسريـة السـوية. بحيـث ادى إخـتراق الحضـارة الغربيـة لفضائنـا الدينـى والأخلاقـى والقيمـى، إلى إنهيـار الأسرة، والإنطـلاق مـن ذلـك بإتجـاه تفكيـك المجتمـع وفـرض إنهيـاره، بسـبب الأزمـة الاخلاقيـة التـى يعيـش فى إطارهـا المجتمـع. وهو الأمـر الذى يعنـى أن إنهيـار المجتمع كان بسـبب المصـادر المرضيـة التـى بـدأت تنتشر على سـاحته، كـما تنشر على سـاحتنا الحضاريـة، كل ما يـؤدى إلى إنهيارهـا، وهـو مـا نعـرض لـه فى الصفحـات التالية.

أولاً: تآكل أدوار المرأة وإنهيار بناء الأسرة

إنتقلـت الطاقـة الشريـرة مـن السـياق الاجتماعـي للحضـارة الغربيـة إلي سـاحة المـرأة، فنـشرت الفـوضي المعياريـة في فضائهـا، فعملـت تـارة بإتجـاه تقليـص بعـض أدوارهـا فأنتـج ذلـك آثـاراً سـلبية في بنـاء الأسرة. وفرضـت عليهـا في تـارة أخـري أدواراً جديـدة، شـكلت بذاتهـا معـاول سـاعدت فى تحطيـم بعـض جوانـب البنـاء. وفي تـارة ثالثـه تخلـت المـرأة عـن بعض أدوارهـا فأتت عـلي بقيـة بنـاء العائلـة، بحيـث نسـتطيع القول بـأن هذه الطاقـة الشريـرة أزدات قـوة بالانهيارات التـي حدثـت في فضـاء الأسرة. ونجحـت في نقلهـا إلي بنـاء الأسرة في المجتمعـات الغربيـة، فبـدأت بدورهـا تعـاني الأنهيـار والتمـزق ، الـذي إذا إسـتمر عـلي هـذا النحـو بتوجهاتـة ومعدلاتـه فسـوف تـؤدى إلي إنهيـار بنـاء المجتمـع وتمزيـق نسـيجه .

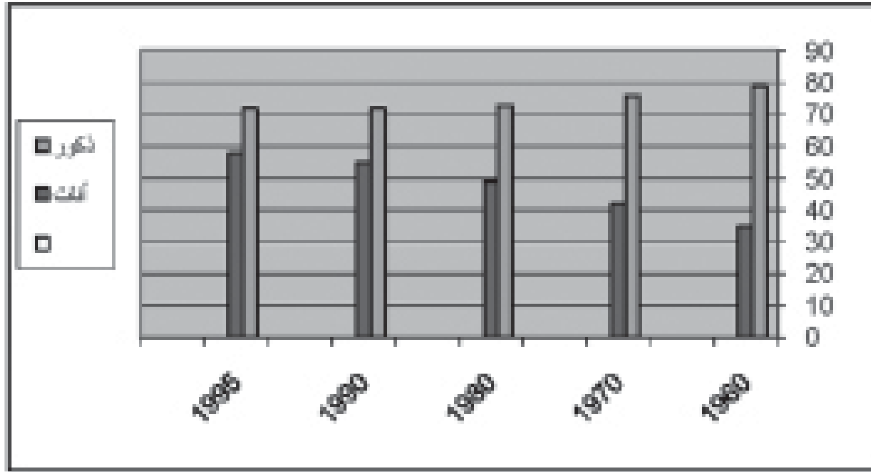
أسـتناداً إلي عديـد مـن الدراسـات نسـتطيع التأكيـد عـلي أن الأسرة الغربيـة عانـت مـن مظاهـر إنهيـار عديـدة، أعجزتهـا مـن ناحيـة عـن ان تقـوم بوظائفهـا

الأساسية بالنسبة للمجتمع ، كما أعاقتها في ذات الوقت عن أن تكون وحدة من وحدات إنتاج رأس مال اجتماعي . ونحن إذا تأملنا أوضاع الأسرة النووية الغربية، فسوف نجد أن هذا الانهيار سببته متغيرات عديدة، وتعد المتغيرات الاقتصادية هي المتغيرات الأولي في هذا الصدد، حيث يؤكد بعض الباحثين على أنه يمكن نسبة إنهيار الأبنية الأسرية إلي جملة العوامل الاقتصادية، التي تضم إفتقاد الوظائف إضافة إلي إنهيار الأجور ، وهى الانهيارات التي عملت دولة الرفاهية بإتجاه التخفيف من آثارها لتقليص مستوي الفقر في المجتمع (١).

ويدخل ضمن العوامل الاقتصادية دخول المرأة بكثافة إلي سوق العمل، في هذا الاطار يؤكد جاري بيكر Gary Becker أن دخل المرأة من العمل له علاقة بإنهيار الأسرة ، وذلك يرجع إلي أن زيادة دخل المرأة جعل من الممكن بالنسبة للمرأة أن تعول نفسها وأطفالها دون الاعتماد علي الزوج . وقد نتج عن ذلك إضعاف مسئولية الأب عن الأسرة، ومن ثم فقد أدي ذلك بدورة إلي تقوية حاجة المرأة، لأن تسلح نفسها بالمهارات المهنية والوظيفية. حتي يؤمنهن ذلك من الاعتماد علي أزواجهن الذين تتناقص الثقة بهم (٢). وإرتباطا بذلك فقد قفزت نسبة مشاركة الاناث فى قوة العمل من ٣٥٪ في بداية هذه الفترة التي أستغرقت خمسة وثلاثون عاما إلي ٥٥٪ ، بينما تراجعت مشاركة الذكور من ٧٩٪ في بداية الفترة إلي ٧١٪ في نهايتها، وذلك علي النحو الذي يوضحة الشكل البياني التالي :

شكل رقم (١)

المشاركة في قوة العمل علي أساس النوع



ولم يتوقـف الأمـر عنـد هـذا الحـد ، حيـث نجد أنه قـد وقعت تغيرات موازية في متوسـط الأجـور . تأكيـداً لذلـك أن تأمـل أجـور الذكور يشـير إلي أنهـا الآن أكـثر إنخفاضا مما كانـت عليها في السـبيعنيات مـن القـرن العشريـن . في مقابـل ذلك فإننا نجـد أن أجور الاناث قد بـدأت ترتفع بعد أنخفضـت أثنـاء الحـرب العالميـة الثانية وما زالـت تواصل أرتفاعها حتـي الآن . ويذهب جاري بيكر إلى القـول بـأن الفـترة التاليـة للحـرب العالميـة الثانيـة هـي الفـترة التـي شـهدت أنخفـاض معدلات الطـلاق، إضافـة وقـوع تحسـن في معـدلات الخصوبـة، وكذلـك مسـتويات الاسـتقرار العائـلي . ولا يمكـن إعتبـار الأمـر مصادفـة إذا أدركنـا أن متوسـط الأجـور قـد إرتفـع خـلال هـذه الفـترة لصالـح الذكـور . غـير أننـا نلاحـظ مـن ناحيـة أخـري أن معـدل الأجور تحـول بصورة حـادة لصالح النسـاء، بدايـة مـن عـام ١٩٦٧ تقريبـا، إرتباطا بذلـك كما لاحظنا فإن عام ١٩٦٧ شـكل نقطـة الداية للأنهيار الكبـير، الـذي أصـاب الأسرة والمجتمـع الأمريكي (٣).

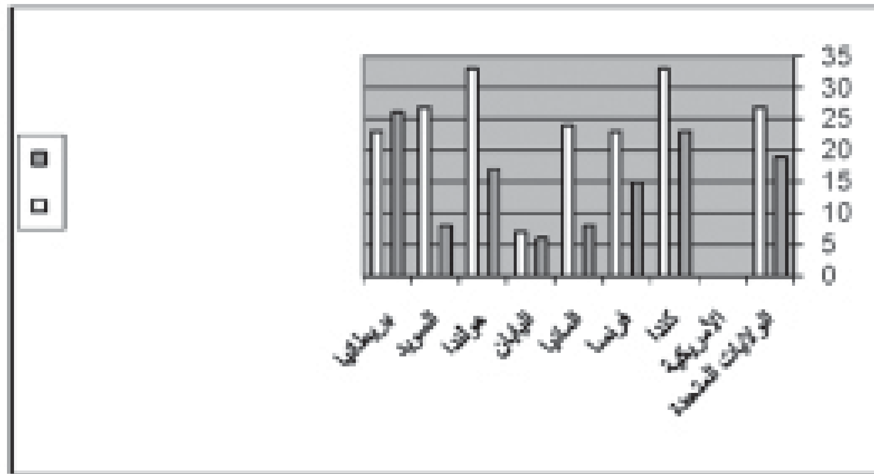
وفي محاولــة التعــرف عــلي طبيعــة العلاقــة بــين مشــاركة المــرأة في قــوة العمــل ومعانــاة بنــاء اسرة مــن بعــض الظواهــر الســلبية ، إتضــح لنــا أن ثمــة علاقــة بــين مشــاركة المــرأة في قــوة العمــل وإرتفــاع معــدلات الطــلاق في الفــترة مــن ١٩٧٠-

١٩٩٠ في تسع دول غربية من أوربا إضافة إلي الولايات المتحدة الأمريكية . وقد أوضحت البيانات ان هناك إرتباطا قويا بين إلتحاق المرأة بقوة العمل، والتغيرات في نسب ومعدلات الطلاق، وذلك علي النحو الذي يوضحه الشكل التالي :

شكل رقم (٢)

التغيرات في معدلات الطلاق متضافرة

مع مشاركة المرأة في قوة العمل



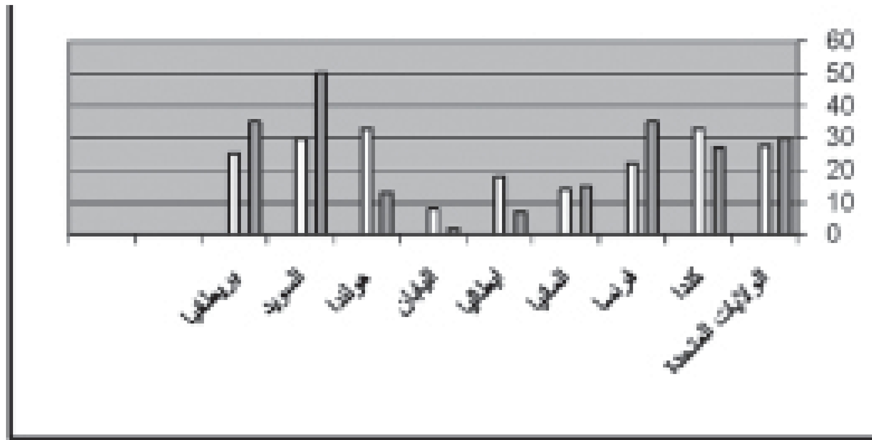
وذلك يرجع بطبيعة الحال إلي أن التحاق المرأة بسوق العمل أسس لها أولويات جديدة ، وفي مجتمع تؤكد قيمة علي تحقيق الذات وإشباع الذات ، فإن الاهتمام بالجماعة يتأكل إلي حد كبير. ذلك بالاضافة إلي إنخفاض قيمة الأبناء كما أشرت ، مؤشر ذلك النسبة العالية من النساء اللائي يتخلين عن أبنائهن لتبنيهم من قبل مؤسسات أو اسر أخري . في هذا الإطار نستطيع التأكيد علي ان الحضارة الغربية قد رفعت من شان الاقتصاد وحققت نجاحاً أعلي في هذا الصدد، ولكن ذلك كان علي حساب تراجع قيمة الأبنية العائلية وإنهيارها . ويتزامن مع ذلك أن ذات الحضارة أعلت من شأن القيم المؤكدة علي الفردية في مقابل تقليص القيم المعيارية التي تؤكد علي المرجعيات الجماعية. بالاضافة إلي ذلك فقد أدت مشاركة المرأة في قوة العمل بكثافة إلي ارتفاع معدلات الأطفال غير الشرعيين ، يؤكد ذلك دراسة أجريت علي تسع دول أوربية ، أوضحت فيها

أن ثمة إرتباط قوي بين هذين المتغيرين ، وذلك علي النحو الذي يوضحه الشكل التالي :

شكل رقم (٣)

مشاركة المرأة في قوة العمل

وإرتفاع معدلات الأطفال غير الشرعيين



ويرجع وجود هذه العلاقة بين المتغيرين، إلي أن المرأة المشاركة في قوة العمل تكون قد تخلت عن مرجعيتها العائلية، المتمثلة في الأسرة النووية الهشة في هذه المجتمعات. في مقابل إهتمامها بالصعود المهني الذي يدعم بإستمرار ثورة الطموحات لديها ، وهو الأمر الذي يؤكد لديها فرديتها ، والقيم المرتبطة بالفردية، وكذلك الحصول علي المتع والاشباعات الفردية . ومن بين هذه المتع الحصول علي الاشباع الجنسي من خارج الإطار الأسري إذا كانت متزوجة . ومن الطبيعي أن يحدث حمل من بعض هذه المعاشرات ، خاصة إذا كانت الأناث غير متزوجات. الأمر الذي يؤهلهم للحمل غير الشرعي ، والانجاب غير الشرعي كذلك ، وهي الأوضاع التي تؤكد علي قوة العلاقة بين المتغيرين ، بحيث أننا نجد أن ارتفاع فاعلية أحدهما، سوف يساعد فى تفعيل آداء المتغير الآخر.

وإذا كان الفقر في بعض المجتمعات يلعب دوراً له فاعليتة في هز البناء الأسري حتي إنهياره ، وهو ما يعني أن المتغيرات الاقتصادية في آدائها السلبي

يمكـن أن تلعـب هـذا الـدور . غـير ان المتغـيرات الاقتصاديـة في آدائهـا الإيجـابي يمكـن أن تـؤدي إلي إنهيـار بنـاء الأسرة كذلـك، تأكيـد لذلـك أننـا نجـد عديـد مـن الدراسـات التـى تؤكد علي مسـئولية دولـة الرفاهيـة عـن إنهيـار الأسرة في المجتمعـات الغربيـة . إرتباطـا بذلـك يـري البعـض أن دولـة الرفاهيـة هـي سـبب الإنهيـار الأسري، وليسـت علاجـاً لـه وذلـك بسـبب الظـروف الاقتصاديـة التي تمنحهـا الأسرة (٤). وسـواء كانـت دولـة الرفاهيـة توفـر الرعايـة الاقتصاديـة لـلأسرة ككل ، أو توفـر الرعايـة الاقتصاديـة لأعضائهـا فـرادى ، مـا دامـت الحاجات الأساسـية لأعضـاء الأسرة يمكن إشـباعها مـن غـير وجودهـا، الأمـر الـذي يؤسـس قابلية الاسـتغناء عنهـا ، ومن م الدفـع بـالأسرة إلي الإنهيار .

ويلعـب المتغـير المعيـاري دوراً بـارزاً في هـذا الصـدد، تأكيـدا لذلـك أننـا قـد أشرنـا إلي القطيعـة التـي أسسـها التطـور الأوربي مـع الـتراث التقليدي، وهو الـتراث الذي يتضمـن قيم الدين، إضافـة إلي الثقافـة الأخلاقيـة للمجتمـع . وإذا كانـت ثقافـة المجتمـع التقليـدي تعتمـد عـلي الأسرة بالأسـاس بإعتبارهـا الحاملـة للـتراث ، حتي تنقله عبر الأجيـال المتتابعة . وإذا كانـت البنية المعيارية التقليديـة للمجتمـع قـد تاكلـت فـإن ذلـك يدفع إلي تخلـق ظرفين، يدعـمان إنهيـار الأسرة ويدفعها بإتجـاه الـزوال . ويتمثـل الظـرف الأول في بـروز الفردية داخـل الحياة الأسريـة ، فالقيم المؤكدة علي الجماعـة قـد إنسـحبت بإنسـحاب المجتمـع التقليـدي، وثقافـة المجتمـع المحيـط تؤكـد عـلي الفـرد دائمـا . ومـن ثـم يتخـلي الأفراد عن إنتمائهم إلي الأسرة، مسـتبدلين إياه بالانتـماء إلي الذات، فالأسرة مـن وجهـة نظـر الانسـان الغربي لم تعد مجالاً لاشـباع الحاجات الأساسـية . ويتمثل الظـرف الثاني في التطـور التكنولوجـي والاقتصـادى الـذي فـاق الحـدود ، وهـو التطور الـذي خلق سـوقا للعمل أكثر ملاءمة للعمالة النسائية وليست الذكورية . الأمر الذي دفع كثير من النساء إلي الالتحاق بالاقتصاد، ولـوكان ذلـك علي حسـاب القرابة والأسرة . ويشـتق من التطور التكنولوجـي العام تطورا تكنولوجي فرعـي، يـسر الجنس الحر بدون نتائج سـلبية أو مشـكلات ، الأمر الذي دفـع إلي تحقيق أفراد الأسرة لاشـباعاتهم خارجهـا ، مـما قلـل مـن أهميتهـا . عـلي حـين يتمثـل الظـرف الثالـث في توسـيع معني

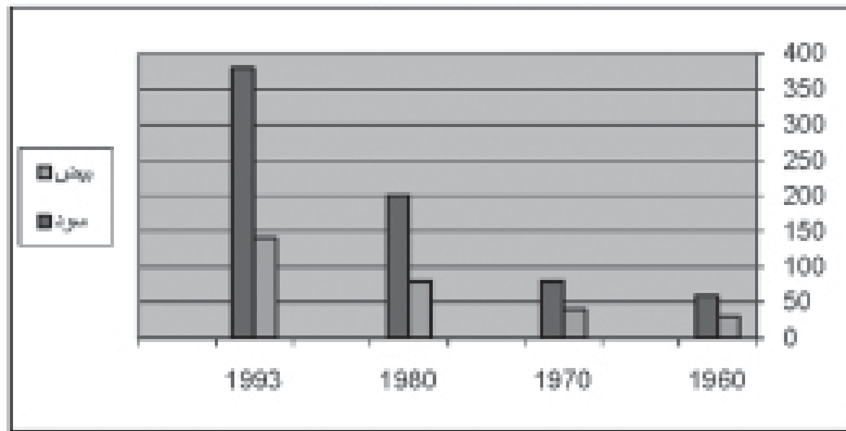
الأسرة، فـالأسرة في الثقافـة الغربيـة المعـاصرة ، خاصـة الـدول الاسـكندنافيه قـد تكـون بـين رجـل ورجـل آخـر كـما هـي الحـال في بعـض المجتمعـات الأوربيـة ، أو بـين إمـرأة وأخـري بـذات المنطق . وفي نطـاق هـذا التعـدد لأشـكال الأسرة يتـآكل الشـكل الشرعـي والمـشروع لـلأسرة النوويـة، التـي تشـكل إحـدي بقايـا المجتمـع التقليـدي.

ذلـك يدفعنـا إلي التسـاؤل حـول حالة الإنهيار التي تعاني منهـا الأسرة في الحضارة الغربية الآن، حيـث نجـد لذلـك مظاهـر كثيرة وعديـدة . ويتمثـل أول مظاهر الإنهيـار في إنخفاض معدلات الـزواج في المجتمعـات الغربيـة، وذلـك للأسـباب التـي اشرنا إليهـا، والتي تشـير إلي أن الأسرة النووية التقليديـة، لم تعـد الإطـار الـذي يشـبع في نطاقـه غالبية البـشر إحتياجاتهـم (٥). ويتكامل مع ذلك سـلبيا إرتفـاع معـدلات الطـلاق إلى أربعـة أضعـاف ، الأمـر الـذي يشـير إلي إنهيـار واضـح في الأبنيـة الأسريـة، ويوضـح الشـكل التالي إرتفـاع معدلات الطـلاق في الولايات المتحـدة الأمريكية .

شكل رقم (٤)

معدل الطلاق لكل ١٠٠٠ من الاشخاص

المتزوجين في الولايات المتحدة



وإتسـاقا مـع ذلـك فقـد عانـت المجتمعـات الأوربيـة مـن هـذه الزيـادة الكاسـحة في مسـتويات الطـلاق، وفي كثـير مـن المجتمعـات كانـت المعـدلات مرتفعـة كـما هـي الحـال في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. فبعـد أن إنخفضـت معـدلات

الطلاق نسبيا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أنها تصاعدت بعد ذلك فى بعض المجتمعات الغربية مثل الولايات المتحدة الأمريكية. بطبيعة الحال كانت هناك خصوصيات فردية ، إذ بينما شهدت ألمانيا الغربية وفرنسا معدلات طلاق متدنية نسبيا ، نجد أن المجتمعات الإسكندنافية وبريطانيا، قد شهدتا معدلات طلاق عالية . علي حين نجد أن مجتمعات أوربية كاثوليكية مثل إيطاليا وأسبانيا والبرتغال لم تشرع الطلاق حتي فترة متأخرة ، شغلت الفترة من ١٩٧٠ -١٩٨١. وبمجرد تشريع الطلاق وجدنا أن معدلات الطلاق بدأت تتصاعد بسرعة في هذه المجتمعات (٦) مثال علي ذلك إحصائيات الطلاق والانفصال في كل من إيطاليا وأسبانيا برغم أنهما من المجتمعات التي تنخفض فيها معدلات الطلاق .

جدل رقم (٢)

معدلات الانهيار الزواجي

في أيطاليا لكل ١٠٠,٠٠٠٠ من السكان

	١٩٧١	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٨٦	١٩٨٨
الانفصال الشرعي	٠,٣٢	٠,١٩	٠,٢١	٠,٢٩	٠,٤٤
الطلاق	٠,٣٢	٠,٦	٠,٢١	---	٠,٤٤

الطلاق والانفصال في أسبانيا

	١٩٨١	١٩٨٥	١٩٨٨
الطلاق	٩,٤٨٣	١٨,٢٩١	٢٢,٤٤٩
الانفصال	٦,٨٨٠	٢٥,٠٤٦	٣٣,٢٤٠

وتشير قراءة المعطيات المتعلقة بإحصاءات الطلاق إلي ثلاثة حقائق أساسية، حيث تشير الحقيقة الأولي إلي إرتفاع معدلات الطلاق بصورة واضحة في الولايات المتحدة الأمريكية وفي الدول الاسكندنافية. وهي الدول التي تأكلت فيها أدوار المرأة تماما، علي النحو الذي أشرت إليه، حيث الحرية الجنسية الكاملة ، وحيث التخلي السهل عن الأبناء بدون أي وصمة أجتماعية ، إضافة إلي إنخفاض قيمة الأبناء في هذه الدول . وتتمثل الحقيقة الثانية في

إنخفاض معدلات الطلاق في الدول الكاثوليكية، بإعتبارها الدول التي لم تكن تبيح الطلاق، وهو ما يعني وجود صراع كامن بين التطورات الواقعية ، وضغط المرجعية المعيارية التي ترفض الطلاق . وتتمثل الظاهرة الثالثة في تقليص المرجعية الدينية التى كانت قوية، لمعدلات الطلاق، قد يذهب البعض إلى أن في ذلك كبت لرغبات البشر ، الاجابة علي ذلك تستدعي عبارة فرويد حول لزومية الكبت لبناء الحضارة .

ذلك يعني أن طاقة الشر حصلت علي قوة دفعها وزخمها من تآكل أدوار المرأة والانهيار الذي أصاب بناء هذه الأدوار ، حيث تحررت غالبية الأدوار الأسرية من إلتزاماتها، التي تساعد علي تأسيس حالة الاجتماع السوي. الأمر الذي إشاع حالة من الفوضي تعاظمت حتي إنتقلت إلي ساحة بناء الأسرة، التي ظهرت في إطارها مجوعة من المتغيرات الجديدة التي إضيفت إلي طاقة التقويض. فدفعت إلي الانهيار الشامل، الذي لا تقف في مواجهته حواجز تعوقه، في بناء الأسرة الغربية، حيث تقلصت معدلات الزواج وإرتفعت معدلات الطلاق والانفصال. وظهرت أشكال جديدة من الأسرة التي تشكك في محورية الأسرة النووية ، بحيث ساعدت هذه الظروف فى دفع طاقة الشر لكي تلعب دورها علي ساحة المجتمع فتعمل علي تمزيق نسيجه وتفكيك أواصرة .

ثانياً: قوة الحضارة الشريرة تسعي لتفكيك المجتمع

تحركت القوة الشريرة الموجهة للحضارة الغربية، والتي تشكلت من متغيرات عديدة أشرنا إليها إلي مجال المرأة، فقامت بتفكيك أدوارها ، وتفكيك الأسرة ترتيبا علي ذلك، بإعتبار ان المراة تشكل قاعدة الأسرة ومحورها . ثم تدفقت هذه القوة بعد ذلك إلي المجتمع كى تنشر ظاهرة الانحراف والانهيار علي كل ساحاته حتي وقع ما يمكن ان يسمي بفترة الانهيار الكبير. وهي الفترة التي إمتدت من ١٩٦٥-١٩٩٥ والتي شهدت زلزالاً إجتماعيا هائلاً، لم تواجهة الحضارة الغربية منذ الثورة الصناعية . حيث إنهار سبب أو مبرر وجود الزواج، فلم يعد الرجال مجبرين لأن يقصروا ذكورتهم علي النساء، أو أبوتهم

علي الأطفال الذين عليهم أن يدعمونهم إقتصاديا. ولم تعد النساء يعتمدن علي الرجال ، وأصبحن يدعمن أنفسهم وأطفالهن بصوره متزايده ومستقله، بالاعتماد علي أنفسهن أو من خلال الاعتماد علي الدولة . ونتيجة لكل ذلك وجدنا جيلاً كاملاً ينمو بدون آباء يتولون تنشئتهم ، جيل كامل كبر وهو يعاني من الفشل التعليمي والعنف والجريمة أكثر مما عانت الأجيال السابقة (٧).

لقد شهدت فترة الانهيار الكبير إنهيار كل أنماط الحياة الاجتماعية التي كانت مستقرة ، والتي إنهارت بسبب التغير المحوري الذي وقع وأدى إلي إنهيار الأسرة النووية . حيث أدي إنهيار هذا النمط الأسري إلي وقوع سلسلة من التغيرات الاجتماعية التي طالت المعايير الاجتماعية، مع كل الآثار والنتائج التي ترتبت علي ذلك. بما في ذلك إرتفاع معدلات الجريمة ، وسوء معاملة الطفل والفقر ، وإنهيار الانجاز التعليمي ، وحتي إنهيار الميل إلي التضامن أو المشاركة المدنية التي إهتم بها بوتنام Putnam . وفي محالة البحث عن الأسباب التي أدت إلي هذه الانهيار، فسوف نجدها معقدة وتنتج عن التفاعل بين التغيرات الاقتصادية والتكنولوجية من ناحية وبين القيم والمعايير الاجتماعية من ناحية ثانية (٨).

ويعتبر الانهيار الذي أصاب الأسرة هو الخطوة المبدئية لجملة الانهيارات الغالبة، وإذا كان قيام المجتمع الصناعي الأول، قد أدي إلى تراجع المجتمع التقليدي، لكي يحل محله المجتمع الحديث . فإن تراجع المجتمع التقليدى تضافرت معه مجموعة من التغيرات الشاملة ، فقد تراجعت التكوينات القرابية الكبيرة وأبرزها العائلة الممتدة ، مع تراجع مكانة الثقافة التقليدية، ومنظومات القيم الدينية والتراثية، التي برع هذا النمط العائلي في نقلها من جيل إلي آخر . وإذا كانت الثورة الصناعية الأولي قد أحاطت بالأنماط العائلية التقليدية، فإن الانهيار الكبير، الذي نتج عن المجتمع التكنولوجي المتقدم يتمثل فى أنه قد أطاح بالعائلة النووية، التي أصبحت هشه وضعيفة وفقدت غالبية وظائفها ، ثم أصبحت الحلقة الأخيرة في سلسلة تطور البنيات العائلية . لقد أصبح سياق هذه العائلة وثقافتها، لا يتلاءم كثيراً مع سياق العقود الثلاثة الأخيرة من القرن

العشريـن، والتـي تسـودها القيـم الفرديـة، حيـث سـقطت عنهـا المعايـير الاجتماعيـة التـي أعتبرت عنـاصر مـن بقايـا المجتمـع التقليـدي . ونظـراً لعدم أتسـاق هذه العائلة مع سـياقها، فقـد تراكمت الضغـوط عليهـا مـن كل إتجـاه، فإنهـارت تحـت وطأتها ونقلـت إنهيارهـا إلي المجتمع .

وبالإضافـة إلي الضغـوط التـي فرضـت عـلي العائلـة النووية ، طرحت علي السـاحة أشـكال مـن الأسر العديـدة، التـي تكاثـر وجودهـا وإتسـعت المسـاحة التـي شـغلتها ، وكان ذلـك بطبيعـة الحـال عـلي حسـاب تقلص مسـاحة الأسرة النووية . وتعـد الأسر التوليفية أو المؤتلفة أحد الأشـكال، التـي ظهـرت علي السـاحة نتيجـة لإرتفاع معـدلات الطلاق، في المجتمـع أو الإنجاب خـارج الشرعية الزواجيـة أو تكـرار الـزواج، حيـث يكـون لأحـد الزوجـين أبنـاء مـن زيجـة أو علاقة سـابقة . وتشـير أوضـاع هـذا النـوع مـن العائـلات إلي أنهـا لا تخلو من مشـكلات، فمـن المحتمل من ناحيـة أن تترك العوامـل البيلوجيـة والجينيـة لـلأب أو لـلأم السـابقين أثارها عـلي أبنائهما في وقت لاحق في السـياق الجديـد . يضـاف إلي ذلـك أن العلاقـات بـين الزوجـين المطلقـين الذيـن قـد يتزوج أحدهما يسـودها التوتـر ومشـاعر العـداء التـي قـد تنعكـس سـلبا عـلي الأبنـاء . كـما أن هـذا النمـط مـن العائـلات التوليفيـة يضـم ويدمـج أطفـالاً يأتـون مـن منابـت مختلفـة ، قـد تكـون لهـم أنمـاط سـلوكية أو توقعـات، لا يمكـن إسـتيعابها أو تكاملهـا مـع السـياق الجديد في الـزواج الثاني . وليـس هناك معايير إجتماعيـة متعـارف عليهـا في أي مـن المجتمعـات الغربيـة المعاصرة اليـوم، لما ينبغـي أن تكون عليه العلاقـة يـن أفـراد هـذا التجمـع الجديـد مـن الآبـاء والأمهـات والأطفـال ، سـواء منهـم الأصـلاء أو البـدلاء . وقـد قدمـت دراسـات عديـدة وأجريـت بحوث شـتي حـول أنمـاط العلاقة التي قد تسـود هـذه الأوضـاع، والتـي تـتراوح بـين الإنسـجام والتوتـر والفتـور والتنافـر والتفـكك بـين أفـراد هـذا النمـط مـن العائـلات (٩). كـما أجريت دراسـات عـن الأسرة في المجتمعات الغربية حول ما يسـمي ظاهـرة «الأب الغائـب»، أي الوالـد الـذي انقطعـت الاتصالات والعلاقـات بينه وبين أطفاله بسـبب الطـلاق أو أي إعتبـارات أخـري (١٠).

بالإضافــة إلي ذلــك فقــد بــدأت نوعيــة حيــاة المجتمــع المفــكك في الغــرب تطــرح

أشكالاً جديدة من الأسر . من هذه الأشكال نمط الأسرة النووية بالمعاشرة ، التي يعيش في إطارها رجل وأمرأة بالغان سويا ولمدة طويلة نسبيا من الزمن تحت سقف واحد، حياة زوجية بكل المقاييس، بدون الارتباط رسميا برابطة الزواج . وقد أسبغ الطابع القانوني علي جوانب عديدة من هذه العلاقة التعايشية، مثل حقوق التملك والإرث في عدد من المجتمعات الغربية (١١). وتشير أخر المسوح الاجتماعية التي أجريت في دول الاتحاد الأوربي إلي أن نسبة من يرفضون هذا النمط من الأسر ويعتبرونها أمراً سيئا هي الأعلي في أيرلندا ، فإيطاليا ثم بلجيكا. بينما ترتفع نسبة المؤيدين الذين يرون أن المعاشرة أمر حسن ومقبول، في لوكسمبورج والمانيا ثم اليونان وفرنسا إضافة إلي الولايات المتحدة الأمريكية(١٢).

نمط أخر من الأسر يشير إلي إنهيار أخلاق الحضارة وتنامي فاعلية القوة الشريرة في سياقها، وهو النمط الذى يتمثل في ظاهرة الأسرة المثلية والسحاقية . حيث بدأت تنتشر في عدد من المجتمعات الغربية ظاهرة التساهل أو التسامح تجاه العلاقات الجنسية المثلية، بين اللواطيين من الرجال والسحاقيين من النساء . الذين قد تتكثف علاقاتهم في هذه النمط ليشكلون أسراً تعيش تحت سقف واحد . وفي حين تتخذ الغالبية العظمي من مجتمعات العالم غير الغربية موقف الرفض والادانة لهذا التمط من الممارسات، او لأشكال الأسر التي قد تتشكل مستندة إليها . فإن عدداً من مجتمعات الحضارة الغربية قد أسبغت علي المعاشرات الجنسية المثلية طابع القبول، بل أدخلتها في عداد العلاقات الزواجية الرسمية في كثير من الجوانب (١٣). ويري بعض الباحثين أن الانتشار الوبائي لمرض الإيدز «نقص المناعة المكتسبة» قد أدي منذ أوائل الثمانينيات من القرن الماضي إلي شيوع هذه الظاهرة بين المثليين من الجنسيين وخاصة الرجال. وإلتزامهم بهذا النوع من المعاشرة الجنسية، خشية أن يوردوا أنفسهم موارد التهلكه من خلال علاقات جنسية أكثر تحللا وتعدداً مع ذكور آخرين (١٤)، بحيث تشكل العلاقات الجنسية داخل هذا النمط، خروجا علي الفطره والقانون وتدان بإعتبارها تهبط بالدرك الأنساني إلي ما هو أدني من الدرك الحيواني .

وإرتباطا بهـذه الأوضـاع الأسريـة المفككة والتـي تعمل عـلي تفكيك أوصـال المجتمع، ظهر في الحضـارة الغربيـة بخاصـة المجتمـع الأمريـكي مـا يمكن أن يسـمي بأزمـة الذكـورة . حيث دفعت المجتمعـات الغربيـة الرجـل إلي التخـلى عـن دوره وعـدم الوفـاء بإلتزاماتـه المتوقعة . وتري سـوزان فالـودي S. Fahedi في وصفهـا وتحليلهـا لأزمـة الذكـورة في نهايـة القـرن العشريـن، أن المجتمع قام أيضـا بـدوره بخيانـة الرجـال عندمـا أخفـق في توفير فـرص العمل لهـم ، وأنقص أجورهـم، وطالبهم بقضـاء سـاعات طويلـة فى أماكـن عملهـم، في الوقت نفسـه هـدد بحرمانهم من عملهـم وأفقدهم الآحسـاس بالأمـان الوظيفـي ، وعمـل بالتـالي عـلي تقويـض دورهـم المأمـول، بإعتبارهـم مسـئولين وقائمـين عـلي شـئون عائلاتهم. وقد كشـفت دراسـة «فالودي» عـن أن رابطة الزواج لم تعد مسـتقرة وثابتـة كـما كانـت في المـاضي، كما ان أدوار الرجـال في مختلف المجالات الاجتماعيـة قد أخذت كلها بالتضـاءل . وتخلـص «فالـودي» إلي أن الرجـال في المجتمعات الغربية وفي المجتمـع الأمريكي يعانون مـن أزمـة عميقـة، فقـد بـدأوا يشـكون في قدرتهـم وجدواهـم الاجتماعيـة، في الوقـت الـذي بدأت تتـآكل فيـه الـولاءات والالتزامـات والأدوار التقليديـة تحـت وطـأة الثقافـة الاسـتهلاكية ومعطيـات المجتمـع الاسـتهلاكي الحديث (١٥) .

وتعـد الجريمـة والسـلوك الانحـرافي احـد مظاهـر تفـكك المجتمـع الغـربي المعـاصر، ويمكن القـول بتوقـع ارتفـاع معـدلات الجريمـة نظراً لتوفـر الظروف التـي تفترض هذا الإرتفـاع . حيث قوة النزعـة الفرديـة وإنهيـار الأسرة التـي تشـيع الدفـئ في حيـاة البـشر، إضافـة إنهيار منظومـات القيم والمعايـير، التـي كانـت تشـكل موجهـات ضابطة للسـلوك الفـردي في مختلف المجـالات الاجتماعية. بحيـث تضافـرت مسـاحة الجريمـة والانحراف مع مسـاحات أخري من الانهيـار في مختلف المجالات .

وفي محاولـــة التعـــرف عـــلي أنمـــاط الجرائـــم الأكـــثر شـــيوعاً في المجتمعـــات الغربيـــة فســـوف نجـــد أن الجرائـــم التـــي تتســـم بالعنـــف تقـــف عـــلي رأس هـــذه الجرائـــم. غـــير أن تأمـــل حجـــم هـــذه الجرائـــم يشـــير إلي أن الولايـــات المتحـــدة الأمريكيـــة تفـــوز

مـن بـين المجتمعـات الغربيـة بنصيـب الأسـد. ذلك يرتبط مـن ناحية بـأن نمط الحيـاة في الولايات المتحـدة الأمريكيـة يمثـل المسـتوي الأعـلي لتطـور الحضـارة الغربيـة. حيـث أصبحـت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة هـي الـذي يوجـد بهـا أكـثر المظاهـر سـلبية، تلـك التـي وصلـت إليهـا الحضارة الغربيـة سـواء عـلي الصعيد الخارجـي أو الداخلي. فإذا تأملنا الحقائق المتعلقة بالسـلوك الاجرامى فى هـذه المجتمعـات فسـوف نجـد أن الولايـات المتحـدة هي الأكـثر تفوقـا، وأن اليابان هـي الأقل ، وذلـك يرجـع لحالـة الاسـتقرار الاجتماعـي في كليهـما ، وكذلك حالة تماسـك وقوة الأبنيـة الأسرية في كليهـما . فـالأسرة اليابانيـة هـي الأكـثر تماسـكا وقـوة مقارنة بـالأسرة الأمريكية ، يضـاف إلي ذلك أن منظومـات القيـم والمعايـير ذات الطابـع الدينـي والـتراثي، مـا زالـت تلعـب دوراً في المجتمـع الياباني بينـما هـي قـد أصبحت أثـراً بعد عـين في المجتمعـات الغربية وبخاصـة الولايات المتحـدة الأمريكية . ونحـن إذا تأملنـا المعطيـات المتعلقـة بالسـلوك الاجرامـى فسـوف نجـد أن جريمـة الاغتصاب هي الجريمـة الأكـثر إنتشـاراً في أبـرز المجتمعـات الغربيـة وهـي الولايات المتحـدة الأمريكية ثم السـويد ثـم ألمانيـا . ومـن طبيعة جريمـة الاغتصاب أنهـا ذات طبيعة أخلاقية بالأسـاس، وأن كثافة أنتشـارها يعنـي أن عطبـا أو إنهيـاراً أصـاب الأخـلاق العامـة للمجتمـع ، التـي تعـد في ذات الوقـت أخـلاق الحضـارة ذاتها .

ويتسـق مـع ذلـك أنتشـار جرائم الاعتـداء علي الممتلـكات في مجتمعـات الحضـارة الغربية مقارنـة باليابـان . وإذا كان إسـتقطاب الفقر والغنـي يفسر وقوع هذه الجرائم ، التي من المتوقع أن يرتكبهـا أبنـاء أكـثر الشرائح فقراً بسـب الظـروف الاقتصادية والاجتماعية التعسـة التي يعيشـون في ظلهـا. في مقابـل جرائـم أصحـاب الياقات البيضاء للمجرمـين والمنحرفين من أبناء الطبقة المتوسـطة والعليـا . فـإن إرتفـاع وقـوع هذه الجرائم يشـير إلي إنهيـار في الأبنية الأسرية، وكذلـك إنهيار أو حتي تآكل المعايير الاجتماعية الموجهة للسـلوك بدلالة ان اليابان، برغم نهضها الصناعية المتطورة ألا أنها حافظـت عـلي الأبنيـة العائليـة التى مـا زالت قوية ، بـل إنها وجهـت الاقتصاد اليابـاني لدعم الأبنية الأسريـة. بحيـث تأسسـت علاقـة متبادلـة تشـير إلي أنه كلـما تطور الاقتصـاد الياباني كلـما تدعمت

الأسرة اليابانيـة. الأمـر الـذي وجدنـا إنعكاسـاً لـه في إنخفـاض الجرائـم ضـد الممتلـكات في المجتمع اليابـاني مقارنـة بالمجتمعـات الغربية.

وبتأمـل البيانـات المتعلقـة بالجرائـم فسـوف نجـد أنـه يوجـد إرتفـاع عـام في مجتمعـات الحضـارة الغربيـة، فيـما يتعلـق بإرتفـاع معـدلات جرائـم الاعتداء عـلي الممتلـكات مقارنـة باليابان . حيـث ترتفـع معـدلات الجرائـم بصـورة عاليـة للغايـة بالنسـبة لجرائم سرقة السـيارات او السـطو عـلي المنـازل أو السرقـة والنشـل جميعـاً . فـإذا تأملنـا حالـة اليابان فسـوف نجد أن لديهـا معدلات متدنيـة للغايـة مـن هـذه الجرائـم، وبرغـم تسـاوي ظـروف عديـدة بـين اليابـان مـع غالبيـة دول الحضـارة الغربيـة كـما أشرنـا، سـواء مـن حيث مسـتوي التقـدم الصناعي الـذي بلغتـه أو من حيث إرتفـاع متوسـط نصيـب الفـرد من الدخـل القومـي. إلا أن النسـيج الاجتماعي للمجتمـع الياباني ما زال قويـا للغايـة، سـواء مـن حيـث قـوة الثقافـة اليابانيـة، التـى مـا زالت قيمهـا ومعاييرها تسـتند إلي قاعـدة دينيـة وأخلاقيـة إلي حـد كبـير. يضـاف إلي ذلـك أن العائلـة اليابانيـة مـا زالـت مـن أكثر العائـلات تماسـكا في المجتمعـات الصناعيـة المتقدمـة. ذلك إلى جانب التداخل بـين الاقتصاد الياباني والعائلـة اليابانيـة ، بحيـث يـؤدي التقـدم في الاقتصـاد إلي مزيـد مـن التماسـك في العائلـة اليابانية. الأمـر الـذي يجعـل توفـر الدفـئ العائـلي مـن العوامـل التـي تسـاعد الشـباب وصغـار المنحرفـين عـلي مقاومـة الضغـوط الاجتماعيـة، التـي قـد تدفـع بهـم في إتجـاه الإنخـراط في السـلوك الاجرامي والانحـراف . هـذا إلي جانـب أن المـرأة اليابانيـة مـا زالـت تلعـب الـدور الـذي ينبغـي أن يكـون ، حيـث نجـد أن مرجعيتهـا الأساسـية تتمثـل في ادوارهـا العائليـة دون ان تسـقط في خطـأ أسـتبدال مرجعيـة سـوق العمـل بالمرجعيـة العائليـة. ومـن ثـم فالمعايـير والمتطلبـات العائليـة لهـا الأولويـة ، وهـى أيضـا التـي تحـدد الوقـت الـذي تشـارك المـرأة مـن خلالـه في سـوق العمـل ، ومـا هـو نوع العمـل الـذي تختاره .

بالإضافــة إلي ذلــك تعتــبر جرائــم ســوء معاملــة الأطفــال، مــن الجرائــم التــي أصبحــت هــي الأكــثر إنتشــار في مجتمعــات الحضــارة الغربيــة، كــما أشرنــا إلي ســوء التعامــل مــع الطفــل داخــل نطــاق الحيــاة الأسريــة. أو ســوء معاملتــه في المؤسســات

أو الأسر التـي قـد يتـم التخـلي عنـه لهـا، من قبل الأمهـات اللاتي أنجبتـه من خـارج الشرعية ، حيث ترتفـع نسـبة الانجـاب مـن خـارج الشرعيـة الزواجيـة كـما أشرت . ويدخـل في نطـاق سـوء معاملـة الطفـل الايـذاء النفـسي والفيزيقـي للطفـل ، بيـد أن أخطـر أشـكال سـوء معاملـة الطفـل تتمثل في المعـاشرة الجنسـية للأطفـال ، حيـث أرتفعـت معـدلات الاعتـداء عليهـم جنسـيا، حسـبما تشـير إلي ذلـك الإحصـاءات العامـة في الولايـات المتحدة الأمريكيـة (١٦).

وإذا تأملنـا ظاهـرة بغـاء الأطفـال ، فسـوف نجـد أن البغـاء يرتبط عموما من حيث نشـأته وإسـتمراره بتفـكك الجماعـات الأوليـة الصغـيرة كالعائلـة، وكذلـك بظهـور الجماعـات اللاشـخصية الواسـعة التـي حلـت محلها، وبالإمتهـان التجاري للعلاقـات الاجتماعية . ففي الجماعـات التقليدية الصغـيرة الحجـم ، كانـت العلاقات الجنسـية تتعرض للرقابة والضبط بحكـم ظهورها علانية إن آجلاً أو عاجـلاً أمـام أفـراد الجماعـة الانسـانية . امـا في المجتمعـات الحضريـة التقليديـة المتقدمـة ، فقد أصبـح مـن السـهل إقامـة روابط إجتماعية وشـخصية بـين أفراد مجهـولي الهوية وبصـورة غير مرئية (١٧). ويشـير تأمـل ظـروف أنتشـار بغاء الأطفـال إلي تواجدها بصـورة كبيرة في المجتمعـات الغربية ، فمـن ناحيـة ترتفـع نسـبة الأطفـال خـارج الحيـاة الأسريـة ، هـؤلاء الذيـن نتجـوا عـن حمـل غـير شرعـي كـما أشرت وبخاصـة الانـاث . كـما ترتفـع نسـبة الأطفـال الذيـن يوجـدون في ظـروف أسرية غـير مواتيـة ، كأسر الأب البديـل وهـي كثـيرة، يضـاف إلي ذلـك إنهيـار البنـاء المعيـاري والتكوينـات العائليـة كـما أشرت. الأمـر الـذي ييـسر إباحـة ممارسـة البغـاء من قبل الأطفـال الصغـار، إما تحت وطـاة الحاجـة حتـى يضمـن بقـاء الحيـاة وإسـتمرارها. وإمـا تعبـيرا عن حريـة ورغبات شـخصية ، إلي جانـب ذلـك فقـد قطعـت تكنولوجيـا الجنس أشـواطاً كبيرة علي طريـق التطـور، حيث إختراع جبـوب منـع الحمـل ، وتكنولوجيـا الاجهـاض المتطـورة ، ذلـك في مقابـل ضـخ الجنـس مـن خـلال الإعـلام والأفـلام السـينمائية مـن كل إتجاه. ولا تحريم علي شـئ، بحيث أصبح هذا الفضاء المشـبع أو المتخـم بوجـود الجنـس في حـد ذاتـة، دافعـاً لإنتشـار البغـاء الـذي يطـول كل الشرائـح العمريـة بطبيعـة الحـال ، ولأسـباب عديـدة يتركـز في الأطفال .

تاكيداً لذلك تشير دراسة لبغاء الأطفال في الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا، إلي أن أكثر هؤلاء هم من الأطفال المعوزين، الذين هربوا من بيوتهم ثم دخلوا سوق البغاء لتأمين مصدر للرزق . وأن لجوء الأطفال إلي البغاء هو، إلي حد ما ، من النتائج غير المقصورة لتطبيق القوانين التي تحمي الأطفال من العمالة غير المشروعة ، غير أن ذلك لا يعني علي الاطلاق أن هؤلاء الأطفال جميعهم قد هربوا جميعهم من بيوتهم . وقد ميز بعض علماء الإجتماع بين ثلاث فئات واسعة من الأطفال البغايا ، حيث تتشكل الفئة الأولي من الأطفال الهاربين الذين يغادرون بيوتهم، ولا يتقصي أهلهم مصيرهم أو يعودون إلي الهرب حالما يعودون إلي اهليهم . وتضم الفئة الثانية المتشردين الذين يقيمون مع أهلهم ولكنهم يتغيبون لعدة ليالي في مكان آخر . علي حين تشمل الفئة الثالثة المنبوذين الذين يتجاهل الأهل وجودهم، ولا يعيرونهم أدني إكتراث أو يرفضون وجودهم بصورة تامة . وتشمل هذه الفئات الثلاث الأطفال الذكور والأناث (١٨) وبخاصة الاناث لأن الأمهات اللائي أنجبنهن من خارج الشرعية الزواجية – كما أشرت- يميلون إلي التخلي عن الأناث بدرجة أكثر من الذكور .

وتتجلي لا أخلاقية الحضارة الغربية حينما تستغل حاجة وفقر أبناء الحضارات الأخري لتنشر لديهم صناعة البغاء ، فتفض بذلك عذرية الحضارات الأخري . فقد شجعت الحضارة الغربية إنتشار هذه الصناعة في جنوب شرق أسيا لإمتاع السياح القادمين من الغرب . علي هذا النحو أصبح بغاء الأطفال جزءاً مهما من صناعة السياحة الجنسية في عدة مناطق من العالم مثل تايلاند والفلبين . حيث يجري تنظيم رحلات سياحية جماعية من أوربا والولايات المتحدة لهذا الغرض . وتعود أصول السياحة الجنسية في الشرق الأقصي، إلي الفترة التي كانت تلبي فيها حاجة القوات الأمريكية إلي المومسات خلال حربي كوريا وفيتنام . فقد أقيمت في تلك الأيام آلاف من «مراكز الراحة والترويح» في تايلاند والفلبين وكوريا وتايوان، وما زال بعضها قائما وخاصة في الفلبين لتلبية إحتياجات شحنات ضخمة ومتزايدة من هؤلاء «السياح» ولتقديم خدمات هذا النوع من البغاء للقوات العسكرية المرابطة في المنطقة (١٩).

وتاكيـدأ لذلـك فقـد جـاء في تقريـر نشرتـه منظمـة العمـل الدوليـة عـام ١٩٩٨، أن البغـاء وصناعـة الجنـس في جنـوب شرق آسـيا، قـد إتسـعنا ليصبحـا قطاعـاً تجاريـا كامـلاً العقـود القليلـة الماضيـة . ورغـم الكسـاد الاقتصـادي الـذي تعانيـة كثـير مـن الاقتصاديـات الأسـيوية ، فـإن الطلـب عـلي تجـارة الجنـس يتزايـد بصـورة مطرده . ويعـود ذلك في بعض أسـبابه إلي تدويل هـذه الصناعة . يسـاعد فى ذلـك اتسـاع الفـوارق بـين معـدلات صرف العمـلات بـين الجانبـين الأسـيوي مـن جهـة والعالمـي مـن جهـة أخـري، بحيـث أصبحت السـياحة الجنسـية يسـيرة المنـال قليلة التكلفـة وكثيرة الجاذبيـة للأجانب . ومن الطبيعي أن يسـاعد علي ذلـك إرتفاع معدلات البطالة في هذه المجتمعات الأسـيوية ، ووجـود فائـض سـكاني كبـير ، ومعدلات نمـو أقتصادي مترديـة الأمر الذى يـؤدى إلي دفع بعـض الأسر لأبنائهـم ، الأنـاث والذكـور عـلي السـواء للعمـل في هـذه الصناعـة حتـي تقيـم أودهـا. ونظـراً لتخلـف الأوضـاع الصحيـة في هذه المجتمعـات، يحذر تقريـر منظمة العمـل الدولية من أنه ليـس لـدي العديـد مـن البلـدان التـي تنتـشر فيها صناعـة الجنـس، منظومـة التشريعـات والقوانين والسياسـات الاجتماعيـة اللازمـة للتعامـل مـع العواقـب الوخيمـة لمثـل هـذه الظاهـرة . ومـن بـين النتائـج التـي تنطـوي عليهـا صناعـة البغـاء إنتشـار الإيدز والأمـراض الأخـري الناجمة عـن الإتصال الجنـسي ، كـما أن البغـاء كثـيراً مـا يرتبـط بظواهـر العنـف والاجرام وتجـارة المخدرات و الاسـتغلال وإنتهـاك حقوق الانسـان (٢٠).

ويعتـبر بغـاء المـرأة أحـد مظاهـر تفـكك المجتمـع والحضـارة الغربيـة ، وفي ذات الوقـت أحـد المتغـيرات أو المعـاول الهامـة التـي سـوف تلعـب دوراً في تاكيـد إنهيارهـا . ويتميـز البغـاء في الحضـارة الغربيـة المعـاصرة بـأن المـرأة المانحـة للـذة والرجـل أو الزبـون الـذي يشـتريها لا يعـرف أحدهـما الآخـر عـلي وجـه العمـوم . ورغـم أن الطرفـين قـد يتعامـلان احدهـما مـع الآخـر بصـورة منتظمـة ومتكـررة ، فـإن العلاقـة بينهـما لا تقـوم بالـضرورة عـلي معرفـة شـخصيته دائمـة . حيـث لم تكـن هـذه الصفـة موجـودة في أغلـب علاقـات اللـذة المدفوعـة الأجـر في العصـور الماضيـة(٢١).

وتشير الدراسات إلي أن البغايا في المجتمع البريطاني فى الماضى، وربما في مجتمعات غربية أخري ينتمين إلى الشرائح الأكثر فقراً في المجتمع . غير أن ما يميز البغاء المعاصر عن نظيره في الماضي، يتمثل في أن إعداداً كبيرة من النساء الطبقة الوسطي يقمن بمارسة هذه المهنة . كما أن تزايد معدلات الطلاق قد دفع عدداً من المطلقات للخضوع للإغراء المادي الذي ينطوي عليه البغاء . وعلاوة علي ذلك فإن عدداً من النساء والفتيات الغربيات اللاواتي لا يجدن فرصة عمل بعد إنتهاء دراستهن، قد يلجأن إلي إحدي شبكات الدعارة ، حتي يجدن فرصة عمل في مجالات المجتمع الأخري .

وإرتباطا بذلك يصنف عالم الاجتماع بول جولدشتاين – Paul Goldsteiu البغاء إلي نوعين من حيث الخصائص . الأول البغاء من حيث الإلتزام المهني ، حيث يشير مفهوم «الإلتزام» هنا إلي تواتر وتكرار المرات التي تنخرط فيها المراة في ممارسة البغاء . إذ أن كثيراً من النساء قد يمارسن البغاء بصورة مؤقتة، ويبعن أجسادهن عدة مرات، ثم يتركن الدعارة لفترة طويلة أو إلي الأبد . في مقابل ذلك توجد فئة من النساء يمارسن البغاء أحيانا بصورة غير منتظمة للإنتفاع بما يكسبنه من وراء ذلك لتعزيز الدخل الذي يتقاضينه من أعمالهن اليومية المعتادة في مجالات أخري ، إلي جانب فئة تمارس البغاء بصورة منتظمة بإعتباره المصدر الرئيسي للدخل . بينما يعرف النوع الثاني ببغاء «السياق المهني» حيث يشير هذا المفهوم إلي نوع بيئة العمل وطبيعة عملية التفاعل التي تشارك فيها المرأة خلال تبادل الاتصال الجنسي المدفوع الأجر. فهناك من البغايا من يلتقطن الزبائن أو يلتقطهن الزبائن في الشارع ، وهناك «فتيات الهاتف» اللواتي يمكن بمكالمة هاتفية ، إستدعائهن إلي مكان الزبون أو دعوة الزبون إلي أماكنهن . وهناك فئة أخري من المومسات العاملات في المواخير أو ما يسمي بالنوادي الخاصة ، مثلما أن هناك مجموعة من النساء اللواتي يقدمن «خدمات خاصة» في محلات التدليك . وأحيانا تلجأ كثير من النساء إلي المقايضة، أي إلي تقديم خدمات جنسية لسداد بعض الديون عينا لا نقداً . وتميل كثير من فتيات الهاتف إلي مقايضة خدماتهن الجنسية بخدمات أو

سلع معينة مثل أجهزة التلفاز أو الأجهزة الكهربائية أو الملابس ، أو آية خدمات أخري (٢٢).

ويشير إنتشار البغاء بعامة في الحضارة الغربية إلي عدة حقائق، حيث تتمثل الحقيقة الأولي في عجز هذه الحضارة – علي عكس دفاعها عن حقوق المرأة – عن تأمين الحياة الكريمة للمرأة. سواء بالحفاظ عليها داخل بيئتها العائلية بتوفير ما ييسر إشباع حاجاتها الأساسية ، أو بتوفير فرص العمل الملائمة للمرأة التي دخلت سوق العمل بحيث لا تضطر في النهاية إلي المتاجرة بجسدها. وتتمثل الحقيقة الثانية إلي إعتبار إنهيار السياقات العائلية وإنسحابها دون أن تشكل دفاعا عن المرأة أو الأطفال ، وذلك يرجع بداية إلي إختزالها إلي حدود العائلة النووية. ثم تفكك هذه العائلة بحيث أصبح الذكور والأناث خاضعين لمصادر إشباعهم التي قد تتجسد في العمل بأنشطة البغاء حينما تعجز سوق العمل عن أن توفر فرصة العمل. التي يمكن بالحصول علي دخل منها لإشباع حاجاتهم الأساسية ، خاصة أن الدرع العائلي قد عجز عن حمايتهم . وتتصل الحقيقة الرابعة، بحالة حضارة إفتقدت إمتلاك القيم والمعايير الأخلاقية التي تضفي الطابع الانساني علي حياة البشر، الأمر الذي جعل المتاجرة بجسد المرأة والعبث به جنسيا، مصدراً معترفا به لكي تحصل علي دخل تستطيع بواسطته إشباع أحتياجاتها الأساسية. تأكيداً لهذا الإنهيار المعياري إتجاه بعض الدول الغربية - بدلاً من إعادة تنشئة شعوبها وفقا لقيم ومعايير لها قدر من الطهاره - إلي تقنين هذا الانهيار الأخلاقي. تأكيد لذلك إقرار البرلمان الهولندي عام ١٩٩٩ قانونا تحول بموجبه البغاء إلي مهنة معترف بها رسميا ، وأنشئت نقابة للعملات في صناعة الجنس، تضم أكثر من ثلثمائة ألف عضو من النساء (٢٣).

ويعد إنتشار المخدرات من الظواهر التي بدأت تنتشر في مجتمعات الحضارة الغربية بصورة شاملة، بحيث أصبحت تقلق الرموز الفكرية والعلمية لهذه الحضارة . ومثلما غرقت الحضارة في أسر الجنس، فقد سقطت في وحل المخدرات كذلك، إرتباطا بذلك نجد أن الفضاء الغربي مشبع بالمخدرات مثلما هو مشبع بالجنس. ففي الولايات المتحدة الأمريكية يوجد واحد من كل ثلاثة

مـن الشـباب يتعاطـي بصـورة دائمـة نبـات القنب»الحشـيش والبانجـو»، بالإضافـة إلي ذلـك نجـد أن ٦٧٪ مـن شـباب أو بالأصح أطفـال المـدارس الثانويـة يتعاطـون أقراص مـادة الأكسـتاذي Extc. وكل السـكان الأمريكيـين حسـبما تذهـب بعـض الدراسـات، تعاطـو مـادة الإفيتامـين عـلي الأقـل مـرة واحـدة في حياتهـم . ومـا ضبـط مـن المـواد المخـدرة في عـام ٢٠٠١ يعـادل ١٥ ضعـف ما ضبط عـام ٢٠٠٠ ويعـادل ٧٠٠٪ مـا ضبـط عـام ١٩٩٩ (٢٤). فـإذا إنتقلنـا إلي المـواد الطيـارة «كالكلـة» و»البنزيـن» و «التـنر» فسـوف نجـد أن ٨٪ مـن شـباب الولايـات المتحـدة يتعاطـي المـواد الطيـارة (٢٥). وتعتـبر كنـدا هـي المصـدر الرئيـسي لمادة الهروين المنتـشرة فى الولايات المتحـدة ، حيث ضبط في عـام ٢٠٠٤ ١٥٦ كيلـو جـرام هربـت إليهـا ، إضافـة إلي زراعـة «القنبيـات» في البيـوت الأمريكيـة (٢٦).

فـإذا انتقلنـا إلي أوربا ، فسـوف نجـد ذات المعدلات العالية لتعاطي المخـدرات . وإذا أخذنا حجـم المـواد التـي ضبطـت كمـؤشر علي انتشـار المخدرات، فسـوف نجد أنه قد تـم ضبط ٥١٢ طن مـن ثمـار القنبيـات، بالإضافـة إلي ٨١ طن من أعشـاب القنبيات في دول الاتحـاد الأوربي . إلي جانب ليتواينـا التـي قامـت بزراعـة ١٨٤٢ هتـكار قنـب تصـدر إنتاجهـا إلي أوربـا ، ذلـك بالإضافـة إلي أننا نجـد أن مجتمعـات مثـل سـويسرا وهولنـدا في طريقهـا لاباحة زراعـة القنب. إلي جانـب أن تعاطي الكوكايـين سـجل معـدلات عالية في كل من بلجيكا والسـويد وفرنسـا ، وبريطانيـا، وهولندا واليونان . وفي هـذا الاطـار تؤكـد المعلومـات أن أسـبانيا تعـد المصـدر الرئيـسى الـذي يدخـل منـه الكوكايـين القـادم مـن أمريـكا اللاتينيـة إلي أوربـا ،وإرتباطـا بذلك تؤكد المعلومـات أن هناك نسـبة ١٥٪ زيادة في مضبوطـات الكوكايـين. إلي جانـب ذلـك فإننـا نجـد أن أسـبانيا وألمانيا وسـويسرا وفرنسـا وهولندا وبلجيـكا هـي أكـبر الـدول المنتجـة لمـادة MDMA ونشرهـا في أوربـا (٢٧). إضافـة إلي ذلـك يعـد الشـباب الأوربي من مسـتهلكي المواد الطيارة وأن بمعدلات متباينة ، وبحسـب تقرير منظمة الصحة العالميـة بلغـت نسـبة الشـباب الأقـل مـن ١٨ سـنة الذيـن يتعاطـون هـذه المـواد في بريطانيـا نحو ١١,٨٪. والدانمـارك حـوال ٥٪ مـن الشـباب وهولنـدا ٣,٦٪ للذكـور ٢,٤٪ للأنـاث ويوغسـلافيا ١٥٪

للبنـين ، ١١٪ للبنـات . ذلـك بالإضافـة إلي أن أوربـا تعـد المنتـج الرئيـسي للمخـدرات الاصطناعيـة والمؤثـرات العقليـة في العـالم، كذلـك أنتـاج السـلائف والكيماويـات التـي تسـتخدم إسـتخدام غـير مـشروع (٢٨).

ويشـير هـذا الانتشـار الواضـح للمـواد المخـدرة في مجتمعات الحضـارة الغربيـة، إلي أن ثمة متغـيرات عديـدة مسـئولة عـن هـذا الوضـع المـؤذن بفنـاء الحضـارة . مـن هـذه المتغـيرات إتسـاع مسـاحة الجنـس الحـرام في المجتمعـات الغربيـة ، وهـو الاتسـاع الـذي يسـاعد عـلي حدوثـه إنهيار القيـم والمعايـير المنظمـة للجنـس في الاطـار الإنسـاني. بحيـث إنتـشر الجنـس فى فضـاء الحضـارة الأوربيـة، مسـتنداً إلي المصـادر التكنولوجية لتوسـيع مسـاحتة في حيـاة البشر، وأبرزهـا الإعلام الذي يـروج لثقافـة الجنـس وتوسـيع من مسـاحة الغرائـز . ويحتاج الجنـس تلقائيا إلي تعاطـي المخدرات ، نـوع مـن مركـب الـشر ، الجنـس يحتـاج إلي المخـدرات حسـبما هـو شـائع في الثقافـة العامـة ، والمخـدرات تحقـق نشـوتها إذا تضافـرت مـع الجنـس. ومـن ثـم فزيـادة مسـاحة أحدهـما، مـن شـأنه ان يـؤدي إلي زيـادة مسـاحة الآخـر . ويتمثـل المتغـير الثـاني في برودة القيـم والحيـاة الفردية ، فقـد تسـاقط أو إنهـار الدفـئ الـذي كانـت توفـرة الأسرة بإنهيـار الأسرة عـلي نحـو مـا أوضحـت . ومـن شـأن ذلـك أن يدفـع الأبنـاء بعيـداً عـن الأسرة لتلقطهـم فضـاءات قـد لا تحتـوي عـلي الدفئ الأسري ، إن لم تشـكل ظروفـا أو أطـراً قاسـية مفروضـة عليهـم. ويصبـح البحـث عـن مخـرج مـن هـذه الحيـاة الصعبـة، التـي إفتقـدت المثـل والدفـئ الأسري لتحقيـق الأمان للفـرد ملحـا ووجوديا، وحينئـذ تصبـح المخـدرات، هـي المدخل إلي عالم تنتهـي فيه كل الضغوط الإجتماعيـة المفروضة علي الفـرد. وتتسـع المسـاحة إذا ترافقـت مـع الجنـس، وتتعمـق المتعه إذا غابـت القيم والمعايـير، التي قـد تـؤرق الضمير الفـردي .

إلى جانب ذلك يشير تأمل حصاد تفاعل هذه القوة الشريرة، إلي شيوع الجنس الحرام حتي أثقل فضاء مجتمعات هذه الحضارة ، إضافة إلي أتساع مساحة أنهيار الأسرة كوحدة قاعدية في بناء المجتمع . وفيما يتعلق بانتشار الجنس الحرام ، فقد وجد أنه مؤذن بزوال العمران . وإذا كانت الأديان قد

شرعـت الجنـس السـوي الـذي يتحقـق مـن داخـل الشرعيـة، ووفـق قيـم ومعايـير سـامية تنظمهـا الحضـارة، التـي يشـكل الديـن في الغالـب قاعدتهـا ، فـإن الشـذوذ بالجنـس والانحـراف بـه يصبـح مدمـر للأنسـان والمجتمـع والحضـارة . فهو مدمر للأنسـان لأنه خـروج عن المألـوف والمتعارف عليه ، وإذا كان الجنـس خـارج الشرعيـة الزوجيـة مـن شـأنه أن يؤكـد قيـم الخيانـة، وينحـط بالانسـان إلى مـا دون ذاتـه وإنسـانيته. فـإن جنـس الرجـل مـع الرجـل لـه أثـاره المرضيـة القاتلـة بالنسـبة لكليهـما ، الموجـب والسـالب عـلي السـواء ، وفي حالـة السـحاق ، فإنـه يدفـع إلي عـدم تحقيـق الأنثـي للإنتشـاء مـع الرجـل ، وفي ذلـك نـشر للفاحشـة. وفي ذات الوقت يؤدي كليهـما إلي تخفيض معـدلات إنجـاب البـشر اللازمـين لاسـتمرار عمـران الحضـارة، إرتباطـا بذلـك يقـول الرسـول الكريم صـلى اللـه عليـه وسـلم «مـا تشـيع الفاحشـة في قـوم قـط إلا عمهـم اللـه البـلاء»(٢٩). ومعهـا يؤكـد تأثـير الجنـس الحـرام عـلي أسـتمرار الحضـارة تأكيـد «جـورج بالـوشي هورفـت «أن علينـا أن نشـعر بالخطـر عـلي حياتنـا مـن موجـات العـري وغـارات الجنـس التـي لا تنقطـع والتـي تشـغل البـشر بالحاجـة الجنـس ، إذا لم يحدهـا الخـوف مـن الجحيـم ، أو مـن الأمـراض المنتـشرة ، أو الحمـل الحـرام. إذ تنفجـر عـلى سـاحة مجتمعاتنـا أطنـان مـن القنابـل الجنسـية التـى تنفجر كل يـوم ، ويترتـب عليهـا أثـاراً تدعـو إلي القلـق، الـذى قـد لا يجعـل أطفالنـا وحوشـا أخلاقية فحسـب، بـل قـد يشـوه مجتمعـات بأسرهـا» . يؤكـد ذلـك مـا كتبـه جيمـس رسـتون James Rastone قائـلاً «أن خطـر الطاقـة الجنسـية قـد يكـون في نهايـة الأمـر اكـبر مـن خطـر الطاقـة الذريـة» . ويلفـت المـؤرخ البريطـاني النظـر إلي أن سـيطرة الجنـس يمكـن أن يـؤدي إلي تدهـور الحضـارات . في هـذا الاتجـاه ففـي ابريـل عـام ١٩٦٤ أثـيرت ضجـة كـبري عندمـا وجـه ١٤٠ مـن الأطبـاء السـويديون المرموقـين، مذكـرة إلي الملـك والبرلمـان السـويدي يطالبـون فيهـا إتخـاذ إجـراءات عاجلـة للحـد مـن الفـوضي الجنسـية، التـي تهـدد حقـا حيويـة الأمـة وصحتهـا. وطالـب الأطبـاء أن تسـن قوانـين صارمـة ضـد الانحـلال الجنـسي . وفي مايـو مـن نفـس العـام قامت أكـثر مـن ٢٠٠٠ امـرأة إنجليزية بحملـة لتنظيـف موجـات الإذاعـة وشاشـات التليفزيـون، مـن الوحـل الـذي يلطخهـا مـن خـلال

مـا تشـيعه مـن الجنـس الرخيـص . واسـتمرارا لذلـك صرح الرئيس الأمريـكي جون كنيـدي في ١٩٦٢ بـأن مسـتقبل امريـكا في خطـر ، لأن شـبابها مائـع منحـل غـارق في الشـهوات، لا يقـدر المسـئولية الملقـاة عـلي عاتقـة. وأن مـن بـين كل سـبعة شـبان يتقدمـون للتجنيـد يوجـد سـته غـير صالحـين ، لأن الشـهوات التـي غرقـوا فيهـا أفسـدت لياقتهـم الطبية والنفسـية (٣٠). وهو ما يعني أن سـقوط الحضـارة أسـيرة الجنـس، مـؤذن بإنهيارهـا بغـض النظـر عن الانجـازات الماديـة التـي بلغتها .

وتعـد الأسرة هـي الجبهـة الثانيـة التـي عملت القـوة الشريرة لهـذه الحضارة عـلي تقويض أركانهـا ، سـواء بتدمـير القواعـد المعيارية المتعلقة بالأسرة ، أو بتشـويه طبيعـة التفاعلات والعلاقات الأسريـة ، بـل والتشـكيك في مشروعيـة الأسرة الزوجيـة أو الطبيعيـة ذاتهـا . حدث ذلـك حينما قنن المجتمـع عرفـا وأحيانـا تشريعـا يعترفا بأنماط جديدة من الأسر، غريبة وشـاذة علي الوجود الانسـاني وربمـا الحيـواني كذلـك . حيـث تتجـه القـوة الشريـرة للحضـارة الغربيـة الأن إلي فـرض التـآكل عـلي الأسرة الطبيعيـة، لتحـل محلهـا الأشـكال الأسريـة الشـاذة فتصبـح القاعـدة . بالإضافـة إلي ذلك فقد أدي سـقوط معايـير الحضارة وأخلاقهـا إلي إختزال المرأة إلي أنثي، تتحرك بأنوثتها لتشـبع أحتياجاتها الجنسـية حسـبما توجـد دون قيـد. وفي ذات الوقـت حطـت الحضـارة مـن قيمـة المـرأة، فتاجرت بجسـدها مـن خـلال توسـيع مسـاحة ظاهـرة البغاء، حتـي اقدمـت بعـض المجتمعـات الغربية إلي الإعتراف به كمهنة، وأنشـأت للاتي يمارسـنها نقابة . وقد شـكل إنهيار الأسرة الطبيعية وظهور أنماط الأسر الشـاذة وأنتشـار بغـاء النسـاء إلي أنهيـار المصـادر الشرعيـة لإنجـاب الأطفـال. غـير أنه برغم إنهيـار الأسر فـإن إنتـاج الأطفـال ظـل بذات المعـدلات تقريبا، غير أنـه أتاح الفرصـة الملائمة للأطفال مـن خـارج الشرعيـة العائليـة ، الأمـر الـذي يعنـي أن حياة هؤلاء الأطفـال في ظل أوضـاع أسرية غير مواتيـة. فهـم إمـا ينتمـون إلى أسر مفككـة أو عـلي الأقل بـاردة، أو ينتمون إلى أسر لأبـاء بديلة ، أو حتـي تـم التخـلي عنهـم لمؤسسـات أو أسر بديلـة . هـؤلاء الأطفال بـلا مرجعيات جماعية ، يشـقون حياتهـم في ظـروف صعبـة ، يتغلبـون علي صعوبات الحياة، بلـذة الجنس تـارة أو تعاطي المخدرات

للهـروب في عـالم خيـالي مـن واقـع صعب تـارة أخـري، وفي كل الأحـوال فهم غير متكيفـين مع هذه الحياة .

المجتمـع يقتـل الـبراءة فيهـم، ويدفعهـم إلي كل السـلوكيات التـي تتنـافي مـع عذريتهـم، حتـي المتاجـرة بأجسـادهم مـن خـلال بغـاء الطفولـة ، الـذي برعـت الحضـارة الغربيـة في أبتـكاره عـلي أرضهـا. وتسـعي إلي نـشرة عـلي سـاحة كل الأرض والحضـارات وحتـي في فضـاء الكـون ، هـو مـرض وأنحـراف اختصـت بـه الحضـارة الغربيـة نفسـها ، غـير أنهـا تسـعي إلي نـشره عـبر العـالم حتـي تنفـي خصوصيـة إرتباطهـا بـه . تعبـير عن أنانيـة غربية شريـرة مـن ناحيتين، مـن ناحية أولى حينـما يسـتمتع الكبـار بالجنـس مـع الأطفـال الذين يحتاجـون إلي لقمـة العيـش ، في مقابل العبث بأجسـادهم الغضـة. ومـن ناحيـة ثانية إغتيال الـبراءة عند أطفال المجتمعـات الفقيرة، حتي يحقق السـياح القادمـين مـن الغـرب مزيـداً من المتعـة في الرحـلات الرحلات السـعيدة. والعملـة الغربية ذات قيمـة عاليـة وباسـتطاعتها شراء المتعـة مـن اجسـاد الأطفـال المحرومـين، أبنـاء الأسر الفقـيرة والمعدومـة، كأنمـا هـو إنحـدار حضـارة يسـعي إلي الإنحـدار بالعـالم جملة .

ومـن الطبيعـي أن يسـعي أطفـال الحضارة الذين اغتصبـت براءتهم إلي الإنتقـام ورد الصاع صاعـين . حيـث ارتفـاع جرائـم العنف ، القتـل والاغتصاب بمعـدلات عالية، تفوق نظائرهـا في العالم. يضـاف إلي ذلـك جرائـم الاعتـداء عـلي الممتلـكات، وسرقـة المنـازل والتـشرد وسرقـة السـيارات ولو بالآكـراه ، كأنمـا هنـاك ثـأر دائمـاً بـين الحضـارة وأبناءها ، لنسـمية جدل العـدوان ، أو صراع السـبق مـن أجـل الأنتقـام. فـإذا أدرك الصغـار والشـباب أن ظروف المجتمـع والحضارة اقوي مـن أرادتهم ، فـإن المخـدرات تصبـح هـي السـاحة التي يهرب إليهـا الجميع، المخـدرات والجنـس طاعون ينهش في جسـد هـذه الحضـارة ، نـوع مـن الانتحـار الذاتي الذي قـد يقدم عليهـم الصغار ، قبـل أن تفرض عليهـم حضارتهـم الانتحـار المـادي أو المعنـوي علي السـواء أو حتـي كليهما معا .

ثالثاً: القوة الشريرة تتحرك شرقا

برغم أن الحضارة الغربية قد قطعت أشواطا بعيدة علي طريق التقدم المادي ، حيث العلم المتقدم والتكنولوجيا المتطورة ، والقوة العسكرية التي لا تقهر، فإن هذه الحضارة قد بدأت من جوانب عديدة تفقد توازنها ومؤشرات ذلك عديدة . فقد بدأت من ناحية تفقد نقاءها السكاني ، سواء بإتجاه قاعدتها السكانية إلي التآكل حتي أنه يقال أنه مع نهاية العقد الأول من الألفية الثانية لن يكون سكان هذه الحضارة أغلبية علي أرضها (٣١). في مقابل ذلك فقد بدأت الهجرات بخاصة من العالم الاسلامي تشكل جاليات لها وزنها في مختلف مجتمعات الحضارة الغربية ، بثقافاتها وقيمها المتباينة ، بحيث أنه إذا إستمرت الأوضاع علي ما تسير عليه الآن ، فإنه من المحتمل ان تشكل هذه القيم والمعاني بداية تفاعل جدلي داخل هذه الحضارة ذاتها . يضاف إلي ذلك علي نحو ما أشرت، فإن هذه الحضارة تعاني من الانهيار المعنوي والقيمي والمعياري ، وهو أخطر أنواع الانهيارات . فالمادة من السهل إكتسابها إذا إفتقدها مجتمع معين ، إذ من اليسير إذا توفرت الارادة لأي مجتمع متخلف أن ينظم اوضاعة ليكتسب العلم والتكنولوجيا الحديثة. غير أنه من الصعب بالنسبة لأي مجتمع فقد قيمة ومعانية ومعاييره أن يستعيد هذه القيم والمعاني بسهوله، حتي إذا إمتلك الارادة لذلك. لإن ذلك قد يستغرق زمنا أطول، لأن الأمر يتطلب تنشئة أجيال كثيرة ومتتابعة إلي أن تستقر القيم والمعاني . لذلك قلنا أن الحضارة الغربية عملاقة في جوانبها المادية ، قزمة او محدودة في معانيها، حتي أخلاصها للمعاني العلمانية كما تدركها بدأ يتآكل ، وأمامنا مضامين دعاوي المحافظين الجدد شاهدة علي ذلك .

تدرك الحضارة الغربية كذلك، أنه من السهل أن تكتسب الحضارات الأخري العلم والتكنولوجيا المتقدمة التي تفتقدها الأن كما نجحت الصين وبعض المجتمعات الأسلامية . غير أن هذه الحضارات وبخاصة الحضارة الإسلامية برغم تخلف مجتمعاتها إلا أن ثقافتها وقيمها ومعانيها ومعاييرها التي تستند جميعها إلي الدين الإسلامي ما زالت قوية. ثم أنها حضارة ما زالت أخلاقها

متماسـكة ، وهـي تسـعي الآن بغالبية مجتمعاتها – برغم صعوبات التخلـف أو المعوقات المفروضة عليهـا مـن قـوي خارجيـة – لإكتسـاب العلـم والتكنولوجيـا الحديثـة . وإذا كانت الحضـارة اليابانية قـد شـقت طريقهـا إلي التقـدم ، وكذلك الحضـارة الصينية ، فإن الحضارة الإسـلامية هـي الأقوي من حيـث الديـن والقيـم والمعـاني. ثـم أنهـا تختلف عن الحضـارات الأخـرى، بتفردها بإمتـلاك الثروات المتنوعـة والطاقـة التـي تحتاجهـا مجتمعـات الحضـارات الأخـري . وإذا كانـت الحضـارة الغربيـة ، مـن بـين كل الحضـارات المتقدمـة، هـي التـي تعتمد عـلي الـثروات الإسـلامية في التقدم وهـي التي إعتمـدت في نموهـا وتطورهـا عـلي سـلب مجتمعـات الحضـارات الأخـري لخبراتهـم. بحيـث أصبح الاسـتلاب والحصـول عـلي ثـروات الآخريـن عـادة تاريخيـة وحضارية لديهـا، فقـد رأت أن الحضارة الإسـلامية هـي مصـدر التهديـد . وإذا كانـت الحضـارة الإسـلامية غـير متوازنـة الآن لسـبب تخلـف مجتمعاتهـا ماديـا، فإنهـا قـد تسـعي ، ولـو بقدر مـن التكلؤ، لإسـتعادة التـوازن من خلال إكتسـاب المعـارف والتكنولوجيـا إذا توفـرت لهـا الارادة ، كـما أشرت، والجهـد المخطـط . في مقابـل حضـارة هـي الحضـارة الغربيـة التـي تمتلـك العلـم المتقـدم والتكنواوجيـا المتطـورة، غـير أنها تفتقـد المعاني الحضاريـة والمثـل العظيمـة لكونها قد غرقـت في أوحال الجنس والمخـدرات والجريمة وإنهيار الأسرة وتبـدد القيـم والمعايـير ، ومـن ثم تصبح إسـتعادة التـوازن أكثر صعوبة إن لم تكن مهمة مسـتحيله . لذلـك إتجهـت الحضـارة الغربيـة بإتجاه تفكيك بنية الحضـارات الشرقية بخاصة الحضارة الإسـلامية ، ولإنجـاز ذلـك تبنـت هـذه الحضـارة وسـائل عديـدة سـوف نتعرض لهـا لتحقيق هـذا الهدف .

ولتوضيـح أسـاليب الحضـارة الغربيـة في التفكيـك الحضـاري فإننـا سـوف نتعـرض لموضوع المـرأة في الحضـارة الإسـلامية ، بإعتبـار أن توضيـح وجهـة نظـر هـذه الحضـارة فيـما يتعلـق بمكانـة المـرأة مثلـما أوضحنـا مكانتهـا في الحضـارة الغربيـة ، وبإعتبـار أن قضيـة المـرأة تعـد إحـدي الآليـات التـي إتبعتهـا الحضـارة الغربيـة لتفكيـك بنيـة الحضـارة الإسـلامية. بدايـة تؤكـد قوانـين الحضـارة الاسـلامية عـلي المسـاواة الكاملـة بـين الرجل والمـرأة حينما تعتـبر المرأة والرجـل عنصرين

يكمـل أحدهـما الآخـر ، تسـتند في ذلـك لقولـة تعـالى «الـذي خلقكـم مـن نفـس واحـدة وخلـق منهـا زوجهـا» النسـاء الآيـة ١» وهـو مـا يعني أن النفـس الواحدة هـي النفس الانسـانية التي خلق منهـا هـذه الزوجيـة في التعـدد النوعـي (٣٢). وإنطلاقـا من هـذه المسـاواة النابعة من جـذر واحد ، هـي النفـس الواحـدة سـاوي الاسـلام بـين الرجـل والمـرأة في إيجابيـات الحيـاة وسـلبياتها . فقـد سـاوي الأسـلام في الجوانـب الايجابيـة مـن خـلال قولـه نعـالي «أن المسـلمين والمسـلمات والمؤمنـين والمؤمنـات والقانتـين والقانتـات والصادقـين والصادقـات ... أعـد اللـه لهـم مغفـرة وأجـراً عظيـما « الأحـزاب آيـة ٣٥» . كـما سـاوي تعـالى بينهـما في الجوانـب السـلبية المنحرفـة ، تأكيـداً لذلـك قولـه تعـالى «الزانيـة والـزاني فأجلـدوا كل واحـد منهـما مئـة جلـدة» النـور آيـة ٢ « وقولـة تعـالى «والسـارق والسـارقة فأقطعـوا أيديهـما» المائـدة الآيـة ٣٨ [١*] وهـو مـا يعنـي أن الاسـلام يسـاوي بـين الأثنـين في مختلـف مجـالات الحيـاة . فالمـرأة أنسـان كـما الرجـل إنسـان ، ولكلنهـما يتوازنـان فى الأدوار وإذا كانـت أدوار الرجـال تتـوازن بحسـب مواقعهـم ، فـإن أدوار النسـاء تتـوازن بحسـب مواقعهـن كذلـك، فالجوهـر الأسـاسي يـدور حول محوريـن الأول المسـاواة بين الرجل والمـرأة والثاني تكامـل الأدوار التـي يقومـون بهـا لتسـتقيم الحيـاة الاجتماعيـة وتسـتمر . ويرتبـط بهـذه المسـاواة أن الأسرة في الاسـلام ليسـت ذات طبيعـة ذكوريـة بالمطلـق ، بـل هـي مشـتركة بـين الرجـل والمـرأة بحسـب الالتـزام العقـدي . بمـا في ذلـك الـشروط التـي يفرضهـا أحدهما عـلي الآخر في حريـة كاملة تعبـيرا عـن الحريـة الإنسـانية. وبمناسـبة ذلـك فـإن الانتسـاب لـلأب يعـبر عـن عـرف اجتماعـي، إسـتند إلي تقاليـد تاريخيـة وليـس أمـراً شرعيـا ، لذلـك نجـد أن هنـاك بعـض حـالات الانتسـاب إلي الأم كـما نقـل عـن «محمـد بـن الأمـام عـلي» أنـه أشـتهر باسـم محمـد بـن الحنفيـة «هـي

[١*] لا يعني ذلك أن الاسلام يذهب إلي توقيع العقوبات علي مرتكبي هذه الجرائم ولكن هذه العقوبات حسب جملة التفسيرات هي السقف الأعلي للعقوبات بمعني أن عقوبات كل جريمة هي سلم متدرج حتي أقصاها الذي ذكر في النص القرآني . بل إن الاسلام وضع عديداً من الشروط الصعبة التي ينبغي توافرها حتي تطبق العقوبة التي عليها القرآن، تأكيدا لذلك الشروط المرتبطة بإثبات جريمة «الزنا» أو «السرقة».

أمة» . لذلك ليس هناك مانع في الإسلام أن ينتسب الإنسان إلي أمة إذا تغير العرف العام (٣٣).

في هـذا الإطـار لم يتحـدث الإسـلام بأي سـلبية عـن المرأة ، فقد قـال تعالى في القـرآن الكريم «والمؤمنـون والمؤمنـات بعضهـم أوليـاء بعـض يأمـرون بالمعـروف وينهـون عـن المنكـر» . وإرتباطـا بذلـك يجـوز للمـرأة أن تعمـل وتقـوم بـكل الادوار كـما يجـوز للرجـل أن يعمـل، وإذا كانت هناك تحفظـات أخلاقيـة عـلى قيـام المرأة ببعض أعـمال الرجال. فإن الأخلاق ليسـت مفروضة علي المرأة دون الرجـل . فالظـروف التـي قـد تجعـل دور المـرأة غـير أخلاقي تقابل ظـروف تجعـل دور الرجل غـير أخلاقـي كذلـك . وفي هذا الاطار يشـير الاسـلام إلي أن المرأة مسـاوية للرجل في القيمة الانسـانية وفي المسـئولية، وفي الحقـوق والواجبـات، ولكن علي قاعدة أن توزيع الأدوار يتحقق بحسـب طبيعة الأوضـاع المتنوعـة في الجانـب النفـسي والحـركي والجسـدي لكل من الرجـل والمرأة. فالإسـلام لم يرد مـن المـرأة أن تعيـش أنوثتهـا بعيـداً عن العلاقـة الزوجية ، كما يريـد من الرجل أن يعيـش ذكوريته في هـذا النطـاق مـن الناحيـة الجنسـية . يريـد الاسـلام للمـرأة – كما للرجـل – أن تنطلـق في المجال العـام كإنسـانه تمتلـك العقـل والإرادة والقيمـة العلميـة والفكريـة والعمليـة ، بحيث لا تسـتند إلى الجانـب الجنـسي، بـل الانسـاني في علاقاتهـا الاجتماعيـة . وجعـل لهـا الحـق في المشـاركة في النشـاط الثقـافي والسـياسي والاجتماعـي والاقتصادي ، والأمني والعسـكري متى تطلبت الظـروف ذلك (٣٤). وبرغـم هـذه المسـاواة الكاملـة في القيـام بـالأدوار الاجتماعيـة بـين الرجـل والمـرأة يـري الاسـلام أن ثمـة خـلاف في القيـام ببعـض الأدوار الاجتماعيـة دون أخـري لطبيعـة كل منهـما ، فأمومـة المـرأة في جسـدها ، بينـما أبـوة الرجـل خارجـة عـن الجسـد مـن حيـث المعانـاة فى العمـل والانتـاج لإشـباع حاجـات الأسرة ، الأمـر الـذي قـد يمنـع المـرأة مـن القيـام بالمسـئوليات الانتاجيـة من ناحيـة عملية (٣٥). عـلي هـذا النمـط يـري الاسـلام أنـه ليـس هنـاك مقيـاس محـدد لنـوع العمـل الـذي ينبغـي أن تقـوم بـه المـرأة . حيـث تقـوم المـرأة بالعمـل الـذي تسـتطيع طاقتهـا القيـام بـه ، وأن آداءهـا لبعـض الأعـمال في بعـض الأحيـان قـد يكـون أفضـل مـن آداء الرجـل. غير أن مـا هو أسـاسي في هذا

الصدد أن دور المرأة كأم أساسي في حياتها، أما تحديد الأدوار الأخري التي تختار القيام بها فأمر يعود إليها شخصيا، ومناط بطاقاتها وإمكاناتها وقدراتها الخاصة . وعلي ذلك فإن إضطلاع المرأة بأي عمل غير الأمومة ، عند توفر المناخات التي تحافظ عليها كإمرأة وكإنسان ملتزم أخلاقيا، أمر مسموح به وممكن (٣٦). وإتصالا بذلك فبرغم أن الإسلام يؤكد علي المساواة إلا أنه يرفض التماثل المطلق بين أدوار المرأة وأدوار الرجل (٣٧) ، كما أنه يؤكد علي غياب التماثل الفسيولوجي بين جسم الرجل والمرأة ، وهو التباين الذين يولد لدي كل منهما التفوق في أداء أدوار اجتماعية معينة، قد لا يستطيع الجنس الآخر آداءها بنفس الكفاءة . ومن ثم يري الإسلام أن ثمة علاقة ، ولو محدودة بين التكوين البيلوجي لكل من الرجل والمرأة وبين إمتلاك القدرة على القيام بأدوار معنية ، مما يؤهل كل منهما لأداء أدوار معينة بكفاءة أعلي دون أخري .

وتعتبر قضية المرأة والحياة الجنسية من القضايا التي نشرت الفوضي في بنية الحضارة الغربية ، حتي شكلت وما ترتب عليها من آثار اجتماعية عنصراً يتولي نفي الحضارة الغربية من الداخل أو هو نفي سلبي لمنجزات هذه الحضارة . علي خلاف ذلك نجد أن الإسلام لا يمنع أو يرفض الجنس ولكنه يضعة في إطار الضوابط الشرعية التي تنظم ذلك . في هذا الإطار عني الإسلام بالجنس بإعتباره يعبر عن جانب فطري في الإنسان غير انه وضع القواعد التي تنظمة بما يضمن آدائه لوظيفته بالنسبة للمجتمع في غير غلو ولا كبت ولا إنحراف. تأكيداً لذلك قوله تعالى «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلي نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم تختانون أنفسكم ، فتاب عليكم وعفا عنكم، فالأن باشروهن وأبتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتي يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلي الليل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها البقرة آية» . وفي موضع آخر بقوله تعالى «يسألون عن المحيض، قل هو أذي فأعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتي يتطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، أن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، نساؤكم حرث لكم ، فأتوا

حرثكم أنما شئتم ، وقدموا لأنفسكم ، وإتقوا الله وأعلموا أنكم ملاقوه ، وبشر المؤمنين» سورة البقرة الآية ٢٢٢، ٢٢٣» حيث يؤكد ذلك إعتراف الاسلام بفطرية الدافع الجنسي وأصالته ، وإدانته للإتجاهات المتطرفة التي تميل إلي مصادرته، أو إعتباره قذرا مدانا. ولذلك منع الذين أرادوا قطع الشهوة الجنسية نهائيا بالاختصاء من اصحابه ، وقال صلى الله عليه وسلم لآخرين أرادوا اعتزال النساء وترك الزواج، قائلاً «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له ، ولكني اقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني» . كما قرر حق كل من الزوجين بعد الزواج في الاستجابة لهذا الدافع ، ورغب في العمل الجنسي إلي حد إعتباره عبادة وقربة إلي الله تعالى . حيث جاء في الحديث الصحيح « وفي يضع أحدكم «أي فرجه» صدقه، قالوا يا رسول الله ، أياتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال نعم ، أليس إذا وضعها في حرام كان عليه وزر ، كذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر ، أتحتسبون الشر ولا تحتسبون الخير؟ (٣٨). وقال أيضا رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاث حق علي الله عونهم، المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الآداء ، والناكح الذي يريد العفاف» وقال رسول الله صلى الله علية سلم «من كان موسراً لأن ينكح ثم لم ينكح فليس مني» (٣٩). وذلك بإعتبار أن الإسلام يؤكد علي الإشباع الجنسي ، ولكن من خلال الزواج كقناة وحيدة لذلك .

غير أن الإسلام رفض الجنس الحرام ، أي الجنس خارج الاطار الشرعي الذي حدده الإسلام .فقد رفض أن تعاشر الأنثي ذكراً خارج شرعية الزواج ، كما رفض أن تعاشر امرأة غير زوجها . وقد اعتبر مثل هذه الافعال جريمة وزني يستحق العقاب، لأن الزني أو المعاشرة الجنسية خارج الشرعية تتناقض والفطرة التي فطر الانسان عليها ، كما تتناقض واستقرار وتماسك المجتمع . ويتضح تناقضه مع الفطرة الانسانية من دهشة «هند بنت عتبة» حينما جاءت لتبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم علي الإسلام ، ومن ضمن شروط البيعة ألا تزني فردت هند علي الرسول الكريم متعجبة ومستاءة «أو تزني الحرة؟» !!! . إذ ليس مقبولاً في فطرتها «الجاهلية» أن تقع الحرة في هذا المستنقع العفن

بـإن تخـدش كرامتهـا وإنسـانيتها وتهتـك شرفهـا ، وقديما قـال العـربي في الجاهلية «وأغـض طرفي إن بـدت لي جـارتي حتـي يـواري جـارتي مأواهـا « . لذلـك جـرم الإسـلام الزنـا، لمـا لـه مـن أضرار علمية عـلي الانسـان أثبتهـا الطـب الحديـث ، ولما فيـه من آثار مدمـرة لـلأسرة والمجتمع أكـد عليها علماء النفـس والاجتـماع. إضافـة إلي أن الـزني ينـزع الايمـان ، فيبقي الإنسـان بـلا إيمان صـادق ، وقد قال تعـالى «سـورة أنزلناهـا وفرضناهـا وأنزلنا فيهـا آيات بينات لعلكـم تذكرون ، الزانية والـزانى فأجلدوا كل واحـد منهـما مائـة جلـدة ولا تأخذكـم بهـما رأفـة في ديـن اللـه إن كنتـم تؤمنـون باللـه واليـوم الآخـر وليشـهد عذابهـما طائفـة مـن المؤمنين ، الـزاني لا ينكح إلا زانيـة أو مشركة والزانيـة لا ينكحها إلا زان أو مـشرك وحـرم ذلـك عـلي المؤمنين»سـورة النور الآية، ١، ٢ «علي هذا النحو نجد أن الإسـلام يعتـبر الـزواج هـو القنـاة الوحيدة التي يسـمح فيها بالعلاقة الجنسـية بين الجنسـين (٤٠) . وفي هذا الإطـار نجـد أن الشريعـة الإسـلامية تنص عـلي عقوبات مشـددة ضد جرائـم الجنس والزنـا واللواط والإغتصـاب، بإعتبارهـا جرائـم مخالفة للشرائـع المتعلقة بالمجتمـع والعائلة (٤١).

وإذا كنـا قـد أشرنـا إلي أن الغـرب قـد حـول خصوصيـات الحيـاة الأسريـة إلى المجـال العـام بحيـث أصبـح الجنـس الـذي يمـارس خـارج الشرعية الزوجيـة يتجاوز الجنـس داخل هـذه الشرعية، إضافـة إلي تشـبع الفضـاء العـام بثقافـة الجنـس . علي خلاف ذلك نجـد ان قضية الجنس في الاسـلام تنطلـق مـن قاعـدة العفـة، التـي فرضهـا عـلي الرجـال والنسـاء. حيـث يـراد للعلاقات بـين الرجال والنسـاء أن تتحـرك في دائـرة الضوابـط الواقعيـة التـي تمنـع الرجـل مـن أن يسـقط تحـت تأثـير الصدمـة العنيفـة للجـو المحـرق الـذي يلهـب غريزتـه. كـما هـي الحـال بالنسـبة للمـرأة ، التـي لا يرغـب الإسـلام إلغـاء إحساسـها بالأنوثـة ، لأنهـا حالـة طبيعيـة في شـخصيتها ، غـير أنـه يريـد لهذه الأنوثـة أن تتحـرك في دائـرة خاصـة لا تـترك تاثيرهـا عـلي إنسـانية المـرأة في ضوابطهـا الأخلاقيـة من جهـة ، ولا تـترك تأثيراتهـا السـلبية عـلي واقـع المجتمـع الأخلاقـي مـن جهة أخـري (٤٢) .

وبالإضافـــة إلي أن الإســـلام قـــد فـــرض تحـــرك أنوثـــة المـــرأة في الدائـــرة

الأسرية او الزوجية الخاصة ، فإنه قد طور مجموعة من الآليات حتي لا تنطلق الغريزة إلي المجال العام لكي تدمر كل شئ . وتعد التنشئة الدينية والعقيدية للرجل المسلم والمرأة المسلمة أول هذه الآليات، فإستيعاب الانسان للقيم والمعايير الاسلامية يطور لديه معرفة بالنموذج الإسلامي الموجه لسلوكيات الأنسان في مختلف مجالات المجتمع المسلم . هذه القيم والمعايير تشكل ضميرة الذي يفرض عليه أتباع السلوكيات، التي يمليها عليه ضميرة المسلم، والتي تؤدي في النهاية إلي الحفاظ علي الأنسان والمجتمع علي السواء . هذا الضمير بطبيعته ضمير ديني وجمعي يقهر النوازع الفردية ، ويدعم ذاتية الجماعة ويجعل لها الغلبة علي ذات الفرد وأنانيته . الأمر الذي يعني أن النموذج الاسلامي الموجه لسلوكيات الانسان، وتطور الحضارة قد تم إستيعابة بداخله ، وذلك في مقابل أن غياب النموذج الموجة عن الحضارة الغربية ، هو الذى أدى إلي كل هذه الفوضي السلوكية التي تعاني منها الحضارة الغربية. والتي فرضت تمزيق أدوار المرأة وخروجها عن الحدود التي ترسمها القيم والمعايير ، بحيث أدي ذلك إلي تفكيك بنية الأسرة، حتى خرجت هي الأخري عن مألوف المعايير والمشروع. وإنتقل ذلك إلي المجتمع فقام بتمزيق نسيجه إربا، لذلك يسعي الإسلام إلي دعم قيم ومعايير النموذج الموجه في بناء الشخصية، بما يجعل القيام بالأدوار ومنظومة المعايير المرتبطة بها تحقيق لما فيه خير الفرد والأسرة والمجتمع .

ويطرح التقييد بإعتباره الآلية الثانية في هذا الاتجاه ، وهو ما يعني وضع بعض الحدود أو القيود علي بعض الجوانب الغريزية، حتي تستقيم حالة الاجتماع الإنساني . وفي هذا الاطار فإن أي مجتمع يحتاج إلي أخلاقيات تتشكل من القيم والمعايير التي تتولي تنظيم ليس مجال الجنس فقط ولكن تنظيم العمل والآداء في مجالات الحياة الأخري كالاجتماع والاقتصاد. وإذا كان بعض الغربيون ينظرون إلي الحجاب علي أنه قيد أو نوع من الكبت المفروض علي المرأة، فإن هذا المنطق يطرح كذلك تساؤلا يدور حول لماذا تغطي المرأة الغربية بقية أجزاء جسمها بالملابس ، إليس وجود هذه الملابس قيد علي المرأة(٤٣). مطلوب من الحضارة الغربية أن تستقيم في منطقها ، وغياب المنطق يرجع

بالأساس إلي غياب النموذج الموجة الذي يتضمن المعايير التي يمكن القياس عليها . وفي هذا الموضع نستشهد بعالم النفس اليهودي سيجموند فريد الذي أكد علي أن الكبت «أي القيود» لازم لنمو الحضارة وإزدهارها ، بإعتبار أن كبت الغرائز الأنانية يساعد علي أن تكون الإيثارية هي القاعدة . وهي بعد لازم لبناء الحضارة وتطور المجتمع ، فمراعاة إستقامة حالة الاجتماع الانساني يحتاج إلي القيود المنظمة لسلوكيات البشر في مختلف مجالات الفضاء العام، وهي القيود التي ينصرف بعضها إلي ضبط غرائز الفرد وتقليص نطاق ذاتيته .

وتتشكل الالية الثالثة لمواجهة الطاقة الغريزية في جهاد النفس والعمل علي تفعيل الارادة الانسانية ، وفي هذا الصدد فإن علي الانسان أن يقاوم نفسه حتي لا يسقط في التهلكة. فعلي الأنثي أن لا تبالغ في التزين حتي التبرج حتي لا تستنفر غرائز الآخرين ودفعهم إلي التعامل معها كأنثي . اما بالنسبة للشباب من الذكور فإن عليهم من جانبهم أن يعملوا في إتجاه تقليم اظافر الغرائز وتقليص طاقتها. وفي هذا الاطار نجد أن المرجعية الاسلامية توصي الشباب إذا ساءت الظروف وإشتدت الأحوال ولم يتيسر لهم طريق الحلال في إشباع الغريزة والشهوة بالزواج. يوصيهم بالصوم فإنه وقاية وعلاج أوصي به النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال «يامعشر الشباب من لم يستطع منكم الباءة فليتزوج ، فإن لم يستطع فالصيام له وقاء» . وهو ما يعني أن الاسلام يدرك أنه إذا كان الجانب الغريزي في ذات الانسان، هو الذي يدفع الأنثي أو الذكر إلي سلوك السبيل المدمر للأسرة والمجتمع. فإنه يسعي إلي إستنفار الذات الإنسانية لمكامن القوة فى بنيتها، لمقاومة هذا الشر بالعمل علي تخفيض الطاقة الغريزية الدافعة بالصوم، أو تقليص الظروف التي قد تساعد علي تفجير هذه الطاقة منذ البداية.

وتشير الآلية الرابعة إلي الحجاب بإعتباره الوسيلة التي يمكن أن تشكل عائقا امام إستنفار الغريزة وتعاظم أو تصاعد طاقتها، والحجاب كما تشير الآية الكريمة «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن علي جيوبهن ولا يبدين

زينتهـم إلا لبعولتهـم أو آبائهـن أو آبائهـن أو أبنـاء بعولتهـن أو إخواتهـن أو بنـي إخواتهـن أو بنـي أخواتتهن أو نسـائهن او مـا ملكـت أيمانهـن أو التابعـين غـير أولي الاربـة مـن الرجـال أو الطفـل الذيـن لم يظهـروا عـلي عـورات النسـاء ولا يضربـن بارجلهـن ليعلـم مـا يخفـين مـن زينتهـن، وتوبـوا إلي الله جميعـا أيـه المؤمنـون لعلكـم تفلحـون» النـور آيـة ٣١ . وللحجـاب في التصـور الاسـلامي معنيـين ، الأول بمعنـي «السـتر» وهـو أن تسـتر المـرأة جسـدها ماعـدا الوجـه الكفـين اللذيـن يتحفـظ بعـض العلـماء ويحتاطـون في وجـوب سـترها. وأن كان ثمـة أتفـاق بـين كثـير مـن العلـماء عـلي جـواز إبدائهـا إنطلاقـا مـن قولـه تعـالى «ولايبديـن زينتهـن إلا مـا ظهـر منهـا « النـور ٣١ ، وهو مـا يعني أنـه يجـب عـلي المـرأة أن تسـتر جميع جسـدها ، بـأن تلبس الثياب السـاترة للجسـد التي لا تشـف عـما تحتـه . ويقصـد بالمعنـي الثـاني للحجـاب عـدم التـبرج ، فقـد قـال اللـه تعـالى «ولا تبرجن تبرج الجاهليـة الأولي « الأحـزاب آيـة ٣٣ . فـلا يجـوز للمـرأة أن تظهـر متبرجـة في وجههـا أو يديهـا أو في الثيـاب التـي تـبرز مفاتـن جسـدها ، في هـذا الاطـار يعمـل الحجـاب عـلي عـدم أبـداء أنوثـة المرأة بشـكل صـارخ ، ويبقـى عـلى أنسـانيتها الطبيعيـة للتفاعـل في المجـال العـام (٤٤) .وفي هـذا الإطـار يسـتند الإسـلام إلي حقائـق عديـدة في تأكيـده الحجـاب – بغـض النظـر عـن الأسـباب الموقفية التي أوجبـت فرضـه – مـن هـذه الحقائـق أن المـرأة أعتـبرت في وجـدان الانسـان، وخاصـة في وجـدان الرجـل ، رمـز للجنـس والإثـارة. وهـي الذهنيـة التـي عاشـها التاريـخ الأنسـاني ، والتـي تحولـت إلي مـا يشـبة الطبيعـة الانسـانية ، والتـي تؤكـد عـلي المـراة كرمـز للجنـس. ولذلـك نلاحـظ أن كل مظاهـر الزينـة ووسـائل التجميـل وأسـباب الزينـة تـدور حـول المـرأة، لهـذا إتجـه الاسـلام لحماية المجتمـع مـن أخطـار هـذه الاثـارة الجنسـية فأكـد عـلي الحجـاب . وتتمثـل الحقيقـة الثانيـة التـي تقـف وراء رؤيـة الاسـلام للحجـاب، في تأكيـده عـلي ضرورة أن لا تـدرك المـرأة مـن خـلال جسـدها ، وألا تعتـبر ان جسـدها هـو الركيـزة. وأن الاسـلام أراد للمـرأة في المجتمـع المختلـط أن تظهـر كإنسـانة ، لا توحـي إلا بـكل إحـترام ، وبـكل معنـي أنسـاني . ولكنـة تـرك للمـرأة أن تعيـش وترعى كل أنوثتهـا وحاجتهـا إلي أن تبـدي زينتهـا بأفضـل مواضـع ووسـائل الزينـة. عـلي هـذا النحـو

لا ينبغـي النظـر إلي الحجـاب بإعتبـاره سـجن للمـرأة أو إضطهاد لهـا، بقدر ما يعبر ذلـك عن نظرة إجتماعيـة لحمايـة المجتمـع مـن عمليـة الاثـارة الجنسـية. وأيضـا حمايـة المـرأة مـن أسـتغراقها في الجانـب الجسـدي لشـخصيتها (٤٥) والارتقـاء بهـا إلي مسـتوي إنسـاني متكامل، حيث يحـترم عقلها كـما تحـترم غرائزهـا، في الحـدود التـي لا تضر بسـلامة التفاعـل الحـادث في المجتمع .

عـلي هـذا النحـو يـدرك الاسـلام المـرأة إنطلاقـا مـن رؤيـة إنسـانية كريمـة ترفـض إختـزال المـرأة ، وهـي الانسـان الـذي جعلـه اللـه خليفة لهـا ، تقف بإسـم هـذه الخلافة علي قدم المسـاواة مـع الرجـل. تشـغل نفـس الادوار وعليهـا نفـس الواجبـات والالتزامـات شريطـة مراعـاة التبايـن الفسـيولوجي، الـذي يؤهـل كل مـن الجنسـين للقيـام ببعـض الأدوار بكفـاءة أعـلي مـن الآخـر علي نحـو مـا أوضحـت، كـما شريطـة أن تكـون احتياجـات الأسرة للمـرأة هـي التـي تشـغل قمـة سـلم أولوياتهـا . في هـذا الاطـار يرفـض الاسـلام إختـزال المـرأة إلي أنثـي تتجمـل للأخـر كي يسـتمتع بهـا إمـا بالنظـر أو بالفعـل ، فالجنـس بعـض مـن المـرأة. كـما يرفـض الاسـلام المتاجـرة بجسـدها أو ببعضهـا، كـما تفعـل الحضـارة الغربيـة التـي تسـتند فيها ترسـانة الاعـلان والإعلام علي عنـصر المراة . كـما يرفـض الاسـلام أن يسـاء إسـتعمال جسـد المـرأة ، خليفـة اللـه عـلي أرضـه من خلال ممارسـة البغـاء للحصـول عـلي مـا يقيـم الأود، وهـو أمـر تباركـة الحضـارة الغربيـة ، أو تتركـه المـراة ليعبث بـه الآخـرون، بحثـا عـن لـذه عارضـة تقع في المنطقـة الحـرام، وتهبط بالمشـاركين في هـذا العبث إلي مسـتوي حيـواني مرفوض.

غـير أنـه برغـم وضـوح رؤيـة الحضـارة الإسـلامية فيـما يتعلـق بقضايـا المـرأة ، وبرغـم معقوليـة وواقعيـة هـذه الرؤيـة ، فـإن القـوة الشريـرة للحضـارة الغربيـة ، بعـد أن أتـت عـلي الأخـضر واليابـس ، فيـما يتعلـق بالمعايـير والقيـم والمعـاني المتعلقـة بالمـرأة والأسرة والمجتمـع في مجتمعـات هـذه الحضـارة. إتجهـت هـذه الحضـارة إلى الـشرق الاسـلامي ، تسـتهدف مـن ناحيـة القضـاء عـلي القيـم والمعـاني الاسـلامية حتـي لا تصبح الحضـارة الاسـلامية ، بخاصة قيمهـا ومعانيها ، هـي المـرآة التـي تـري فيهـا سـلبياتها وإنحدارهـا . كما تسـعي من ناحيـة ثانيـة إلى وأد الممكن في

هـذه الحضـارة ، فـإذا كان مـا هـو كائـن يشـهد علي قـوة قيم ومعـاني هـذه الحضارة، التـي تحافظ عـلي الانسـان خليفـة اللـه في الأرض. فإنـه مـن الممكـن أن تتخلـص هـذه الحضـارة مـن تخلفهـا فتكتسـب العلـم والتكنولوجيـا والطاقـات الماديـة للحضـارة الغربيـة، ولكـن عـلي خلفيـة الطهـارة والتـوازن وعـدم الاختزال الإنسـانى، وهو الذي قـد يجعلها الحضارة الأقوي . ولذلك تسـعي الحضارة الغربيـة إلي تبديـد مـا هـو كائـن وإجهـاض الممكـن مـن رحمـة حتـي لا يولـد . ومـن ناحيـة ثالثـة تسـعي هـذه القـوة الشريـرة إلي الشرق الاسـلامي لتفـت في عضده وتنـشر الجنس الحـرام والجريمة عـلي سـاحتة ، حتـي يتـاكل نسـيج الحضارة وتسـقط، أو عـلي الأقل تصبـح حضارة مناظـرة لحضارة الغـرب في كل جوانبهـا المعنويـة والمعياريـة السـابقة. وفي هـذه الحالة تصبح بيئـة مجاورة حاضنة للحضـارة الغربيـة المجـاورة، وداعمـة لهـا بغـض النظـر إلي إنحدارها السريـع إلي التآكل والسـقوط.

ولإنجـاز هـذا الاخـتراق الحضـاري الشريـر تعتمـد الحضـارة الغربيـة آليـات عديـدة. ويعد الاخـتراق الثقـافي أبـرز هـذه الآليـات، وفي هـذا الإطـار يتحقـق الأخـتراق الثقـافي بوسـائل عديـدة منهـا الاعـلام والاعـلان وتكنولوجيـا المعلومـات المتطـورة . ويلعـب الاعـلان المتقـدم دوراً بـارزاً في هـذا الصـدد، حيـث تنقـل لنـا الفضائيـات الغربيـة النسـيج المنهـار للحضـارة الغربيـة مجمـلاً ، المـرأة في الحيـاة العامـة جسـدها يسـتنفر الغرائـز. قـد يقـال أننـا نحـن الذيـن نؤكـد عـلي هـذا البعـد، والاجابـة عـلي ذلـك ، ومـاذا عـن الجنـس الـذي إنتـشر في كل اتجـاه في مجتمعـات الغـرب، حتـي بـدأ ينخـر في جسـد الحضـارة عـلي مـا ذهـب مفكروهـا . الاعـلام يرسـل لنـا افـلام الجنـس التـي توجـه إلي الشـباب إلى هـذا النطـاق، والتـي تعمـل عـلي توسـيع مسـاحة الغريـزة في إهتماماتهـم. حتـي يتراكـم التوتـر بـين مسـاحة الغريـزة المتزايـدة بإطـراد، وبـين القيـم والمعايـير الـذي ترفـض تزايـد هـذا الاتسـاع ، في ظـل رجـاء مشـبوه مـن قبـل موجهـي هـذا الاعـلام، يتمثـل فى أن تتفجـر الثـورة الجنسـية التـي يقودهـا شـباب الحضـارة الاسـلامية فيطيحـون بـكل القيـم والمعايـير . وفي هـذا الاطـار نذكـر أن بنيامـين نيتنياهـو رئيـس وزراء إسرائيـل الأسـبق قـد أشـار عـلي المسـئولين الأمريكيـين لهزيمـة إيـران، أن يزيـدوا مـن إرسـال قنـاة فوكـس الأمريكيـة،

التـي تعـرض لأفـلام الجنـس، لكونها القادرة على توسـيع مسـاحة الجنس والغريـزة في بنائهم ، ومن ثـم تأسـيس قطيعة بينهم وبـين معاني وقيـم حضارتهم (٤٦).

الاعـلان أيضـا يلعـب دوره البـارز ، حينـما ينقـل إلينـا نمـط المتاجـرة بجسـد المـرأة ، حيـث يعتـبر ذلـك شـهادة عـلي كفاءتـه ، وأيضا علي قدرته عـلي الاختراق لوضع السـلعة في عمـق إمكانية الـشراء . ذلـك بالاضافـة إلي أن الاعـلان بطبيعتـه الـذى ينقـل إلينـا قيـم ومعـاني وسـلوكيات حضارة غريبـة علينـا . فـإذا تأملنـا مـا حولنـا فسـوف نجـد أن الاخـتراق قـد حقـق بعـض إنجازاتـه في اتباع الإعـلان عـن السـلع في كثـير مـن المجتمعـات الإسـلامية نفـس المنطـق والأسـاليب الغربيـة . تأكيداً لتسـليع جسـد المـرأة، أن غالبيـة الاعلانـات التـي تبثهـا الفضائيات تسـتخدم جسـد المرأة لاسـتنفار شـوق البـشر إلي المشـاركة في إسـتهلاك مـا يعلن عنه . وقد لعبت شـبكة المعلومـات الدولية دوراً في هـذا الاتجـاه كذلـك، وبرغـم فعاليتها العظيمـة في نشر المعرفة عـلي الصعيد العالمي والمسـاعدة في تراكـم المعرفـة ، إلا أنهـا قامـت ببعض الوظائـف الجانبية ذات الطبيعة السـلبية التـي تدفع بإتجاه إنهيـار المعـاني والقيـم التـي للحضـارات الأخـري ، ومـن بينهـا الحضـارة الاسـلامية ، وهـي بالأسـاس لكونهـا الهـدف . إرتباطـا بذلـك تلجـأ شـبكة المعلومـات إلي وسـائل عديـدة لإنجـاز ذلـك ، منهـا تأسـيس الجماعـات الافتراضيـة التـي تـدور بعـض حواراتها عن الجنـس. تتخطي بالحـوار الجوانب الموضوعيـة إلي المنطقـة الحـرام ، حيث تلعب الشـبكة دورها كوسـيط لممارسـة الجنـس، يضاف إلي ذلـك فتـح نافـذة الشـباب واسـعة عـلي عالم كامـل من الجنـس، الذي توسـع آلياته مسـاحة الجنس لديهـم. عـلي هـذا النحـو يصبـح شـبابنا الاسـلامي محـاصر داخـل أضـلاع مثلـث تتمثـل أضلاعـه فى الاعـلام والاعـلان وشـبكة المعلومـات الدوليـة ، ولا فرار مـن الخضوع والمشـاهدة.

ذلـــك يدفعنـــا إلي طـــرح ســـؤال ولمـــاذا التركيـــز عـــلي المـــرأة والشـــباب، والاجابـــة عـــلي ذلـــك تشـــير مـــن ناحيـــة إلي أنهـــما معـــا يشـــكلان غالبيـــة المجتمـــع، ومـــن ناحيـــة ثانيـــة فـــإن الدخـــول إلي العـــالم الاســـلامي مـــن بـــاب المـــرأة إكـــثر يـــسراً وســـهولة لاعتباريـــن. الأول أن واقـــع المـــرأة في بعـــض المجتمعـــات الاســـلامية والعربيـــة يشـــهد أحيانـــا

ترديا ، وذلك يختلف بطبيعة الحال عن ما يفرضه الخطاب الاسلامي ويلح عليه. الأمر الذي يجعل الحديث الغربي عن حقوق المرأة له صدي ومصداقية بالنسبة لبعض الشرائح الاجتماعية ، كما نجد فى المراة إذنا صاغية لذلك. بينما يتصل الاعتبار الثاني بأن المرأة هي الأكثر استهواء بحكم تكوينها العاطفي إلي متابعة الجديد خاصة فيما يتعلق بالتزين ، لأن في ذلك إبراز لمفاتنها الأنثوية. تأكيداً لذلك أن نسبة عالية من السلع المعلن عنها هدفها إبراز أنثوية المرأة، وطغيان هذه الأنثوية لتعيد تشكيل المرأة ذاتها وإختزالها في حدود إنثويتها ، أو لتملأ فضاء المجتمع حتي تزدهر هذه الأنثوية علي تربتها . بالإضافة إلي ذلك يوجه الاختراق الثقافي إلي الشباب كذلك، وذلك باعتبار أن الشباب من ناحية هم الأقل ارتباطا بقيم ومعايير ثقافة مجتمعهم. ومن ثم فهم الأكثر استعدادا ، من بين كل الفئات والشرائح الاجتماعية لتقبل الجديد ولوكان قادما من الخارج، لأنه يتصرف بعاطفية تجاه كل ما يشبع إحتياجاته ، قد يرفضه بعض الشباب حينما يتعرفوا عليه ، غير أن الغالبية سوف توافق عليه وتقبله وتعمل بمضامينة، خاصة إذا كانت مؤسسات التنشئة ضعيفة وعاجزة عن مواجهة هذه المضامين .

وتعد الشعارات العالمية المتعلقة بحقوق الإنسان، أحدي الآليات التي ترفعها القوي العالمية لتيسير الاختراق الثقافي لتعديل أوضاع المرأة تجاه ذات الأوضاع السلبية التي تعيشها المرأة في الغرب. ولأن غالبية المجتمعات العربية والاسلامية تعاني من قدر واضح من التخلف الذي يجعلها ضعيفة وعاجزة في مواجهة المجتمعات المتقدمة ، خاصة القوي الكبري المسيطرة علي العالم . فإننا نجد أن هذه القوي العالمية المسيطرة تسعي بوسائل ضغط عديدة لتبديد هوية أمتنا وتمزيق نسيجها الحضاري. وفي هذا الاطار يصبح الدفاع عن حقوق المرأة وحقوق الانسان هو المدخل لممارسة الضغط في هذا الاتجاه. حيث نجد انه ليس من قبل الصدف أنه إبتداء من تحقق المد الليبرالي علي الصعيد العالمي وإنهيار الاتحاد السوفيتي وتسيد الولايات المتحدة الأمريكية علي قمة العالم وسيطرتها عليه . أن برزت دعوات كثيرة في العالم العربي والاسلامي تتحدث عن حقوق المرأة ، والعنف ضد المرأة ، بل وتؤسس تنظيمات نسائية عديدة في

أغلـب المجتمعـات الاسـلامية والعربية بخاصـة الضعيفة أمام السـيطرة الغربيـة والخاضعة لها . ولم يطـرح أحـدا تسـاؤلاً عـن حقـوق المـرأة الغربيـة التـي تتاجر بجسـدها من خـلال الاعـلان أو تبيعة للعبـث بـه جنسـيا، مـن خـلال البغـاء مـن أجـل الحصـول عـلي مـا يقيـم الأود. أليـس مـن حقهـا أن تحصـل مـن دول الرفاهيـة في الحضـارة الغربيـة علي ما يشـبع حاجاتهـا الأساسـية بكرامة ودون تعريـض جسـدها للعبـث بـه . وبرغم أن الاسـلام منـح المرأة مكانتهـا العالية وأدوارها الأسـمي ، فلا مانـع مـن إتهـام الاسـلام بمـا ليـس فيـه فيـما يتعلـق بالمـرأة ، فالهـدف ليـس الارتقـاء بالمـرأة ولكن العمـل عـلي تدمـير هويـة الأمة .

وتشـكل الصفـوة العلمانيـة المتطرفـة في المجتمعـات العربيـة الاسـلامية، أحـد الآليـات الهامـة التـي يتـم اللجـوء إليهـا ، من خـلال شراء ضمائرهـا ، لتبديد هوية المـراة العربية الاسـلامية، ودفعهـا في إلتجـاه تبنـي سـلوكيات المـرأة الغربية. حيث تتحـرك هذه الصفوة مؤيـدة بالحكومات الضعيفـة ، أو بالأصـح دول حالـة الانهيـار الضـاري ، حيـث ينـصرف الاهتـمام بـدلاً مـن التنميـة والتحديـث والتقـدم وفـق مـشروع إجتماعـي يعمـل عـلى تجسـيده المجتمـع، إلي الاهتـمام بقضية ختـان الإنـاث. في هـذا الاطـار نسـتورد قضايـا مـن الغـرب لتفـرض عـلي أجندتنـا ، كقضايـا التحرش الجنـسي وقضايـا إغتصـاب الرجـل لزوجتـه ، أضافـة إلي محاربـة الرمـوز الاسـلامية التي قد تتمسـك بهـا المـرأة كالحجـاب . وبـدلاً من يشـارك المثقفـون في النضال لدفـع التحول الديموقراطـي إلي الأمام ، فإننـا نجدهـم يشـنوا معـارك دون كيشـوتيه ضـد الحجاب . وبـدلاً من أن تدفع الصفـوة العلمانية المتطرفـة مجتمعاتهـا إلى الأمـام، إذا بهـا تخـدم أهداف الآخر في تدمير هوية الأمة وتمزيق نسـيجها .

وتلعـب بعـض المنظـمات الأهليـة المهتمـة بقضيـة المـرأة دورهـا في هـذا الاتجـاه أيضـا ، في هـذا الاطـار تكاثـرت المنظـمات والتنظيـمات الحكومية، وغـير الحكومية التي تهتـم جميعها بقضايا المـرأة مـن خـلال الرؤيـة الغربيـة . حيث إنتشرت هـذه المنظمات علي السـاحة العربية والاسـلامية ، تتلقـي التمويـل مـن المؤسسـات الغربيـة الحكومية وغـير الحكومية. لتتسـاقط في جيوب الصفوة النسـائية التـي تعمـل في اتجـاه دفع تطوير المرأة في اتجـاه التطور الغربي بدلا مـن العمل علي دعم

روابطهـا بتراثهـا وتأسـيس وعيهـا . في هـذا الاطـار تعمـل هـذه التنظيـمات في اتجاه تمزيـق روابطها بنسـيج مجتمعهـا وتراثهـا، الـذي منحهـا المكانـة العاليـة. بينما المـرأة في المجتمع بخاصـة في شرائح الطبقـة المتوسـطة والدنيـا، تعيـش في غالـب الأحيـان في ظـل ظـروف تعسـه ومأسـاوية يدينهـا الخطـاب الاسـلامي لأنهـا تفـرض العنـت عليها. بينـما قيادتهـا ونخبتها النسـائية لاهية عنهـا، بعقد المؤتمـرات والنـدوات والمحـاضرات، التـي تتحـدث عـن المـرأة ، حتـي تصـل أصواتهـا إلي مؤسسـات التمويـل في الغـرب، لترفـع مـن تمويلهـا الـذي يتدفـق بـدوره إلي جيـوب نهمـة لا تشـبع .

ذلـك يعنـي أن المـرأة اصبحـت تشـكل سـاحة صراع بـين حضارتين ، الحضـارة الغربيـة التي أفتقـدت نموذجهـا المعيـاري الموجه فيـما يتعلق بتنظيم وتطـور الحياة بعامة، وبخاصـة فيما يتعلق بالمـرأة. فأختزلـت المـرأة مـن إنسـانة كاملـة إلي أنثي فنشرت بذلـك الجنس الحـرام في فضاء هذه الحضـارة حتـي أتي عـلي كل شـئ وبدأ يفـت في عضدها وينخـر في بنيتها مـن الداخل .

حيـث بـدأ هـذا النمـوذج الحضـاري الغـربي يتحرك بإتجـاه الـشرق وبخاصة تجـاه الحضارة الاسـلامية يسـعي إلي نـشر ثقافـة الانحـراف والحـرام عـلي سـاحتها، يحـاول أن يقتلـع قيـم ومثـل ومعايـير دينهـا مـن جذورها ، حتي تشـكل فضـاءاً يعيث فيه حراما وفسـاداً . يخترق هـذا النموذج فضـاءاً مسـلحاً بالقـوة وثقافـة الجنـس الحـرام والاعـلام والاعـلان وآليـات عديـدة أخـري كثـيرة ، وكذلـك بضعفنـا. يسـعي هـذا النمـوذج المدفـوع بقـوة شريـرة ويخطـط لـصراع – يعتقـد انـه منتـصر فيـه – مـع الحضـارة الاسـلامية التـي تمتلـك النمـوذج الموجـه، الـذي يتضمـن القيـم والمثل والمعايـير التـي تنظـم كل تفاصيـل حيـاة البـشر وبخاصة المـرأة. كل السـلوكيات المتصلة بشـخصها أو بعلاقتهـا بالآخريـن مـن داخـل الدائـرة القرابيـة أو خارجهـا ، كـما ينظـم أدوارهـا عـلي سـاحة التفاعـل الأسري ومـع كل أطرافـة . وهـو مـا يعنـي أن النمـوذج الأسـلامي فيـما يتعلـق بالمـرأة لم يـترك واردة ولا شـاردة في عالمهـا إلا وتعـرض لهـا وحددهـا ، بحيـث لم يترك شـئ للتجربـة والمحاولة والخطـأ . لقـد رسـم النمـوذج الاسـلامي الاطـار الـذي ينبغـي أن تتحـرك فيـة المرأة بوضـوح لا لبس

فيـه، وأن لم يغلـق بـاب التأويـل والاجتهـاد وإعادة قراءة النموذج، لاكتشـاف معاني جديدة تسـاعد عـلي تأكيـد تكيـف المـرأة المسـلمة مـع واقعهـا المتجـدد والمتغـير أبـداً، بحيـث أصبح الخـروج عن الاطـار الذي حـدده النمـوذج إنحرافا .

وأمـام ضعـف الثقافـة الغربيـة المتعلقـة بالمـرأة وصلابـة النمـوذج الاسـلامي التـي يسـتمد قوتـه مـن تنظيـم حيـاة المـرأة بصـورة تفصيليـة وراقيـة ومتكاملـة، كان مـن المنطقـي أن تحـدث محـاولات للتفلـت مـن هـذا النمـوذج ، وهـو التفلـت الـذي مـا زال محـدوداً، طالما أن النمـوذج ما زال في العقـل والقلـب المسـلم ماثـلاً . هـذا التفلـت أو الانحـراف بـدأ يأخـذ أحـد أشـكال ثلاثة . في إطـار الشـكل الأول بـدأت تظهـر تأويـلات غريبـة عـلي روح النمـوذج، يفتـش في إطارهـا عن بعض الوقائـع النـادرة التـي تشـكل إسـتثناءاً، لتتحـول فتصبـح القاعـدة. كطـلاق «الخلع» الـذي يتحول مـن واقعـة إسـتثنائية حدثت في ظروف إسـتثنائية ، ليصبح القاعدة وعبر جـسره تنهار وتتفكك أسر عديـدة ويتـشرد ابناء ويسـقط الالتـزام بالأسرة. كما يعتبر زواج «المسـيار» ، محاولـة أخري لتحويل الاسـتثناء التاريخـي إلي قاعـدة ، حيـث يطرح هذا النمـط من الزواج بغير ظروفـة. وينضم إلي ذلك زواج «المتعـة» المؤقـت بطبيعتـة ليصبح أو يتحول ، يضغط من إختراق الثقافة الغربية التي تسـعي إلي تفكيـك النمـوذج الاسـلامي، إلي دوام يؤدي تواجـده إلي محاولة تقويـض أركان النموذج . إضافة إلي نمـط الـزواج الـذي طرحة أخـيراً الفقية اليمني الشـيخ عبد المجيـد الزنداني، والذي سـماه «زواج فرينـد» والـذي تتضـح فيـه قـوة إخـتراق الثقافة الغربيـة لقيمنا ومعاييرنـا الاسـلامية ، إضافة إلي أن ذلـك واضـح مـن التسـمية .[٢*] يضـاف إلي ذلـك محاولـة فـرض فهم خـاص للنص ومحاولـة الترويج

[٢*] *يعتبر «زواج المتعة «زواج مؤقت ينتهي بإنتهاء المدة المتعاقد عليها بدون طلاق ، ولا توارث عند الموت . وقد أحله النبي صلى الله عليه وسلم ، لظروف طارئ ثم ابطله بعد زوال الظرف وإستمر باطلا إلي يوم القيامة . وأساس نسخه عند أهل السنة يرجع إلي أن المقصود من الزواج هو الدوام والاستمرار حتي يكون هناك أستقرار في السرة لتؤدي رسالتها من الرحمة والمودة والسكن وتربية النسل تربية منظمة (٤٧). أما «زواج المسيار» فهو الزواج الذي تتنازل المرأة في إطاره عن بعض حقوقها ، وهذا الزواج وإن لم يحقق كثيراً من مقصود الزواج لكنة مباح مه الكراهية ، ولا يلجأ إليه إلا في بعض الحالات الخاصة . وفي إطار زواج المسيار تتنازل الزوجة عن حقها في النفقة وفي المبيت إن كان للزوج إمرأة أخري . والغرض الظاهر من هو الاستمتاع إما بسبب واضح لزيادة رغبته في المتعة ، وإما لأن المرأة فاتها قطار الزواج وترغب في الزواج بأي من صورة (٤٨). أما «زواج فريند» فقد طرحة الشيخ الزنداني كحل شرعي للعنوسة وتيسير الزواج ، وذلك من خلال خلق صلة زواجية جديدة تحت أسم «زواج فريند» بدلا من نظام «جيرل فريند Girl Friend و Boy friend الموجودة في الغرب . حيث يمكن للشاب أو الشابة من خلال هذه الصلة الزواجية الجديدة أن يرتبطا بعقد زواج شرعي ، دون أن يمتلكا بيتا يأويان إليه ، إذ يكتفي في البداية بأن يعود كل منهما إلي بيت أبوية (٤٩) وقد رفضه غالبية الفقهاء وواضح من الشكل الأول والثاني الانحراف عن روح الدين والنموذج الاسلامي ، كما هو واضح من الشكل الثالث تاثير ضغط الثقافة الغربية علي مجتمعاتنا .

لـه حتـي يتحـول إلي فهـم عـام . كالقـول بـإن آيـات الحجـاب تتحدث عـن واقعـة تاريخيـة لتمييز «الحرائـر» عـن «الجـواري» متجاهلـين أنه حكـم قرآني عام. يتجـاوز الزمان والمكان حتي وإن نزل الوحـي بـه بمناسـبة معينـة ، وتأكـدت عمومـية هـذا الحكـم بحديث الرسـول صلى الله علي وسـلم وسـنته . بحيـث نجـد أن هـذا الشـكل مـن التفلت والانحـراف عـن النمـوذج ، وإن كان محدوداً في مسـاحتة إلا أن إنحرافـة يتمـدد بتحويـل مـا هـو إسـتثنائي إلي قاعـدة ، أو إختـزال مـا هـو عـام ولا تاريخـي إلي مـا هـو مؤقـت وتاريخي .

ويتمثـل التفلـت أو الانحـراف الثـاني عـن النمـوذج الاسـلامي فيـما أصبـح يعـرف «بالزواج العـرفي» وإذا كان هـذا النمـط في صحيحـة يطلـق عـلي عقـد الزواج الـذي لم يوثق بوثيقة رسـمية . وهـو العقـد الـذي إذا إنعقـد بـه الـزواج الصحيح شرعـاً يحل بـه التمتع وتتقـرر بواسـطته الحقوق للطرفـين وللذريـة الناتجـة منهـما ، وكذلـك التـوارث . حيـث كان هـذا النظـام هـو السـائد قبـل ان توجـد الأنظمـة المدنيـة الحديثـة التـي توجـب توثيـق العقـود . وهـو وإن كان صحيـح شرعـاً ، غـير أن لـه إضرار ، وتترتـب عليـه أمـور محرمـة (٥٠) .وفي ظـل هـذا الشـكل الشرعـي الاسـتثنائي كذلـك ، وبسـبب ضغـط الاباحيـة الجنسـية الغربيـة، التـي تعـد مـن متضمنـات الاخـتراق الثقـافي. وهـي الاباحيـة التـي وسـعت مـن مسـاحة الجنـس في حيـاة شـبابنا وأججـت غرائـزة ، غـير أنـه في مواجهـة النمـوذج الاسـلامي الموجـه والقـوي ، بـدأ الشـباب يتبنـي زواجيـا شـكل الـزواج العـرفي الـذي قـد يوافـق عليـه النمـوذج الاسـلامي ، وأن زوده بمضامـين غربيـة. عـلي هـذا النحـو أبتكـرت خمسـة أشـكال عديـدة للـزواج العـرفي منهـا «زواج الهبـة» و «زواج الكاسـيت» و «زواج

الـدم» و«زواج الوشـم» و«زواج الطوابـع»[٣] وجميعهـا أشـكال مـن الـزواج خـارج الشرعيـة الدينيـة وتتناقـض معهـا ، وتعـد التفافـا حـول النمـوذج الاسـلامي الموجـه، كـما تعد نوعـاً من نـشر الاباحية الجنسـية بـين الشـباب في كل إتجـاه . وتحـت ضغـط إخـتراق الثقافة الغربية المشـبعة بـروح القوة الشريـرة، والجنـس الحـرام، أصبحـت هـذه الأنمـاط مـن الـزواج السري واقعـا ملموسـا لإيخفي علي ذي بصـيرة. تعـددت أشـكاله وإزدادت وقائعـه، وكل يـوم هنـاك جديـد بشـأنه لدرجـة أن بعـض الإحصائيـات أكـدت أن هنـاك أربعة عـشر ألف قضية مرفوعـة أمام المحاكم الشرعيـة لاثبات البنوة مـن هـذه الأنـواع مـن الـزواج ، ومـن المحتمـل أن يكـون ذلـك ليـس إلا قمة جبـل الثلـج العائم .

ويشـكل الانحـراف أو التفلـت الجنـسي النمـط الثالث مـن الجنس الصريح الانحـراف الذي لا يتسـتر حرامـة بأيـة أقنعـة شرعيـة ولـو زائفـة . فتحت وطـأة الجنس المتدفـق عـبر الفضائيات أو عـلي مـتن الأشرطـة الممغنطـة أو الـذي يتحرك عبر أثير شـبكة المعلومـات الدولية. إضافـة إلى تطور تكنولوجيـا الجنـس المتمثلـة في انتشـار أقـراص الفياجرا متضافرة مـع أقراص منع الحمـل إضافة إلي

[٣] يعد «زواج الهبة» نوع من الزواج لا يحتاج فيه الطرفان إلي كتابة ورقة أو إلي شهود وغيره من الأعباء التي رأي الشباب أنها تعوقهم . ويتم هذا الزواج بين شاب وفتاة بأن تهب الفتاة نفسها للشاب يقولها «وهبت لك نفسي ويقبلها الشاب ، وبذلك يصبح لهما حق ممارسة حياتهما كزوجين . وفي «زواج الكاسيت» لا يحتاج الطرفان إلي كتابة ورقة أو لشهود أو غير من تلك الأعباء ، حيث أصبح من المعترف به أن يقوم الشاب والفتاة الراغبان في الزواج بترديد عبارات بسيطة كأن يقول الشاب لفتاته أريد أن أتزوجك ، فترد عليه بالقبول بتزويج نفسها له . ويتم تسجيل هذا الحوار البسيط علي شريط كاسيت . وبعدها يمارس كل منهما حقوقة الزوجية كأي زواج عادي . ومع التطور الذي يشهده العالم علي ساحة الجنس . يشير «زواج الدم» إلي قيام كل من الطرفان الراغبان في الزواج بجرح إبهامه ليسيل منه الدم وتختلط دماؤهما وبذلك يصبحا زوجين لهما جميع الحقوق الزوجية للأزواج . ومع التفنن في إبتكار أشكال وأساليب جديدة للزواج ظهر «زواج الوشم» حيث يقوم الشاب والفتاة في إطاره بالذهاب إلي أحد مراكز الوشم ويقومان بإختيار رسم معين يرسمانه علي ذراعيهما أو علي أي مكان يختارانه من جسميهما . ويكون هذا الوشم بمثابة عقد الزواج . وبموجب هذا الوشم يتحول الشاب والفتاة إلي زوج وزوجة لهما الحق في ممارسة كافة الحقوق الزوجية . ويعد «زواج الطوابع» آخر ما وصلت إليه عقول الشباب . ويتم هذا الزواج عبر إتفاق الطرفين علي الزواج ، ويقومان بشراء طابع بريد عادي . ويقوم الشاب بلصق الطابع علي الجبين . وبعد عدة دقائق يعطي الطابع للفتاة التي تقوم بدورها بلصق الطابع علي جبينها . وبهذا تنتهي مراسم الزواج ويتحول بعدها الشاب إلي زوج والفتاة إلي زوجة وسط تهنئة وفرحة الأصدقاء الذين يساعدونهما علي تحمل تكاليف الزواج عبر توفير مكان لهما ليلتقيان فيه بخصوصية وليمارسا علاقتهما الزوجية بدفء ، وخصوصية بعيدا عن العيون المتربصة(٥١) .

تكنولوجيا الاجهاض المتطورة. ونتيجة لكل ذلك وبتأثيره بدأت مؤشرات كثيرة لتمرد جنسي علي المشروعية المدنية وعلي العرف والمألوف ، وبدأت تتشكل مساحات الجنس الحرام وتتسع بين بعض الشرائح الاجتماعية ، وفي مواضع التجمعات الشبابية أمام تساهل عائلي وإجتماعي [٤*] بليد، بحيث تصاعدت موجات الجنس حتي إختراق حدود العائلة موقع أرض المحارم. بحيث أعتبر ذلك مؤشراً ، إذا إستمر الأمر بهذه الوتيرة ، علي حدوث زلزال لا ريب فيه يقلب الثوابت في حياتنا رأسا علي عقب .

وإذا كان الإختراق الثقافي الغربي بجنسه الحرام وإنفلاتنا ما زال يضغط علي حياتنا، ويسبح مزهوا في فضائنا بلا عائق ولا رادع، وإذا كانت القوي العالمية تضغط بإتجاه نشر انحرافها علي العالم وعلينا. تستهدف من ذلك تمزيق نسيج مجتمعنا وتدمير رواسخ أو ثوابت حضارتنا ، فإنه يصبح علي كل ذي عقل وضمير في هذه الأمة أن يعمل بسرعة وبجدية حضارية. بإستراتيجية قوية وشاملة بإتجاه دعم نموذجنا الاسلامي الذي توجه قيمة ومعاييره سلوكيات البشر في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية. ويمكن أن يتحقق ذلك من ناحية من خلال إبراز وتوضيح الموقف الاسلامي الصريح، من القضايا المعاصرة المتعلقة بالمرأة، والعمل علي نشرها حتي يتعرف عليها الكافة. ومن ناحية ثانية إعادة قراءة وتأويل وثائق ديننا، فيما يتعلق بقضايا المراة ومشكلاتها الحالية. ذلك مباح لنا إستناداً إلي الحديث الشريف «يظهر علي رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها» ومن ناحية ثالثة أن تعمل مؤسسات التنشئة الاجتماعية المتمثلة في الأسرة والمدرسة والاعلام بجد ومن الأن، إذا

٤*من الظواهر المدهشة التي تعد مؤشرات علي التساهل العائلي أمام الإنحراف المشكلة التي شغلت الرأي العام في الفترة الأخيرة ، والتي تمثلت في إنجاب فتاة أبنة لأستاذين جامعين- المفترض أنهما قدوة – من شاب فنان لأبوين من أهل الفن – المفترض أنهم قدوة كذلك – من خلال زواج عرفي تم سراً في الظلام ومن خلف ظهر الأهل . المثير للأستغراب أن أبوي الفتاة تناول أمر إبنتهما –تحت تأثير إختراق الثقافة الغربية – من زاوية حقوق الإنسان وحقوق المرأة والطفل ، وتناول الرأي العام القضية من هذا المنطلق أيضا ، وظهرت الأبنة في ثوب البطلة المدافعة عن حقوق الانسان . واسقط الجميع او لم يتنبهوا متعمدين إلى إنحراف الأبنة وممارستها الجنس من خلال زواج عرفي مشبوه، من خلف ظهر الأبويين والأسرة ويبدو أن صوت المؤسسات الدينية كان خائفا وخافتا في مواجهة هذه القضية .

أردنا أن نواجه هذا الإختراق ونحفظ لأمتنا كرامتها، بأن نعمل علي الاحتكام لقيم ومعايير النموذج الاسلامي المعتدل – غير المتشدد أو المتطرف - فيما يتعلق بقضايا المرأة والمجتمع والحياة عموما. حتى يشكل ذلك سدا منيعا عائقاً يحمينا من موجات الانحراف والحرام، مهما كانت عالية ومتدفقة ، والله المستعان به في كل حال .

رابعاً: العنف مع المرأة، مضامين غربية على ساحة واقع شرقى

أشرت فى الصفحات السابقة إلى الأوضاع السلبية التى عانت منها المراة فى نطاق الحضارة الغربية، التى فقدت نموذجها المعنوى والدينى الموجه، الأمر الذى أدى إلى تردى اوضاع المرأة، حتى وصل الأمر إلى حد التتجير بها كسلعة او الاعلان عن سلعة. وأوضحت الأسلوب الذى عملت به الحضارة الغربية لإختراق مجتمعاتنا من مدخل المرأة والشباب، لتفكيك بنية مجتمعاتنا. وبرغم إدعاء الحضارة الغربية الدفاع عن حقوق المرأة، فإن هذا الأدعاء قد أدى فى الحقيقة إلى الحط من مكانة المرأة، وإذا كان من المباح العبث بجسد المرأة الغربية إختيارا، فإنه إنتقل إلى مجتمعاتنا تحت وطأة تقليد الغرب حينا، وأحيانا تحت وطأة الالحاح الغريزى الذى إستنفرته تكنولوجيا الاعلام والمعلومات، بحيث وجدنا نتيجة لذلك إنتشار سلوكيات التحرش الغريبة على مجتمعاتنا، والأغرب أنها إنتشرت فى أكثر الفترات ثورية، نقاء وطهاره، حيث إعتبر ذلك مؤشراً لتدنى النظرة إلى المرأة، التى شاركت الرجل فى اكثر ثورات الألفية الثالثة دراميةً وإبهاراً، ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ وثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٤.

وإذا كان التاريخ الإنسانى قد أبرز حقيقة مشاركة المرأة بفاعلية فى غالبية الثورات الإنسانية، فقد شاركت فى الثورة الفرنسية والروسية والمجرية والأسبانية. وفى تاريخنا المصرى لعبت المرأة أدوار الثورة والاحتجاج ضد المماليك والعثمانين، وضد الاحتلال الفرنسى والانجليزى. كما لعبت دوراً محوريا فى ترسيخ قيم الفداء والحرية والمواطنة حينما شاركت فى ثورة ١٩١٩ رافعة راياتها، وظل نضالها مستمرا حتى قيام ثورة ١٩٥٢. ثم واصلت مسيرتها الشامخة حينما لعبت مجيدات مدن القناة أدوارهن فى الدفاع والنضال ضد

المعتدين فى ١٩٥٦، و ١٩٦٧ وحرب الاستنزاف، وتوج إسهامها المجيد بإنتصار ١٩٧٣.

وحينـما قامـت ثـورات الربيـع العـربى، شـاركت المـرأة بفاعليـة فى هـذه الثـورات، بسـبب العنـف الـذى طالهـا وطـال المجتمـع مـن قبل أنظمة سياسـية سـابقة، ظالمة وفاسـدة، بل وسـاقطة أخلاقيـا، لأنهـا تعاملـت مـع المـرأة بأنتهـاك رمزية جسـدها. حيث شـاركت المـرأة إلى جانب الرجل والفتـاة إلى جانـب الفتـى، فى السـعى تجـاه تحقيـق هـدف أصيـل يتمثـل فى إسـقاط نظم سياسـية عاجـزة ومتخلفـة عـن طموحـات شـعوبها. فى هـذه الفـترة أينعـت أحـلام كثـيرة فى خيـالات المرأة، فقـد سـقط نظـام ظـالم، واصبحنـا على مشـارف تحـول ديموقراطى نشـتاق إليـه، وعدالـة إجتماعية تخلصنـا مـن الإسـتغلال والحقـد وعـدم الاسـتقرار، وحريـة نعـبر مـن خلالهـا عـما بداخلنـا، ليصبح خارجنـا نتحـاور بشـأنه، وعيـش أو خبـز يرمـز إلى الشـوق لنوعيـه حيـاة إنسـانية وكريمـة، يحتاجها المصريـون بنـاة الحضـارة وصانعـوا التاريخ.

وبرغـم أن الثـورة التـى قـام بهـا المصريـون، رجـالاً ونسـاءً شـهد لهـا العـالم وإسـتنفرت طموحـات المصريـين جميعهـم، إلا أنهـم فى أعقـاب إكتـمال الحـدث الثـورى المحورى، الـذى تحقق بإسـقاط النظـام الفاسـد، تدفقـت فى مجـرى الثـورة بعـض الميـاة الأسـنة، أو أن الريـاح أتـت بمـا لا تشـتهيه سـفنها. فقـط وقعـت إنحرافـات كثـيرة عـن قصـد أو عن غـير وعـى، إنتهـت فى النهاية إلى بـروز نظـم سياسـية بـدت وكأنهـا تعمـل لغير صالـح المجتمـع، وعـادت كل أطيافـه وفئاتـه تقريبا، بمـا فى ذلـك المـرأة التـى كانـت فاعـلاً أصيلاً، وحـاضراً دائمـاً فى الثورة. بـل إنها بوجودها على سـاحة ميادیـن الثـورة ألهبـت خيـال وأحـلام الرجـال، فدفعتهـم بفاعليـة نحـو إسـتكمال الحـدث الثـورى، بالتضحيـة مـن أجلـه، والسـعى للتحـرك بـه إلى آفاق المسـتقبل.

وإذا كان النظـام السـابق عـلى الثـورة قـد إنتهـك القيمة الرمزيـة للمرأة، برغم أنـه قد وفر لها بعض المكاسـب كتأسـيس المجلس القومى للمرأة، وإن كان ذلك لغير سـواد عيونها، فإن النظم التى سـيطرت بعد الثورة أبدعت فى التنكيل بالمرأة، كأنما هى تخشى على نفسـها وبقائها من مصدر القـوة والطاقـة فى المجتمـع. فقـد تعامـل بلاطجـة الأخوان فى فترة حكـم المجلس العسـكرى بعنف

مع المـرأة تدفـق عـلى سـاحتها بـلا عائـق. أحتـوى عـلى تنوعـات وإتسـاعات شـاملة، تبـدأ مـن الـضرب إلى السـحل، إلى تمزيـق الملابـس تعريـة لرمزيـة الجسـد، وحتـى القتـل والتعذيب، وكشـف العذريـة المهـين، مـروراً بالتخاطب معها بكل الوسـائل التى تخـدش الحياء. وبرغـم إعتذار المجلس العسـكرى عـن بعـض هـذه الممارسـات التـى وقعـت مسـتظلة بمظلتـه، إلا أن بعـض الحـزن ما زال راسـبا فى أعـماق النفوس.

وحينـما إمتلـك الأخوان المتأسـلمون السـلطة، توقعـت المرأة خيراً فنحـن الآن فى حكم مدنى سـوف يسـاعدنا فى تحقيـق المنـى والاحـلام، إعتقـادا مـن كل مصرى أنهـم ذوى قيم، ومـن المحتمل أن يكونـوا دعـاة عـدل وإسـتقامة. غـير أن الريـاح جـاءت مـرة أخـرى بما لا تشـتهى السـفن، حيث أدرك النـاس والمـرأة بالتحديـد أن نظـام الأخـوان المتأسـلمون، أكـثر عنفـا وضراوة مقارنـة بالأنظمـة السـابقة. بخاصـة تجـاه المـرأة، التـى يضمـر لهـا نظـرة متدنيـة تتناقـض مـع روح الإسـلام الـذى يتشـدقون بـه. تأكيـدا لذلـك أنـه فى عـصر الأخـوان عانـت المرأة مـن الـضرب والتعريـة والتعذيب والسـحل، وزادوا عـلى ذلـك الاغتصـاب وفض العذرية، وليس الكشـف عنها فقـط. وقع ذلك حينما تحرشـت الميليشـيات المتأسـلمة بالمـراة جنسـيا، وارتكبت العنـف الاجتماعى والجنـسى معها ورغما عنهـا. لإرهاربهـا حتـى تتراجـع عـن الاشـغال بالمجـال العـام، وحتـى لا تقترب مـن الميادیـن، وحتى تنكمـش داخـل أسرتهـا، وداخـل شرنقـة مجالها الخـاص. وبذلك إتسـعت تنوعات العنف السـياسى معهـا وإبتكـرت أدوات جديـدة فاعلـة وأكـثر حسـما، حيـث إنطلـق كل ذلـك من مرجعيـة مريضة ومـزاج منحرف.

وبرغـم ذلـك مـا زالـت «بهيـة» قويـة ومـصرة عـلى تحقيـق أحلامهـا، فى الديموقراطيـة والعدالـة الاجتماعيـة والحريـة ونوعيـة الحيـاة الكريمـة، قـد تسـطر بعـض سـطورها فى الحـاضر فى ظـل عنـف متنـوع فى أنماطـه وفاعليـة يمـارس مـع المـرأة، ذلـك يدفعنـا بدايـة إلى تحديـد معنـى العنـف. يعـرف العنـف «بإعتبـارة أحـد أنمـاط السـلوك العـدوانى تجـاه شـخص آخـر، ويتمثـل فى إسـتخدام القـوة والقهـر والتهديـد لالحـاق الأذى والـضرر بالشـخص أو ممتلكاتـه. ومـن ثـم فالعنـف هـو سـلوك يعتمـد القوة ويسـتهدف الحـاق الأذى النفـسى والاجتماعى والبدنى بالشـخص

بصورة مباشرة أو غير مباشرة» (٥٢). أما العنف ضد المرأة فيعرف بأنه «أى فعل عنيف تدفع إليه عصبية الجنس ويترتب عليه أو يرجح أن يترتب عليه، أذى أو معاناة المرأة. سواء من الناحية الجسمية أو الجنسية أو النفسية، بما فى ذلك التهديد بأفعال من هذا القبيل، ويدخل فى إطار ذلك الحرمان التعسفى من الحرية، سواء حدث ذلك فى الحياة العامة أو الخاصة» (٥٣). ويختلف العنف الاجتماعى والسياسى مع المرأة عن باقى أنواع العنف لكونه يرتبط بجهة سياسية هى التى تتولى، أو أحد أجهزتها ممارسة العنف بأشكاله المختلفة ضد المرأة. ويعتبر العنف الاجتماعى والسياسى أخطر أنواع العنف الموجه ضد المرأة، لكونه يتميز بالشدة والسعة والتنوع والامتداد، وتضمنه لعوامل نفسية ضاغطة، تترك آثارها على المرأة المعنفة. وينتشر العنف الاجتماعى والسياسى فى حضارة القرن الحادى والعشرين، الأمر الذى يجعل منه ظاهرة خطيرة ومؤلمه، لا تؤثر على المرأة وحدها، بل تؤثر الأسرة والمجتمع والأجيال القادمة (٥٤). وقد يكون العنف الممارس ضد المرأة معنوى أو لفظى أو نفسى أو بدنى.

وقد يكون العنف الممارس مباشراً، أى يتجه إلى المرأة مباشرة، كأن يقيد حركتها بالسجن أو المراقبة أو المنع من الحركة، أو العنف العنصرى الذى يتم من خلاله تعقيم المرأة فى بعض المجتمعات بإستخدام لقاحات كاذبة. كما يحدث بالنسبة لجماعة «الروهينجا»، أو حرمان المرأة المحجبة من العمل بأى صورة فى بعص المجتمات الغربية كفرنسا. كما يدخل فى نطاق هذا النمط الحرمان من التجنيس أو إسقاط الجنسية. بالإضافة إلى ذلك هناك العنف الاجتماعى والسياسى الذى يستهدف فرض هوية جديدة على المرأة، فى مقابل إلغاء هويتها، التى تطورت معها رغما عنها (٥٥). إلى جانب ذلك يوجد العنف الاجتماعى والسياسى غير المباشر ضد المرأة، والذى يدخل فى إطاره عدم مبالاة اجهزة الشرطة فى حالة التحرش مع المرأة بطبيعتها لاجبارها على سلوك معين. أو الإضرار بأقاربها، وزوجها وأطفالها لإجبارها على إتيان أفعال معينة، تفرض عليها معاناة بدنية ونفسية وإجتماعية. والعنف الاجتماعى والسياسى ضد المرأة ليس جديد، بل هو ظاهرة قديمة، منذ أن كانت المرأة تؤخذ أسيرة، لإجبار

قبيلتها على التنازل عن بعض حقوقها أو إمتيازاتها. وتذهب اللجنة الخاصة بأوضاع المرأة فى دورتها السابعة والخمسين إلى التأكيد على أن العنف ضد النساء والبنات هو مظهر لعلاقات قوى غير متكافئه بين الرجل والمرأة عبر التاريخ. ويشكل إنتهاكا لحقوق الإنسان والحريات الأساسية، ويعوق أو يلغى تمتع المرأة بهذه الحقوق والحريات الأساسية (٥٦). وفى هذا الإطار يرى كارل ماركس أن هذه العلاقة غير المتكافئة تعبر عن حالة إغتراب، حيث بدأت حالة الطبيعة بمساواة بين الرجل والمرأة ثم فرض التطور والاجتماعى قيام الرجل بأدوار معينة، فى الغالب خارج المسكن، بينما أختصت المرأة بالأدوار داخل المسكن. ثم وقع تحول وإنحراف منح الأولوية والأهمية لما هو خارجى، على ما هو داخلى. وبرغم أن هذه الأدوار مكتسبة، إلا أنها تحولت إلى حالة فطرية تعبر عن إغتراب كامل للمرأة والرجل على السواء. وهو الإغتراب الذى كان من المفترض إلغاؤة فى المجتمع الشيوعى حسبما يذهب التنظير الماركسى (٥٧).

إرتباطا بذلك يشير تأمل تحديدات العنف السياسى الموجه للمراة إلى مجموعة من الحقائق الأساسية. حيث تؤكد الحقيقة الأولى على أن العنف السياسى – فى حالة تمييزه عن العنف الاجتماعى - يدور حول قضايا سياسية بالأساسية. كإجبار المرأة على سلوك سياسى معين، كما حدث فى الاستفتاءات التى أجريت، حينما تجبر الأسر أو الأزواج النساء، على عدم الترشح، أو التصويت لصالح مرشح بعينه. أو أن يمارس العنف السياسى مع المرأة لأنها تطالب بقضايا تتناقض مع توجهات النظام السياسى، كما حدث فى إعتداء النظام السياسى لمبارك على المرأة لمعارضتها قضية التوريث. أو إعتداء البعض فى قلب تفاعلات ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ على المرأة وسحلها، لإشتراكها فى الأحداث. أو تنديدها بتردى حكم الأخوان وخروجها للتظاهر ضد سياساتهم، والاعتداء عليها فى التحرير، ومحمد محمود، والاتحادية. وفى كل تظاهرة سياسية إعتقادا من النظام السياسى – حينئذ - أن كسر إرادة المرأة، هو إخضاع لنصف المجتمع. بينما تتصل الحقيقة الثانية والتى تستهدف تحديد طبيعة العنف السياسى ضد المرأة، بأن النظام السياسى يمارسة من خلال

إجهزتـه أو أجنحتـه المختلفـة. فقـد يعتـدى عـلى المـراة بواسـطة الجهـاز الأمنـى، بحجـة تحقيـق الإسـتقرار كـما فعلـت أجهـزة الأمـن فى نظـام مبـارك، مـع الصحفيـات والمحاميـات أمـام نقابـة الصحفيـين والمحامـين فى ٢٠٠٥، حيـث الاعتـداء عليهـن وتمزيـق ملابسـهن. وإعتـداء أجهـزة الأمـن فى نظـام حكـم الأخـوان عـلى المشـاركات فى الثـورة فى ميـدان التحريـر، وشـارع محمـد محمـود، ومنطقـة قـصر الاتحاديـة، وميـدان طلعـت حـرب. وفى منطقة المقطم أمـام مقر الأخـوان وميادين الحـواضر المصريـة الأخـرى، أو قد يسـعان بالبلطجية للأعتـداء على المرأة، حتـى يتحقق الافلات من المحاسـبة الداخليـة والخارجيـة عـلى هـذه السـلوكيات المهينـة.

وتذهـب الحقيقـة الثالثـة إلى أن العنـف ضد المرأة يسـتهدف إسـتبعادها مـن المجال العام إلى المجـال الخـاص. وفى العـادة تـرى الأنظمـة ذات التوجهـات الثقافيـة التقليديـة الرثـة، متضافرة مـع التوجهـات التدينيـة الشـكلية والمتخلفـة، أن المجـال الخـاص هـو المجـال الـذى ترضيـه للمرأة. متغافلـة أنهـا – أى جماعـات التديـن الشـكلى - بذلـك تخرج عن جوهر الإسـلام، الذى أتـاح المجال العـام بكاملـة امـام المـرأة، لتشـارك فى صياغة قضاياه. فقـد حاربت المرأة دفاعاً عن الرسـول «ص» فى موقعـة «أحـد» وروت الحديث عنه، وإحتضنت رسـالته، وأشـارت عليه فى صلـح الحديبية. وهو مـا يعنـى أن محاولـة إسـتبعادها مـن المجـال العـام أو تقليـص وجودهـا يتناقض مع جوهـر وروح الإسـلام ويخالفـه. وتؤكـد الحقيقـة الرابعـة إلى أن الإسـتبعاد او التهميـش الاجتماعـى والسـياسى للمـرأة مـن المشـاركة الاجتماعيـة والسياسـية، وحرمانهـا مـن الفاعليـة الاجتماعيـة والسياسـية، بإعتبـاره عـلى نفـس قـدم المسـاواة مـع الرجـل، إخـلال بحقـوق المواطنـة الكاملـة. كما هـو إخلال بحقـوق الإنسـان، التـى أكدت عليهـا جملة الشرائع السـماوية، والمواثيق الإنسـانية والدولية. وهى المواطنـة الكاملـة التـى تحرك بإتجاهـا التطور التاريخى، الـذى حرر كل الفئـات الاجتماعية ومنحها المواطنـة بحقوقهـا الكاملـة. وهـى أيضا المواطنـة التى ناضلت المـرأة للحصول على إسـتحقاقها من خـلال مشـاركتها الرجـل فى كل الثـورات التاريخيـة التى إسـتهدفت تحقيق الحريـة الكاملة والعدل والمسـاواة، سـوء فيـما يتعلق بالنـوع أو العقيـدة، أو الهويـة الثقافية.

وتشـير الحقيقـة الخامسـة إلى أن العنـف الاجتماعـى والسـياسى مـع المـرأة يعبر عـن حالة غـير عادلـة سياسـيا وإجتماعيـا، ففـى حـين شـاركت المـرأة بفعاليـة فى تفاعـلات وأحـداث ثـورة ٢٥ ينايـر، بإعتبارهـا ثـورة شـعبية. حيـث كانـت فى مقدمـة القائمـين بالثـورة كالرجـال، إضافـة إلى أن وجودهـا قـدم قيمـة معنويـة مضافـة. تؤكـد أنـه إذا كانـت بنـات «بهيـة» مشـاركات فى الثـورة، فهـل مـن اللائـق أن يتقاعـس الرجـال، فوجودها قـدم قيمـة معنوية لإمكانيـة الإيجابيـة والإيثارية والفـداء مـن أجـل الوطـن. وحينـما سـقطت شـهيدات، فـإن ذلـك كان شـهادة عـلى إسـتحقاقها الكامـل فى صياغـة تفاعـلات المجـال العـام والحـوار حـول قضايـاه. وتذهـب الحقيقـة السادسـة إلى أن العنـف الاجتماعـى والسـياسى قـد يتجـلى مـن خـلال أشـكال عديـدة. فقـد يقـع مـن خلال العنـف المـادى الـذى يتحقق بالقتل والضرب بقسـوه حتى الأصابة، أو السـحل والتعذيب والسـجن كالرجـال تمامـا. غـير أن هناك عنفا أكثر قسـوة قد تمارسـة الأجهزة السياسـية، والتـى يمكن أن نذكر منهـا العمـل عـلى تشـوية صورة المـرأة المناضلة أو الثائـرة، فى مخيلة الـرأى العام والعقـل الجمعى. أو إهانتهـا مـن خـلال العبـث بجسـدها، مثـال عـلى ذلك كشـوف العذريـة، وتعريتهـا والتحرش بها إلى حـد الإغتصـاب. وهـو الأمـر الـذى يعنـى أنـه إذا كان ثمـة أدوات لممارسـة العنـف الاجتماعـى والسـياسى مـع الرجـال، فإن هـذه الأدوات تتضاعف حينما يمـارس العنف الاجتماعى والسـياسى مع المـرأة. وهـو الأمـر الـذى يشـير إلى أن العنـف الاجتماعـى والسـياسى مـع المـرأة أكثر إتسـاعا، وأقل إنسـانية حـين مقارنتـه بالعنـف مـع الرجل.

ونحـن إذا تأملنـا التاريـخ الحضـارى للبشريـة، فسـوف نجـد أنـه كان تاريخـا متحيـزا لغـير صالـح المـرأة، برغـم تأكيـد الرمزيـة الدينيـة عـلى المسـاواة الفطريـة بـين الرجـل والمـرأة. حيـث أنتـج التطـور الحضـارى والاجتماعـى المجتمـع، الذى ترسـخت فيه ثقافـة تقليدية، تحيـزات للرجل عـلى حسـاب المـرأة. وقـد ظـل الحـال عـلى هـذا النحـو حتى تحقـق الرشـد الحضـارى للأنسـانية، الـذى تحقـق مـن خـلال الوحـى بالأديـان. وإبداع الفلسـفات التـى تأملت حالـة وأوضاع الإنسـان بغـض النظـر عـن كونـه رجـلاً أو أمـراة، حيـث بـرز التأكيـد بـأن لهـما حقوقـا ومواطنـة متسـاوية

ومتكاملة. غير أننا نلاحظ أن هناك بعض المجتمعات، التى تعانى من التخلف أو الزيغ الحضارى، ترتضى ثقافة تقليدية مدانة، تمايز بين الرجل والمرأة لصالح الرجل. وهو الإنحراف أو التخلف الذى من الطبيعى، أن يتأكل مع مزيد من التحديث وإنتشار روح الحداثة، ومع مزيد من التعرف على المعانى الجوهرية والحقيقية للأديان السماوية.

وإذا كانت الثقافة الإسلامية المتنورة هى التى أعلت من شأن المرأة وأعلت من شأنها كمناظرة للرجل، ومن ثم فلها أن تشاركه فى المجال العام كما فى المجال الخاص. تأكيدا لذلك أننا نجد زوجة الرسول خديجة بنت خويلد «رضى الله عنها» هى التى إحتضنت رسالة الإسلام فى بدايتها مع الرسول الكريم «ص». وعائشة أم المؤمنين هى التى روت الحديث وحاربت فى موقعة الجمل، وهند بنت عتبة التى حاربت قبل إسلامها. وعارضت الرسول حينما كان يعظ النساء بعد إسلامها، وام سلمة التى اشارت على الرسول فى صلح الحديبية، والمراة هى التى حاربت دفاعا عن الرسول وحماية له فى موقعة أحد. ومن ثم فالمرأة على ساحة الثقافة الإسلامية الحقيقية تتحرك بحرية فى مختلف المجالات، الخاص والعام على السواء.

إرتباطا بذلك نجد أن الثقافة التقليدية تشكل الفاعل الأول – إنطلاقا من المجتمع – الذى يمارس العنف السياسى مع المرأة. حيث ترى هذه الثقافة أن المرأة ينبغى أن تبقى فى نطاق المجال الخاص، ولا ينبغى أن يكون لها وجود فى المجال العام. والثقافة التقليدية هى الثقافة العربية التى إنحدرت إلينا من ثقافة القبيلة العربية، وليست الثقافة الإسلامية المتنورة، حيث نظرت الثقافة التقليدية إلى المرأة بإعتبارها كانت دائماً موضوعا للسبى والأسر، ومن ثم إذلال القبيلة، بينما الرجال هم فرسانها، ومن ثم كانت عادة وأد الإناث التى كانت شائعة فى الجاهلية.

لذلك نجد أن الرجل الذى تتحيز له الثقافة التقليدية يتصرف أحيانا بعدائية نحو المرأة، حينما تتعرض للمضايقات بدعوى أنها عليها أن تدافع عن نفسها، ما دامت قد دخلت المجال العام وطالبت بالمساواه (٥٨). وتتكشف

عدائيـة الثقافـة التقليديـة المضـادة للمـرأة، حينـما تـبرز فى إطارهـا تضافـر بـين الثقافـة الذكوريـة المتحيـزة للرجـل مـع ثقافـة التديـن الشـكلى. من ناحيـة لأن الثقافـة الذكورية تتناقض مـع الثقافة الحديثـة، التـى تؤكـد عـلى حقوق المـراة فى مواجهـة الرجل، ومن ناحيـة أخرى لأن التدين الشـكلى يسـقط جوهـر الديـن وروحانيتـه التـى تفـرض المسـاواة بـين الرجـل والمـرأة، وينظـر إلى المـرأة بإعتبارهـا كائـن ناقـص يحتـاج إلى الحمايـة (٥٩). ويدخـل فى نطـاق هـذه النظـرة المتدنيـة للمرأة تصريـح رئيـس وزراء حكـم الاخـوان حـول قابليـة المـرأة فى إحدى محافظـات صعيد مـصر للتحرش والاغتصـاب، أو عـدم نظافتهـا، الأمـر الذى يعـرض رضيعها للإصابـة بالأمراض. وفى هـذا الإطار فإننا نلاحـظ أن فـترات الانحطـاط والضعـف فى حيـاة الشـعوب، هـى الفـترات التـى تسـيطر فيهـا ثقافة تقليديـة منحرفـة لا تعـبر عـن هويتهـا، متضافـرة مـع تدين شـكلى يتخلى عـن جوهر الديـن، فهذه الفـترات هـى التـى تنمـو فيهـا العدائية نحـو المرأة.

بالإضافـة إلى ذلـك تشـكل الجماعيـة أو العائليـة الفاعـل الثـانى، الـذى ينظـر إلى المـراة بإعتبارهـا لا تمتلـك الوعـى الرشـيد، للحركـة فى المجـال العـام. فثقافـة القبيلـة العربيـة التقليديـة هـى ثقافـة الذكـور، وتـدرج القبيلـة أو العائلـة التقليديـة لا مـكان فى بنائـه للمـرأة، ومـن ثم فهى خـارج التـدرج الاجتماعـى للقبيلـة تكمن عـادة عند قاعـة. وحينما تفـرض ثقافة التحديـث للمرأة المشـاركة فى المجـال العـام. ومـن بينهـا المشـاركة الإجتماعيـة والسياسـية، فإننـا نجـد ان الأسرة أو العائلـة تمنـع المـرأة، مثـلاً مـن الترشـح للإنتخابـات طاعـة للثقافـة التقليدية التـى ترى أن السياسـة قـاصرة عـلى الرجـل. وقـد يمتـد الأمـر أحيانـا لإجبارها عـلى التصويـت لصالح مرشـح بعينـة ترغب العائلـة فى فـوزه. فى هـذا الإطـار يتجـلى العنـف الاجتماعـى والسـياسى ضـد المـرأة، حينما تسـاهم العلاقـات العائليـة فى تدنى مشـاركتها السياسـية. إرتباطـا بذلك يمارس بعـض الأزواج والآباء ضغوطا عـلى زوجاتهـم وبناتهـم بإتجـاه منـح أصواتهم لمرشـح معـين دون آخر، الأمـر الذى يحول المشـاركة الاجتماعيـة والسياسـية للمـرأة إلى مجـرد نـوع مـن التعبئـة السياسـية، وليسـت تعبـيراً مشـاركة إجتماعيـة وسياسـية حقيقيـة (٦٠).

ويعتبر التشويه الإعلامى أحد أدوات ومصادر العنف الاجتماعى والسياسى ضد المرأة، كما يشكل آداة للعنف الاجتماعى والسياسى المنطلق من المجتمع ورأيه العام أو عقله الجمعى. كما فعل احد الكتاب الصحفيين فى مجلة روز اليوسف فى ٢٠٠٨/١١/١١ فى حق الناشطة المصرية الثائرة «جميلة إسماعيل»، حيث تخلى عن كل الأعراف المهنية والأخلاقية فى الهجوم عليها. وما تعرضت له الناشطة الحقوقية فى تونس «سهام بن سندرين» التى تعرضت لحملة تشوية لسمعتها، لكونها كانت تسعى للكشف عن تردى الأوضاع الحقوقية فى تونس قبل الثورة. حيث وصفت بأقدح الألفاظ والشتائم، من قبل الصحف الموالية للدولة، والتى بلغت حد وضعها «بالبغى»، كما أتهمت بالدعارة ونشرت لها صور إباحية مركبة إلكترونيا، كما ساهمت صحيفة روز اليوسف المصرية فى الحملة عليها كذلك فى ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٨ تحاول النيل من سمعتها (٦١).

ويعتبر النظام السياسى فى عمومه أحد فواعل العنف مع المراة، حيث تبنى النظام السياسى فى أطواره المتتابعة خلال العقد الأول والثانى من الألفية الثالثة سلوكا عنيفا مع المرأة بسبب مواقفها السياسية الرافضة له، سواء كان نظام مبارك أو نظام الأخوان، لكسر إرادتها وإستبعاد مشاركتها فى الثورة. يضاف إلى ذلك إنتهاك النظام السياسى فى صوره المتتابعة لكل القيم والمعانى التى تحرم المساس بالمرأة. وإذا تأملنا ممارسة النظام السياسى للعنف مع المرأة فسوف نجد أنها مرت بثلاث مراحل، وأنظمة سياسية. فى المرحلة الأولى نجد أن نظام مبارك قد تبنى منطق الخديعة والمواجهة فى ذات الوقت. فقد مارس نظام مبارك العنف الاجتماعى والسياسى ضد المتظاهرات فى مايو ٢٠٠٥ من خلال الاستعانة بثلاث فئات. الفئة الأولى هم جنود الأمن المركوى الذين أحاطوا المتظاهرات بسياج من الجند، بحيث يجعلهم محاصرين على سلم النقابة، وفى ذات الوقت فجنود الأمن جاهزون للتعامل مع الذكور المتظاهرين. بينما تشكلت الفئة الثانية من الشرطة النسائية، التى جاء بها النظام كوجه حضارى أمام العالم، للتعامل مع المتظاهرات، ولو أن وجودهم كان مظهريا. والفئة الثالثة هم المخبرون السريون التابعون لوزارة الداخلية، وهم الملكفون بالأعمال القذرة،

كتمزيـق ملابـس المتظاهـرات وتعرية أجسـادهن، وهؤلاء يرتدون لباسـا مدنيا يمكـن الادعاء بعدم تبعيتهـم للنظـام السـياسى. حيـث كان النظـام السـياسى يجمل نفسـه بـذكاء أمام العـالم الخارجى، وفى هـذا الإطـار نجـده قـد منـح المـرأة حقوقـا كثـيرة، حتـى بلغ عـدد النسـاء فى برلمـان ٢٠١٠ نحو ٦٤ أمـرأة، وهـى أكـبر نسـبة لتواجـد المـرأة فى البرلمـان منـذ قيـام الحركـة البرلمانية فى مـصر. وذلك بهـدف منـح العـالم إنطباعـاً بأنـه يعمـل بإتجـاه إحـترام حقوق الإنسـان، حتـى يسـتقطب موافقته وقبولـه بعمليـة التوريـث ونقل السـلطة مـن الأب إلى الأبـن (٦٢).

وفى المرحلـة الثانيـة بعـد أن قامـت الثـورة وتولى المجلس العسـكرى السـلطة وتسـيير أمور البـلاد، تبلـور خـوف شـعبى بإحتماليـة أن يعيـد الجيـش قصـة حكـم البـلاد، ومـن ثـم قتـل الرغبة الشـعبية فى الحاجـة إلى حكـم مـدنى. ولتحقيـق الحاجـة إلى حكـم مـدنى قامت تظاهـرات فى طول البـلاد وعرضهـا تطالـب بـضرورة رحيـل الجيش، حيث لعبـت جماعة الأخـوان دوراً ثـلاثى الأبعاد فى هـذه المرحلـة. مـن خلال البعـد الأول، لعب الأخوان دوراً محوريا فى إشـعال مزيـد من التظاهرات لفضـح المجلـس العسـكرى، حتـى يعجل بنقل السـلطة إلى المدنيـين. وإفتعال التظاهـرات والاقتتال وهـو مـا أصبـح يعـرف حينئـذ بالطـرف الثالـث، الـذى ينـدس بـين المتظاهريـن ليقتـل ويحـرق، كى يؤسـس مزيـد مـن الفـوضى - كما فعلـوا فى حريق القاهرة عـام ١٩٥١- ليعجلوا بأنهيار سـلطة حكم المجلـس العسـكرى. ومـن ناحيـة ثانية فهـم يطالبون مع القـوى المدنية بضرورة الانتقـال إلى حكم مـدنى، كبديـل لسـلطة المجلـس العسـكرى. ومـن ناحية ثالثـة، فهـم لا يظهرون عداءهـم للمجلس العسـكرى، بـل يقفـون معهـم مـن وراء سـتار، محاولين إقناعهـم بأنه الفئـة الوحيدة التـى تقف فى خندقهـم. وهـم الفئـة التـى يمكـن نقـل السـلطة إليها، إذا فكـروا فى نقلهـا، تحت وهم أن الشـارع لهـم مـن خـلال الاحتـكام لصناديـق الاقـتراع. ولأن أعضـاء المجلـس العسـكرى لم يكـن لهـم بـاع فى السياسـة، ولا وعـى بأسـاليبها الملتويـة فقـد تصرفـوا بمـا حقـق هوى وطموحـات الأخـوان. فى هذه الفـترة أعتمـد المجلـس العسـكرى فى ضبـط الأمـور عـلى الشرطـة العسـكرية بالأسـاس. بـلا شرطـة سريـة، ولا شرطة نسـائية.

وفى ٨ مارس ٢٠١١ ، اثناء الاحتفال بيوم المرأة العالمى، وقع إعتداء على المرأة، حيث تعرضت الفتيات المعتصمات فى ميدان التحرير للفحص الجبرى للعذرية فى السجن الحربى، إضافة إلى الضرب، والسب بألفاظ خادشة للحياء والصعق بالكهرباء. حيث كان النظام السياسى يسعى – حينئذ – إلى الحفاظ على الثورة بضبط الأمور، فى مواجهة التظاهرات العارمة، التى تفجرت فى كل إتجاه حتى لا يسقط الثورة أسيرة لحالة من الفوضى. وهى التظاهرات التى لا شك أن الأخوان قد لعبوا دوراً أساسيا فى توسيع خريطتها، لتوريط المجلس العسكرى فى علاقته بالشعب، حتى يقدموا إنفسهم البديل للمجلس العسكرى فى الوقت المناسب، حيث كانت تصورات الجماهير عنهم ما زالت إيجابية، فلم تكن سلوكياتهم «الافعوانية» قد إكتشفت بعد، من جانب غالب أطراف الموقف السياسى.

وفى ديسمبر ٢٠١١ حينما مزقت ملابس أحدى الفتيات، إضافة إلى الاعتداء عليها بالضرب، وهى الواقعة التى علقت عليها وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة. بعد إنتشار فيديو بصورة الواقعة، واصفة ما حدث، بأنه صدمة ووصمة عار وجريمة، وقالت فى كلمة ألقتها بقاعة جاستون بجامعة جورج تاون. «أن الأحداث الأخير فى مصر مروعة بشكل خاص، حيث تتعرض النساء للضرب والاهانة فى نفس الشارع الذى وقفن فيه، وخاطرن بحياتهن، من اجل الثورة منذ بضعة أشهر، وهذا نمط من التفاعل مقلق للغاية. وقد تم أقصاء المرأة المصرية إلى حد كبير من عملية صنع القرار خلال المرحلة الانتقالية من جانب النظام السياسى حينئذ، ومن جانب الأحزاب السياسية الرئيسية. وفى نفس الوقت كانت المرأة هدفا لكل من قوات الأمن والمتطرفين المتأسلمين»(٦٣). وقد فرضت التظاهرات إعتذار المجلس العسكرى على صفحتة الخاصة على موقع الفيسبوك كان نصه «يبدى المجلس الأعلى للقوات المسلحة أسفة الشديد لسيدات مصر العظيمات، لما حدث من تجاوزات خلال الأحداث الأخيرة، خارج مجلس الشعب ومجلس الوزراء» (٦٤). وقد أدرك المجلس العسكرى أنه قد أخطأ وأن عليه أن يعيد علاقته الإيجابية بالشعب، ومن ثم فقد أجرى إنتخابات

رئاسـية متعجلـة. شـابتها ضغـوط عالميـة بإتجـاه تـولى جماعـة الأخـوان السـلطة، فى ظـل أعتقـاد بأنهـا الجماعـة هـى المؤهلـة بحكم إنتشـارها المزعـوم، لتحقيـق الاسـتقرار الاجتماعـى. وذلك بعد تفاهـمات بـين جماعـة الأخـوان والمجلـس العسـكرى مـن ناحيـة، وبـين الأخـوان والقـوى العالميـة المؤيـدة لهـم مـن ناحيـة ثانيـة. إضافـة إلى ظـروف داخليـة متنوعـة مـن حيـث طبيعتهـا إلى حـد التناقـض، جمعـت الرغبـة الشـعبية فى حكـم مـدنى يفتح الطريـق أمام تطـور ديموقراطـى حقيقى. وبـين الرغبـة المرضيـة لجماعـة الأخـوان فى الإمسـاك بالسـلطة، وهـو حلـم تاريخـى بـدت الظروف تدفـع إلى تحقيقـة حتـى ولـو كان ذلك بالكـذب، وحتى ولو كان ذلـك بإعمال آلة التزوير والرشـوة، حيـث تخـلى الأخـوان حينئـذ عـن قيـم الاسـلام الطاهـرة والمسـتقيمة، وتبنـوا الشـعار الميكيافيلـلى الشـهير «الغايـة تبرر الوسـيلة».

وفى المرحلـة الثالثـة نجـح الأخـوان فى ٢٠١٢ بالإمسـاك بالسـلطة، التى إنتقلـت إليهم بدعم مـن قـوى عالميـة، وقبـول مـن المجلس العسـكرى، رغبـة فى إنهـاء دوره ووجـودة فى الحيـاة المدنية. ومطالبة شعبية، لم يكتمل وعيها، خاصة أن مظاهر الوجه الأخوانى القبيح لم تكن قد تكشفت بعد، وبرغـم ذلـك كانـت المطالبـة الشـعبية بهم محدودة. فى هذا الإطار تنفسـت نسـاء مـصر الصعداء، حـين وصـل الأخـوان إلى الحكـم، ظنـا منهـن أنهن سيعشـن فى أجـواء من الوسـطية الدينيـة، وأنهن سـوف يحصلـن عـلى حقوقهـن التـى منحها الاسـلام إياهن. وحصـدن الكثير منها على مـر العشرين عامـا الماضيـة، لكـن الرياح جاءت بما لا تشـتهى السـفن حيث كان الأخوان هم الأشـد قسـوة (٦٥). والأشـد لا أخلاقيـة فى تعاملهـم مـع المرأة، مقارنـة بنظام مبـارك، والمرحلة التى امسـك فيها المجلس العسـكرى بالسـلطة. حيث أدار الأخوان المعركة مع المرأة، عارفين فى التعامل معها منطق من «أين تآكل الكتف» وأين تكون الضربة موجعة، ولتحقيق ذلك أطلق الأخوان ميلشياتهم. التى لم يعرفها نظـام مبـارك أو مرحلـة حكـم المجلس العسـكرى، والتى بـدأت فى تعقب أى تحرك للمـرأة. فى هذا الإطـار بـدأت مشـاهد الاعتداء على المـرأة تتابع إبتداء من الاعتداء على سـيدة بمحافظـة القليوبية، صاحبتـة أدانـة حقوقيـة واسـعة، قامـت بهـا تظاهـرات ١٧ حركـة نسـائية، إندلعت لمناهضـة فكرة

«أخونـة القـوات المسـلحة». وللتأكيـد النسـائى عـلى دور الجيـش ومسـاندة نسـاء مـصر لـه (٦٦). إضافـة إلى تصريحـات عدائيـة للمـرأة المصريـة أثارت جـدلاً كبيراً بشـأن الفلاحات المصريات ونسـاء مـصر، وهـى التصريحـات التـى وصفتهـا أحـدى الناشـطات بأنهـا تصريحـات اسـاءت لـكل نسـاء مـصر. ولم يكـن مـن المتوقـع أن تصـدر عـن مسـئول رسـمى بالدولـة بشـغل منصـب رفيـع هـو منصـب رئيـس الـوزراء (٦٧). يضـاف إلى ذلـك تصريـح لشـيخ متطرف إسـلاميا – أبو إسـلام – إتهم فيـه سـيدات مـصر الحرائـر بأنهـم «سـافرات عاريـات صليبيـات أرمـل، ليـس لهـم رجـال تلمهـم» (٦٨). وهـى الحالـة التـى حددتهـا بدقـة السـفيرة ميرفـت التـلاوى، رئيـس المجلس القومـى للمراة بقولهـا «أن النسـاء فى مـصر بمثابـة سـبايا فى ظـل حكـم الأخـوان. الذيـن يدمـرون كل المكتسـبات، التـى حصلـت عليها النسـاء خـلال الأعوام الماضيـة، من تشريعـات وقوانين تحمى حقوقهـن، وتوفر لهـن منـاخ المشـاركة. كـما أشـارت الدكتـورة ماجـدة عـدلى، مديـر مركز النديـم لضحايـا العنف إلى «أن التصريحـات المعاديـة للمـرأة جميعهـا لم تنطلـق مـن فراغ، لكونهـا فى ظل هذا المناخ السـياسى المعـادى للحقـوق والحريـات بصفـة عامـة وللمـرأة بصفـة خاصـة» (٦٩). بحيـث يمكـن القول بأن توجهـات النظـام السـياسى السـلبية تجـاه المـرأة – نصـف المجتمـع - شـكلت الآليـة الأولى للعنـف السـياسى الواضـح والصريـح مـع المرأة.

وتعتـبر الأجهـزة الأمنيـة هـى الفاعـل الثـانى الذى مـارس العنف فى نظـام مبارك ضـد المرأة حتـى التحـرش معهـا لمنعهـا من المشـاركة، أو لاذلال أقاربهـا. مثال على ذلك الاعتداء على ناشـطات ٦ إبريـل فى ٢٠١٠/٤/٦، أو سـحلهم عـلى الأرض وجرهـم مـن شـعورهن، بالإضافـة إلى إعتقـال عـدد كبـير مـن الفتيـات المشـاركات حينئـذ، وتعرضهن للضرب من قبـل قوات الأمن المركـزى (٧٠). يؤكد ذلـك أنـه فى بيـان لجماعة الأخـوان فى ٢٠١٠/٣/٢٧ حذرت الأجهزة الأمنية، من عواقب الاسـتمرار فى الاعتـداء عـلى السـيدات والفتيـات، وخدش حيائهن بألفاظ نابية أثناء عمليـات الاعتقال (٧١). وفى الأول من إبريل ٢٠٠٩ تم حبس طالبتين بكلية آداب كفر الشـيخ بحجة ترويج منشـورات والاعتداء عـلى الدسـتور. وفى ٢٠٠٩/٤/٧ قامـت مباحـث أمـن الدولة بإسـتدعاء والد طالبة بعـد الأفراج عنها

بكفالـة ألـف جنيـة، وطلبوا منه عـدم مغادرتها المنزل لمدة ٤٨ سـاعة، وإرسـالها ووالدتهما وحدهما إلى أمـن الدولـة، وإذا إرادت إبنتـه أن تعمـل بالسياسـة، فيجب أن يكون بعلمهـم وتحت توجيههم (٧٢). وفى شركـة غـزل المحلـة أعتـدى العـمال التابعـين للأدارة، على ناشـطتين بالتحـرش الجنسى مع إحداهـما، ونـزع حجابها وسـبها بألفاظ نابية وخادشـة للحيـاء. وتم الاعتداء عـلى الأخرى بالضرب، وتهديدهـا بهتـك عرضهـا أمـام أبنائهـا وزوجهـا والتعـدى عليهم. كما قامـت قوات الأمـن فى صباح ٦ إبريـل ٢٠٠٨ بإعتقـال إحـدى الناشـطات حيـث وجهـت لهـا تهمـة التحريض على الشـغب، وبعد الأفـراج عنهـا مـن قبـل النائـب العـام، أعتقلـت مـرة ثانيـة بواسـطة وزارة الداخليـة. وفى يـوم ٢٥ مايـو ٢٠٠٥ وهـو مـا يعـرف بيـوم الأربعاء الأسـود، حيـث قامـت مظاهرات أمـام نقابـة الصحفيين والمحامـين بسـبب تعديـل المـادة ٧٦ وكـرد فعـل لذلـك قامـت مجموعـة مـن البلطجيـة التابعـين للجهـاز الأمنـى بالتهجـم عـلى الصحفيـات والناشـطات السياسـات بالـضرب وتمزيـق ملابسـهن والتحـرش الجنسى بهـن (٧٣).

ولم يختلـف اليـوم عـن البارحـة، حيـث نجـد أن فـترة الثـورة، ومـن بعـد ذلـك نظـام حكم الأخـوان قـد شـهد كذلك أيضـا إعتداء على المـرأة، ففى ديسـمبر ٢٠١١ نشرت صـورة لفتاة تعرضت للـضرب. ومزقـت ملابسـها، أثنـاء تفريـق المظاهـرات. كـما قبضـت الشرطة عـلى الصحفيـة «ندى زيتونـه» لتصويرهـا بعـض مشـاهد مظاهـرات شـارع محمـد محمـود «حيـث ذكرت أنهـا تعرضت للـضرب والمعاملـة العنيفـة مـن قبـل الشرطـة. وقـد فوجئـت بطلقـة رصـاص مطاطـى فى سـاقها اليـسرى، كـما قـام رجـال الشرطـة بصفعهـا بالعصـا الكهربائيـة، كـما صـادروا الكامـيرا الخاصـة بها. كـما أصيبـت الممرضـة «رانـده سـامى» أثنـاء قيامها بعـلاج أحـد الثـوار، بسـبب قيـام ضابـط أمـن بضربهـا بعصـا غليظـة عـلى ظهرهـا وعنقهـا. بحيـث إنتهـى الأمـر إلى أنهـا أصيبـت بشـلل رباعـى، وبرغـم ذلـك فهـى تشـارك فى المسـيرات والمظاهـرات، على كـرسى متحـرك. وتقول «عنـدى يقين أن حقـى وحـق مـن مـات ومـن أصيـب بعجز سـيأتى، وقلـب كل ام إتحرق عـلى أبنها لا بـد أن تنطفئ نـاره بالقصـاص، واللـه لـن يضيـع هـذه التضحيات وسـنأخذ حقنـا» (٧٤). كما ذكـرت الطبيبة «آية

كمال» التى كانت تعالج المصابين فى مسجد النور، وإعتقلت ضمن من إحتموا بالمسجد أنه قد تم التحرش بها والاعتداء عليها جسديا، أثناء إحتجازها (٧٥). وفى مظاهرات المقطم قام شاب أخوانى بضرب الصحفية «مرفت موسى» وسبها بالدين، وعشية ٢٥ يناير ٢٠١٣ تعرضت عشرات من المتظاهرات للأعتداء الوحشى الذى وصل إلى حد الإغتصاب بواسطة آلات حادة، وذلك حتى تتوقف عن المشاركة فى المظاهرات والنزول إلى الميدان (٧٦). بل وصل الأمر إلى ضرب بعض المشاهدات كن يشاهدن ما يحدث من شرفات أو أسطح منازلهن. وهو الأمر الذى يعنى فى مجملة أن النظام السياسى فى الفترات الثلاث، كان يتصرف بعنف مع المرأة، من خلال أجهزته الأمنية.

وقد لعبت الأجهزة السيادية والسياسية، فى إطار النظام السياسى للأخوان، دوراً بارزاً فى قهر المراة وممارسة العنف الاجتماعى والسياسى المعنوى معها، حيث شرع النظام الأخوانى فى تجريدها من حقوقها، بل وإدانتها. فقد عمد النظام السياسى الأخوانى إلى فرض تآكل فاعلية المجلس القومى للمراة، الذى إفتقد القدرة على الحركة الواسعة، التى كانت له فى ظل نظام حكم مبارك، برغم كل التحفظات التى يمكن أن تقال عن الهدف من ذلك. ويشير تأمل وجود المرأة فى المؤسسات السياسية إلى أنها لم تختلف كثيرا، عن وجودها فى مؤسسات النظام السياسى قبل الثورة. ففى إنتخابات مجلس الشعب التى أجريت بعد الثورة حصلت المرأة على احد عشر مقعداً، بما يعادل ٢٪. منهن تسع ناخبات نجحن على مقاعد القوائم، وناخبتين تم تعينهن. وفى ذلك لم يختلف وجود المرأة فى مجلس الشعب بعد الثورة كثيراً عن وجودها فى مجالس الشعب السابقة على الثورة. فقد وجدت المرأة فى مجلس الشعب لعام ٢٠٠٥ بنسبة ١,٩٪، فى حين إرتفعت النسبة إلى ١٣,١٣٪ فى مجلس الشعب ٢٠١٠، وأن كان لهذا المجلس خصوصيته، التى تمثلت فى تطبيق نظام الكوته الذى سمح بوجود ٦٤ مقعداً مخصصة للمرأة. أما عن مجلس الشورى فإن نسبة تمثيل المرأة فيه لم يختلف كثيراً، حيث كانت النسبة ٢٪ كذلك. وبالنسبة للجمعية التأسيسية لوضع الدستور فى زمن الأخوان فإن تشكيلها لم يمنح المرأة

سـوى نسـبة ٦٪ فقـط، وهـو الـوزن الـذى يقـل كثيرا عـن وزن المـرأة فى بنـاء المجتمع وبنـاء الدولة (٧٧).

بالإضافـة إلى ذلـك فقـد عمـدت تشريعيـة الشـورى إلى أقصاء المـرأة فى الانتخابـات القادمة لمجلـس الشـعب، حيث الغـت اللجنة التشريعية بمجلس الشـورى، بموجب تعديـلات قانون مجلس الشـعب إلى جانـب تعديـلات مباشرة الحقوق السياسـية الـذى أقرته اللجنة، وضـع المرأة فى النصف الأول مـن القوائـم الانتخابيـة التـى تزيـد عـن أربعـة مرشـحين. وهـو الأمر الـذى يـؤدى إلى إقصاء المـرأة فى الانتخابـات القادمـة، وهـو مـا يتنـافى مـع متطلبـات التطـور الديموقراطـى، حيـث لا يمثـل نصـف عـدد المواطنـين فى مجلـس الشـعب. وهـو مـا يعنـى أن مجلـس الشـورى قـد أهـدر بذلـك أكـبر كتلـة تصويتيـه يصـل حجمهـا إلى ٢٣ مليـون ناخبـة، مـن واقـع كشـوف الناخبـين المسـجلين. وذلـك بدعـوى واهيـة مضمونهـا أن إجبـار الأحزاب عـلى وضع المـرأة فى ترتيب معين داخـل القائمة الانتخابيـة، يعـد تدخـل سـافر فى إرادة الأحـزاب، كما أنه يخـل بتكافؤ الفـرص (٧٨). غير أن تلاحظ ان دسـتور ٢٠١٤ قـد خـلا مـن جملـة هذه العيـوب، ومنح المـرأة مكانتها الحقيقية، بـل وعمل على تحقيـق التمييـز الإيجـابى لصالحهـا، لحـين تـآكل الثقافـة التقليديـة التى تقـف عقبة امـام وجودها بكثافة.

وحينـما وقـع التحرش الممنهج ضد المرأة بسـبب إشـتراكها الكثيف فى تفاعـلات المجال العام أدان ذلـك مجلـس الشـورى الأخـوانى غـير أنـه ألقـى اللـوم عـلى المـرأة، حيـث قـام أعضـاء المجلس بتحميـل الفتيـات والسـيدات أسـباب عمليـات التحـرش بهـن. لأنهـن يذهـبن إلى أماكـن غـير آمنة – عـلى حـد قـول بعـض أعضـاء المجلـس – علـما بأن ذلـك ليـس صحيحا عـلى الأطـلاق. لأن جميع الأماكـن الـلائى تعرضـت فيهـا الفتيـات للتحرش أثنـاء مشـاركتهم فى المظاهرات، كانـت أماكن عامة، وكان ذلك فى وضح النهار، وفى أكثر شـوارع القاهرة حيوية وأمانا وكثافة. ويتضافر مع ذلك الرسـالة التـى نشرهـا حـزب الحريـة والعدالة «الأخـوانى» صبيحة عيد الأضحـى ٢٠١٢، والتـى حملت عنوان «أختاه لا تكونى سـببا فى التحرش». الأمر الذى يعنى أنهم ينظرون إلى المرأة بإعتبارها مسـئولة عن

أسباب التحرش (٧٩) لمجرد خروجها ومشاركتها فى التظاهرات الثورية. دون محاولة تحديد الأسباب الأساسية للتحرش - تلك التى يعرفها جيداً الحزب - أو العمل بإتجاه مطالبة الرئيس الأخوانى، أو قوات الأمن الأخوانية بالعمل بدأب بإتجاه إستئصال وجود هذه الظاهرة المرضية.

خامساً: دنس التحرش الجنسى على ساحة طهارة واقع ثورى

يدرك المتأمل للتاريخ الحضارى للإنسان أن المرأة دون الرجل قد خضعت لطبقات كثيفة من القهر، وهى الحالة التى جعلت منها فاعلاً ثوريا بإمتياز. وتعد الثقافة التقليدية التى تطورت تاريخيا أول طبقات القهر، حيث فرضت هذه الثقافة على المرأة التراجع إلى داخل شرنقة المجال الخاص. حتى يحرمها من المشاركة فى صناعة القرار الخاص بها وبالمجتمع الذى تنتمى إليه، وقد دعمت الثقافة التقليدية ذلك بمنحها مكانة متدنية فى البناء المتدرج للأسرة والمجتمع. بل أننا نجد أن بعض المجتمعات قد طورت بعض الطقوس والأفكار التى تؤكد المكانة الدنيا للمرأة، إلى حد إعتبارها فى أوضاع معينة نوعاً من الدنس. ذلك بالإضافة إلى طبقة ثانية من القهر الذى فرضها الرجل على المرأة، إعتماداً على قوته البدنية، أو إعتماداً على خروجة المبكر تاريخيا للأهتمام بالشأن العام. حيث المرأة فى مجالها الخاصة تلد الأبناء وتتولى رعاية أفراد الأسرة جميعا، فأدوارها وخدماتها تؤدى لصالح الآخرين. وأحيانا قد تحصل على مقابل معنوى فى لعبة التبادل، بحيث جعلتها الحياة الأسرية إطاراً للإيثارية، وبدلاً من إعتبار ذلك مدخلا للحصول على حقوق، نظر إلى عطاء وإيثارية المرأة بإعتباره واجبا، بل وواجبا مفروضا. وقد إستمر ذلك تاريخيا، وتحول ما هو مكتسب إلى أن أصبح فطرى، بحيث أصبح قهر الرجل للمرأة، من العناصر المحورية فى الثقافة التقليدية. وتأكيد ذلك بإيحاء دينى خاطئ بأن الدين يفرض للمرأة مكانة متدنية، وأن المجتمع لا يرحب بها، وأن للرجل أن يتصرف مع المرأة بالشكل الذى يرتضية دون قيد أو شرط أو رادع.

وتشكل الأوضاع الاجتماعية والسياسية التى تعيش فى إطارها المرأة طبقة أخرى من طبقات القهر المتراكم، تأكيدا لذلك أنه برغم إختزال وجود المرأة

فى اللجنـة التأسيسـية لصياغـة الدسـتور. فـإن ذكرهـا فى هـذا الدسـتور، لم يأت إلى مـن خلال مادة واحـدة، تتعلـق بالأمومـة والطفولـة، وكان الـدور الأوجـد للمـرأة يتمثـل فى الـزواج. بـل حرمتهـا مشـاريع الانتخابـات فيـما بعـد الثـورة، مـن ٦٤ مقعـداً كانـت مخصصـة لهـا، بموجـب الكوتـه فى إنتخابـات ٢٠١٠. وقـد قابلـت المـرأة هـذا القهـر بخروجهـا فى اكـثر مـن ٥٠ مسـيرة عـام ٢٠١٢ فقـط، حيـث تنوعت أشـكال الاحتجـاج خلالها بـين الهتافات واللافتـات والطرق «بالهـون» وأدوات المطبـخ ورفـع السـكاكين، إضافـة إلى الجرافيتـى النسـوى. ولم يقتـصر إحتجـاج المرأة على المسـيرات بـل تشـكلت عديـد مـن المبـادرات والحـركات النسـائية، مثـل مبـادرة «فـؤادة ووتـش» ومجموعة «قـوة ضـد التحـرش» و«الحركـة النسـائية المصريـة»، و«جبهـة نسـاء مـن أجـل مصر»، و«تنسـيقية العمـل النسـائى الجماهـيرى» (٨٠). وفى بحثهـا عـن إحتماليـة التغيـير، وبرغـم القهر الـذى تتعرض وتعرضـت لـه، كانـت المـرأة هـى الأكثر صـبرا وتحمـلاً لطوابـير الانتخابات، التـى إمتد بعضهـا لعده كيلومـترات مقارنـة بالرجـال والشـباب. حيـث بلغ متوسـط مشـاركة فى الانتخابات الأربع السـابقة التـى جـرت فى ٢٠١٢ نسـبة ٦٥٪. بأمـل أن يـأتى لهـا التحـول الديموقراطـى بجملة حقوقهـا، فى ظل شـعار صامـت أو كامـن «حقـى قبل صـوتى» (٨١).

وتشـكل مسـئولية أعالـة الأسرة أحـد أشـكال القهر الذى فرضهـا المجتمع على المـرأة، حيث نجـد أن المـرأة تشـارك فى إعالـة الأسر المصريـة بنسـبة ٦٠٪. كـما تتـولى رعايـة الأسرة بشـكل كامل فى نسـبة ٤٠٪ مـن الأسر، وهـى الاعالـة التـى تفـرض عليهـا ضغوطا لا تسـتطيع تجنبهـا. وهو الأمر الـذى يعنـى إسـهامها الكامـل فى إعاشـة المجتمـع، وهـى الإعاشـة أو الإعالـة التى كان مـن المفترض أن تكـون مـن نصيـب الرجـل كـما تذهـب توجهـات الثقافة التقليديـة. يضاف إلى ذلـك القهر الذى تفرضـه الطبيعـة البيلوجيـة والتكوينيـة الخاصة بالمرأة، وهـى الطبيعة التى تجعلها مصدراً للإشـباع الجنـسى للرجـل، وهـو التكويـن الـذى يؤسـس قابليـة الاعتـداء عليهـا، أمـا بالتحـرش أو الاغتصاب. خاصـة أنهـا فى حالـة إسـتجابتها خـارج الشرعيـة وفى المنطقـة الحـرام، فإنهـا تكـون هدفـا لعقـاب الثقافـة التقليديـة والأعـراف المتحيـزة الصـادرة عنهـا. مثـال عـلى ذلـك أنـه فى بعـض المجتمعـات

التـى تشـهد نزاعـات مسـلحة كـما هـو الحـال فى فلسـطين ودار فـور، قد تعتـدى بالاغتصـاب قوى الاحتـلال عـلى المـرأة أو الفتـاة، التـى يكـون مـن نصيبها القتـل إذا عرفـت العائلـة (٨٢). بالإضافة إلى ذلـك فقـد وجـد أنـه فى حالـة زنـا المحـارم، الـذى قـد يمارسـة الأب أو الأخ مـع الفتاة فإنهـا التى تقتـل إخفـاءً للعـار، وليـس مـن إعتـدى عليهـا (٨٣). بـل أننـا نجـد أن المـرأة تسـتهدف عـادة فى الحـروب لاذلال مجتمعاتها، أو أنهـا تسـتهدف حينـما يـراد عقـاب ذويهـا. وهـو الأمـر الـذى يعنى أنهـا مسـتهدفة دائمـاً لـلأذى والقهـر والـضرر ليـس إنتقامـا منهـا، وإنمـا إنتقامـا وإذلال لغيرها.

ومـن الطبيعـى أن تكـون المـرأة فى مواجهـة طبقـات القهـر هـذه ثائـرة ومتمـردة ورافضة، فهـى دائمـاً منـذ بدايـة تاريخيـة طويلـة، هـى الواقفـة بشـموخ على سـاحة الثـورة. فى هـذا الإطار تعتـبر الفيلسـوفة المصريـة «هيباتيـا» التـى ضربـت وسـحلت، وثـم إحراقهـا فى الأسـكندرية، أول ضحايـا العنـف السـياسى ضـد المـراة. ورغـم أن بعـض الآراء رأت أن قتلهـا لم يتـم بسـبب آرائهـا الدينيـة، ولكـن لأنهـا قـد لعبـت دوراً فى توتـر العلاقـة بـين الكنيسـة وحاكـم الاسـكندرية. إلا أنهـا تظـل فى كلا الحالتـين ضحيـة لعنـف يقـع عـلى خلفيـة سياسـية. ونفـس الأمـر ينطبـق عـلى «جان دارك» التـى أتهمـت بالالحـاد وتـم إحراقهـا، بينـما السـبب الحقيقـى يكمـن فى أنهـا كانـت تناضل مـن أجـل حريـة وطنهـا فرنسـا، ضـد الاحتـلال الانجليزى، وبعـد أكثر مـن أربعة قـرون ونصف على إحراقهـا، تـم إعـادة الاعتبـار لسـيرتها ومنحهـا لقـب «قديسـة» (٨٤).

وحينـما قامـت الثـورة الفرنسـية عـام ١٧٨٩ كانـت نسـاء الأسـواق الشـعبية فى باريس هن الـلائى نظمـن موجـة التمـرد الثانيـة للثـورة، وهـى الثـورة التـى قوضـت نظـم الحكـم الاقطاعيـة فى أوربـا وبـشرت بظهـور المجتمـع الحديـث. حيـث سـار آلاف المتظاهريـن وهـم مدججـين بالسـلاح بإتجـاه قـصر فرسـاى، لإجبـار العائلـة الملكيـة عـلى العـودة إلى باريـس، ليواجهـوا غضـب الثـوار. وقـد كانـت تجمعـات «النسـاء العامـلات» هـى الأكـثر راديكاليـة بـين الجماعـات الثوريـة التـى تـم تأسيسـها. وإسـتكمالا لذلـك فإنـه حينـما إندلعـت أول ثـورة عماليـة فى باريـس فى

التاريـخ الحديـث، وبالتحديـد عـام ١٨٧١ شـاركت فيهـا المـراة منـذ البدايـة. وقامـت بـدور حيوى فى الانتفاضـة، التـى ادت إلى ظهـور مـا اصبـح يعـرف بأسـم «كميونـة باريـس»، التـى برهنـت على أنـه بمقـدور العـمال تأسـيس مجتمـع اكـثر ديموقراطيـة، عـلى نقيـض مـا تذهـب إليـه التوجهـات الرأسـمالية الرثـة حينئـذ (٨٥).

ويعتـبر مـا حـدث فى الثـورة الروسـية التـى تفجـرت فى عـام ١٩١٧ أكـثر المشـاهد الهامـا لثـورات المـرأة، وإيثاريتهـا نحـو مجتمعهـا، حيـث تمـردت النسـاء المطحونـات، اللـواتى بـدأن الثورة فى فبرايـر مـن نفـس العـام بمدينـة «بتروجـراد». والـلائى لعـبن دوراً لا بـأس بـه، فى حشـد العـمال، وتحريضهـن عـلى الاضراب، حيـث لعـب هـذا التحريـض دوراً فاصـلاً فى توجيه الكتلـة العمالية نحو بـدء النضـال. وقـد أشـار «ليـون تروتسـكى» إلى ذلـك بقولـة «كانـت المـراة هـى الأشـجع والأشـد عزمـا، فيـما يتعلـق بمناشـدة الجنـود، عـلى التمـرد وحثهم على رفـض أوامـر قادتهـم ودعوتهم لترك الخدمـة العسـكرية والانضـمام إلى صفـوف الثـوار. وكانـت قدرة المرأة على كسـب الجنود حاسـمة فى الإطاحـة بالقيـصر، الـذى كان يعـد واحـداً مـن أشـد الطغاه وحشـية فى أوربا بأسرهـا. وقد كتب أحـد مؤرخـى الثـورة الروسـية قائـلاً «تسـاءل أحـد الجنـود ذات مـرة عـن إمكانيـة ضرب الزوجات الآن بعـد الثـورة. وقـد رأى الرجـال كيـف أن نسـاء الأحيـاء الفقـيرة اللـواتى، كـن يقفـن بجـواره فى طوابـير الخبـز، هـن أنفسـهن مـن نفـذن حكم الاعـدام فى من كانـت تثبـت خيانته للثـورة. وكانت الاجابـة عـلى تسـاؤل الجنـدى حاسـمة وقاطعـة، تؤكد أن الطـرق القديمـة فى معاملة المـرأة، لم تعد مقبولـة، ولا يمكـن السـكوت عنهـا بعـد الآن (٨٦).

وأثنـاء إنـدلاع الثـورة العماليـة فى «المجـر» عـام ١٩١٨ صـدر منشـور سرى داخـل وزارة الحـرب، بتاريـخ ٣ مايـو مـن نفـس العـام، مؤكـداً بأنـه «لا تسـعى النسـاء العامـلات فى كثـير مـن الأحـوال إلى تعطيـل عمـل المصانـع عـن طريـق الإضراب فحسـب. بل يصـل الأمر إلى إلقـاء الخطب التحريضيـة والمشـاركة فى المظاهـرات، بـل ويتقدمـن الصفـوف وهـن ممسـكات بأطفالهـن. كـما كـن يتعاملـن بطريقـة مهينـة مـع ممثلى القانـون» (٨٧). وفى هـذا الإطـار يلاحـظ أنـه بسـبب التغـيرات التـى تطـرأ عـلى حيـاة المـرأة أثنـاء الثـورات، فإننا نجـد أن الرجـل يتعلم أن يظهـر المزيد

من الاحترام للمرأة، بل أن المرأة تكون قادرة أثناء الحدث الثورى، على التصدى لأى سلوك سئ أو منحرف من قبل الرجال (٨٨).

وإتساقا مع ذلك تروى النساء الأسبانيات ذكرياتهن عن ثورة العمال بين عامى ١٩٣٦-١٩٣٧ قائله « كنا نتدرب مع ميليشيات مع الذكور. ونقاتل إلى جوارهم على الخطوط الأمامية لمواجهة الفاشيين، كما كنا ننام فى مخيمات محاطة بالرجال، ورغم ذلك لم نشهد قط محاولات للتحرش الجنسى». وفى مصر – بهذه المناسبة – كان الأمر مشابه لما جرى فى أسبانيا، فطيلة ثمانية عشر يوما من الثورة قضتها النساء بجوار الرجال فى «ميدان التحرير» لم ترد أنباء عن تحرش جنسى أو إساءة معاملة إمراة (٨٩).

ونحن إذا تأملنا المرأة كفاعل ثورى له بصماته عى الساحة المصرية تاريخيا فسوف نجد أنها كانت لها أدوارها المشرفة، فقد كان للمرأة دورها حينما نزلت القوات الفرنسية فى يوليو ١٧٩٨، حيث إحتشد الأهالى رجالاً ونساء دفاعاً عن المدينة. وفى عام ١٩٨١ بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر إستمرت المراة المصرية فى النضال، ضد الاستبداد والظلم ممثلاً فى الباشوات الأتراك. وخرجت مع المحتجين من الشعب المصرى إحتجاجاً على السياسة المالية للعثمانيين. ثم شاركت نساء مدينة دمنهور فى ديسمبر عام ١٨٠٦، فى معركة الدفاع عن المدينة، ضد محاولات الألفى بك الاستيلاء عليها. وقد كان شهر مارس عام ١٩١٩ هو شهر المراة بجدارة حيث خرجت نساء مصر فى أول مظاهرة نسائية فى ١٦ مارس من نفس العام ، مؤيدات ومدافعات عن الثورة. حيث إحتججن على نفى زعماء الأمة، وعلى تنكيل قوات الاحتلال بالمظاهرات السلمية، رافعات أعلامهن الصغيرة مطالبين بالحرية والاستقلال. حيث سقطت منهم شهيدات، نذكر منهن «نعمة عبد الحميد، حميدة خليل، فاطمة محمود، نعمات محمد، حميدة سليمان، أم محمد جاد، يمنى صبيح» وغيرهن كثيرات(٩٠).

وفى رشيد شاركت النساء فى صد الهجوم والحصار الذى فرضتة القوات الانجليزية على المدينة، وفى عام ١٩٥١ شاركت المرأة المصرية فى المظاهرات

الوطنيـة ونظمـت حركـة المقاطعـة للبضائـع الانجليزيـة. وفى عام ١٩٥٦ شـاركت النسـاء فى الدفاع ببسـالة عـن مـدن القنـاة (٩١). ومـع عـام ١٩٧٧ حينـما رفعت الدولة أسـعار بعض السـلع فى عهد الرئيـس السـادات، التـى سـماها «بإنتفاضة الحرميـة»، بدأت إحتجاجات النسـاء من ميـدان الكيت كات بإمبابـة، ثـم إنتـشرت فى أحيـاء الطبقة الوسـطى والدنيا، والمناطق العشـوائية بمدينـة القاهرة، وأجـبرت الدولـة عـلى التراجـع عن رفع الأسـعار، وإلا كانـت القاهرة قد إشـتعلت.

وفى العقـد الأول مـن الألفيـة الثالثـة، عقـد المخـاض الثـورى، تحركـت الحركـة النسـائية المصريـة عـلى أرض مـصر، يبحـث عـن طريق، ليـس لتحررهـن فقط من عنت وفسـاد نظـام مبارك، ولكـن لتحريـر المجتمـع بكاملة. حيـث تحركت عاملات مصانع المحلة الكبرى فى ديسـمبر ٢٠٠٦، فى ظـل هتافهـم الشـهير «الرجالـة فـين السـتات أهم». حيث شـكل هذا التحـرك الـشرارة التى فجرت الحركـة العماليـة فى طـول مـصر وعرضهـا، ليثبتن وقتهـا أن الحركة النسـائية فى مصر، ليسـت قاصرة عـلى النخـب وسـيدات المجتمـع المخمـلى، ولكنهـا يمكـن أن تكـون أقـوى حينـما توجههـا السـواعد الفاعلـة. إذ كان الإضراب الـذى فجرتـه عامـلات المحلـة هـو الطلقـة الأولى فى موجـه الإضرابـات العماليـة التـى إنخـرط فيهـا أكـثر مـن مليـونى عامـل فى أربع سـنوات، حسـب أحصاء لاتحـاد عمال الصناعـة الأمريـكى. وتـلى ذلـك إعتصـام موطنـات الضرائـب العقاريـة، ليؤكـدن هـذا المعنـى فى إعتصامهـن فى ديسـمبر ٢٠٠٧، وصممـن أن لا يغـادرون الاعتصـام إلا بعد الاسـتجابة لمطالبهن. وقد كان مـن نتائـج هـذه الحركـة إنطـلاق أول نقابـة عماليـة مسـتقلة فى مـصر، ليشـق العـمال بعدهـا طريـق إسـتقلال النقابـات الـذى بدأتـه موظفـات الضرائـب العقاريـة. وبعدهـن عامـلات شركـة «المنصـورة - اسـبانيا» الـلائى إسـتمررن فى إضرابهـن لمدة سـتة أشـهر محتجات على تصفيـة الشركة، حيـث قمـن بأطـول إضراب فى حينهـا (٩٢).

ذلـك يدفعنـا إلى التأكيـد عـلى جملـة مـن الحقائـق الأساسـية التـى تتصـل بالمـرأة كفاعـل ثـورى فى مواجهـة القهـر الإنسـانى المفـروض عليهـا مـن كل إتجـاه، ولمـاذا كانـت المـرأة هـى الفاعـل الثـورى الـذى يسـتهدفه العنـف الاجتماعـى والسـياسى عـادة.

فى هـذا الإطـار تتمثـل الحقيقـة الأولى فى أن ثقـل القهـر والمعانـاة الاجتماعيـة على المـرأة، يعد أكثر وطـأة مقارنـة بالرجـل، وذلـك يرجـع إلى أن المـرأة تشـكل مرجعيـة الأسرة. ومـن ثـم تترسـب عـلى سـاحتها كل الآثـار السـلبية التـى تترسـب عـلى سـاحة المجتمـع أو الأسرة، فهـى التـى تتـولى إعاشـة الأسرة فى ظـل غيـاب السـلع أو إرتفـاع الأسـعار. أو تـردى أوضـاع الخدمـات، أو وفـاة الرجـل عائل الأسرة أو غيابـه، الأمـر الـذى يجعلهـا قائمة دائمة على حافـة الاحتجاج والثورة، بسـبب الألم والمعاناة المفروضـة عليهـا. بينـما تتصـل الحقيقـة الثانيـة بـأن المـرأة تقـع فى تناقض موتـر يدفعهـا إلى حالة الاحتجـاج، فهـى مـن ناحيـة أكـثر إيثاريـة وعطـاء سـواء عـلى الصعيـد البيلوجـى أو الاجتماعـى. فإنجـاب كائـن بـشرى يشـكل لحظـة إسـتمتاع للرجـل، بينـما هـى بالنسـبة للمـرأة لحظـة سـقوط لبـذرة وجـود بـشرى عـلى سـاحتها. تحملـه وهنـا عـلى وهـن، وتفصلـه فى عامـين ثـم تتولى تنشـئة ليكـون عضـواً فى المجتمـع. ذلـك فى مقابـل أنهـا الأكـثر تهميشـا وإسـتبعاداً فى المجتمـع، بخاصـة فى المجتمعـات التـى تسـيطر عليهـا الثقافـات التقليدية. وهـو ما يعنـى محدودية نصيبهـا فى التفاعل الاجتماعـى المحيـط بهـا، وأمـام هـذا التناقـض مـن الطبيعـى أن تعيـش المـرأة فى ظل حالـة الرفض والاحتجـاج، سـواء عـلى الصعيـد الأسرى الضيـق، أو الثـورة عـلى الصعيـد الاجتماعـى الشـامل. فى حـين تتصـل الحقيقـة الثالثـة فى أنـه إذا رفضـت المـرأة وإحتجـت وهـى الكائـن الضعيـف الـذى يدعـى الرجـل حمايتـه، فإنـه من بـاب أولى أن يكون ذلـك دافعا للرجـل للإحتجاج والثـورة بطبيعة الحـال. ويرتبـط بذلـك الحقيقـة الرابعـة التـى تذهـب إلى أن المـرأة يرتبـط بهـا وبجسـدها عديداً مـن القيـم الرمزيـة، التـى يعتـبر المسـاس بهـا مصدراً لعنـف المجتمـع بكاملة. فجسـد المـرأة حرام المسـاس بـه، حـرام دينـى وإجتماعـى، إضافـة إلى معـانى الـشرف والطهـارة والعذريـة. ومـن ثـم فـإن المسـاس بهـذه الرمزيـة يمكـن أن يشـعل نـارا لا تنطفـئ، ولذلـك نجـد أنـه فى بعـض الثـورات والتظاهـرات أو الانتفاضـات، بخاصـة فى الحضـارات الشرقية تكون المرأة فى الصفـوف الأولى كحاجز حمايـة للذكـور. وتترتـب عـلى كل الحقائـق السـابقة الحقيقـة الخامسـة، التـى تذهـب إلى أنـه إذا فتحـت المـرأة طريـق الثـورة بسـبب المعانـاة وطبقـات القهـر التـى تثقـل كاهلهـا فإنهـا بذلـك،

وبإعتبـار إيثاريتهـا لا تحتـج او تثـور مـن أجل تحرير نفسـها فقط، ولكنها تسـعى لتحريـر المجتمع بكاملـة. الرجـال والنسـاء معـا، إضافـة إلى أن تحركهـن عـلى طريـق الثـورة يشـكل طاقـة ملهمـة ودافعـة للرجـال لـكى يسـلكوا هذا السـبيل.

إرتباطـا بذلـك يشـكل الاعتـداء عـلى أجسـاد النسـاء فى الحـروب والنزاعات وحتـى الثورات وسـيلة من وسـائل الحرب النفسـية ضد الشـعوب، حيث يسـتهدف إذلالها وتدمير معنوياتها، وقد رصـدت الدراسـات الإنسـانية ومتابعـات الأمـم المتحـدة، وقـوع مئـات الآلات مـن ضحايـا العنـف والتعذيـب الجنـسى، أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة. ويذكرنـا التاريـخ الحديـث بالأسـاليب التـى أسـتخدم بهـا سـلاح العنـف الجنـسى مـع أجسـاد النسـاء فى روانـدا والبوسـنة وصربيـا وفلسـطين المحتلـة ودارفـور والعـراق وليبيـا (٩٣) وأخـيراً مـصر. ويراهـن القائمـون بتلـك المهـام الدنسـة على أن الوصمـة الاجتماعيـة سـتمنع النسـاء مـن التحدث علنـا عن وقائـع التحرش أو الاعتـداء الجنسى. كـما يراهنـون عـلى تواطـؤ الأجهـزة الأمنيـة، وإمتناعهـا عـن القيـام بدورهـا فى حمايـة المتظاهرات، خاصـة إذا كانـت أجهـزة أمنيـة منهارة أو مخترقة. كـما يراهنون على أن الخوف على سـمعة ميدان التحريـر، سـتفرض عـلى كثـير مـن السياسـيين الصمـت. إضافـة إلى أنهـم يراهنـون عـلى أن القـوى التـى تـرى فى النسـاء مجرد عورة سـتغض الطـرف أيضا، لأن مـا يحدث يصب لصالـح تصوراتهم عن النسـاء. غـير أن النسـاء المصريـات قـررن الحديـث ووضـع كل القوى أمـام مسـئولياتهم فى مواجهة هـذه الممارسـات القمعيـة المهينـة، ليس فقط للنسـاء ولكن لكسر إرادة الشـعب المـصرى فى جملته (٩٤). وإسـتناداً إلى هـذا السـلوك المهـين إحتلـت مـصر المركز الثـانى عالميا فى التحرش بالنسـاء بعد أفغانسـتان. حيـث وصلـت حـالات التحرش فى عيد الفطـر الماضى فى القاهرة وحدهـا إلى ٤٦٢ حالة (٩٥). ذلـك بخـلاف التحـرش لأهـداف سياسـية، والتـى يقـع فى السـاحات التـى توجـد فيها النسـاء المتظاهـرات أو الثائرات.

ومـــن الواضـــح أن التحـــرش لأهـــداف سياســـية مـــع المـــرأة، بـــدأ يقـــع فى الفـــترة الأخـــيرة بصـــورة متضاعفـــة بعـــد أن أمســـكت جماعـــة الأخـــوان والجماعـــات المتأســـلمة المتحالفـــة معهـــا بالســـلطة والحكـــم. حيـــث أصبحـــت تـــرى فى التظاهـــرات ومظاهـــر

التمـرد والرفـض تهديـداً لوجودهـا، ومـن ثـم فقـد إتجهـوا إلى تهديـد كل مـن يحـاول التظاهـر، وبالأخـص المـرأة، لأن تظاهـر المـرأة سـوف يصبح مدخلاً لتظاهر الشـعب بجملته فى كافـة الميادين. وكـرد فعـل لذلك تفتق ذهب المتاسـلمون عن وسـيلة لردع المرأة، عن التظاهر وممارسـة السياسـة، مـن خـلال التحـرش بهـن إلى حـد إغتصابهـن بصـورة فرديـة أو جماعيـة تحـت تهديـد السـلاح. حيـث يقـع التحـرش بتكتيـك واحـد ومتكـرر، تـأتى بموجبـه جماعـة المتحرشـين بأعـداد كبـيرة، ومن الواضـح أنهـم منظمـون ومدربـون عـلى هـذا الأسـلوب، وعـلى القيـام بهـذه المهمـة. ومثلما حدث فى تظاهـرات النسـاء فى ميـدان طلعـت حـرب، نجد أن الميليشـيات وقـد أحاطـت بالمتظاهرات. ثم يقومـون بعمـل كـردون حولهـم، ويتحـرك الكـردون لـكى يضيـق حـول المتظاهـرات، وكلـما إقـترب تداخلـت بعـض أطرافـه مـع أطـراف المظاهـرة، وفى البدايـة تـم عـزل النسـاء، عـن رجـال الأزهـر المشـاركون معهـم فى الظاهـرة بصـورة ناعمـة وغـير محسوسـة. وأثنـاء تحـرك المظاهـرة إلى ميـدان التحريـر بـدأت هـذه الميلشـيات تنقسـم لتشـكل حلقـات، كل حلقـة أو مجموعـة تحيـط بإمـرأة، وتلتـف حولهـا، وتبعدهـا إلى طـرف مـن أطراف الميـدان. ثم تبدأ عـشرات الأيـدى فى العبث فى كل جـزء مـن جسـدها، تحـت وطـأة التهديـد بإسـتخدام الأسـلحة البيضـاء، وأحيـان إسـتخدام العنـف الجسـدى كالـضرب، أو إيقـاع الألم بأماكـن حساسـة فى أجسـادهن (٩٦).

وتـروى أحـدى اللائى تـم التحـرش بهـن لتلفزيـون رويـترز أنـه «فى اليـوم الثـانى مـن يونيو ٢٠١٢ كنـت فى ميـدان التحريـر مـع بعـض الصديقـات. وحـين كنـت قـرب ناصيـة شـارع محمـد محمـود ومطعـم «هارديـس» بالتحديـد، بـدأ بعـض النـاس يشـكلون دائـرة حولنـا، ويفصلوننا عن بعضنـا البعـض. ثـم بـدأوا يسـحبوننا وكل واحـد منهـم يقول سـأحميكى... ومن قال سـأحميكى كان الأسـوأ». واضافـت «حـين بـدأوا فصلنا عن بعضنا البعـض، لم تكن نعرف ما نفعلـه، ولم أعرف كيف أصـل لصديقـاتى، غـير أن أنـاس آخـرون بدأوا يشـكلون سلسـلة بشرية حـولى وصديقة أخـرى، أيضا وتـم إنقاذنـا، أمـا صديقتـى الثالثـة فإنهم قـد إغتصبوهـا بصورة كاملـة (٩٧).

ولم تسلم المذيعات والمراسلات الأجنبيات من أعتداء هذه الجماعات المتأسلمة من التحرش السياسى، لمنعهم من نقل أخبار وحقائق الداخل إلى الخارج. خاصة أنها أخبار وحقائق تدين نظام الاخوان. مثال على ذلك تعرضت «سونيا دريدى» مراسلة قناة فرانس ٢٤ فى مصر لتحرش جنسى فى ميدان التحرير، أثناء تغطيتها للمظاهرات، التى خرجت تحت شعار «مصر مش عزبة» فى أكتوبر ٢٠١٢، حيث نقلت حادثة التحرش على الهواء مباشرة. وبحسب ما قالت «دريدى» فإن جمعا من الشباب قاموا بمحاصرتها وأخذوا يلمسونها، وأوضحت أن التحرش إستمر لعدة دقائق، قبل أن يتمكن صديق لها من أنقاذها. وأوضحت لقد حوصرت من كل الجهات أو أدركت لاحقا أننى أتعرض لتحرش فى حين أعاد أحدهم إغلاق زرار قميصى، انها كانت مفتوحة ولكن غير ممزقة. وبفضل الحزام الصلب» الذى كنت أضعه» تفاديت الأسوأ» (٩٨).

وفى هذا الإطار قالت حسيبة حاج صحراوى نائبة مديرة منظمة العفو الدولية لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، «أن ميدان التحرير الذى شهد فى ٢٠١١ أعظم الثورات، تتعرض فيه المرأة الآن للتحرش الجنسى. لمنع المرأة من التواجد فيه، وينبغى أن يتم التحقيق الفورى فى حالات التحرش، ومن يثبت تورطه يجب أن يقدم للعقاب الرادع». وتضيف صحراوى» أن هذه الأشكال من التحرش والاعتداء الجنسى ضد المتظاهرات، وغيره من أشكال سوء المعاملة، هو عبارة عن محاولة لتخويفهن، ومنعهن من المشاركة الكاملة فى الحياة العامة. كما أكدت الناشطة الحقوقية ماجدة عدلى من مركز النديم لإعادة تأهيل الضحايا، انه «فى حالتين على الأقل إستخدمت (شفرات الحلاقة) فى الاعتداء على الأعضاء التناسلية للضحايا». وأن السلطات فى مصر لا تفعل شيئا فى مواجهة هذه الهجمات، ويبدو أن السلطات فى مصر تشجع هذا الاتجاه من الاعتداء والتحرش الجنسى مع المتظاهرات» (٩٩). وإرتباطا بذلك سجل المركز المصرى لحقوق المرأة فى تقرير رسمى نشر مؤخراً قال فيه أن ٨٣٪ من المصريات ونحو ٩٨٪ من الأجانب الزائرات لمصر يتعرضن للتحرش الجنسى (١٠٠). وقد أشارت غالبية التحليلات إلى نظام الأخوان والجماعات المتأسلمة

المتحالفـة معهـا، بإعتبارهـم المسـئولين عـن هـذه الجريمـة. فى هـذا الإطـار طالـب الكاتـب «بـلال فضـل» الأخـوان بالـرد عـلى إتهامهـم من قبـل الصحف الأجنبيـة، بـل مقاضاتهـا، لأن الصمت يعنى إعـتراف النظـام وجماعتـه بالمشـاركة، فى تحريـض هـذه العصابـات أو الميليشـيات عـلى التحـرش بالناشـطات (١٠١).

وبرغـم ذلـك لم تتوقـف المـرأة عـن النـزول إلى الميـدان لإسـتكمال مسـيرة الثـورة بروحهـا المقاتلـة، حيـث هتفـت المـرأة «رغـم القهر صوتنـا طالع». حقيقـة تؤكدها المرأة المصريـة، المرة تلو الأخـرى، فى مواجهـة نظـام قمعـى تلـو الآخـر. وكلـما زادت محـاولات كسرهـا وإقصائهـا وتهميـش دورهـا، صرخـت فى وجـه النظـام القبيـح «المرأة ثـورة .. ثـورة ..» . وكلما إمتدت يـد كلابه لتتحرش بجسـدها حتـى تمنعهـا مـن النـزول إلى الميـدان، أعلنت التمـرد والعصيـان وخرجـت فى كل الميادين تهتـف «بنـت جدعـه فى كل مـكان والمتحـرش كلـب جبان» . وكلما داسـتها بيادات عسـاكره رفعت وجههـا لتبصـق فى وجهـه مـرددة «إرفعى رأسـك إرفعى رأسـك، إنتى أشرف من اللى داسـك» غير أن غبـاء الأنظمـة يمنعهـا مـن إسـتيعاب سـيكلوجية المـرأة المصريـة، فيزداد كل نظام بطشـا عـما قبله، واهـما أنـه سـيطفئ بذلك ثورتهـا ويبطل مقاومتهـا (١٠٢).

غـير أننـا إذا تأملنـا أمر التحـرش بالمرأة والعنف الجنـسى معها على مرجعية السياسـة، فإننا نجـد أن التفكـير المنطقـى والبراهـين الواقعيـة، تشـير إلى أن الجماعـات المتأسـلمة بخاصـة جماعـة الأخـوان، هـى مـن يقـف وراء هذا السـلوك المشـين والمتردى إنسـانيا والـذى يفتقد نخـوة الرجولة. وإذا كان الهـدف الظاهـر يتمثـل فى ترويـع النسـاء حتى يعزفـن عن الاقتراب من ميـدان التحرير أو المشـاركة فى سـلوكيات التظاهـر، فـإن التأمـل العلمـى يقدم تفسـيراً لهذا السـلوك، مـن قبل جماعة الأخوان وميليشياتها. وهو التفسير الذى نطرحه من خلال ثلاثة أبعاد. حيث يستند البعد الأول فى التفسير إلى ما أشار إليه العالم العربى والإسلامى الجليل عبد الرحمن بن خلدون فى مقدمته الشهيرة، أثنـاء مناقشـته لقضيـة الخلق، بقوله أن الإنسـان يتكـون من روح وعقل من ناحيـة، ودوافع وغرائز مـن ناحيـة اخـرى. ومـن ثـم فـإذا عمل على تطهـير روحة وتعميـق قدراتـه العقلية، كلما إتسـعت

مساحة فاعلية العقل والروح على حساب مساحة الغريزة والتكوينات الحيوانية المرتبطة بها. والعكس صحيح فإنه كلما إنقاد الإنسان لغرائزه وتكويناته الحيوانية، كلما كان ذلك على حساب روحه وملكاته العقلية. وإستناداً إلى ذلك، فإنه إذا كان مطلوبا من العضو الأخوانى المتأسلم – لكى يكون مثاليا – أن يعمل بمنطق السمع والطاعة دون التفكير والمناقشة. فإن ذلك يعنى أنه مطلوب منه أن يعطل عقله، أن لا يفعله، تأكيدا لذلك أن غالبية أعضاء الجماعة، الذين شغلوا مركز علمية أو فكرية، نجدهم دائماً ذوى قدرات متواضعة، واقل كفاءة من نظرائهم. غير أن الأهم أن تعطيل العقل – وسنتحدث عن تعطيل الروح لاحقا – يؤدى إلى توسيع مساحة الغريزة فى نوعية الحياة الأخوانية. تأكيدا لذلك أنهم أبدعوا تكتيك التحرش الجنسى بالمتظاهرات، لأدراكهم وميلهم إلى تفعيل هذا الأسلوب، ففيه أذى للمتحرش بها، وإشباع شبقى للذات. البرهنة على ذلك إن الإيماءات الجنسية بارزة وكثيفة عن قادة هذا الجماعة، أحدهما يتحدث عن الأصابع التى تلعب فى مقابلته لجمع نسائى. ووزير إعلام يتحدث بمفرادات جنسية مع صحفيات، ومتحدث بإسم الرئاسة يتزوج صحفية وينكر ذلك. ومتأسلم آخر يضبط مع فتاة فى الطريق العام، وآخر يجرى عملية جراحية بأموال الحزب الذى ينتمى إليه، ليصبح أكثر جاذبية للنساء وما خفى كان أنكى وأردا.

ويتمثل البعد الثانى فى مرجعية التفسير الذى نسوقه لتفسير هذا الولع الجنسى، فى أن التعامل مع الجنس يختلف بإختلاف المرجعية الحضارية. ففى نطاق الحضارة الغربية نجد أن التعبير عن الجنس محكوم بالحرية الفردية الصريحة، حيث القناعة بأهمية التصريف الجنسى المتحرر نسبيا، حتى لا يشكل قيدا على تفكير الإنسان، أو منطقة موترة فى بنائه إذا لم تشبع هذه الغريزة، وحتى يتفرغ الإنسان لبناء الحياة. على خلاف ذلك نجد أن الحضارة الإسلامية ترى أن تفعيل الجنس ينبغى تقييده بمنظومة القيم الاسلامية التى تنظمه، بحيث يتم الإشباع الجنسى من خلال قنواته «الحلال» التى يقرها المجتمع. حيث يحدث ذلك بالنسبة للمسلم الحقيقى المؤمن بقيم الإسلام. غير أن ذلك لا يصدق على المتأسلم الشكلى، الذى يهتم بأطالة اللحية، وحف الشارب، وتقصير الثوب،

والـزواج بالنسـاء بخاصـة الصغـيرات. والـذى يعتقـد بتدين السـلف دون محاولة التجديـد بالدين بمـا يتـواءم مـع روح العـصر. مـع غيـاب جوهـر القيم الاسـلامية عـن ضمـيرة، ومن ثـم عجزها عن توجيـه سـلوكياته فى مختلـف مجـالات الحيـاة. ومـن ثم نجده قد يتطـرف بالدين حتـى قتل الآخر بإعتبـاره مـن الكفـرة، أو يسـتقيل بعقلـه الدينى إلى المـاضى، دون أن يدرك إحتياجـات الحاضر، وأن الديـن هـو توجيـه للتقـدم والحركـة إلى الأمـام، أو يعبـث بالديـن فى عـالم السياسـة، بإعتبـاره آليـه لغوايـة وتعبئـة العامـة. هـو يهتـم بشـكل التديـن دون أن يعنـى بجوهـره، ولذلـك تغيـب القيـم والمعـانى الدينيـة الحقيقيـة عـن ضبـط غرائـزه. ونتيجـة ذلـك تنطلـق غرائـز الجنـس عـلى سـاحة حياتـه، لتصنـع خيالـه وتوجـه سـلوكياته فى مختلـف المجـالات، ولو حتـى فى مجال عقـاب الآخرين، بذلـك لا يصبـح المتأسـلمون من الاسـلام فى شـئ.

ويذهـب البعـد الثالـث فى مرجعيـة التفسـير – التـى إرتضيهـا – إلى مكانـة المـرأة فى عـالم المتأسـلمين، أو أصحـاب التديـن الشـكلى، فهـى كائن خاضع مأمور متـدنى فى قيمته، برغـم أن المرأة لهـا مكانتهـا الرفيعـة فى البنـاء العقيـدى للاسـلام. وهـى رهـن إشـباعاته الغريزية بغـض النظر عن إحتياجاتهـا. وهـى كائـن ينبغـى أن يكـون خاضعـاً دائمـاً، وليـس لـه الحـق فى التمـرد أو الرفـض أو المشـاركة فى الثـورة، ونسـوا أن إمـراة كانـت تدافع عن النبى «صـلى الله عليه وسـلم» فى غزوة أحد حينـما إشـتد الوطيـس. وأن السـيدة عائشـة زوجـة الرسـول وراويـة الحديـث، شـاركت فى موقعـه الجمـل. وأن أم سـلمة زوجـة الرسـول «صـلى اللـه عليه وسـلم» هى التى أسـدته النصيحـة العاقلة فى صلـح الحديبيـة، بعـد أن قـال لهـا الرسـول لمـا رأى إمتعـاض الصحابه مـن بنود الصلـح قائلا، كاد أن يهلـك المسـلمون أم سـلمة. وهنـد بنـت عتبـة، زوجـة أبو سـفيان، التـى حاربت جيش الرسـول «صـلى اللـه عليـه وسـلم» فى موقعـة احـد، وعارضتـه فى حديـث له مع النسـاء. لذلـك أوصى النبى «صـلى اللـه عليـه وسـلم» بالمرأة خـيراً فى خطبته الـوداع. أين هذا الإسـلام المشرف من تأسـلم أحد القـادة المتأسـلمين والمتنطعـين الآن، والـذى يفخـر بـأن أمـة كانـت تـذوق «بـول» أبيـه، لتقيـس له درجـة السـكر فى دمـه، «اللهـم لا إعـتراض» ، و«حسـبى الله ونعـم الوكيل».

المراجـــع

1. Francis, Fukuyama: Op,cit, 11. Francis, Fukuyama: Op,cit, 1997, Pp, 7-8.

2. Tiger, Lionel: Op, cit,p. 32.

3. Toril, Moi: Op, cit, P.10.

4. Ibid, P,12.

5. Francis Fukuyama, OP, Cit 12.

6. Daly, Martin M. Wilson, Abuse and Nglect: Biosocial Dimensions, Aldine de Gruyter, New York,1987 p. 112.

7. Dawkins, Richard: The Selfish Gene , Oxford University Press, New York, 1989, P, 83.

8. Putnam, Robert. D: Making Democracy Work, Princeton University Press, Princeton, 1993, Pp 56-57.

9. Francis Fukuyama: OP,Cit, P. 33.

10. M. Daly and m. Wilson: Op, Cit, P.117.

11. Francis Fukuyama : OP, Cit, P. 35.

12. Toril Moi : Op, Cit, P, 17.

13. Geddes, Patrick and Thomson, J. Arthur : The Evolution of Sex, London: Walter Scott, 1889, 270 .

14. Toril Moi : Op, Cit, P.6.

١٥. أنتوني جدنز ، علم الاجتماع ، ترجمة فايز الصياغ ، المنظمة العربية للترجمة ، مؤسسة ترجمان ، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة ، ٢٠٠٥، ص ١٨٧ .

16. Toril Moi , Op, Cit, P. 18 .

17. Mackinnon, Catharine, : "Feminism, Marxism, Method and The State : An Agenda for A Theory" in Nannerl O. Keohane, Michelle Z , Rosaldo and Barbara C. Gelpi (eds). Feminist Theory: A Critique of Ideology. "Chicago : Chicago University Press, 1982 , P, 22.

18. Toril Moi : OP, Cit, P, 20.

١٩. علي ليلة : هربرت سبنسر والتصور العضوي للمجتمع، مرجع سابق، ص ٧٠.

20. Francis Fukuyama : Op, Cit, Pp. 8-9 .

21. Ibid, P. 19.

22. Ibid, P, 42.

23. Ibid, p . 49.

24. Ibid, P. 51.

٢٥. ح . تيموتز روبيرتس ، إيمي هايت : من الحداثة إلي العولمة ، ترجمة محمود ماجد عمر ، سلسلة عالم المعرفة ، الكتاب رقم ٣١٠ ديسمبر ٢٠٠٤ ، الجزء الثاني ، ص ١٩٨ .

26. Heyser, Noeleen : Working Women in South-East Asia, Melton Keynes, England, Oxford University Press, 1986, P. 131.

27. Ibid, p, 133.

28. Francis Fukuyama, Op, cit, p41.

29. Ibid, p, 53.

٣٠. على ليلة «إشراف وتحرير»: دليل الأسرة فى الاسلام، دار الافتاء المصرية، ١٤٣٤ هجرية، الجزء الأول، ص ٢١٣.

٣١. نفس المرجع، ص ٣١٢.

٣٢. حليم بركات، المجتمع العربى فى القرن العشرين، بحث فى تفسير

الأحوال والعلاقات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٠ ص ٢١٨.

٣٣. على ليلة وآخرون، دليل الأسرة فى الاسلام، ٢٢٣.

٣٤. نفس المرجع، ص ٢٤٣.

٣٥. نفس المرجع، ص ٢٤٦.

٣٦. نفس المرجع، ص ٣١١.

٣٧. سـناء الخـولى، الأسرة والحيـاة العائليـة، دار النهضـة للطباعة والنشر بـيروت، ٢٠٠٥، ص ١١٧.

٣٨. فاتـن محمـد عمـران، الـزواج العـرفى وصـور أخـرى للـزواج غـير الرسـمى، القاهـرة مجموعـة النيـل العربيـة، ٢٠٠٤، ص ٥٩.

٣٩. نفس المرجع، ص ١١٣.

٤٠. نفس المرجع، ص ١٣٢.

٤١. البهى الخولى، الاسلام وقضايا المرأة المعاصرة، دار العلم، الكويت، ١٩٩٤ ص ٥٥.

٤٢. نفس المرجع، ص ٥٨.

٤٣. نفس المرجع، ص ٦٣.

٤٤. فاتن محمد عمران، مرجع سابق، ص ٧٣.

٤٥. عـلى ليلـة، الأمـن القومـى العـربى فى عصر العولمـة، تفكيـك المجتمع وإضعـاف الدولة، الكتـاب الثـانى، مكتبـة الانجلو المصريـة، ٢٠١١، ص٣١١.

٤٦. نفس المرجع، ص ١٣٢.

٤٧. نفس المرجع، ص ١٣٧.

٤٨. على ليلة وآخرون، دليل الأسرة فى الاسلام، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

٤٩. نفس المرجع، ص ٣١١.

٥٠. نفس المرجع، ص ٣١٣.

٥١. نفس المرجع، ص ٣١٧.

٥٢. عـلى ليلـة، تقاطعـات العنـف والإرهـاب فى زمـن العولمـة، مكتبـة الانجلـو المصريـة، القاهـرة ٢٠٠٧، ص ١٣.

٥٣. العنف السياسى ضد المرأة، http://www.maatpece.org//node1799

٥٤. نفس المرجع.

٥٥. نفس المرجع.

٥٦. علـى ليلـة، تفكيـك المـرأة كمدخـل لتفكيـك المجتمـع، دراسـة عـلى خلفيـة تفاعـل الحضـارات، بحـث مقـدم لمؤتمـر «المـرأة فى مجتمعاتنـا على خلفيـة أطـر حضارية متباينـة» جامعة عـين شـمس بالإشـتراك بـين قسـم الاجتـماع، ومركـز الدراسـات المعرفيـة، الفـترة مـن ١٤-١٦ نوفمبر ٢٠٠٦، ص ٣٢.

٥٧. رشا عامر، المرأة المصرية بين الضرب فى البيت والتحرش فى الحياة، الأهرام العربى
http://digital.ahram.org.ed/articles.aspx?Serial=1137204&eid=366

٥٨. إتفاقية وقف العنف ضد المرأة وموقف الأخوان المسلمين
http://www.alarabiya.net/ar/arabic-Studies/2013

٥٩. العنف السياسى ضد المرأة، مرجع سابق.

٦٠. عـلى ليلـة، خرائـط العنـف على سـاحة الثـورات العربية، مجلـة الديموقراطية مؤسسـة الأهـرام، العـدد ٥٠ إبريـل ٢٠١٣، ص ص ٢٦-٣٦.

٦١. العنف السياسى ضد المرأة، مرجع سابق.

٦٢. نفس المرجع.

٦٣. نفس المرجع.

٦٤. نفس المرجع.

٦٥. ملائكـة فى الميـدان، حكايـات طبيبـات وممرضات المستشـفيات الميدانيـة عالجن الثوار تحـت قصـف الشرطة، جريـدة التحريـر، فى ٢٣ مارس ٢٠١١.

٦٦. نفس المرجع.

٦٧. نفس المرجع.

٦٨. هبة القدسى: الأمم المتحدة، ضرب المتظاهرين لا يمكن تبريره بحجة إستعادة الأمن

http://aawsat.com/details.asp?Section=48article=655303&Issueno=12076

٦٩. العنف السياسى ضد المرأة، مرجع سابق.

٧٠. نفس المرجع.

٧١. نفس المرجع.

٧٢. نفس المرجع.

٧٣. نفس المرجع.

٧٤. نفس المرجع.

٧٥. إنتفاضة نساء مصر ضد التحرش، خطة ممنهجة لإرهاب المتظاهرات وتشوية صورة الميدان. http://www.alwafd.org

٧٦. نفس المرجع.

٧٧. رشا عامر: مرجع سابق.

٧٨. الارهاب الجنسى، سلاح تخويف الناشطات

http://www.elwatannews/details/147705

٧٩. نفس المرجع.

٨٠. على ليلة، الأسرة العربية فى مناطق الحروب والنزاعات المسلحة، بحث مقدم لمؤتمر»واقع الأسرة العربية وتحولات المستقبل، الجامعة العربية والهيئة السورية للأسرة دمشق ٣-٥، يوليو ٢٠٠٧.

٨١. العنف السياسى ضد المرأة، مرجع سابق.

٨٢. نفس المرجع.

٨٣. نفس المرجع.

٨٤. نفس المرجع.

٨٥. نفس المرجع.

٨٦. نفس المرجع.

٨٧. إتفاقية وقف العنف ضد المرأة وموقف الأخوان المسلمين، مرجع سابق.

٨٨. نفس المرجع.

٨٩. على ليلة، تقاطعات العنف فى زمن العولمة، مرجع سابق، ص ٢٦.

٩٠. العنف السياسى ضد المرأة، مرجع سابق.

٩١. على ليلة، تقاطعات العنف فى زمن العولمة، مرجع سابق، ص ٣٢.

٩٢. الارهاب الجنسى... سلاح تخويف الناشطات، مرجع سابق.

٩٣. التحرش الجنسى بالمرأة فى مصر.

http://www.radiosawa.com/content-sexualharrassment-egypt-woen/221434.html

٩٤. نشطاء يكافحون التحرش بالنساء فى المظاهرات

http://www.alqudsies.co.uk./mdex.asp?Fname-Qnline5%cdatta5%c201239-38-15-02-12-.htm

٩٥. التحرش والاغتصاب..ضريبة نزول المصريات للميدان

http://www.moheet.com/201311/02/

٩٦. نفس المرجع.

٩٧. نفس المرجع.

٩٨. نفس المرجع.

٩٩. نفس المرجع.

١٠٠. العنف السياسى ضد المرأة، مرجع سابق.

١٠١. نفس المرجع.

١٠٢. رشا عامر، مرجع سابق.

الفصل الثالث

الإطار الحضاري والاجتماعي
للتنشئة الاجتماعية للشباب

الفصل الثالث

الإطار الحضارى والاجتماعى

للتنشئة الاجتماعية للشباب

تمهيد

يتناول هـذا الفصـل الإطـار الاجتماعـى للتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية، وهـى العمليـة التـى يسـتوعب مـن خلالهـا الفـرد القيـم والمبادئ التى تشـكل مرجعية لسـلوكه السـياسى. ويشـير تأمـل الإطـار الاجتماعى للتنشـئة الاجتماعية والسياسـية إلى بـروز مجموعة من الحقائق الأساسـية. وتتمثـل الحقيقـة الأولى فى ضرورة تغيـير المنطـق الـذى نفكـر بـه فى أى مـن الوقائـع الاجتماعيـة والسياسـية المعـاصرة، وذلـك يرجـع إلى أن الحقائـق لم تعد ثابتة فى عالمنا المعـاصر كما كان الأمر فى عـالم الأمـس. فقـد أصبحـت السـيولة والتدفـق من ملامـح حقائق عالمنـا المعاصر وأيضـا من ملامح التفكـير فيهـا، كـما أن ذلـك يرجـع مـن ناحيـة إلى تعـدد مصـادر الحقائـق وتعـدد مصـادر التفكير فيهـا. وأيضـا إلى المتغـيرات الجديـدة التـى يطرحهـا عالمنا المعـاصر بنوع من التسـارع الذى يصعب ملاحقتـه ، والـذى يجعـل مـن الصعـب أيضـا إكتـمال تبلـور ذات الواقـع الـذي يشـكل موضوعـاً لدراسـة العلـوم الإنسـانية ومـن بينهـا علـم الاجتـماع. وإذا كان عالمنا قـد إعتاد التفكير فى التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية مـن منطـق ثابـت وسـكونى ، فـإن الحاجـة أصبحـت تدعـو لمراجعـة نظرية ومنهجيـة للوصـول إلى أطـر وتصـورات قـادرة عـلى تنـاول الوقائـع السـائلة دومـا وغـير المكتملة أو غـير المتبلـورة أبداً.

وتذهـب الحقيقـة الثانيـة إلى أن التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية لم تعـد العمليـة التـى كانـت تتـم فى نطـاق مؤسسـات الدولـة القوميـة. ذلـك كان بالأمـس أمـا اليـوم فـإن عالمنـا تقلـص فى زمانـه ومكانـه وحالـة الإجتـماع فيـه حتـى أصبـح قريـة واحـدة. بحيـث أصبحـت مرجعيـات التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية سـابحه ومتداخلـة فى فضائـه ، تتدفـق فى الفضـاءات الفرعيـة لتطـور تنشـئة يتداخـل فيهـا العالمـى والقومـى والإثنى ، كـما تتداخـل مرجعيات الـتراث والمعاصرة ، ومـن الطبيعـى أن تتشـكل مرجعيتهـا بنسـب متفاوتـه مـن هـذه المسـتويات أو المصـادر،

وأحيانا تتضافر بعض المستويات أو المصادر مع بعضها لتصل إلى مرجعيات جديدة تصبح هى الموجهة للسلوك السياسى. فقد تتضافر الإثنية مع العالمية لتؤسس مرجعية تتجاوز المرجعية القومية ، وقد تتعانق الإثنية مع التراث ، أو تتضافر العالمية مع المعاصرة ، بحيث تؤسس هذه التضافرات او التداخلات مرجعيات عديدة ، توجه أى منها السلوكيات الاجتماعية والسياسية للبشر فى سياق إجتماعى معين. ويزداد الأمر تعقيداً إذا تداخلت متغيرات أخرى كالسياق الاجتماعى والثقافى ، أو السياق الطبقى. لذلك قلنا أن التفكير فى التنشئة الاجتماعية والسياسية يحتاج إلى أن يكون ديناميا ، وأن يكون كليا يدرك المتغيرات فى جملتها او فى معية واحدة بنظرة طائر.

وتشير الحقيقة الثالثة إلى أن التغير لم يصب مستويات ومصادر مرجعيات التنشئة الاجتماعية والسياسية فقط ولكنه أصاب مؤسساتها أيضا. فليس هناك ثوابت على هذه الساحات. وإذا كانت الأسرة ومن بعدها المؤسسات التعليمية بمستوياتها المتتابعة – إضافة إلى المؤسسة الحزبية – هى التى شكلت آليات التنشئة الاجتماعية والسياسية الثابتة فى الماضى ، فإننا نلاحظ اليوم أن التنشئة الاجتماعية والسياسية أصبحت وظيفة مؤسسات عديدة على الصعيد العالمى والقومى والمحلى الإثنى. وإذا كانت المؤسسات القومية هى التى كانت صاحبة الفاعلية الأكثر فى الماضى فى إنجاز التنشئة الاجتماعية والسياسية ، فإننا نجد ان المؤسسات العالمية والعولمة كالفضائيات وتكنولوجيا المعلومات ، أصبحت هى التى تلعب دوراً محوريا فى هذا الصدد. وفى بعض الأحيان تتغلب المؤسسات والآليات العالمية على الآليات القومية والمحلية فى إنجاز التنشئة الاجتماعية والسياسية للبشر فى سياق إجتماعى معين. يضاف إلى ذلك أننا إذا تأملنا حالة مؤسسات التنشئة الاجتماعية والسياسية على الصعيد القومى فسوف نلاحظ تباينا وتغيراً فى أوزان فاعليتها عن عالم الأمس. فعلى حين كانت الأسرة والمدرسة والحزب السياسى ذات الفاعلية الأقوى والأقصى فى هذا الصدد، فإننا نجد أن الإعلام بخاصة الفضائيات وتكنولوجيا المعلومات هى الآن صاحبة الفاعلية الأقوى. يضاف إلى ذلك أن مؤسسات المجتمع المدنى بتنظيماته

المتنوعـة بخاصـة النقابـات والمنظـمات غـير الحكوميـة أصبحـت تلعـب دورا محوريـاً فى مجتمعنـا المعـاصر. ومـن الثابـت أن جسـور تنظيـمات المجتمـع المدنى أصبحت مـن خلال التشـبيك تمتد عبر القومـى والعالمـى على السـواء.

وتتصـل الحقيقـة الرابعـة فى أن هـذا التنـوع ، وهـذه السـيولة لم تتوقـف عنـد مسـتويات مصـادر مرجعيات التنشـئة الاجتماعية والسياسـية ، أو عند تنوع مؤسسـاتها فقـط، ولكنها أصبحت تشـمل مضامـين التنشـئة كذلـك. فتدفـق المعلومـات والمعـانى فى عصر العولمـة أصبـح فى كل إتجاه ، ولم تعـد هنـاك حـدوداً قوميـة تقـف فى مواجهـة هـذا التدفـق أو تعوقـه، ومـن ثم فقـد أصبحت مضامـين التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ذات طبيعـة عشـوائية فى طبيعتها وفاعليتهـا. وإذا كانت مجتمعـات المـاضى قـادرة عـلى تنشـئة مواطنيها وفـق منظومات قيميـة ومبـادئ أيديولوجيا معينة ، بحيـث نتوقـع أن يكـون للإنسـان فى سـياقها سـلوكياته المحـددة. فإننـا نجـد ان مضامين التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية تصـدر الآن عـن مصـادر ومرجعيـات عديـدة ، مضامينهـا قـد تتسـق مـع بعضهـا البعـض فتؤكـد عـلى توجهـات ومـن ثم سـلوكيات محـددة ، وقد تتنافـر مع بعضهـا البعض فتؤسـس مـا يمكـن أن يسـمى بفـوضى أو حراكية مرجعيـة التنشـئة الاجتماعية والسياسـية ومن ثم السـلوكيات السياسـية المسـتندة إليها.

ومـن الطبيعـى أن يؤثـر ذلـك عـلى حقائـق عديـدة أبرزهـا حقيقـة المواطنـة الـذى يعـد تشـكيلها وترسـيخ ثوابتهـا هدفـا محوريا للتنشـئة الاجتماعية والسياسـية. حيث أصبحـت المواطنة بـدلا مـن كونهـا حقيقـة ثابتة تتطابـق مع حدود الدولـة القوميـة ، إذا بها تتحـول إلى مواطنة مرنه متأرجحـة قابلـة للإتسـاع حتـى لتكاد تنفلت مـن الإطار القومـى لتنطلق إلى آفـاق عالمية ، كما هى قابلـة للتقلـص والإنكـماش ، حتـى التراجـع إلى مجـرد مواطنـة إثنيـة ، وينطبـق ذلـك عـلى كثير من الحقائـق الاجتماعية والسياسـية .

لذلـــك حاولـــت فى هـــذه الدراســـة تنـــاول الإطـــار الاجتماعـــى للتنشـــئة الاجتماعيـــة والسياســـية، مـــن حيـــث المســـتويات العالميـــة والحضاريـــة التـــى شـــكلت مرجعياتهـــا، إضافـــة إلى التحـــولات الاجتماعيـــة التـــى حدثـــت عـــلى الصعيـــد القومـــى ، وأدت إلى

تأسـيس مرجعيات ثابتة ومتسـقة للتنشـئة الاجتماعية والسياسـية أو مرجعيات متناقضة ومتنافرة. ذلـك بالإضافـة إلى الـدور الـذى تلعبـه السـياقات الاجتماعيـة داخـل الإطـار القومـى فى تشـكيل منظومـات القيـم التـى شـكلت مرجعيـات للتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ، ومـدى إتسـاق هـذه المنظومـات أو تنافرهـا ، وهـو مـا نعـرض لـه فى الصفحـات التاليـة.

أولا: متغيرات الإطار الإجتماعي لتحليل التنشئة الاجتماعية والسياسية للشباب.

يشـير تأمـل الـتراث المتعلـق بالإطـار الاجتماعـي للتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية عـن حـدوث إنقـلاب في طبيعـة هـذا الإطـار وكذلـك فى طبيعـة مكوناتـه. بحيـث نجـد أن هـذه الطبيعـة خضعـت لتغـيرات جوهريـة في النصـف الثـاني مـن القـرن العشريـن وحتـي العقـد الأول مـن الألفيـة الثالثـة، ويكمـن التغـير في ثلاثـة أبعـاد أساسـية. حيـث يتصـل البعـد الأول ببنيـة الإطـار الاجتماعـي ، فلـم يعـد الإطـار الاجتماعـي للتنشـئة الاجتماعيـة يقتـصر فقـط عـلي السـياق الاجتماعـي المبـاشر لعمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ، بـل تتابعـت حلقات هـذا الإطار من الوحـدة الأصغـر التـي يمكـن ان تكـون الأسرة وحتـي النظـام العالمـي بكاملـة. وفي نطـاق ذلـك نسـتطيع التأكيـد بأنـه قـد حـدث تحـول جوهـري في فاعليـة الإطـار المبـاشر والأطـر غـير المبـاشرة. وإذا نحـن تحدثنـا بلغـة إصلاحيـة فـإن النسـق الفرعـي، سـواء كان الأسرة ، أو المدرسـة أو الجـيرة أو الحـي أو المدينـة ، لم يعـد هـو النسـق الحاكـم – كـما كان الحـال في المـاضي – لعمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. بـل إننـا نجـد ان الأنسـاق والسـياقات الأشـمل هـي التي أصبحـت تلعب دوراً فعـالاً في عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية، ذلـك يعنـي أنـه بينـما كان النسـق الفرعي - كالأسرة مثـلاً – في المـاضي هـو المتحكـم بالأسـاس في عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية فـإن الأنسـاق الأشـمل في عالمنـا المعـاصر هـي التـي أصبحـت تقـوم بعمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية عـلي السـواء. ويمكـن القـول بـأن تشـكل الدولـة القوميـة بالإضافـة إلي نظريـات العقد الاجتماعـي شـكلنا معـا "نقطـة الصفـر" أو البدايـة لهـذا التحـول، فيـما يتعلـق بالإطـار أو السـياق

الاجتماعـي الفاعـل في عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. حيث أصبحت السـياقات الأشـمل منـذ هـذه اللحظـة التاريخيـة هـي السـياقات الحاكمة، ويتأكـد ذلك كلـما تقدمنا في الزمـن بإتجاه العقـد الأول مـن الألفيـة الثالثة.

ويتصـل البعـد الثـاني للتغـير في طبقـات الضغـوط التـي تفرضهـا السـياقات الاجتماعيـة المختلفة لإنجاز عملية التنشـئة الاجتماعية والسياسـية. فإذا كانت التنشـئة الاجتماعية والسياسـية تتـم في المـاضي في ظـل ضغـوط محـدودة صادرة عن سـياق إجتماعي واحـد لإنجازهـا. فإننا نجدها اليـوم تتـم في ظـل ضغـوط متصاعـدة تتتابـع علي الإنسـان الفـرد أو المواطـن، وتصدر عن سـياقات إجتماعيـة متتابعـة ، بحيـث تصبـح وطأتهـا عليـه كحلقـات الحديـد. غـير أن قدرتهـا عـلي تشـكيل الإنسـان المواطـن وفـق نمـوذج ، وصـورة محـددة ، أصبحـت أقـل فاعليـة مـن السـياق الاجتماعـي المبـاشر الـذي كان في المـاضي. وذلـك يرجع إلي أن السـياق المباشر في الماضي كان هو السـياق المتفرد مـن حيـث تأثـيره، وليـس هنـاك مـا يحيـد هـذا التأثـير. ولذلـك نجـده برغـم محدوديتة فإنـه كان قـادراً عـلي تشـكيل الفـرد ، بحسـب الصـورة أو النمـوذج المنشـود. ففي زمـن الجماعيـة والتكوين القبـلي ، لم يكـن هنـاك مـا يضعـف تأثـير القبيلـة في عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. بيـد أننـا إذا قارنـا هـذه الأوضـاع الماضيـة بمـا هو حـادث الآن، فإننا سـوف نجد أن ثمة سـياقات أو أطر إجتماعيـة عديدة، تشـكل مرجعيـات متنوعة لإنجاز عملية التنشـئة الاجتماعية والسياسـية. ونظراً لأنهـا لا تصـدر عـن مصـدر واحـد أو مرجعيـة حضاريـة واحـدة وشـاملة، فإننـا نجـد أن تأثيرهـا أو فاعليتهـا قـد تلغـي بعضهـا بعضا ، الأمر قـد يخلق من ناحيـة تنوعاً في مضامين التنشـئة الاجتماعية والسياسـية وفي توجهاتهـا. فـإذا لم تتسـق هـذه المضامـين مـع بعضهـا البعـض ، وتعمـل جميعها في إتجـاه واحـد ، فـإن ذلـك من شـأنه أن يضعف عملية التنشـئة الاجتماعية والسياسـية. وهي الحالة التـي تتجـلي مـن خـلال مظاهر عديـدة ، منها عـدم تماسـك منظومات القيـم التي تشـكل مرجعية للممارسـة أو السـلوك الاجتماعـي والسـياسي، ومنهـا ضعف الانتـماء بخاصة في مجتمعـات الجنوب التـي يشـهد فضاؤهـا الثقـافي الاجتماعـي والسـياسي فاعليـة منظومـات قيـم اجتماعيـة وسياسـية تنتمـي إلي سـياقات وأطـر أشـمل من المجتمـع أو الدولـة القومية.

ويتصل البعد الثالث المحدد لطبيعة التنشئة الاجتماعية والسياسية بطبيعة المجتمع الذي تتم علي ساحة عملية التنشئة ، ومكانته وفعاليته علي الصعيد العالمي، لأن لذلك تأثيره علي عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية. وفي هذا النطاق فإننا نواجه بنمطين لتأثير أو فاعلية السياق الاجتماعي في إنجاز عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية. النمط الأول ، هو نمط التنشئة الاجتماعية والسياسية الذي يقع في المجتمعات الغربية ، وهي المجتمعات الفاعلة في نطاق النظام العالمي المعاصر. حيث نجد أنه نظراً لوجود سياقات إجتماعية تتسق جميعها فيما يتعلق بمضامين التنشئة الاجتماعية والسياسية إبتداء من الأسرة والمدرسة والاعلام وتنظيمات المجتمعات المدني ، وحتي السياق الاجتماعي الشامل. إضافة إلي قدرة هذه المجتمعات علي التحييد النسبي لفاعلية المتغيرات الخارجية، التي يمكن أن تصدر عن مصادر أخري في النظام العالمي ، وذلك لضعف تأثير هذه المصادر ، فإننا نجد أن هذه المجتمعات من شأنها أن تؤثر فى المجتمعات الأخرى أكثر من تعرضها للتأثير. علي خلاف ذلك فإننا نجد أن مجتمعات الجنوب الصغيرة والمحدودة الامكانيات تتأثر عملية ومضامين التنشئة الاجتماعية والسياسية فيها بمضامين السياقات الخارجة عن سياقها المجتمعي المباشر. ونظراً لأن منظوماتها الثقافية والقيمية محدودة في كفاءتها وفاعليتها، فإننا نجدها تخلي الفضاء القومي لمنظومات ثقافية وقيمية صادرة عن الخارج تشكل جوهر ومضامين التنشئة الاجتماعية والسياسية. وعلي هذا النحو نجد أن العولمة تعمل في نظامنا العالمي علي إعادة صياغة التنشئة الاجتماعية والسياسية في الوحدات الأصغر – المجتمعات الصغيرة أو المتخلفة – في نظامنا العالمي لتأخذ نفس الشكل الذي لذات الوحدات في المجتمعات المتقدمة. وبذلك تحقق العولمة عملية التجانس العالمي المستهدف علي أساس من منظومات قيم ونوعية الحياة السائدة في المجتمعات الغربية المسيطرة.

ويشير البعد الرابع إلي أن تأثير الإختراق الثقافي علي التنشئة الاجتماعية والسياسية لا يتم بصيغة واحدة نظراً لتباين مجتمعات الجنوب التي

تضـم إلى جانـب أنماطهـا العديـدة نمطـاً متميـزا مـن المجتمعـات وهـي المجتمعـات الحضاريـة. أي المجتمعـات التـي تنتمـي إلي حضـارات عظيمـة كالحضـارة الإسـلامية والحضـارة الصينيـة الكونفشيوسـية والحضـارة الهنديـة. إذ تمتلـك هـذه الحضـارات منظومـات قيميـة وأنسـاق ثقافيـة ووحـدات وربمـا ترتيبـات خاصـة بعمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. ونظـراً لفاعليـة هـذه الجوانـب، وإرتباطهـا عضويـا ببنيـة الحضـارة ، فإنـه يكون من الصعـب التخلي عنها بسـبب الدعم الحضـاري لهـا. لذلـك فإننا نجد أن عملية التنشـئة الاجتماعية والسياسـية في بعض مجتمعات هذه الحضـارات يسـودها صراعـات إلي حـد الفـوضي ، بـين المنظومـات القيميـة المتضمنـة في الحضـارات غـير الغربيـة والتـي توجه السـلوك والممارسـة السياسـية، وبـين نظائرهـا المتدفقة إليها مـن الغرب، تلـك التـي إنتقلـت إليهـا بفعـل قوي وآليـات الأخـتراق الثقـافي والحضـاري. بحيث يختلـف حصاد هـذه المواجهـة بحسـب قـدرات الحضـارات المشـاركة. فـإذا نحـن تأملنـا واقـع التفاعـل الحضاري المحيـط بنـا فسـوف نجـد أشـكالا متنوعـة . فعـلي حين نجـد أن الحضـارة الصينيـة الكونفشيوسـية ظلـت محافظـة عـلي ثوابتهـا الحضاريـة، فـإن ذلـك لم يمنعها مـن إسـتيعاب بعض عنـاصر الحضارة الغربيـة المواتيـة للتقـدم، وبخاصـة في مجـال التربيـة الاجتماعيـة والسياسـية والسـلوك الاجتماعـي والسـياسي ، ونفـس الأمـر حـدث تقريبـا بالنسـبة للحضـارة الهنديـة. غـير أنـه بالنسـبة لمجتمعات الحضـارة الإسـلامية، فـإن لحظـة المواجهـة ، التـي تسـببت قـوي العولمـة في إسـتحضارها أو فرضهـا ، لم تكـن غـير مواتيـة . ويرجـع ذلـك إلي أن الحضـارة الاسـلامية عجـزت عـن تطويـر القابليـة للإسـتفادة مـن منجـزات الحضـارة الغربيـة لثلاثـة عوامـل. الأول ان هـذه الحضـارة عجـزت عـن تجديـد نفسـها مـن الداخـل ، برغـم أن مضامينهـا الأساسـية تدعـو إلي هـذا التغيير. وبرغـم إرتفاع المطالبـة بالتجديـد في بعـض المراحـل التاريخيـة إلا أن فقهـاء فـترات الانحطاط إسـتطاعوا قهر هذه الارهاصـات الإصلاحيـة. والثـاني أن هـذه الحضـارة وإن أتاحـت الفرصـة للحضـارات الأخـري لـكي تختـار مـن مناهلهـا ، إلا أنها عجـزت أن تنهل من الحضارة الغربية – إنتقائيـا – العناصر التي تقوي

من بنيتها وتطلق عقال طاقات الابداع في بنائها ، ومن ثم نجد أنها لا جددت ذاتها ، ولا إستعارت من خارجها ما يطور إمكانياتها . يضاف إلي ذلك عامل ثالث ويتمثل في سلوك الحضارة الغربية ، حيث تحركت هذه الأخيرة بإتجاه الحضارة الإسلامية لتحرمها من إمكانية الصحوة والانبعاث أو على الأقل تشوه آدائها فى هذا الاتجاه. فهي قد تعيرها –إنتقائيا – التكنولوجيا أو المنظومات القيمية التي لن تساعد بحد ذاتها في تطويرها، إن لم تعق أو تعطل تطورها. فقد أصبح من السهل علي المجتمعات الغربية أن تصدر إلينا التكنولوجيا الاستهلاكية، ومفاهيم معنوية تتعلق بالأسرة لتؤدى إلى تفككها وإنهيارها، أو الديموقراطية الزائفة أو حقوق الإنسان ، لتشيع التخلف والفوضي في حياتنا[١] غير أنها تبخل علينا بالمعارف الحقيقية لإعادة تطوير أوضاعنا. ومن ثم فلا هي منحتنا تكنولوجيا الانتاج، ولا هي تركتنا لنجدد منظوماتنا القيمية. بما يجعلها تتلاءم مع قضايا عالمنا المعاصر ، بل إنقضت علي نسيج مرجعياتنا الدينية والأخلاقية تمزقها إربا ، تستعين في ذلك إما بالمتطرفين الدينيين من داخل حضارتنا ، الذين يخدمون أغراضها عن غير قصد أو بالمتطرفين العلمانيين الشعوفين بها والذين يسعون إلي تقويض أسس حضارتنا بكل نية وقصد.

ويتصل البعد الخامس بأنه إذا كان هدفنا في هذه الفترة معالجة الإطار الاجتماعي لتحليل التنشئة الاجتماعية والسياسية، فإننا نعتقد أن هذا الإطار من المنطقي أن يتشكل من عدة متغيرات أساسية تمارس تأثيرها علي عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية. إرتباطا بذلك يعد السياق العالمي المتغير الأول في هذا الصدد من حيث طبيعة التفاعلات الحادثه فيه ، ثم طبيعة سلوك الحضارات نحو حضارتنا ومجتمعاتنا ، خاصة تلك الحضارات التي أصبحت لها الغلبة والتي طورت سلوكا عدائيا نحو حضارتنا ومجتمعاتنا ، وفي هذا الإطار من الضروري إدراك الإختراقات التي تتعرض لها منظوماتنا القيمية بما يؤثر علي عملية

---

١ - تأكيدا لذلك أنه من السهل علي أي دارس عربي أن يلتحق بالدراسات العليا في العلوم النظرية في الجامعات الأمريكية كالدراسات الإسلامية أو العلوم الاجتماعية والإنسانية ، غير أنه من الصعب - في الفترة الأخيرة- أن يسمح له بدراسة بعض الموضوعات في إطار التخصصات العلمية كالطبيعة والأحياء والكيمياء، ناهيك عن التخصصات المتصلة بتطوير الأسلحة أو تطوير مؤسسات الإنتاج.

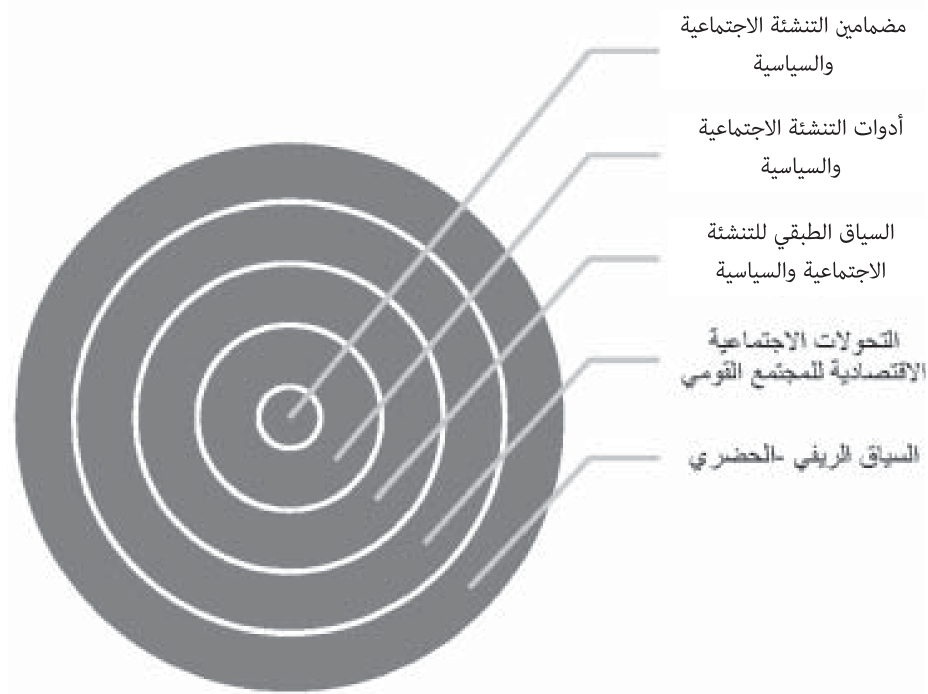
التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ، سـواء مـن حيـث أدواتهـا أو مـن حيـث مضامينهـا الأساسـية، وتأثـير ذلـك عـلي مـدي قـدرة عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية عـلي ربـط المواطـن بالوطن وتعميـق إنتمائـه لـه ومشـاركته فية. ويتحـدد المتغير الثالث للإطـار أو السـياق الاجتماعي بطبيعة التحـولات الاجتماعيـة الاقتصاديـة الحادثـة فيـه والتي تأثرت بهـا مجتمعاتنا. وهـي التحولات التي لم تلعـب فقـط دوراً أساسـياً في إضعـاف القـدرات التكيفيـة للمجتمـع ، ولكنهـا لعبـت إيضـا دوراً أساسـيا في هـدر الامكانيـات الماديـة والمعنويـة للمجتمـع ، بحيـث إنعكـس ذلـك عـلي هيئـة حالـة مـن الفـوضي التـي أحاطـت بعمليـة التنشـئة الاجتماعيـة. ويشـير المتغير الرابـع إلي الإطـار الطبقي للتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ، وبرغـم الاتفاق علي أن لـكل طبقة إجتماعيـة منظوماتها الثقافية والقيميـة ، التـي تشـكل مرجعيتهـا في التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ، إلا أننـا إذا تأملنـا الأوضـاع في مجتمعاتنـا لوجدنـا أن الطبقـة الوسـطي التـي تشـكل الإطـار الأخلاقـي للمجتمع تتعـرض لحالة واضحـة مـن التـآكل ، ليـس في جسـدها فقـط – ولكـن في منظوماتها المعنويـة والدينيـة والأخلاقية كذلـك. وذلـك يرجـع إلي حالـة الاسـتقطاب الاجتماعي الحـاد الذي تتعـرض لها مجتمعاتنـا ، والتي تتأسـس في إطارهـا أوضاع تسـيطر فيها الطبقـة العليا المحدودة الحجم علي كل شـئ، بينما يتضاءل نصيـب الطبقـة الدنيـا مـن الكعكـة الاجتماعية. وإتسـاقا مع ذلـك فإننا نلاحظ نمطا مسـتقطبا من التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ، حيـث التفاعـل السـياسي والعملية السياسـية تتحقق بإسـهام من أبنـاء الطبقـة العليـا وشراذم مـن أبنـاء الطبقـة الوسـطي الذيـن تعلقوا بأسـتارهم. بينـما عزف عن المشـاركة القطـاع الأكـبر مـن أبنـاء الطبقـة المتوسـطة ، إضافـة إلي أبنـاء الطبقـة الدنيـا لإحساسـهم بأنهـم لا ناقـة لهـم ولا جمـل في هـذا التفاعـل السـياسي الدائر مـن حولهم.

وتشـــكل وحـــدات أو أدوات التنشـــئة الاجتماعيـــة والسياســـية في المجتمـــع المتغـــير الســـادس المؤثـــر في عمليـــة التنشـــئة الاجتماعيـــة والسياســـية ، وفي هـــذا الإطـــار فإننـــا يمكننـــا أن نعـــرض لنمطـــين مـــن الوحـــدات. الوحـــدات التـــي تقـــوم بالتنشـــئة الاجتماعيـــة والسياســـية بصـــورة متداخلـــة، كالاسرة والمدرســـة والجامعـــة، وجماعـــة الأصدقـــاء.

إضافة إلي التنظيمات والوحدات التي تقوم بالتنشئة الاجتماعية والسياسية وحدها كالأحزاب السياسية والنقابات وعديد من تنظيمات المجتمع المدني ، حيث تشكل هذه الوحدات الإطار المباشر لعملية التنشئة الاجتماعية والسياسية. ومن الثابت حسب دراسات كثيرة أن هذه الوحدات أو الآليات قد أصابتها إنحرافات وجوانب ضعف عديدة، أعجزتها عن القيام بالتنشئة الاجتماعية والسياسية بالمستويات الملائمة. ويدور المتغير السابع حول التنشئة الاجتماعية والسياسية كمفهوم يشير إلي متغير واقعي، يحتوي علي مجموعة من المضامين القيمية والممارسات والسلوكيات لكونها تشكل محور أو مركز دائرة الإطار التحليلي. إذ من المفترض أنه إذا كانت الأطر الإجتماعية التي أشرنا إليها تشكل مصادر لمضامين التنشئة الاجتماعية والسياسية ، فإن الحالة المثالية أن تكون المعاني التي تصدر عن هذه المصادر المختلفة متسقة فيما بينها حتى لا تولد هذه المعاني تناقضا فيما بينها ، يتسبب فى نشر حالة من الفوضي في عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية. أو يؤدي إلي إنتاج تنشئة اجتماعية وسياسية ذات طبيعة مرضية ، تدفع الإنسان إلي سلوكيات وممارسات اجتماعية وسياسية فى غير صالح المجتمع. ونعرض من خلال الشكل التالي لمتغيرات الإطار التحليلي لعملية التنشئة الاجتماعية والسياسية.

شكل رقم (١)

متغيرات الإطار الاجتماعي لتحليل التنشئة الاجتماعية



وبتأمل الشكل السابق تبرز أمامنا خمسة حقائق أساسية، تشير إلي الأوضاع المتباينة لمتغيرات الإطار التحليلي في علاقتها بعملية التنشئة الاجتماعية والسياسية. وتتمثل الحقيقة الأولي في أن نظامنا العالمي أصبح متماسكاً، ويشكل قرية صغيرة تؤثر عناصرها في بعضها البعض. وعلي هذا النحو فإذا كان من الممكن ان تتم عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية في الماضي إنطلاقا من مرجعية إحدي الأطر الاجتماعية المباشرة كالعائلة أو القبيلة ، أو الطائفة الاجتماعية أو السياق القروي أو الحضري ، حيث لم يكن عالمنا قد تماسك بعد، وهو التماسك الذي تحقق بواسطة كثافة وسائل الاتصال والمواصلات. فإن التنشئة الاجتماعية والسياسية تتحقق اليوم بفاعلية مصادر وآليات عديدة ، قد تدعم معانيها أو منظوماتها القيمية المتصلة بالتنشئة الاجتماعية والسياسية بعضها البعض. وقد تتناقض هذه المعاني والمنظومات ،

الأمـر الـذي قـد يتسـبب في تأسـيس حالـة مـن الفـوضي المسـئولة عـن تمزقـات عديـدة في النسـيج الاجتماعـي للمجتمـع. وتشـير الحقيقـة الثانية إلي أننـا إذا تأملنا التفاعل الحـادث في نظامنا العالمي المتماسـك، فإننـا سـوف نجـد أن التأثـيرات المتعلقـة بالمعـاني ومنظومـات القيـم الصادرة عـن الإطر الاجتماعيـة الأشـمل - خاصـة إذا إمتلكـت الكفـاءة وآليـات القـدرة عـلي السـيطرة – التـي بإمكانها أن تشـكل مضامـين وآليـات التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية في الوحدات الأصغـر أو الأدنى، حيث لا يمكـن تحييـد تأثيرها. عـلي خلاف ذلك فإنه بالإمـكان تحييد التأثيرات المتعلقـة بالمعاني ومنظومات القيـم الصـادرة عـن الأطـر الاجتماعيـة الأقـل شـمولاً . اللهـم إلا إذا عبرت هـذه المعـاني ومنظومات القيـم عـن مرجعيات حضارية تسـتطيع أن تقـف في مواجهة المرجعية الحضاريـة للإطار الاجتماعي الأشـمل ، إضافـة إلي توفـر الظـروف المواتيـة التي تتحقق علي سـاحتها. ذلك يعنـي أن حركة التأثير الفعـال تـأتي في الغالـب مـن أعـلي، بينما تصـدر حركـة التأثير الأقل من أسـفل.

وتتصـل الحقيقـة الثالثـة بـأن التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية كانـت في المـاضي، بخاصـة في النظـام العالمـي السـابق عـلي نظامنـا الأحـادي القطـب، كانـت تتـم بتحديـد مـن قبـل الدولـة القوميـة. فهـي التـي تحـدد الأيديولوجيـا التـي تشـكل مرجعيـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ، ثـم أن الدولـة كانـت هـى التـى تحـدد الوحـدات أو الآليـات التـي تتـم بواسـطتها عملية التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. غـير أننـا إذا تأملنـا الأوضـاع في عالمنـا المعاصر فإننا سـوف نجـد أن الدولة لم تعـد هـي الفاعـل الوحيـد الموجـه لعملية التنشـئة الاجتماعية والسياسـية ، بل ظهـر علي المسرح فاعلـون عديـدون. مـن ذلـك مثلاً القـوي العالمية التي بـدأت تتدخل في عملية التنشـئة الاجتماعية والسياسـية ، عـن طريـق الدفـع أو الـزج بمعـاني وقيـم ومفاهيـم في الفضـاء السـياسي والاجتماعـي والثقـافي للمجتمعـات القوميـة. مـن خـلال آليـة الاعـلام وتكنولوجيـا المعلومـات ، كمفاهيـم الديموقراطيـة والحريـة وحقـوق الإنسـان والتنـاوب أو التـداول السـياسي. مـن هـؤلاء الفاعلـين تنظيـمات المجتمـع المـدني ، التي بدأت تمتلك قدراً كبيراً من القوة التي وفرتها لها الشـبكات العالمية

مـن ناحيـة أو التـي توفـرت لهـا نتيجـة لفشـل التجـارب التنمويـة التي قامت بهـا الدولـة القومية مـن ناحيـة ثانيـة . ومـن ثـم فإننـا نجدهـا في بعـض المجتمعات قـد بـدأت تلعـب دوراً محوريا في عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. يضـاف إلي دور الجماعـات الإثنيـة التـي بـدأت تـبرز علي السـاحة لتصبـح فاعـلاً يقـوم بعمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ، بغـض النظر عـن الدولة أو عـلي حسـابها، وذلـك بسـبب أن الدولـة قـد أصبحـت فى بعـض الأحيـان ضعيفـة. الأمر الـذي فرض إنكـماش المواطنـة وتراجعهـا أحيانـا إلي حدود الجماعـة الإثنية ، وعلينا أن نتأمـل الأوضاع في العراق وفي جنـوب السـودان في دارفـور وفي لبنـان ، وغـير ذلـك مـن المجتمعـات العربيـة. حيث تشـير كل هـذه الشـواهد إلي أن الدولـة القوميـة لم تعـد هـي الفاعل الوحيد علي سـاحة التنشـئة الاجتماعية والسياسية.

وتذهـب الحقيقـة الرابعـة إلي أن هنـاك خـلاف بـين التنشـئة الاجتماعيـة والتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية مـن أوجـه عديـدة. فمـن ناحيـة نجـد أن التنشـئة الاجتماعيـة تبـث أحيانـا مضامـين تدفـع إلي إبـراز التبايـن الاجتماعـي بـين البـشر في المجتمـع ، كتبايـن التنشـئة الاجتماعيـة بـين الجماعـات الإثنيـة المختلفـة في المجتمـع ، أو تبايـن التنشـئة الاجتماعيـة بـين الريـف والحـضر. حيـث تبايـن المضامـين الثقافيـة يـن هـذه السـياقات ، كذلـك تبايـن التنشـئة الاجتماعيـة عـلي أسـاس تبايـن الطبقـات الاجتماعيـة، أو عـلي أسـاس النـوع. وهـو مـا يعنـي أن التنشـئة الاجتماعيـة لكونهـا تـبرز التبايـن الاجتماعـي ، فإنهـا تكـون عـادة مصـدراً للشـقاق أو الصراعـات الاجتماعيـة، وهـي الظاهـرة التـي أشـارت إليهـا تاريخيـا نظريـات العقـد الاجتماعـي ، التـي هـددت نشـأة الدولـة والمجتمـع المـدني. علي خـلاف ذلك فإننـا نجـد أن التنشـئة الاجتماعية والسياسـية تسـعي إلي تحقيـق التجانـس الاجتماعـي والمسـاواة بين أفـراد المجتمع، علي أسـاس من قيـم المواطنـة، دون إعتبـار للتباينـات التـي يؤسسـها الاختـلاف في الديـن أو العـرق أو الخلفيـة الاجتماعيـة. وعـلي هـذا النحـو فإنه كلـما كانت التنشـئة الاجتماعية والسياسـية أكـثر فعالية وكلما أكـدت عـلى قيـم المواطنـة كلـما أضعفـت الانتـماءات الإثنيـة للمواطنـين ودفعـت بهـا إلي خلفيـة المـسرح. بـل أن مثـل هـذا الوضـع يعتـبر دلالة عـلي قدر التحديـث والتقـدم الذي قطعـه المجتمع

علي طريق التطور. والعكس صحيح ، فإنه في حالة ضعف التنشئة الاجتماعية والسياسية ، فإن ذلك من شأنه أن يؤدي إلي تراجع الأنتماء من مرجعية المواطنة إلي مرجعية الجماعة الإثنية. وقد يلعب الإختراق الثقافي والسياسي دوره في إضعاف التنشئة الاجتماعية والسياسية علي أساس من قيم المواطنة، ودفعها في إتجاه تقوية الارتباط بالجماعة الإثنية التي ينتمي إليها الشخص. وفي هذا الإطار فإننا نواجه بحالتين ، في الحالة الأولي تشكل التنشئة الاجتماعية قاعدة للتنشئة السياسية ، بحيث تتناسب مساحة التنشئة الاجتماعية والسياسية عكسيا بالنظر إلي المرحلة العمرية. ففي الصغر تتزايد مساحة التنشئة الاجتماعية علي حساب التنشئة الاجتماعية والسياسية ، ويحدث العكس كلما كبر الإنسان في العمر، حيث تبدأ مساحة التنشئة الاجتماعية والسياسية في الإتساع علي حساب إنكماش التنشئة الاجتماعية. وفي الحالة الثانية تصبح التنشئة الاجتماعية هي القاعدة أو المرجعية التي علي أساسها تتحقق التنشئة الاجتماعية والسياسية ، ومن ثم تتم الممارسة والسلوكيات السياسية. الحالة الأولي تتحقق في المجتمعات القريبة من التجانس الإثني ، بينما تسود الحالة الثانية في المجتمعات التي يسودها التباين الإثني.

وتشير الحقيقة الخامسة إلي أن مساحة التنشئة الاجتماعية عادة ما تكون أكثر إتساعاً مقارنة بالتنشئة الاجتماعية والسياسية. ويتأكد ذلك أننا إذا تأملنا التنشئة الاجتماعية ، فإننا نجد أن غالبية البشر يتعرضون للتنشئة الاجتماعية سواء كانت سوية أو منحرفة. فمن الطبيعي أن يتعرض كل إنسان ما دام قد ولد في جماعة لعملية التدريب الاجتماعي ، حتي يتمكن من الحياة في المجتمع. علي خلاف ذلك فإننا قد نجد في عديد من المجتمعات بخاصة المتخلفة أو الانتقالية ، عديداً قطاعات البشر الذين لم يتعرضوا للتنشئة السياسية أو تعرضوا لتنشئة سياسية ناقصة. في هذا الإطار فإننا نجد أن المرأة في المجتمعات التي تشهد تحيزاً تقليديا ضدها بعيدة عن تأثير التنشئة الاجتماعية والسياسية ، ومن ثم فهي لا تشترك في العملية السياسية ولا تمارس السلوكيات السياسية . ويدخل في هذا الإطار أبناء الشرائح الطبقية الدنيا ، الذين قد لا يتعرضوا لفاعلية

هذه العملية ، إضافة إلي غالبية سكان العشوائيات والمناطق الفقيرة ، وأطفال الشوارع والأحداث الجانحين. حيث نجد أن مختلف هذه القطاعات إما أنها لم تتلق تنشئة سياسية منظمة ، أو أنها تلقت تنشئة سياسية ناقصة، أو أنها تلقت تنشئة ذات طبيعة عشوائية ، أو أنها لم تتلق تنشئة سياسية علي الإطلاق. ولذلك نجد أن هذه الشرائح أو القطاعات هي التي تشكل عادة قوي عدم الاستقرار الإجتماعي والسياسي في مختلف المجتمعات.

إستنادا إلي تحديدنا لمتغيرات الإطار الاجتماعي المؤثرة في التنشة السياسية وللحقائق المتصلة بذلك ، فإننا سوف نعرض فيما يلي لحالة كل متغير من هذه المتغيرات في واقع مجتمعاتنا ، وما هي طبيعة إسهاماته السلبية والايجابية في عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية.

ثانيا: السياق العالمي للتنشئة الاجتماعية والسياسية علي الصعيد القومي

من الثابت أن نظامنا العالمي خضع لتحولات عميقة خلال العقدين السابقين ، أبرزت قوة وحضور النظام العالمي من ناحية ، إضافة فاعلية القوي المتحكمة فيه من ناحية ثانية ، كما أبرزت من ناحية ثالثة تراجع قوة الدولة والمجتمع القومي أمام هذه التحولات العالمية العاتية. بالإضافة إلي ذلك فإن هذه التحولات التي وقعت في السياق العالمي ، وإن كانت مواتية لوجود وفاعلية القوي العالمية المسيطرة أو المتسلطة ، فإنها لم تكن مواتية بنفس القدر بالنسبة لغالبية المجتمعات القومية في الجنوب. وإذا كانت بداية العقد الأخير من الألفية الثانية قد شهدت نهاية نظام عالمي قديم ثنائي القوي، تلك التي تصارعت في تفاعلات الحرب الباردة ، فإن نهايته قد شهدت بروز إحدي القوي منتصرة "الولايات المتحدة الإمريكية" بلا حرب ولا خسائر. حيث صعدت إلي قمة العالم وسيطرت عليه في مقابل تراجع القوة الأخري "الإتحاد السوفيتي" سابقا إلي مرتبة متأخرة . وإرتباطا بذلك فقد شهد النظام العالمي الجديد سعيا من القوة العالمية المنتصرة إلي السيطرة علي العالم بأسرة. ولكي تحقق ذلك فإنها سعت إلي فرض نمط ونوعية حياتها علي العالم بأسرة ، وذلك حتى يتأسس تجانس عالمي علي قاعدة هذا النمط. وذلك من خلال ما أصبح يعرف بعملية العولمة

، التـي تسـتهدف فـرض نوعيـة حيـاة ونمـط ثقافـة عـلي مختلـف المجتمعـات وسـائر الثقافـات. فهـي تـروج لنمـط الحيـاة الغربيـة والأمريكيـة بالتحديـد ، وبخاصـة جوانبهـا الثقافيـة والاقتصادية ، كمقدمـة لاعـادة تشـكيل الأبنيـة الاجتماعيـة المتباينـة لتعكـس خصائـص ذات النمط. ولتأسـيس هـذا التجانـس لجـأت قـوي العولمـة لآليـات عديـدة، وتعـد الـشركات المتعديـة الجنسـية أول هذه الآليـات ، وهـي الـشركات التـي تعمـل في أكـثر مـن مجتمـع ، وينتمي أعضـاء جهازهـا البيروقراطي والغنـى لأكـثر مـن مجتمـع، غـير أنهم يخضعـون لثقافة إداريـة واحـدة ، تعمل علي تنشـئتهم وفق قيمهـا وقواعدهـا ليتولـوا هـم بعـد ذلـك نـشر هـذه القيـم في مجتمعاتهـم. ذلـك بالإضافـة إلي أن إنتـاج هـذه الـشركات يشـكل عـادة نوعـاً مـن الثقافـة الماديـة الـذي يسـتوعب بـدوره الجوانـب المعنويـة والثقافيـة المرتبطـة بهـا. يضـاف إلي ذلـك أن الشركات المتعدية الجنسـية تكـون لها عادة قوتهـا الضاغطـة عـلي الإقتصاديـات القوميـة ، مـما بجعلهـا قـادرة عـلي الضغـط عـلي الحكومـات لإتخـاذ أو إصـدار قـرارات معينـة ، فإقتصاديـات هـذه الـشركات تتجـاوز أحيانا قـدرة الاقتصاديات القوميـة. ومـن الملاحـظ أن تزايـد عدد موظفي هذه الشركات وإتسـاع منظوماتهـا القيمية الإدارية ، مـن شـأنه أن يـؤدي إلى تطويـر منظومـة من القيم والمعـاني التي تلعب دورها في تأسـيس المواطن العالمـي، الـذي تتعمـق روابطـه ببنيـة هـذه الـشركات عـلي حسـاب إضعـاف إنتـماءه لمواطنتـه ومجتمعـه (١). خاصـة إذا أدركنـا أن غالبيـة موظفـي هـذه الـشركات ينتمـون إلي الطبقـات العليا، الذيـن لهـم توجهاتهـم المتجانسـة مـع توجهـات القـوي البرجوازيـة في مجتمعـات القـوي العالمية ، والمنفصلـين نسـبيا من سـياقاتهم الاجتماعيـة . خاصة إذا أدركنا أيضـا أن موظفي هذه الشركات هم بالأسـاس مـن خريجـي التعليـم الأجنبـي ، مـع مـا يلعبـه هـذا التعليم من دور في تأسـيس التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية للمنتمـين لـه وفـق قيـم ومرجعيـات ومعـاني أجنبية بالإسـاس ، الأمـر الذي يولـد لديهـم القابليـة لعـدم الإنتـماء أو ضعفه.

ويشـكل الأعـلام وتكنولوجيـا المعلومـات الآليـة الثانيـة لفـرض العولمـة وإعـادة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية وفـق مضامينهـا . حيـث تمتلـك القـوي العظمـي في العـالم بخاصـة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة إمكانيـة عاليـة عـلي قهـر الإعـلام القومـي

أو المحلي وتحديد مساحته ، أو فرض محدودية تأثيره. فقد أصبح الأعلام العالمي قادر علي إختراق حدود الدولة القومية ، ومن ثم أصبح في إمكانه إعادة تشكيل الثقافة القومية وفق ثقافة النمط المعولم بمنظوماته العديدة لتحل محل الثقافة القومية ، تساعدها في ذلك آلية الإعلام والاعلان وتكنولوجيا المعلومات التي أصبحت قاهرة (٢). في هذا الإطار فإننا نجد أن الأعلام وتكنولوجيا المعلومات تؤثر علي التنشئة الاجتماعية والسياسية للمواطن من خلال بعدين أساسيين. في إطار البعد الأول فإنها تعمل علي تفريغ المواطن من العواطف والمشاعر القومية المرتبطة ببعض الأحداث القومية. فبرغم أن الأعلام العالمي يعرض علينا الأحداث والتهديدات المحدقة بأمتنا ، والإهانات والاتهامات التي توجه إلي الأمة أو رموزها ، فإن ذات الأعلام هو الذي يعرض علينا الأفلام الخبيثة والتي تعمل علي تفريغ توتراتنا الغاضبة ، بحيث نتعامل مع الحدث الوطني بدون شحنة عاطفية ، وهو ما يعني إن الأعلام العالمي في هذه الحالة يفكك روابطنا العضوية بمجتمعاتنا (٣). ومن خلال البعد الثاني فإن الأعلام يجعل منا مواطنين حياديين سياسيا ، فهو يتيح لنا أن نتابع أحداث العالم جميعاً، ما يقع في داخل أوطاننا وفي خارجها ، كأنما هي أحداث نمطية واحدة ، لا تفصل بينها حدود الوطن او عواطف المواطنة . ويتزايد الأمر سوءاً حينما يعمل الأعلام بإتجاه تشوية حقائق نقية في عالمنا ليبرزها لنا بغير طبيعتها ، فيجعلنا نراها بعيونة ومن منظور مصالحه، في هذا السياق تصبح المقاومة إرهابا ، ويصبح التدين تطرفا ، ويصبح السلوك المسلم بربرية إلي آخر قاموس الإهانة والإدانة الغربي. بالإضافة إلي ذلك تعمل القوي الغربية علي التبشير ببعض المفاهيم التي تسربها من خلال الأعلام كالديموقراطية والحرية وحقوق الإنسان، في محاولة لترهيب الحكام الأبويين او المستبدين في مجتمعاتنا ، ليس لأن القوي الغربية تريد الارتقاء بأوضاعنا، ولكنها تستخدم هذه المفاهيم بإعتبارها حق أريد به باطل، لإخضاع حكامنا كمدخل لإخضاع شعوب مجتمعاتنا (٤)، أو علي الأقل لاشاعة الفوضي في فضائنا الثقافي والسياسي.

وتعتبر المساعدات هي الآلية الثالثة لفرض منظومات القيم والمعاني التي

تشكل مضامين الإختراق الثقافي للعولمة. حيث تسعي مجتمعات الجنوب الفقيرة إلي الحصول علي هذه المساعدات التي تشتري بها التكنولوجيا والسلع المادية التي تحتاجها. غير أن هذه التكنولوجيا تشكل جانب الثقافة المادية الذي يرتبط أو يحتوي منطقيا على المنظومة القيمية والمعنوية لذات الثقافة، تأكيدا لذلك فقد إستحضرت تكنولوجيا الإنتاج الحديثة معها ثقافة الإستهلاك (٥) ، ومن ثم فقد عملت علي نشر الثقافة الاستهلاكية وما يرتبط بها من قيم إنتهازية ونفعية في مجتمعاتنا. يضاف إلي ذلك أن المساعدات التي تأتي لمجتمعاتنا ، حسبما تذهب دراسات عديدة لعبت دوراً أساسياً في نشر ثقافة الفساد في المجتمع ، سواء كان الفساد الثقافي أو الإخلاقي أو الاجتماعي او السياسي. بحيث إتسعت نتيجة لذلك منظومة القيم المنحرفة التي شكلت مرجعية للتنشئة السياسية لفئات عديدة في المجتمع.

وتعد آلية التهديد بإستخدام القوة هي الآلية الرابعة والأخيرة لفرض ثقافة العولمة، حيث تسعي القوي الموجهة لتفاعل العولمة لفرض تصورات ومفاهيم ثقافية جديدة كالمفاهيم المتعلقة بالنوع الاجتماعي أو المتعلقة بحقوق المرأة "مع التطرف في ذلك لتحطيم الأسرة" ، إضافة إلي المفاهيم المتعلقة بالأسرة علي أجندة الثقافة القومية. هذا إلي جانب محاولة إنتزاع بعض المفاهيم أو العناصر الثقافية من منظومات القيم الدينية والأخلاقية للمجتمع ، تأكيداً لذلك المطالبة ينزع بعض الآيات القرآنية المتعلقة بالجهاد أو الاستشهاد او المتعلقة بالآخر الديني وبخاصة الآخر اليهودي ، بدعوي تجفيف منابع الإرهاب (٦). تأكيداً لذلك أن إحدي المؤسسات الأمريكية هي التي وضعت مناهج التربية الدينية والوطنية في النظام التعليمي العراقي (٧) وهو نفس الأمر الذي يحدث في غالبية المجتمعات العربية تحت دعوي تحديث التعليم تاره ، وتارة أخري تطويره ليتطابق مع معايير الجدوي الغربية.

ومن الطبيعي أن تلعب آليات العولمة دورها الواضح في تأسيس منظومات قيمية تصبح مرجعية للتنشئة الاجتماعية والسياسية للصغار والشباب على السواء. وتشكل المنظومة القيمية التي تعلي من شأن ما هو غريزي أبرز

منظومـات القيـم التـي تفرضهـا العولمة. وإذا كان الإنسـان في جوهرة الأسـاسى يشـكل حقيقة كلية لا تتجـزأ ، أو بنـاء عضـوي لـه جوانيـة الروحيـة والغريزيـة معا. فإنـه من الضروري عـلى هذا النحو أن نتصـور البنـاء العضـوي للبـشر بإعتباره يتشـكل مـن متصل تشـكل الجوانب الروحيـة والغريزية طرفيـه. إسـتناداً إلي هـذا المتصـل يتحرك البشر ويتفاعلـون بنمطية داخل المجـري الرئيسي للحياة ، تضـم أبنيتهـم الجوانـب الروحيـة أو المعنوية وكذلك الجوانب الغريزية ، في تداخل منسـجم تسـمو فيـه الـروح والمعـاني بالغرائـز حينـا ، وفي حـين آخـر يصبـح الإشـباع الغريـزي مدخل لتوهـج روحي متخـم بالمعـاني، فى نطـاق واقـع تتسـق فيـه الذات الإنسـانية مع الكون المنقسـم علي ذاتـه كذلك.

في هـذا الإطـار تعمـل العولمـة عـلي إختـزال الإنسـان في بعـده المثـالي ، فهـي إمـا أن تدفعه مـن خـلال التحـدي والدفـاع عـن الهويـة ، إلي نـوع مـن العصبيـة الأصوليـة التـي تسـمو بالرغبات والحاجـات الأوليـة الأساسـية وتضفـي عليهـا طابعـاً مقدسـاً. بحيث يجد الفـرد نفسـه المختزلة وقد تحولـت إلي هويـة مضخمـة ، هـي دائمـاً موطـن الفضائـل والمثـل العليا المكتفيـة بذاتهـا. في مقابل هـذا الإختـزال يوجـد إختـزال مقابـل للوجـود الإنسـاني في إتجـاه الطـرف المقابـل للمتصـل ، حيـث ثقافـة الصـورة ، وحيـث عـالم الرغبـة واللـذه والاثـارة الـذي تبشر بـه ، وهو عـالم يتناقـض تماما مع العـالم الـذي تحـدده الثقافـة الأصوليـة بمـا تفرضـه مـن تعاليـم الامتنـاع والتقشـف والتحريـم (٨). عـالم الرغبـة يسـعي فيه الإنسـان إلي إشـباع ممتع وفعـال ودائم ، تنتـشي في نطاقه الغرائـز ، خاصة إذا تدفـق مـن خـلال الإعـلام مـا يسـاعد عـلي تضخيمهـا وإبـراز فحولتهـا. عـلي هـذا النحـو نجـد أن الإنسـان إمـا هـارب مـن العولمـة إلي الـتراث يحتمـي بدرعـه في بحثـه عـن المعـاني والقيـم ، وإما مندفـع إلي تكنولوجيـا العولمـة وثقافتهـا يبحث بداخلها عن ما يسـتنفر غرائـزة. هنا يصبح المجتمع مختـزل وغـير مكتمـل ، يسـير ببعضـه في إتجـاه ، تـاركا بعضـه الثاني في إتجـاه آخـر (٩). ذلك يعني أن منظومـة القيـم التـي توجـه السـلوك السـياسي للإنسـان في المجتمـع المختـزل ، تكـون في الغالب ذات طبيعـة إنسـحابية ومتطرفـه. فهـو إمـا إنسـحاب متطـرف إلي معـاني مطلقـة تديـن الواقـع

وتتناقـض مـع مـا يحـدث فيـه ، لتشـكل جماعـات التطـرف والعنـف التـى ، تطلـب مـن الواقع بل وتفـرض عليـه التطابـق مـع المعـاني. وأمـا إنسـحاب فى الاتجـاه المقابـل يعـبر عـن كفـر بالمعـاني ، حيـث تعشـق الـذات المتعـة الوقتيـة فى إطاره ، لـدى الذات تصـورات وتوجهات وسـلوكيات نفعية وذرائعيـة ، الإشـباع المؤقـت هـو غايتهـا . لا تهتـم بمـا يحـدث في واقعهـا الاجتماعـي إلا بمـا يتصـل بإشـباعاتها الغريزيـة أو مـا يتهـدد هـذا الإشـباع.

تطويـر العقـل المسـتقيل يشـكل احـد المنظومـات القيمية التي توجه الممارسـة او السـلوك السـياسي للبـشر فى مثـل هـذه السـياقات والأوضـاع. تنشـأ هـذه الاسـتقالة بسـبب التسـارع الذي تنمـو أو تتحـول بـه ثقافـة العولمـة ، في مقابـل ، الثبـات الـذي يتميـز بـه الـتراث. ثنائيـة ثانيـة لهـا علاقـة مـا بالثنائيـة السـابقة عـلي أحـد مواقـف هـذه الثنائيـة توجـد الهويـة الثقافيـة عـلي صـورة موقـف جامـد يؤكـد عـلي التقليـد ضمن قوالـب ومفاهيـم وآليات دفاعية تسـتعصي عـلي الإختراق وتقـاوم التجديـد (١٠). لا يحـاول هـذا الموقـف تأمـل الـتراث في محاولـة للإرتقـاء بـه ، أو لتطويـر بعـض مفاهيمـه وإمكاناتـه بمـا يتـلاءم مـع الواقـع . ولكنـه يتجـه إلي الواقـع المحيـط في محاولـة لوقـف تطـوره حتـي يظـل متطابقـاً وحـدود الـتراث. يعـبر هـذا الموقـف كذلـك عـن الإحسـاس بالضعـف والهـوان أمـام قـوي العولمـة القهريـة ، دون أن يسـعي عـن إرادة وعـزم لتطويـر بعـض جوانـب الـتراث بمـا يسـاعد علي إسـتيعاب أفضـل ما هو متـاح في عالم تحكمـه العولمـة. وفي مقابل الموقـف الهـارب إلي المـاضي والمنكفـئ عـلي الـتراث ، هنـاك الموقـف الهـارب إلي المسـتقبل والـذي يسـعي إلي التطابـق مـع الآخـر الغـربي . بإعتبـاره يجسـد حالـة المسـتقبل. في مثـل هـذا الموقـف يلعـب الإخـتراق الثقـافي دوره بفاعليـة كبـيرة ، لكونه يسـتهدف تكريس الاسـتتباع الحضاري. يرتمي هـذا الموقـف في نطـاق الثقافـة والحضـارة الغربيـة، أمـلاً في أن يسـتوعب أو يهضـم متضمناتهـا ، فـإذا بـه يفقـد هويتـه ويعجـز في ذات الوقـت عـن إسـتيعاب مـا هـو جوهـري وملائـم للتحديـث في تراثـه . كلا الموقفـين يتبنـي موقـف العقـل المسـتقيل ، والاسـتقالة سـلب وإبتعـاد عـن الاندمـاج ورضـاء بالعزلـة. الموقـف الأول سـلبي "غـير فاعـل" لأن فعلـه الموجـه ضـد الإخـتراق لا ينـال

الإخـتراق ولا يمسـه ، ولا يفعـل فيـه أي فعـل . لأن فعلـه موجـه إلي الـذات بقصـد تحصينهـا ، ومـن ثـم فهـو موقـف أو سـلوك هـارب إلي المـاضي ، يتحـول إلي نوع من المـوت البطئ الذي ، قـد تتخلله بطـولات ، غـير أن أصحابـه محكـوم عليهم بالجمـود والإخفاق (١١). وإذا كان الموقف الآخر سـلبي بالنسـبة للعولمـة بإعتبارهـا صـادرة عـن الغـرب ، فـإن الموقـف الثاني سـلبي بالنسـبة للـتراث ، وهو إغـتراب عنـه. يقـول أصحـاب هـذا الموقـف الأخـير ، أنه لا فائـدة مـن المقاومـة ولا في الإلتجاء علي الـتراث ، بـل يجـب الإنخـراط في العولمـة دون تـردد ومـن دون حدود لأنهـا ظاهرة حضاريـة عالمية لا يمكـن الوقـوف ضدهـا ولا تحقيـق للتقـدم خارجهـا ، فالأمـر يتعلـق بقطـار يجـب أن نركبه وهو مـاضي في طريقـة بنـا أو مـن دوننا(١٢).

ويـزداد الأمـر فداحـة حينـما لا يتوقف الإختراق الحضاري الذي تمارسـه العولمـة عند حدود تكريـس الاسـتتباع الحضـاري بوجـه عـام ، بـل يصبـح فعلها أكثر خطـورة حينما تعمل عـلي تكريس الثنائيـة والانشـطار في الهويـة الوطنيـة والقومية. ليـس الآن فقط بل وعلي مـدي الأجيال الصاعدة القادمـة. والنتيجـة إعـادة إنتـاج متواصلـة ومتعاظمـة لثنائيـة التقليـدي والعصري ، ثنائيـة الأصالة والمعـاصرة في الثقافـة والفكـر والسـلوك (١٣). وإذا كانـت الحالـة الطبيعيـة لأي مجتمـع أن تكون ثقافتـه مرتبطـة ببنائـه إرتباطـا عضويا لكون هـذه الثقافة نتاجـاً للتفاعل الإجتماعـي الحادث فيه ، إضافـة لمـا يقدمـه تراثـه التاريخـي . فإنه نظـراً لأن ثقافة العولمـة وإردة من الخـارج ، فإنها لا تكون في العـادة مرتبطـة عضويـا ببنـاء المجتمـع القومـي ، وذلـك لكونهـا ليسـت تعبـيراً عن تمثيـل الناس لمحيطهـم او تعبـيراً عـن نظـام مجتمعهـم المـدني. عـلي هـذا النحـو يتشـكل وعـي البـشر بمنظومة قيـم ثقافيـة وسياسـية ، لا توجـد صلـة بينهـا وبـين نظامهـا الاجتماعـي والسـياسي الـذي ينتمـون إليـه . وحـين يتفاعـل البـشر وفـق منظومـات مـن القيـم والإفـكار التـي لم تخـرج من رحـم التطور الاجتماعـي الطبيعـي ، لا يبقـي ثمـة مـا يدعـو إلي إسـتصغار الأمـر. إذ مـن رحـم هـذا الانفـكاك والتجـافي بـين الثقـافي والاجتماعـي والسـياسي ستتناسـل أنـواع أخـري مـن التجـافي والخلـل في البني الاجتماعية والسياسـية. مما سـيعرضها إلي تشـوية مضاعف يضاف إلي التشـوه الخلقي الأصلي، الذي

نشأ عن حداثه رثة شهدتها هذه البني دون تقديم مقدمات أو تمهيد أصول (١٤).

ثقافة الحركة والإنتقال والتدفق اصبحت منظومات قيمية تحكم الممارسة والسلوك الإجتماعي والسياسي كذلك. وإذا كانت القيم الثابتة والمكان الثابت والزمن المحدد هي الأحداثيات الثقافية التي تميز عالم ما قبل العولمة ، بإعتبار أن الثبات والاستقرار هو القاعدة. فإن العالم الذي نعايشة يتميز بالحركة الصادرة عن كل المصادر والمتدفقة في أي إتجاه، هذه الحركة تتدفق عبرها التنظيمات والموضوعات المادية والمعنوية علي السواء. مثال علي ذلك أن الشركات المتعددة الجنسية لم تعد في مواضع ثابتة علي خريطة العالم ، بل أصبحت تتدفق من خلال وحداتها ونشاطها في كل إتجاه ، ومع هذا التدفق تتدفق السلع والخدمات والبشر. ويرتبط بذلك تدفق المعرفة من الأعلام وتكنولوجيا المعلومات لتساعد في تأسيس معرفة وثقافة وفهم إنساني متجانس. وذلك حتي يشارك الجميع في العصر التكنولوجي وإن لم يتمكنوا بنفس القدر من بناء المجتمع التكنولوجي. وإلي جانب حركة التكنولوجيا والأشياء المادية ، توجد الحركة الناعمة للمعرفة والأفكار. فقد أسست العولمة القنوات التي تتدفق من خلالها المعرفة من مراكزها لتصبح موضع إستفادة من الجميع. حقيقة أن قدراً محدوداً ومسطحا من المعرفة هو الذي يسمح له بالتداول عبر القنوات المتاحة علي الصعيد العالمي، غير أنه حسب القول الشائع "ما لا يدرك كله لا يترك كله". عبر هذه القنوات تتدفق كذلك مفاهيم أيديولوجية وسياسية يؤمل أن تصبح شعارات ذات طبيعة عالمية ، من ذلك المفاهيم الأوربية التي ترجع إلي عصر التنوير كمفاهيم الحرية والديموقراطية والرعاية وحقوق الإنسان والبيئة ، وعديد من المفاهيم الثقافية والسياسية الأخري. حيث يكون القصد من هذه المفاهيم أن تساعد في تأسيس واقع إجتماعي وسياسي جديد في مجتمعات الجنوب ، يصبح بدوره آلية من آليات التجانس علي الصعيد العالمي عن طريق إلغاء آية نظائر محليه له.

وإذا كان من الطبيعي أن يعمل الأعلام وتكنولوجيا المعلومات علي تنشئة البشر وفق هذه المنظومات القيمية ، التي تتمحور حول مفاهيم إجتماعية وسياسية جريئة ، بل تدفع إلي ممارسات وسلوكيات إجتماعية وسياسية حديثه.

فإن ذلك من شأنه أن يفرض صداما من ناحية مع الثقافة التقليدية ، التي قد لا تقبل بالنظائر القيمية الحديثة. الأمر الذي يدفع إلي خلافات وصراعات كان من المفترض أن تؤدي إلي إنتاج نوع من الحيوية السياسية ، غير أنها دفعت في إتجاهات تخالف ذلك. كأن تؤسس صداما داخل النظم السياسية التي إعتادت الثبات ، وتحكم وفق التقاليد الأبوية والعائلية، والتي تنظر إلي سكان الدولة بإعتبارهم راعايا الطاعة واجبة عليهم ، والتي ترفض القناعة أو الإنصياع لمطالب الحفاظ علي حقوق الإنسان للبشر في إطار حدود دولتها بإعتبارهم مواطنين لهم حقوق كما أن عليهم واجبات. ومن الطبيعي أن ترفض هذه النظم تداول السلطة ، كما لا يكون لديها الاستعداد أو القابلية للمساءلة. مؤشر ذلك الصدامات التي وقعت بين الحكام والمحكومين في غالبية مجتمعات الجنوب تعبيراً عن الصدام بين المفاهيم الحديثة التى إخترقت فضائها أو تدفقت على ساحته ، والمفاهيم المستقرة والثابتة الرافضة للتغيير أو المثول أمام محكمة العقل.

تسعي ثقافة العولمة ، ومنظومات القيم المتضمنة فيها إلى إضعاف الثقافة القومية التي تواجه الهزيمة في غالبية مجتمعات الجنوب لإعتبارين. الأول أن الثقافة القومية إرتبطت بالدولة القومية، وفي هذا الإطار فإن إضعاف الدولة القومية أو إختراقها كأحد أهداف العولمة، التي تسعي إلي فرض تراجع الدولة القومية عن آداء وظائفها الأساسية ، ومن بينها قدرتها علي حماية المجتمع على السواء وهو ما يعني أنه إن إخترقت الدولة فمن الطبيعي أن تخترق ثقافتها كذلك ، أو أن الإختراق الثقافي قد يكون هو المقدمة لإختراق الدولة والمجتمع على السواء. ويتمثل الإعتبار الثاني في أنه نظراً لأن الدولة في غالبية مجتمعات الجنوب ذات طبيعة قهرية ، بحيث تضافرت مع هذه الطبيعة القهرية ثقافة تقليدية ذات طابع قهري كذلك. ومن ثم فقد تجلت هذه الطبيعة التقليدية القهرية من ناحيتين ، الأولي أنها تحدد بصورة مسبقة ودقيقة الممارسات والسلوكيات الفردية في مختلف المجالات ، وبذلك فهى لا تترك إمكانية للإبداع الفردي . هذه الثقافة ذات طبيعة تراتبية كذلك ، لكونها ترفض المساواة ، أبوية ترفض الحرية،

منغلقـة ترفـض الـرأي الآخـر كـما ترفـض التسـامح مـع الآخـر. وتتجـلي قهريـة الثقافـة القوميـة التقليديـة مـن ناحيـة ثانيـة مـن خـلال علاقتهـا بالثقافـات المحليـة أو الإثنيـة ، فهـي تسـعي دائمـاً إلي تبديدهـا وقهـر أبداعهـا ، بـل وتغلـق أمامهـا أحيانـا كل قنـوات التعبـير. لأنهـا تـري في نمو هذه الثقافـات أو في حريتهـا في التعبـير تهديـد لوجودهـا وكيانهـا. ويـزداد الطـين بلـه إذا كانـت الثقافة القوميـة التقليديـة هـي ثقافـة الأغلبية ، في هذه الحالـة فإنها تمهد لصراع إجتماعي وسـياسي كامن. ويتصـل الإعتبـار الثالـث في النظـر إلي الثقافـة القوميـة بصفتهـا عقبـة أمام إنتشـار ثقافـة العولمة ، وذلـك بإعتبـار أن تنـوع الثقافـات القوميـة يؤكد التبايـن الذي ترفضـة العولمة السـاعية إلي تحقيق التجانـس. هـذا بالإضافـة إلي أن الثقافـة القوميـة تعـبر عـن الهويـة ، ومـن ثـم فهـي ثقافـة معادية للعولمـة ، بإعتبـار أن الأخـيرة تسـعي إلي طمـس الهويات القوميـة. ولذلك تنظر إليهـا ثقافة العولمة بإعتبارهـا عقبـة في طريـق إنتشـارها، ومن ثم نجدهـا – أي ثقافة العولمة - تصطنـع الآليات لقهرها وفـرض إنهيارهـا. عـلي هـذا النحو تنجـز العولمة مهمتها من خـلال ثلاث آليات أساسـية. من خلال إسـتخدام الآليـة الأولي تعمـل العولمـة عـلي الضغط عـلي الثقافة القوميـة من أعلي لفـرض إنهيارها . حيـث تعمـل ثقافـة العولمـة ومنظوماتهـا القيميـة، مسـلحة بتكنولوجيـا الأعـلام والمعلومـات علي إخـتراق الثقافـة القومية وإسـتبدال عناصرهـا ومنظوماتها القيمية ، بحيث تـؤدي هذه العملية علي المـدي الطويـل إلي ان تحـل ثقافـة العولمـة محـل الثقافـة القوميـة. وإذا كانت العولمـة تضغط من أعـلي عـلي الثقافـة القوميـة ، فإنهـا مـن خلال الآليـة الثانيـة تضغط عليها من أسـفل. حيـث تدفع العولمـة سـكان السـياقات المحليـة او أعضـاء الجماعات الإثنيـة إلي إحيـاء ثقافاتهم ولغاتهـم الإثنية ، والتراجـع عـن الإرتبـاط بالثقافـة القوميـة، والارتبـاط بديـلاً لذلك بقيـم ومعايير الثقافـات المحلية والإثنيـة. وفي هـذا الإطـار تقـدم ثقافـة العولمـة كل الإمكانيات التي تسـاعد الثقافـات المحلية علي الإنبعـاث مـن جديـد. ذلـك يعنـي إن ثقافة العولمـة تضغط عـلي الثقافة القومية مـن إتجاهين من اعـلي بواسـطة الإخـتراق الثقافي ، ومن أسـفل من خلال بعـث الحيوية في الثقافـات المحلية والإثنية. وتتكامـل الإليـة الثالثـة مـع الآليـة الثانيـة حينـما تعمـل قـوي العولمة عـلي إعـادة إنتـاج الثقافات

المحليـة والإثنيـة ، وإعـادة إخراجها وتسـويقها في أنسـاق وتوليفات أو بضاعة جديـدة جذابه ، كما يحـدث الآن مرتبطـا بالسـياحة العالميـة. وفي هـذه الحالـة فإن قـوي العولمة وأدواتهـا تحول ما هو محـلى خـاص ببيئـة إجتماعيـة وثقافيـة معنيـة، إلي شـئ مختلـف عـن تلـك المحليـة أو الخصوصية الأصليـة القديمـة ، ومـن ثـم فهـي تصبـح – عـلي مـا يذهـب روبرتسـون – محليـة معولمـة. في هذا الإطـار يصبـح أعـادة إنتـاج عمليـات التنـوع الثقـافي محليـا ليـس نفيـا للعالميـة بـل هـو في الواقـع تأكيـد لهـا (١٥) ، وإن كان يتضمـن فرضـا لتـآكل أو تراجـع الثقافـة القوميـة. ومـن الطبيعـى أن تـؤدي التنشـئة وفـق منظومـة القيم هـذه إلي تدريب أجيـال تكون أكـثر إنتماءاً لمرجعيتهـم الإثنية او لمحليتهـم ، التـي أصبحـت أحـد جـزر أو معالم ثقافة عالمية تولت تأسيسـها العولمـة. وفي الفجوة بـين المحـلي والعالمـي تسـقط الهويـات الحضاريـة والقوميـة ، ويتـآكل الإنتـماء لهـا ، بـل ويتحـرر المواطـن منهـا، ليصبـح مواطنـا عالميـا لـه جـذورة المحليـة ، فالمحليـة سـاحة محـدودة وصغـيرة تم إسـتيعابها في عـالم شـامل أسسـته العولمـة . وفي إطـار ذلـك تسـقط مفاهيـم ومعـاني عديـدة ذات طابـع ثقـافي وسـياسي كالوطـن والمواطنـة ، والانتـماء ، والهويـة والمرجعيـة الحضاريـة ، حيث تصبح جميعهـا بقايـا عـالم إجتماعـي وسـياسي ليس لـه وجود.

بالإضافة إلي ذلك تروج العولمة لمنظومات قيمية وثقافية سـلبية ومنحرفة، تشـكل مرجعية للتنشـئة السياسـية التـي تنتـج في النهايـة بـشراً أو مواطنـين لا تتسـق ممارسـاتهم وسـلوكياتهم مـع إحتياجـات مجتمعاتهـم. وتعـد منظومـة قيـم أو ثقافـة الإسـتهلاك أبـرز هـذه المنظومـات، حيث تسـعي العولمـة إلي نشرهـا ، في مجتمعـات بلغـت نسـبة السـكان تحت خـط الفقر فيها مـا يتجاوز ٥٠٪ يعيـش منهـم ٢٥٪ تحـت خـط الفقـر المدقـع. يشـارك في هـذا الإسـتهلاك بعـض الشرائـح الإجتماعيـة التـي تشـكل قطاعاً سـكانيا محدوداً في العـالم العربي، ليصبحوا هم المفـرزة المتقدمة أو المبشرة بثقافة الإسـتهلاك. وبسـبب إنفتاح الإسـواق في عالم العولمة ، فإن الشره الغريزي والميل إلي الإسـتهلاك يرتبط بتمجيد كل ما هو أجنبي الذي يعد إسـتهلاكه أحد رموز المكانة الاجتماعية (١٦). في مقابـل ذلـك تتـآكل أو تتـلاشي المشـاعر المرتبطـة بالهوية الوطنيـة أو القومية ، وهـي الحالة التي

يندفع في إطارها البشر – رغما عنهم – نحو الارتباط بما هو اجنبي وخارجي علي حساب ما هو قومي ومحلي.

ثقافة الإستهلاك والشوق إلي الجديد أصبحت من العناصر الثقافية المحورية التي تفرضها ثقافة العولمة. التجوال والامتزاج بالأسواق والإرتباط بالسلع أصبح مركبا عضويا له قيمة وثقافته ، شراء السلع في إطاره لم يعد لتحقيق الاشباع ، الشراء في حد ذاته أصبح إشباع لحاجة المتابعة والإرتباط بالأسواق. الشراء أصبح سلوكا إجتماعيا ، يستهلك الوقت والمال والطاقة لتحقيق الإحساس بمتعة الامتلاك ، حتي لو كانت المتعة للحظات. فإذا تحققت متعة إمتلاك سلعة فلنبحث عن متعة شراء جديد ، وفي إطار ذلك يلاحق الإنسان السلع المنتجة كما يلاحق الزمن ، يهرب دائما من سلع الحاضر إلي سلع المستقبل إستبعاداً للسأم والملل. وإذا كان المؤمن الشيعي يتحرق شوقا إلي ظهور الإمام الغائب الذي سوف يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وإذا كان إنسان "بيكيت" يعاني من حاضره ويتحرق شوقا إلي "الجودو" الذي يأتي معه بالأمل والتفاؤل ، فإن إنسان العولمة يتجول طيلة يومه في الأسواق باحثا عن سلع تحقق متعة الإمتلاك أكثر من رضا الإشباع.

وتعد ثقافة الجنس والمخدرات عنصر بارزه في ثقافة الاستهلاك ، فمنظومات قيم هذه الثقافة موجهة لإشباع الغرائز. وهي في الغالب ثقافة مادية بلا مثل ، تتسلل إلي داخل البشر إما من خلال الجنس الذي أبدعت التكنولوجيا في إخراجة وتحريره من قيود الأخلاق والقيم. الجنس الذي يجده الإنسان في كل مكان ويصدر عن كل إتجاه، جنس اللذه السريعة المسطحة التي لا تمتلك أي عمق أو إتساع أو دوام، جنس التسارع واللحظة الخاطفة، جنس يفتقد الخبرة أو التجربة التي تطلب تفاعل المشارك فيه. جنس العولمة هو جنس الإعلام أو جنس الشرائط الممغنطة ، جنس يمارسه أو يراه الإنسان من حوله ، قد يسعد به غير أنه يحتاج إلي الجديد بمجرد الفراغ منه، جنس يترك الغرائز غير مشبعة ، وفي حالة من الجوع الدائم. وتتسلل ثقافة الإستهلاك والعولمة كذلك من خلال المخدرات ، التي تخلق فضاءاً يسبح فيه الإنسان بلا قيود وفي

أى إتجـاه ، حيـث عـالم مخـدر وبـلا مشـكلات ، كل شـئ فيه متوفـر ومبـاح. وإذا كان الجنس يقهر الإنسـان مـن خـلال إطـلاق غرائـزة ، فـإن المخـدرات تسـيطر عليـه مـن خـلال تبديـد عقلـة. ومن الطبيعـي أن تسـلم عنـاصر هـذه الثقافـة – الاسـتهلاك والجنـس والمخـدرات- إلي تشـكيل مركـب ثقـافي هجـين لـه طغيانـه وسـطوته. مركب ثقافي يمتلك الإنسـان مـن كل جانب ويدفعـة في الإتجاه الـذي يريـد. وإذا كانـت منظومـات قيـم الثقافـة المحليـة والقوميـة تتغلغـل بداخـل الإنسـان مـن خـلال عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية التي تقوم بها مؤسسـات المجتمع المختلفة ، لتشـكل ضمـيره وتضبطـه مـن داخلـه ، فـإن ثقافـة العولمـة تسـيطر عليه مـن الخـارج بواسـطة التكنولوجيا المتدفقـة تـارة ، وتـارة أخـري بمنظومـات قيـم السـوق وثقافتـه، وتارة ثالثة بإشـعال جـذوة الجنس في فضـاء يبدعـه تعاطي المخـدرات (١٧).

وتعـد ثقافـة الفسـاد مـن الظواهـر التـي إخترقـت بهـا العولمـة الثقافـات القوميـة، فقـد أشـاعت العولمـة قناعـة أن الليبراليـة والخصخصـة والتحرير الاقتصـادي والمالي هي الصيغـة المواتية للنجـاح الاقتصـادي (١٨). صيغـة سـحرية تصلـح لـكل مجتمـع غنيـا كان أو فقـيراً ، ولـكل شـخص قويـا كان أم ضعيفـا. ولثقـة هـذه الثقافـة بذاتهـا فقـد خلعـت النسـبي وإكتسـت بالمطلـق، فقـد جـاءت العولمـة مسـلحة بقيمها لإقصـاء الثقافـة والقيـم القوميـة وفـرض الاسـتقالة عنهـا. ولأن الثقافـة القوميـة اصبحـت ضوابطهـا ضعيفـة ، ولم يسـتوعب البـشر بعـد أفضـل مـا في منظومـة العولمـة مـن قيـم. فقـد تخلقـت حالـة الأنومـي التـي تتجـلي في بعـض جوانبهـا مـن خـلال ضعف إسـتناد السـلوك إلي القواعـد والقوانـين. مثـال عـلي ذلـك سـعي بعـض رجـال الأعـمال في القطـاع الخـاص إلي الاقـتراض مـن المؤسسـات الماليـة للدولـة ، وأحيانـا مـن المؤسسـات الدوليـة والإقليميـة ، بعلـم الدولـة أو بغـير علمهـا ، أو حتـي بمشـاركة مـن بعـض رموزهـا ، دون إلتـزام بالسـداد. ويصبـح عـلي الدولـة أن تسـد هـذا العجـز سـواء لمؤسسـاتها أو للمؤسسـات الدولية ، علي حسـاب دافعـي الضرائـب مـن المواطنـين العاديـين. وأكـثر مـن ذلـك فقـد أصبـح لزامـا عـلي الدولـة بيـع مؤسسـاتها العامـة للقطـاع الخـاص ، الوطنـي أو الأجنبـي ، بأسـعار زهيـدة وفـاء بهـذه القـروض

أو سـداداً لهـا وتجنبـا لإعـلان الإنهيـار الكامـل (١٩). ومـن الطبيعـي أن يـؤدي فسـاد بعـض رجـال الأعـمال إلي نـشر موجـات الفسـاد في المجتمـع، تـارة في إتجـاه الطبقـات الأخـري . حيـث يصبـح الفسـاد سـلوكا يقلـده الآخـرون ، خاصـة إذا ضعفـت القيـم وتـآكل الضمـير وتحققـت المنفعـة ، وتـارة في إتجـاه أفقـي "حيـث يتضافر الفسـاد الاقتصادي مع الفسـاد السـياسي. يحـدث ذلك حينما تتخلـق مصالـح مشـتركة بـين السياسـة والاقتصـاد ، الأمـر الـذي يـؤدي إلي فسـاد ثقـافي وإجتماعـي كذلـك ، حينـما تنشـغل الأمـة بقضايـا هامشـية ، هـل ختـان المـرأة شرعـي أم لا ؟. ومـا هـي دلالـة مفهـوم النـوع Gender الاجتماعـي بالنسـبة لعلاقـات البـشر في المجتمـع؟ وهـل من حـق المرأة أن تتـصرف بجسـدها عمـلاً بمقـررات "بيكـين" أم أن الشريعـة تظـل هـي المرجـع بالأسـاس ؟. أسـئلة تشـير جميعهـا إلي هويـة آيلـة للسـقوط أو هي قد سـقطت بالفعل. وفي قلب حالـة الأنومي تضيع البوصلـة الحضاريـة ، ويصعـب عـلي الإنسـان تحديـد صحيح الاتجـاه (٢٠).

بالإضافـة إلي ذلـك فقـد إخترقـت ثقافـة العولمـة الهويـة وأضعفـت الانتـماء، ولتحقيـق ذلـك لجـأت العولمـة إعـمال آليـات عديـدة أضعفـت بهـا مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. وتتمثـل الآليـة الأولي في إعـلام العولمـة وتكنولوجيـا المعلومـات المتقدمـة والمتنوعـة ، تلـك التـي يتراجـع أمامهـا الإعـلام الوطنـي والقومـي. وإذا كان موضـع إتفـاق الأن ، أن الإعـلام والإعـلان أصبـح مـن أكـثر أدوات التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية فعاليـة ، فـإن الإعـلام الأجنبـي في هـذا الإطـار يمتلـك فاعليـة أقـوي ، أو نصيـب الأسـد في هـذا الصـدد ، بينـما لا يبقـي للإعـلام الوطنـي مـن الفاعليـة سـوي النـذر اليسـير. وإذا كانـت الأسرة تعـد مـن أبـرز وسـائل التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية فى المـاضى ، فـإن الأسرة العربيـة الآن تعيـش حالـة إنهـارت فيهـا منظوماتها القيميـة ، وتمـزق نسـيج علاقاتهـا الاجتماعيـة، بفاعليـة متغـيرات عديـدة صـدرت عـن التحـولات العالميـة والقوميـة عـلي السـواء ، لعبـت دورهـا فمزقـت نسـيجها إربـا. إضافـة إلي أن بناءهـا يخضـع الأن لحالـة مـن الفـوضي بسـبب الإخـتراق الثقـافي الـذي فـرض إعـادة تعديـل المكانـات والأدوار ، وأيضـا بسـبب فاعليـة الإعـلام الطاغيـة. ونتيجـة لهـذه التغـيرات أو التحـولات التـي

طرأت علي الأسرة ، فإننا نجدها قد سقطت بإعتبارها مرجعية قيمية وأخلاقية للأبناء ، كما أضعفت هذه التغيرات فاعلية السلطة الأبوية. إضافة إلي تآكل المنظومة القيمية التي تنظم التفاعل بين عناصرها ، الأمر الذي أدي إلي إنتشار حالة من الاستباحة والتسيب القيمي والسلوكي . ساعد بدوره علي مزيد من تفكيك الأسرة ، وأيضا علي عزل الفرد وحرمانة من آية دفاعات عائلية تحمية ، الأمر الذي أصابه بمرض ضعف المناعة القيمية المكتسبة (٢١).

ويعد التعليم الآلية الثالثة في باب إضعاف أو إسقاط الانتماء ولكي تحقق هذه الآلية فاعليتها في هذا الاتجاه ، فقد كان من الطبيعي أن يستجيب التعليم لإحتياجات العولمة قبل الاستجابة لإحتياجات الوطن. في هذا الإطار إتجه التأهيل والتعليم لكي يصبح أجنبيا ، ومن ثم فقد إتسعت مساحتة ، ولم يعد يقتصر علي المراحل التعليمية دون الجامعة ، بل تجاوزها إلي المرحلة الجامعية ذاتها. حتي يستطيع أن يستجيب لإحتياجات الشركات الأجنبية وإحتياجات سوق العمل. في هذا الإطار تولدت قناعة أنه لكي يصبح الآداء التعليمي كفءاً ومتميزاً فإنه ينبغي أن يكون أجنبيا من حيث اللغة ، وأجنبي من حيث التأهيل، ووفق المهارات التي تحتاجها الشركات الأجنبية ، بغض النظر عن إحتياجات الوطن والشركات الوطنية. وأيضا بغض النظر عن أن هذا النمط من التعليم يجعل الفئة التي حصلت علي هذا الإمتياز التأهيلي والتوظيفي مرحبة بكل ما هو اجنبي ورافضة لكل ما هو وطني أم لا. مثل هذا الوضع يفرض علي الفئة المحرومة من هذا الإمتياز أن تكون الفئة الحاسدة ، أو بالأصح الفئة الحاقدة. وقد تتعمق مشاعر الحقد وتتسع لتتحول إلي حنق علي الوطن ، وهي الحالة التي تؤدي إلي تراخي الإرتباط وتسطيح الانتماء له، وتكون النتيجة دائما واحدة وإن تعددت الأسباب.

ذلك يدفعنا إلي تأمل طبيعة التنشئة الاجتماعية والسياسية التي تسلم إليها هذه الأوضاع. بداية نستطيع القول بأن العولمة لعبت دورها - حينما عملت علي تفكيك الثقافة القومية وفرض تآكلها - في تأسيس فراغ ثقافي وقيمي إمتلأ بمنظومات ثقافية غير متجانسة، غير أنها تشترك جميعها في كونها ذات

طبيعة سلبية بالأساس. حيث إنتشرت الثقافة الاستهلاكية في مجتمع يتسول الاستثمارات والمساعدات الأجنبية ، بالإضافة إلي أن نحو ٥٠٪ من سكانه تحت خط الفقر، إنتشرت كذلك ثقافة الفساد، التي أباحت ما هو عام ليدخل في منطقة الخاص عند البعض. ولأن الفساد أصبح مسكوتا عنه فقد إستنفر حقد او حنق البعض الآخر، ومن ثم إهتزت روابط الجميع بالوطن وإنتمائهم له اللص والأمين المستقيم علي السواء. وإستكملت مساحة الأنومي أبعادها المختلفة بإنتشار ثقافة الجنس والمخدرات، بحيث نستطيع القول بأن هذه المنظومات الثقافية والمنحرفة لعبت دورها كمتغير وسيط في تفكيك الثقافة القومية، وهو التفكيك الذي أثر عليها من ثلاثة جوانب. الجانب الأول أنها لم تجعل قيم هذه الثقافة هي المعايير الضابطة للسلوك السياسي للبشر ، الأمر الذي ، أطلق العنان للقيم الفردية ذات الطبيعة النفعية والانتهازية كقيم موجهة للسلوك. والجانب الثاني ان قيم الثقافة القومية لم تعد تشكل المضامين التي ينشأ عليها الصغار، ونتيجة لهذا الفراغ القيمي أو لحالة الأنومي إنتشرت بعض الظواهر القيمية والسلوكية ذات الطبيعة السلبية.

من هذه الظواهر أن الإعلام إنتزع مساحات كبيرة من عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية، من الأسرة ومن المدرسة علي السواء ، ومن ثم فلم تعد القدوة أو التفاعلات اليومية – داخل الأسرة أو المدرسة _ هي التي تشكل منظومة القيم السياسية والسلوك السياسي للطفل بشكل كامل . بل أصبح الإعلام هو الذي يقوم بالدور الرئيسي في هذا الصدد، من خلال القيم والسلوكيات السياسية التي تعرضها البرامج والمواد الإعلامية المختلفة. وإذا كان الإعلام الوطني قد إنتزع هذه المساحة من الأسرة والمدرسة ، فإن الإعلام الأجنبي إنتزع المساحة الأكبر من الإعلام الوطني ، ليبث القيم والسلوكيات الاجتماعية والسياسية التي يريدها ، تساعده في ذلك الفضائيات وتكنولوجيا المعلومات الحديثة. التي تنقل إلي مجتمعاتنا كل ما يحدث بالخارج ، فيكرس التبعية والإعجاب بكل ما هو أجنبي، إضافة أنه يعمل من ناحية أخري بإتجاه إنتاج تخزين التوتر الذي يكمن وراء المطالبة بالتغيير ، وهو ما يعني أنه يساعد

في تعميق حالة الإحتقان الاجتماعي والسياسي ، وإحتماليات الصدام والعنف.

وتشير الظاهرة الثانية إلي سعي العولمة لتطوير ثقافة الانفصال والشقاق في المجتمع، ذلك لأنه إذا كانت قوي وثقافة العولمة تعمل علي إحياء وبعث الثقافة الإثنية ، إلي جوار الثقافة القومية أو علي حسابها. حيث تعمل علي بعث هذه الثقافة من خلال السعي إلي إستكمال أبعادها المختلفة ، سواء فيما يتعلق بالبعد التراثي أو باللغة أو بالدين ، وهو ما يساعد في خلق فجوة بين جماعة الأغلبية والجماعات الأخري. أو أن تعمل العولمة علي تجديد هذه الثقافة، وإظهارها بمظهر عصري وحديث ، حتي تصبح مناظرة للثقافة القومية وقادرة علي منافستها. وفي هذا السياق فهي تؤكد علي قيم التميز عن الأخر ، وقيم عدم التسامح مع الآخر، بحيث يصبح السلوك السياسي للشخص إما أنه يتحقق أو يتم وفق منظومات قيم إثنية، أو منظومة قيم خارجية هطلت المجتمع من خلال العولمة ، وفي هذا السياق تغيب أية قيم مشتركة علي المستوي القومي يمكن أن توجه الممارسة أو السلوك السياسي.

إننا إذا تأملنا منظومات قيم التنشئة الاجتماعية والسياسية التي تدفقت من خلال العولمة ، وكذلك السلوكيات او الممارسات التي نتجت عنها ، فسوف نجد أنها قسمت الوطن إلي مجموعات من البشر الذين ضعفت لديهم المواطنة، فتفرقوا شيعا في كل إتجاه. مثال علي ذلك أنه كرد فعل للعولمة برزت سلوكيات إنسحابية إخذت صوراً متعددة ، أول إشكالها نمو أو إزدهار جماعات العنف المتطرفة ، التي خاصمت الحاضر وذهبت للآحتماء بالتراث إلي حد التطرف به وإختارت طريق العنف والمقاومة ، وهو ما يعني إنسحابها من العملية الاجتماعية والسياسية كما تقع علي أرض الوطن. وذلك في مقابل جماعة اخري تطرفت بإتجاه العلمانية حيث تولدت لدي هذه الجماعة مشاعر وعواطف تؤكد أن لا فائدة. فليس أمامنا سوي تطوير القدرة علي التكيف وكذلك القدرة علي الخضوع لكل ما هو غربي، وحتي تؤسس شرعية لموقفها الإنسحابي الضعيف هاجمت التراث بكل حلوة ومرة ، خيرة وشرة ، ورأت التسليم بكل ما هو غربي

إبتداء ورفض المقاومة إنتهاءا ، حيث لا فائدة. ويتمثل الشكل الثاني للتشتت في ظهور الجماعات الإنتهازية والفاسدة وحتي الجماعات التي ضعفت روابطها مع الوطن. أول هذه الجماعات الجماعة الإنتهازية التي رأت أنه من الأفضل تبني القيم الإنتهازية ، بأن توسع مساحة ما هو خاص علي حساب ما هو عام ، وأن يكون الهدف من مارستها وسلوكها الاجتماعي والسياسي، هو تطوير اوضاعها ولو علي حساب الوطن. ذلك بالإضافة إلي فئة أو جماعة ثانية كانت أكثر تطرفا من الفئة السابقة ، بحيث دخلت بسلوكياتها الانتهازية إلي منطقة الفساد بغض النظر عن المجال الذي تعُمل فيه طاقة الفساد. ويتسع تطرف جماعات أخرى حتي التحلل من العلاقات بالوطن وحتي سقوط الانتماء كلية مؤشر ذلك الهجرة غير المشروعة ، حيث مخاطرة الغرق إحتمالا بدلاً من البقاء في الوطن والمشاركة في صناعة الحياة فيه . أو حينما يهاجر البعض إلي دولة إسرائيل والحياة فيها أفضل من الحياة في الوطن ، أو حتي الإجرام في حق الأخير ، حينما يرتكب البعض سلوك الخيانة والتخابر. في مقابل ذلك توجد الجماعات المتمردة التي قررت البقاء والمقاومة من الداخل ومن الحاضر ، دون الهروب في أي إتجاه. وهي الجماعة التي تناضل في الشارع العربي توجه إحتجاجها للنظام السياسي وتتلقي ضرباته وعنفه ، ومع ذلك فهى تصر وتسعي لاستعادة الوطن من يد الزعامات الأبوية المستبدة ، من خلال إعلان العداء الصريح لها ، وحتي النضال من خلال المواقع الألكترونية والمدونات.

بالإضافة إلي ذلك فقد يأخذ الإنسحاب من الوطن شكل التراجع عن المواطنة وإحياء الانتماء الإثني وتضخيمة حتي تصبح الجماعة الإثنية هي مرجعية المواطنة ، وفي هذه الحالة يُدفع الوطن والمواطنة القومية إلي الوعي الثانوي أو الهامشي. تأكيداً لذلك أن إستنفار الجناعات الإثنية في العالم العربي تحقق نتيجة لعملية تنشئة إجتماعية وسياسية تأسست قبل ذلك ببعيد ، وبدأت تؤتي ثمارها أو أكلها. ذلك بالإضافة إلي نشر معاني وقيم غير أخلاقية وسلبية في الفضاء الأخلاقي للمجتمع ، تهبط بتأثيرها لتنشر الفوضي في الحياة الأسرية فيأتي علي القدوة ، وينتقل إلي المجتمع فيمزق نسيجة الآجتماعي وينشر الصراع بين الجماعات الإثنية المشكلة له ، ويهدد بتراجع المجتمع إلي مرحلة ما

قبـل العقـد الاجتماعـي ، حيـث لا دولـة ، بـل جماعـات متعادية وغير منسـجمة تتشـكل منها حالة الاجتماع.

ثالثا: تأثير التحولات الحضارية علي التنشئة الاجتماعية والسياسية للشباب.

مثلـما تأثـرت التنشـة الاجتماعيـة بالإخـتراق الاجتماعي والثقـافي الناتج عـن العولمة ، وهي عمليـة عالميـة تسـتهدف إعـادة صياغة نظامنا العالمـي ، فإنه من الطبيعي أن يكـون لها تأثيرها علي كل شـئ. فقـد تأثـرت التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية بالصراعـات الحضارية التي ظهـرت في هذه المرحلـة. ذلـك أنـه إذا كان عالمنـا المعـاصر يتشـكل مـن حضـارات متباينـة ، حيـث يعـد ذلـك أحد المسـلمات الأساسـية ، فـإن إحتـمالات الصـدام الحضـارى أصبحت واردة بسـبب حالة تـوازن القوي بـين الحضـارات ، إذا أخذنـا كل العنـاصر الحضاريـة في الإعتبـار. ومـن الطبيعي أن تسـعي الحضارة الغربيـة التـي وجـدت نفسـها متربعـة عـلي عرش العـالم لإخضـاع الحضـارات الأخري، حيـث تعمل لتحقيـق ذلـك إمـا مبـاشرة وحـاضراً ، بإسـتخدام كل آليات الـصراع الحاليـة والمتوفـرة أو بصورة غير مبـاشرة، ومـن منطـق إسـتراتيجي بـأن تعيـد تنشـئة مواطـن الحضـارات الأخـري وفق معـاني دينية وثقافيـة جديـدة. أي وفـق أخلاق جديدة ، وحسـب تشـكيل وجهـة نظر جديدة لهـم إلي العالم من حولهم، وإلي الحضارات الأخري ، وهو ما فعلته مع مجتمعات الحضارة الإسـلامية. وقد سـاعد علي ذلـك أن التطـورات العالمية الاقتصادية والسياسـية والثقافية والتكنولوجيـة ، التي وقعت في النصف الثـاني مـن القـرن العشريـن وحتي الآن أدت إلي إعادة تشـكيل عالمنا المتسـع الأطـراف. ليتحول إلي قريـة صغيرة بفاعلية الشركات المتعدية الجنسـية وشـبكة الاتصالات والمواصـلات وأبرزها تكنولوجيا المعلومـات الحديثـة. حيـث أدت هـذه التطورات جميعا إلي إعادة تشـكيل المـكان والزمان العالمي عـن ذي قبـل. ومـن ثم إسـتحضرت الحضـارات والمجتمعات التـي كانت تقع علي مسـافات بعيدة عـن بعضهـا البعـض إلي موقـف أصبحـت تواجـه بعضهـا البعـض في إطـاره. ومـن ثـم بـدأ التفاعـل بـين الحضـارات عـن قـرب مـع كل مـا يتضمنـه هـذا التفاعـل مـن إحتـمالات الالتقـاء والتعـاون او

إمكانيات الصراع. ويشير التأمل والتفكير فيما يتعلق بالعلاقة بين الحضارات أختلافها في بداية القرن العشرين عنها عند نهايته. وذلك يرجع إلي لعاملين، العامل الأول الانتصار الواضح للحضارة الغربية التي إمتلكت القوة المادية والاقتصادية والعسكرية ، ثم إمتلكت القيادة المتفردة للعالم – بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية – خاصة بعد الانهيار الأخير للإتحاد السوفيتي سابقا . وبقاء الولايات المتحدة وحدها مسيطرة علي عرش العالم ، الأمر الذي دفع إلي نشأة تفكير حضاري جديد . يمنطق ضرورة سيطرة الحضارة الغربية علي بقية حضارات العالم ، وذلك من خلال تطوير الآليات التي تساعد في إخضاعها ، وأولها الحضارة الإسلامية وفرض إستتباع المجتمعات أو الثقافات التي تستظل بمظلة هذه الحضارة للعالم الغربي.

تأكيداً لذلك أننا إذا تأملنا التنظير الحضاري في النصف الأول من القرن العشرين فسوف نجد أن تصوره للحضارات وتفاعلها كان تصوراً سلاميا ، وذلك نظرا لاستناده إلي مجموعة من القضايا الأساسية التي لا تزكي مشاعر أو عواطف الصراع بين الحضارات. حيث تشير القضية الأولي إلي تأثر التنظير الحضاري بالتصور العضوي للحضارة، تأكيداً لذلك أننا نجد ان غالبية النظريات التي قدمت خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين قد عقدت مماثلة بين بناء الكائن العضوي من ناحية وبناء الحضارة من ناحية أخري. فقد رأي هذا التنظير أن الحضارة تنشأ أو تولد ثم تزدهر ثم تواجه الإنهيار والفناء كما عند شبنجلر. أو أن الحضارة قد يتوقف نموها كما عند الشعوب البدائية ، وقد يطرد نموها لتصبح حضارات إنسانية عظيمة كما ذهب توينبي. كما أن لكل حضارة طبيعة محددة كما هي الحال بالنسبة للكائن العضوي حسبما أكد بيترم سروكين. يضاف إلي ذلك تردد مصطلحات مثل النمو والنشأة ، التهجين ، الحس ، العقل ، بحيث يمكن إعتبارها جميعا مصطلحات أو مؤشرات تؤكد النظرة العضوية للحضارة. وذلك يرجع إلي أن القرن التاسع عشر ، هو القرن الذي شهد إزدهاراً للفكر العضوي والتطوري الكلي ، الذي نظر إلي المجتمعات الإنسانية والكيانات الاجتماعية والثقافية المختلفة بإعتبارها تتطور في بنيتها من مرحلة إلي مرحلة أخري ، وأن هذه

المراحـل لهـا بدايـة ونهايـة ، وإن إختلفـت دائـرة النمـو بـين الكائـن العضوي مـن ناحيـة والمجتمع او الحضـارة مـن ناحيـة أخري.

وتؤكـد القضيـة الثانيـة عـلي أن ثمـة حضـارات عديـدة عـلي السـاحة العالميـة ، غـير أن أدراكهـم لهـذه الحضـارات كان في الغالـب إدراكاً حضاريـا وسـلاميا في نفـس الوقـت. ونقصـد بأنـه كان إدراكا موضوعيـا حيـث لم يكـن المفكـر ينظـر إلي الحضـارات الأخـري مسـتنداً إلي مرجعيـة الحضـارة الأوربيـة، وهـو السـلوك الـذي جسـدته نزعـة التمركـز حـول الـذات التي بـرزت في أوربا أثنـاء عصـور التحديـث. بـل نظـر المنظـرون إلي كل حضـارة بإعتبار أنهـا تمتلك منطقهـا وعقلانيتها الخاصـة وأسـاليبها في التكيـف والاسـتمرار. وهـو الأمـر الذي شـكل أساسـاً للدعوة التـي تؤكد علي أن تبايـن الحضـارات لا يعنـي صراعهـا بـل قـد يعنـي تكاملهـا ، طالمـا ان هنـاك إعتراف متبـادل بين أعضـاء كل حضـارة بالحضـارات الأخـري ، حيـث نظـر إلى كل حضـارة بإعتبارهـا مرجعيـة في ذاتهـا ولذاتهـا. وأن الحضـارات جميعهـا تقـف علي قدم المسـاواة، طالما أن كل حضارة قد قدمت إسـهاما محـدداً سـاعد عـلي تطـور الحيـاة الإنسـانية، حتـي الحضارات التـي إندثـرت وتركت بعـض بقاياها الماديـة كانـت دائمـاً موضـع إعتبـار وتبجيل.

وتتسـق القضيـة الثالثـة مـع القضيـة الثانيـة ، حيـث ذهـب التنظـير الحضاري لهـذه الفترة إلي التعامـل مـع مسـألة الحضـارات مـن خلال تطويـر نماذج نظريـة تطبق علي الحضـارات جميعها دون إسـتثناء. فالحضـارات جميعهـا تنشـأ وتزدهـر وتأفـل عنـد شـبنجلر ، أو أن أي حضـارة تطـور إسـتجابة للتحديـات التـي تواجـه الحضـارة كما ذهـب أرنولد توينبـى . وأن الحضـارات جميعها بها جوانـب روحيـة وحسـية ومثاليـة كما ذهب عالم الاجتـماع بيترم سروكين. حيـث أدرك مفكروا هذه المرحلـة ان تحليـل الحضـارات المختلفـة ينبغـي أن يتـم إسـتناداً إلي النظريـة التـي طورهـا المفكـر، حتـي يمكـن تقديـم تقييـم موضوعي للحضارة. في هـذا الإطار تركز إهتمام مفكـري الحضارات علي نشـأة الحضـارات وتطورهـا وإنهيارهـا ، كـما كان لديهم إتفاق عـلي أن كل حضارة مـن الحضارات ، بخاصـة الحضـارات الإنسـانية العظيمـة قـد قدمت إسـهامات واضحة عـلى صعيد التقدم الإنسـانى.

وفي إطار القضية الرابعة ، نظر المفكرون خلال هذه الفترة إلي الحضارات إتساقا مع التصور الكلي العضوي بإعتبار أن كل حضارة تشكل كلا متكاملاً، يتشكل من مجموعة من المتغيرات التي يؤدي تفاعلها إلي قيام الحضارة وإستمرار دوامها. وعلى هذا النحو ، فإننا نجدأن كل حضارة من الحضارات فيها جوانبها الروحية ، التي تتضمن المثل والمعاني التي تشكل الطاقة الدافعة لسلوكيات البشر. التي تلعب دورها فى بناء الجوانب المادية ، التي تعني الفنون، والتجهيزات المادية التي طورتها الحضارة حتي تستطيع التكيف بواسطتها مع السياق المحيط. غير أن الوزن النسبي لكل من هذه المتغيرات "المادية والروحية" يختلف من حضارة إلي أخري ، وفي بناء الحضارة الواحدة من مرحلة إلي أخري. وقد أستمر هذا النمط من التنظير الحضاري حتي قيام حركة الاستعمار التي إستمرت حتي الحرب العالمية الأولي ، حيث برز وعي من قبل الحضارة الغربية بإمكانيات القوة في الحضارات الأخري ، بخاصة الحضارة الإسلامية ورأت أن فى ذلك تهديد لها.

إرتباطا بذلك فإننا إذا تأملنا التنظير الحضاري الغربي في النصف الثاني من القرن العشرين فسوف نجده بسبب إنتصار الحضارة الغربية وعلي رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، ينطلق من نزعة التمركز حول الذات التى تنظر إلي الحضارة الغربية ، بإعتبارها اكثر الحضارات سمواً. فهى الحضارة التي شكلت نهاية التاريخ . وفي الحقيقة أننا إذا تأملنا التنظير الاجتماعي ، وليس الحضاري في النصف الأول من القرن العشرين لوجدنا أن كتابات كارل ماركس وماكس فيبر ، وإميل دوركيم وفرديناند تونيس ووارنر سومارت ، بغض النظر عن إختلافاتهم الداخلية ، تعد جميعها تنظيراً لتمجيد الحضارة الغربية ، حيث التأكيد الدائم علي أن عناصر بنيتها لم تتوفر للحضارات الأخري. وإذا كان ذلك قد ظل كامنا او متواريا في زمن الحرب الباردة ، فإنه مع إنتصار الحضارة الغربية الرأسمالية في نهاية النصف الثاني من القرن العشرين في صراع هذه الحرب الباردة، فإننا نجدها قد أصيبت بزهو القوة ، ومن ثم فقد أظهرت ما كان كامنا أو متواريا . ولأن صراع الحرب الباردة كان قاسيا في

بعض فتراته، فقد رأت ضرورة إلغاء إحتماليات الصراع الحضارى. ليس عن طريق التصالح أو التفاعل الحضاري السلمي ، ولكن عن طريق إلغاء الآخر الحضاري ، أو علي الأقل تقليم أظافرة. إنطلاقا من ذلك نظرت الحضارة الغربية إلي الآخر الحضاري فوجدت سلوكيات متنوعة. فمجتمعات هذا الآخر الحضاري إما أنها منشغلة في تطوير أوضاعها لإمتلاك أسباب القوة كما هي الحالة بالنسبة للحضارة الصينية والحضارات الأسيوية الأخري. أو ان مجتمعات حضارة أخرى ضعيفة واهنة لا تقوى علي المواجهة الحضارية، وإن إمتلكت إحتمالات القوة وإمكانياتها. ومن ثم فليس أمامها سوى الخضوع لقوي الحضارة الغربية، خاصة ان هذه المجتمعات تمتلك ثروة الطاقة، العنصر المحوري في التقدم التكنولوجي للحضارة الغربية، كما تمتلك الأسواق الملائمة لتصريف السلع. وأن الخطر يكمن في طاقتها المعنوية ومنظوماتها القيمية التي أصبحت مبهرة بالنسبة لأبناء الحضارة الغربية أنفسهم ، إضافة إلي الخوف من إحياء هذه الحضارة وإمتلاكها إرادة القوة والتحدي ، خاصة أنها تمتلك ثروات وإمكانيات ذات أهمية محورية بالنسبة للعالم. لكل ذلك أصبح التنظير الحضاري الغربي اكثر عدوانية بالنسبة للحضارات الأخري وبخاصة الحضارة الإسلامية.

ذلك يدفعنا إلي إستكشاف طبيعة القضايا التي تشكل موقف الحضارة الغربية فيما يتعلق بالتفاعل الحضارى في النصف الثاني من القرن العشرين والعقد الأول من الألفية الثالثة. حيث تتمثل القضية الأولي في تمحور التنظير الحضاري خلال هذه الفترة حول فكرة الصراع ، فهو تنظير ألهم بتنظير الصراع الطبقي الذي شغل مساحة واسعة في العقل الغربى ، وأيضا بالصراع الذي حدث في فترة الحرب الباردة. أحيانا إعتقدت بعض نماذج هذا التنظير كما في حالة "فوكوياما" أن الصراع قد حسم لصالح الحضارة الغربية الرأسمالية. علي خلاف ذلك نجد نماذج نظرية أخري كما في حالة هنتنجتون الذي رأى أن إحتمالات الصراع ما زالت قائمة ومستمرة. وقد ساعد علي تبني منطق الصراع تعادل القوى بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية. فالحضارة

الغربيـة لديهـا التقـدم المـادي، غـير أنهـا تعـاني مـن إنهيـار روحـي وأخلاقـي بـل وتمزق في النسـيج الاجتماعـي، حتـي أصبحـت غالبيـة تكويناتهـا عاجـزة عـن تطويـر رأس المـال الاجتماعـي. في مقابل الحضـارة الأسـلامية التـي تعيـش حالـة مـن التخلـف التكنولوجـي والفقـر المـادي ، غـير أنهـا تمتلك رأس المـال الأخلاقـي ، والقيمـي والدينـي والإمكانيـات لتـي قـد تتحـول إلي قـوة في المسـتقبل. كل حضـارة تفتقـد مـا تمتلكـه الحضـارة الأخـري ، وأمـام تـوازن القـوي بـين المـادي والمعنـوى ، أو بـين الكائـن والممكـن عـلي خلفيـة الاختـلاف الحضـاري تـبرز إحتماليـة الـصراع ، إذا إعتقـدت احـدي الحضـارات أنهـا تسـتطيع بوسـائل تفوقها إخضاع الحضـارة الأخري ، خاصـة إذا إعتقدت أن الحاضر التاريخـي هـو الزمـن الملائـم لإنجـاز ذلك.

وتشـير القضيـة الثانيـة إلي تأكيـد التنظـير الحضـاري في النصـف الثـاني من القـرن العشرين عـلي نزعـة الحضـارة الغربيـة الرأسـمالية نحـو التمركـز حـول الـذات، وهـي النزعـة التـي ظلـت مسـيطرة عـلي العقليـة الغربيـة منـذ بدايـة عـصر الاسـتعمار وحتـي نهايـة الحـرب العالميـة الثانية ، كـما أنهـا النزعـة التـي كانـت وراء نشـأة الفكـر التطـوري ، وكذلـك نشـأة نظريـات التحديـث. حيـث رأت هـذه النـماذج النظريـة أن الغـرب يشـكل النمـوذج الأمثـل للتحديـث، وأنـه إذا رغبـت المسـتعمرات المسـتقلة حديثـا تحقيـق التقـدم والتحديـث فعليهـا أن تسـلك نفـس الطريق الـذي سـلكته المجتمعـات الغربيـة (٢٢)، وأحيانـا فـرض الغـرب هـذه النـماذج عـلي المجتمعـات المسـتقلة باسـاليب عديـدة. ذلـك برغـم ظهـور بعـض الكتابـات الغربيـة - خاصـة أن هـذه الكتابـات ذاتهـا هـي التـي إمتدحـت التحديـث الغـربى – التـى بـدأت تـدرك أن عوامـل النفـي بـدأت تـؤدي دورهـا وفاعليتهـا في تـآكل الحضـارة الغربية مـن الداخـل. وتعد كتابـات ماكس فيبر حـول الـدور الـذي بـدأت تلعبـه البيروقراطيـة والتكنولوجيـا المتقدمـة في قهـر الحريـة الإنسـانية ، إضافـة إلى كتابـات هربـرت ماركيـوز التـي أكـدت عـلي أن المجتمـع التكنولوجـي المعـاصر بـدأ يختـزل الـذات الإنسـانية. يؤكـد ذلـك أن فرنسـيس فوكويامـا ، وهـو المفكـر الـذى أكـد عـلي نضـج الحضـارة الغربيـة وبلوغهـا غايتهـا ، كـما ذهـب إلي ذلـك في كتابـة "نهايـة التاريـخ" ، هـو نفسـه الـذي أكـد عـلي إتجـاه الحضـارة الغربيـة إلي الإنهيـار، كـما سـجل ذلـك في مؤلفـة "نهايـة

نظـام " The End Order حيـث يتعـرض النسـيج الاجتماعـي والأخلاقـي لهـذه الحضـارة للتمـزق والانهيـار. وهـو مـا يشـير إلي أنـه وإن إمتلكـت هـذه الحضـارة رأس المـال المـادي إلا أنهـا بـددت رأسـمالها الدينـي والأخلاقـي والمعنوي.

وفي إطـار القضيـة الثالثـة ذهـب التنظـير الحضـاري في النصـف الثـاني مـن القـرن العشرين إلي أن الغـرب والحضـارة الغربيـة تميـل إلي التعـرف عـلي ذاتهـا مـن خـلال الـصراع، فتاريخهـا هـو دائمـاً هـو تاريـخ الـصراع مـع الآخـر. تأكيـداً لذلـك أن حركـة الاسـتعمار تحققت من خـلال الصراع الـذي حسـم لصالـح أوربا بسـبب عدم تـوازن القوى. وفي النصـف الأول من القـرن العشرين تبنت الحضـارة الرأسـمالية الـصراع مـع الكتلـة أو الحضارة الاشـتراكية ، وقد تحقق لها الانتصـار في الصراع بسـبب عوامـل داخليـة فى الكتلـة الأخـيرة. وفي النصف الثاني مـن القرن العشريـن إتجهت الحضارة الغربيـة الرأسـمالية بعـد إنهيـار الكتلة الإشـتراكية إلى تأسـيس صراع جديـد مع الحضارة الإسـلامية، بـدأت بدايتـه فعـلاً في ظـل عـدم تكافـؤ القـوة. إضافـة إلي أنهـا تعـد العـدة لـصراع الألفيـة الثالثة مـع الصـين وحضارتهـا الكونفشيوسـية. وهـو مـا يعنـي أن الغـرب يتعرف عـلى ذاتـه ويؤكدها من خـلال الـصراع مـع الحضـارات الأخـري. وهـو الأمـر الـذي يلقـي قـدراً مـن الشـك في إحتماليـة أن يشـارك الغـرب بنيـة صادقة وشـفافية فيما أصبح يعـرف "بحوار الحضارات". غـير أن المتأمل لادارة الحضـارة الغربيـة للـصراع مـع الحضـارات الأخـري يدرك أنهـا قد طـورت آليات كثـيرة لادارة الصراع مـع الحضـارات الأخـري. فبينـما كان الـصراع العسـكري هو الشـكل المعتمد في القرن التاسـع عشر ، والـذي يسـتهدف قهـر إرادة الخصـم ، طـور الغرب آليـات الصراع الثقـافي لتحقيق الإخـتراق الثقافي. كـما طـور الـصراع الاجتماعـي من خـلال إسـتنفار بعـض الفئـات الاجتماعية التـي لديها الاسـتعداد للخـروج عـلي النظـام في مجتمعاتهـا. إضافـة إلي محاولـة تأليـب الأقليـات في مجمعـات الحضـارات الأخـري، في ظـل إدعـاءات الدفـاع عن حقوق الإنسـان والأقليـات ، إضافة إلي السـعي لادارة الصراع مـن خـلال الإعـلام وتكنولوجيـا المعلومـات لتمزيق النسـيج الأخلاقـي والروحى للحضـارات الأخري ، بخاصـة الحضـارة الإسـلامية ، حتـي لا يصبـح لديهـا شـكل من أشـكال التفوق -ولو حتـي المعنوى - عـلي الحضـارة الغربية.

وتشير القضية الرابعة إلي حالة من العدائية التي تنظر من خلالها الحضارة الغربية إلي الحضارات الشرقية بخاصة الحضارة الإسلامية ، كما يعبر عنها صمويل هنتنجتون الذى أكد على ترادف الحضارة الإسلامية مع الدين الإسلامى أو تستند إليه. علي هذا النحو يلعب الدين الإسلامي كما يرى هنتنجتون –وهي حقيقة – دوره بإعتباره قاعدة للهوية وللحضارة. وفي هذا الإطار يشكل الدين إلتزاما يتجاوز الحدود بين المجتمعات ، حيث يلتزم المؤمنون بأن يرتبطوا به وحده دون الالتقاء بغيره. إستناداً إلي ذلك فإنه إذا كان من السهل – حسبما يذهب هنتنجتون – أن يكون الشخص لديه جنسية مزدوجة كأن يكون نصف عربي half-Arabic. ونصف فرنسى half-Franc ، وفي نفس الوقت هو مواطن في دولتين أو حضارتين. فإنه من المستحيل أن يصبح الشخص نصف كاثوليكي half-Catholic ونصف مسلم half-Muslim في ذات الوقت. علي هذا النحو يري هنتنجتون أن الدين الإسلامي يشكل قاعدة قوية للحضارة الإسلامية (٢٣) ، كما أنه يمثل خطا فاصلاً يميز الهوية العربية الإسلامية. وبذلك تصبح الهوية الحضارية معطاة مسلم بها ، وتضحي الحضارة والدين مصطلحات تخفى وراءها نزعة قريبة من النزعة العنصرية.

وإرتباطا بذلك ، نجده يعتقد وآخرون أن الحضارة الإسلامية هي الحضارة المرشحة للصراع وذلك لأربعة إعتبارات. حيث يتعلق الإعتبار الأول بالطابع التاريخي للصدام مع الغرب. إبتداء من الحرب الصليبية، مروراً بتصفية المسلمين في الأندلس وإستعمار الغرب للعالم الأسلامي وتقديم فلسطين وطنا ليهود الشتات، ومحاولة تصفية المسلمين في البوسنة والهرسك . وإنتهاك أوطانهم كما في العراق ، وتفتيت مجتمعاتهم كما هو الحال في العراق والسودان، والعمل بعناد علي حرمانهم من القوة كما هي الحال بالنسبة لإيران. ويؤكد الإعتبار الثاني علي أن الغرب قد طور مصالح خاصة به ، تتمثل في السعى من أجل الحصول علي بترول العرب والمسلمين، فهو إذا حصل علي البترول فسوف يكون بإمكانة التحكم في معدلات نمو الحضارات الأخري علي الصعيد العالمي ، والغرب تتوفر لديه نية تأمين هذه المصالح ، حتي لو تطلب الأمر صراعا. ويتصل

الإعتبـار الثالـث بالقاعـدة الدينية للحضارة الإسـلامية ، التي تجعلها تختلف عـن الحضارات الأخري في كونهـا حضـارة قـد تقبـل التفاعل مـع الحضارات الأخـري ، ولكنها لا تقبل الذوبـان أو تبنى القيم الغربيـة لإعتبـارات كثيرة. ويتحـدد الإعتبـار الرابـع في أن الحضـارة الإسـلامية ، كـما تحـددت في الوثائـق الأساسـية للإسـلام، تتضمـن توازنـا دقيقـا بين التسـامح مـع الآخـر والتفاعل معـه بأريحية ، وبـين مقاومتـة ورفـع رايـة الجهـاد ضـده إذا هـو قـد حاول قهـر شـعوبها أو البطـش بهـا. ويتمثل الإعتبـار الخامـس في حالـة الضعـف والوهـن التى عليها العـالم العربي والإسـلامي الآن، وهي الحالة التـي تشـجع الآخريـن علي الإغارة عليهـم وقهرهم والحصول علي خيراتهم . تجسـيداً لقول الرسـول الكريـم "صلى اللـه عليـة وسـلم" "توشـك أن تتداعي إليكم الأمم كـما تتداعي الأكلـة إلي قصعتها ، قالـوا أمـن قلـة يا رسـول اللـه، قال بـل من كـثرة ولكنها كـثرة كغثاء السـيل" (٢٤).

وإسـتناداً إلي إدراك الحضـارة الغربيـة لخطـورة كامنـة في الحضـارة الإسـلامية ، فقـد إتجهـت إلي الهجـوم المبـاشر عليهـا لتفكيـك بنيهـا ، وقـد شـنت هـذا الهجـوم عـلى جبهـات عديدة تقـع عـلي الجانـب المعنـوي للحضـارة. وتشـكل اللغـة العربيـة جبهـة الهجـوم الأولي والأساسـية ، ذلـك لأن اللغـة تحتـل مكانـة محوريـة في بنيـة الهويـة العربيـة . فاللغـة هـي لسـان العـرب وهـي التـى شـكلت آليـة تراكـم حضارتهـم المعنويـة ، واللغـة هـي التـي أطلقـت عنـان خيالهـم الـذى أتسـع بإتسـاع الصحـراء. ثـم أن اللغـة هـي التـي أوحـي بهـا الديـن الإسـلامى ، حيـث أنـزل القـرآن بلغـة عربيـة وعـلي نبـى عـربي . وبهـذه الواقعـة – أي نـزول القـرآن بلغـة عربيـة وعـلي نبـى عـربي – أضفـى الديـن شرفـا عـلي العـرب ووضعهـم في مـكان الصـدارة مـن العـالم الإسـلامي، كـما حافـظ الديـن عـلي اللغـة نقيـة ومتداولـة ومـن غـير تحريـف أو تشـوية. وتشـوية اللغـة بـدأ محـدوداً بتأسـيس بعـض المـدارس في بعـض المراحـل التعليميـة التـي يتعلـم بهـا أبنـاء النخبـة المتصلـين ثقافيـا بالثقافـة الغربيـة ، وحينـما حـدث الإمتـداد الليـبرالي عـلي السـاحة العالميـة في الثلـث الأخـير مـن القـرن العشريـن، وتحولـت مجتمعاتنـا العربيـة إلي الليبراليـة ، أتصلت الأسـواق العربيـة بالإسـواق العالميـة وبـدأت تعمـل وفـق معاييرهـا ومتطالباتهـا. حيـث أنعكـس ذلـك

علي التعليم واللغة ، فبدلا من تعليم اللغات الأجنبية إلي جانب اللغة العربية، برز إهتمام قوي تابع بالأولى وعلي حساب الثانية. وإتساقا مع ذلك أتسعت مساحة التعليم الأجنبى ليشمل غالبية المراحل التعليمية بما في ذلك التعليم الجامعى . حيث تأسست في مصر علي سبيل المثال ما يزيد علي خمس جامعات أجنبية ، يضاف إلي الجامعات الخاصة التي يتم التعليم فيها في الغالب باللغة الأجنبية ، ذلك إلى جانب توسيع مساحة التعليم بلغة أجنبية في الجامعات الحكومية. قد ينظر البعض إلي أن ذلك يتسق وإحتياجات السوق التي أصبحت عالمية ، غير أنه كان من الممكن أن نهتم بإحتياجات السوق ولا نغفل في ذات الوقت إحتياجات الهوية بالتأكيد علي لغتها.

ويساعد علي إنهيار اللغة من المؤسسات الأكاديمية إستبعادها تدريجيا من مجري التفاعل الاقتصادي والاجتماعي ، حيث تنزوي وكأنما هي لغة مدانة، يحدث ذلك حينما تستبدل اللغة العربية الصحيحة بلغة هجين ، لغة وسط بين اللغة العربية وأي من اللغات الأجنبية وبشكل إنتقائى. في هذا النطاق تنتشر مسميات كثيرة منها "سميركو" أى شركة سمير ، أو "صيانكو" أي شركة الصيانة ، أو "أمانكو" أى شركة الأبواب الآمنة، أو "صادكو" أي شركة صادق. ومع مرور الوقت يتم تجاوز الأنصاف العربية في الهجين كمدخل لتعبيرات أجنبية كاملة. حيث تكتب أسماء الشركات بمنطوق إنجليزي مثلاً ولكن بحروف عربية مثل "بتروتريد" باللغة الأجنبية معني وصياغة. ومن الطبيعي أن يؤدى هجر اللغة إلي هجر الثقافة ، وبذلك تكسب ثقافة الحضارة الغربية ولغتها أرضاً ثقافية جديدة، ويتقلص في المقابل نصيب اللغة والثقافة القومية أو الحضارية، لتنسحب من مساحة كانت تحت سيطرتها ، أي تنسحب من أرضها ووطنها(٢٥). وإذا كان ذلك يحدث في الجيل الحالي ، فإن الأجيال المتتابعة سوف تنفصل مستقبلا بصورة تدريجيا عن لغتها ، حتي تصبح لغتها العربية غريبة عليها ومن ثم ثقافتها. وهو ما يعني إختراق الأمن القومي الثقافي للمجتمع. مؤشر ذلك ما نلاحظة الآن من إتجاه الشباب إلي هجر لغتة والانفصال عنها وإستبدالها بلغة جديدة – لغة الشباب – لها معانيها ومفرادتها وتعبيراتها ، تأكيداً لحالة

الانفصال عن اللغة والثقافة القومية ورفضا للتفاعل من خلالها أو بواسطتها. في هذا الإطار تطرح مفردات مثل "روش" ، "بيئة" ، "مأنتك" وغيرها لتصبح شاهداً علي إنفصال شريحة كاملة عن المجتمع، إستهدفتها ثقافة الحضارة الغربية وسقط إرتباطها باللغة والثقافة القومية.

ويشكل الإعتداء علي الدين الجبهة الثانية لاعتداء الحضارة الغربية علي الهوية. في هذا الإطار ينطلق عداء الحضارة الغربية للدين من عدة إعتبارات، الأول أن الدين ضارب بجذورة في تاريخ ووجود الجماعة، فتاريخ الجماعة قد يتتابع أو تنقضي مراحلة، وطبقات الثقافة قد تتغير أو تندثر ، وبرغم ذلك فإن الدين باق، ثم ان الدين هو الذي يحفظ للجماعة وجودها. فالدين هو الذي لعب دوراً نضاليا في الحفاظ علي إستقلال المجتمعات العربية والإسلامية بعد أن غزتها جيوش الحضارة الغربية وأستعمرتها ، ثم أن الدين هو الذى شكل السياج أو الدرع الذي حافظ علي الجماعة من الإنهيار. فالدين يدعو دائما إلي الفاعلية والنضال ، وهي المعاني التى تتناقض مع الاسترخاء الذي تشيعة الحضارة الغربية في ثقافتنا ونوعية حياتنا. وإذا كانت الحضارة الغربية تتبنى الغزو الثقافى كمدخل للسيطرة علي مساحة الاقتصاد والسياسة. فإن الدين يبدأ روحيا ، ثم يتحول من خلال تأكيده علي الارادة إلي دفع الإنسان لتحقيق إنجازات خارقة في السياسية والاقتصاد كذلك. وإذا كان الدين يسمو بالإنسان روحيا حتي لكأنه يفكر بروح الله ويعمل بيده ، فإن ثقافة الحضارة الغربية المخترقة توسع مساحة الغرائز لدي الإنسان حتي تهبط به إلي ما دون ذلك، ربما حتي الدرك الأسفل.

وإذا كان الدين يشكل قاعدة الثقافة ، فليكن إضعاف الارتباط بالدين طريق لإختراق الثقافة. وأضعاف الدين يمكن أن يتحقق بوسائل عديدة ، منها التعامل الانتقائي مع الدين ، فبدلا من إستيعاب الأجيال الحاضرة والمستقبلة للبناء العقيدي للدين متكاملاً ، فلنكتفي ببعض العناصر ونستبعد أخري . مثال على ذلك الدعوات المتآمرة لإستبعاد آيات الجهاد من القرآن، تلك المتعلقة بالتعامل مع الآخر العدو ، من المفردات الدينية الإسلامية للتلاميذ في المدارس.

والتـمادي في هـذا الاتجـاه حتـي إسـتبدال مقـرر الديـن بمقـرر عـن الأخـلاق لإهـدار دم الديـن الإسـلامي والمسـيحي عـلي السـواء، بإفـتراض أن ذلـك يمكـن أن يسـقط المرجعيـة الدينيـة للمجتمع عـلي المـدي البعيـد. ويتكامـل مـع تفكيـك الديـن إسـتبعاده عـن أن يشـكل قاعـدة الثقافـة. وإذا كان الديـن يحتـوي عـلي عنـصري العبـادات والمعامـلات. العبـادات تتـولي تشـكيل الضمـير الفردي للمسـلم ، الـذي يشـكل الديـن مرجعيتـه في مختلـف تعاملاتـه اليوميـة في مختلف المجـالات. فإن فـرض أسـس جديـدة للمعامـلات مـن خـلال الإخـتراق الثقـافي، سـوف يبعـد الديـن عـن أن يشـكل مرجعيـة أو مصـدراً للقيـم والمعايـير، التـي تنظـم التفاعل داخـل إطار الحيـاة اليوميـة. وإذا كانت العبـادات في الديـن هـي المدخـل لتأكيـد أسـس المعامـلات في الحيـاة الاجتماعيـة، فإن وضع أسـس جديـدة للمعامـلات مـن خـارج الديـن بـل ومـن خـارج الحضـارة ، سـوف يكـون مدخـلاً لأضعـاف فاعليـة العبـادات ، وهـو مـا يعـد إضراراً بالديـن والحضـارة عـلى السـواء.

ويشـكل فصـل الديـن عـن الثقافـة ، مدخـل لفـرض لتراجـع الديـن وإضعـاف لمناعـة الثقافـة. ويتحقـق هـذا التراجـع للديـن ، إسـتناداً إلي حقيقـة أنـه إذا كان الديـن مجموعـة مـن العبـادات والمعامـلات ، فـإن أبعـاد الديـن مـن خـلال أضعـاف - القناعـة بالعبـادات – ويتـم ذلك بآليـات عديـدة - ، سـوف يقـود إلي تراجـع الديـن عـن أن يكـون حـاضراً عـلي سـاحة المعامـلات. إذا حـدث ذلـك فـإن التفاعـل الاجتماعـي سـوف يحكـم أو ينظـم بمعايـير وقواعـد تختلـف كثـيراً عـن قيـم ومبـادئ الثقافـة القوميـة. مبـادي غريبـة أو غربيـة تشـكل مرجعيـة إختلاط الشـباب في محـلات الطعـام وفي صـالات الرقـص وفي "قهـاوى" تدخـين الشيشـة ، ناهيـك عـن الملبـس ، إضافـة إلى تبنـي كثـير مـن عنـاصر نوعيـة الحيـاة الغربيـة والأمريكيـة بالتحديـد. ويتفاقـم الأمـر حينـما تتراكـم السـلوكيات البعيـدة عـن مقتضيـات الديـن والـتراث والثقافـة القوميـة، لتدفـع بالإنسـان إلي أتـون السـلوكيات المنحرفـة كتعاطـى المخـدرات وممارسـة الجنـس الحـرام. وإذا كان منطـق الديـن ينطلـق مـن العبـادات ليدعـم أو يقـوي المعامـلات فـإن الإخـتراق الحضـارى الغـربي يبـدأ مـن الطـرف المقابـل ، مـن السـيطرة عـلي المعامـلات اليوميـة المحـدودة التي تتسـع لتشـغل مكانة

المعاملات في الدين ، ومن ثم تفرض تآكل العبادات الدينية والممارسات الدينية معا (٢٦).

وإذا كان الأصل ان يشكل الدين قاعدة للتنظيم الجماعي ، ومن ثم قاعدة للثقافة ، فإن إختزال الدين إلي حدود الضمير الفردي والسلوكيات الفردية، يعنى أن الدين لم يعد يشكل مرجعية للجماعة. الأمر الذي يحرم الثقافة القومية من قواعدها المعنوية والأخلاقية الصلبة فتصاب بالضعف والوهن وربما الإنهيار. وفي حالة غياب الدين كمرجعية شاملة، وإنهيار أو ضعف الثقافة القومية عن السيطرة علي التفاعل الحادث في الفضاء الثقافي للمجتمع تقع ظاهرتين علي نوع من التتابع . الأولي إمتلاء الفضاء الثقافي بمرجعيات ثقافية عديدة ، ثقافات الأقليات وثقافة الشباب ، وثقافة العلمانيين وثقافة المتدينين. وتتمثل الظاهرة الثانية في بداية خضوع الجزر الثقافية المفتته لآليات الإختراق الحضاري ، عارية من دعم العواطف الدينية ونقائها، وعارية كذلك من تماسكها في إطار ثقافة قومية عامة تشكل نسقها الكلى والشامل. ونتيجة لذلك تخلي هذه الثقافات المجزأة تدريجيا الساحة لثقافة الحضارة الغربية. أو تستلهم مرجعياتها من هذه الثقافة، أى العمل بإتجاه إستبدال مرجعية الدين بمرجعية ثقافة الحضارة الغربية. وهو ما يعني إستبدال مرجعية السواء والاستقامة بمرجعية الحرام والعيب ، ومن الطبيعى أن يتضمن ذلك بطبيعة الحال إختزال الدين وكذلك الثقافة القومية المستندة إلي أسسه وثوابته (٢٧).

ومثلما إعتدت الحضارة الغربية علي اللغة والدين ، فإنها خبرت الإعتداء علي الثقافة كذلك، ذلك لأن إضعاف الثقافة سوف يلعب دوره في إضعاف الهوية. الهوية التي جاءت بعض عناصرها من الدين ، بينما تدفق البعض الآخر من التراث والتاريخ ، علي حين نتج البعض الثالث عن التفاعل الاجتماعي، القائم والناتج عن تفاعل عناصر مكونات بناء الجماعة، التي تضم الموقع والأرض ونوعية ونمط الإنتاج ، بل ونوعية الحياة ذاتها. حيث يتخلق مزيج حضارى يصهر وجود الجماعة في مزيج واحد ومتداخل سماه دوركيم روح الجماعة أو المجتمع (٢٨). ومن الطبيعى أن يؤدى إضعاف الثقافة والهوية القومية إلي إنشطارها وتجزؤها إلي هويات صغيرة ومحدودة ، بل وهويات متغيرة وغير

ثابتـة ، هويـات صغـيرة قـد تقـوم علي أسـاس من الدين أو العـرق أو الاجتماعي والمـكاني ، أو حتي الإختيار السياسى.

ويعـد إعتـداء الإخـتراق الثقـافى والحضـارى عـلى بنية الثقافـة والقيـم أبرز أشـكال الإعتداء مضـاءً ، وذلـك لإعتبـار نسـق الثقافـة والقيـم أكـثر الأنسـاق محورية في بنـاء المجتمع وحيـاة البشر. إرتباطـا بذلـك تتشـكل الثقافـة المعـاصرة لأي مجتمـع مـن مصدريـن ، الأول التراث الثقـافى المتطور تاريخيـا والـذي ينتقـل مـن جيـل إلي آخـر في نوع مـن التراكـم التاريخـى المتتابع والمتنامـى ، والذي يعـبر عـن خـبرة المجتمـع ويعـد شـاهداً على ثـراء ماضيه الحضـارى . بينما يشـكل التفاعـل المعاصر الحـادث في المجتمـع المعـاصر المصـدر الثـانى، وهـو التفاعـل الذي تتـم في إطاره مواءمـة التراث مع الأحـداث الواقعيـة واليوميـة المتجـددة . وهـو ما يجعل التفاعـل المعاصر يفرز قيـما جديدة تضاف إلي المـيراث الثقـافى ، وتلعـب دورهـا – مـن خـلال التنشـئة - في توجيه سـلوكيات البـشر في مختلف مجـالات المجتمـع ، وكذلـك في إضفـاء الطابـع العـصري عـلي الـتراث. بالإضافـة إلي ذلـك فالثقافـة لهـا علاقتهـا بالإنسـان الفـرد الـذي يسـتوعب قيم الثقافـة بداخلـه ، وفي ذات الوقت هـى موجودة خارجـة فى عقـل الجماعـة تراقبـة. وبذلـك فـإذا إنهـارت ثقافة المجتمـع إفتقد الإنسـان القدرة علي توجيـة سـلوكه وسـقط أسـير الإنحراف والخـروج على النظـام (٢٩).

ذلـك يعنـى أن الإخـتراق الثقـافى مثلـما هـو تقليـص للمصـادر التـى تتدفـق منهـا الثقافـة القوميـة فإنـه يحـدث إنقلابـا قيميـا في بنيـة الشـخصية ذاتهـا ، لأنه يقتلـع البعد الثقافى مـن داخله ، لأن ثقافـة العولمـة فرضـت عـدم تلاؤمـه مـع الاحتياجـات الثقافيـة للعـصر. عـلى هـذا النحـو لا يصبـح الإخـتراق الثقـافى – كـما يدعـى المروجـون لذلـك – هـو سـعى للإرتقـاء بالثقافـات الوطنيـة والقوميـة إلى ثقافـة عليـا جديـدة هـى الثقافـة العالميـة – التـي هـى ثقافـة القـوى المسـيطرة عـلي العـالم – بـل إن هـذا الإخـتراق يعـد إغتصـاب وعـدوان رمـزي عـلي سـائر الثقافـات ، وهـو فعـل متـوازى مـع العنـف المسـلح لكونـه يهـدر سـيادة الثقافـة القوميـة. ذلـك يعنـى أن الإختراق الثقـافى هـو نـوع مـن سـيطرة الثقافـة الغربيـة عـلى سـائر الثقافـات بواسـطة مكتسـبات العلـوم

والتكنولوجيا فى ميدان الاتصال (٣٠). والقول بسيطرة الثقافة الغربية لا يعكس واقع الحال ، لأن السيطرة هى سيطرة الثقافة الأمريكية التى تتمدد وتتسع على إمتداد العالم وإتساعه حتى أن الثقافات الأوربية باتت تدرك خطورتها ، وتنادى بما يسمى "بالاستثناء الثقافى" (٣١).

وإذا كانت الثقافة القومية التى طورتها المجتمعات عبر تاريخها الطويل قد لعبت دوراً أساسياً فى إستقرار هذه المجتمعات وتطويرها والحفاظ على ذاكرتها حية ومتفاعلة ومبدعة ، فإن ذلك يرجع بالأساس لإتساع مساحة السواء فى بنية هذه الثقافة. ونعنى بالسواء تضمن هذه الثقافة لمنظومات قيم تؤكد على الفاعلية والانتاج بدلا من الركون إلى الدعة والاستهلاك، حيث تدعو مضامين هذه الثقافة إلي إشباع الحاجات الروحية بقدر ما تؤكد على إشباع الحاجات البيلوجية. إلي جانب ذلك فإن بهذه الثقافة دعوة إلى التقشف لأنه المدخل إلى التراكم وبناء الحضارة ، كما أن بها دعوة إلى التأمل وإعمال العقل تحقيقا للإبداع الذى يعد مدخلاً لبناء الحضارة المتماسكة والمتجانسة بالأساس (٣٢).

بالإضافة إلى ذلك فإن الثقافة القومية فى جزء كبير منها تعبر عن ثقافة التراث التي لها جذورها الضاربة فى تاريخ البشر ووجودهم ، لكونها تجسد رمزيا إبداعاتهم للتكيف مع الطبيعة التى خلقوا فيها عرايا - سوى من العقل والحاجات البيلوجية - فى مواجهتها. حيث أبدع البشر الثقافة حتى تصبح آليتهم في تكييف وتعديل الطبيعة بما يساعد على إشباع حاجاتهم الأساسية. كما أن الثقافة تشكل الآلية التى تنظم تفاعل البشر بما يساعد في تأسيس حالة إجتماعهم ، وبما يؤهلهم لتأسيس نظمهم الاجتماعية وإستمرار المجتمع ، فاللغة آداه التواصل ، والمنظومات القيمية للثقافة تتولى تنظيم تفاعلهم مع بعضهم البعض فى مختلف المجالات الاجتماعية ، بحيث تشكل مفردات الثقافة أساس العقد الاجتماعى لقيام المجتمع. على هذا النحو تشكل الثقافة فى تطورها البعد المعادل أو المناظر لتطور المجتمع، فعلاقتها بالمجتمع علاقة متبادلة ، حيث يؤدى تطور أحدهما إلى تطور الآخر فى نوع من التغذية الخلفية المستمرة. وكلاهما يبدأ من نقطة "صفر" أو نقطة إنطلاق واحدة ، وكلاهما فاعل فى تطوير ذاته

وتطوير الآخرين ، وكلاهما أيضا يرجع إلى جذر واحد. وإذا كان البشر من خلال تفاعلهم على ساحة المجتمع قد أبدعوا تراثهم الثقافى ، فإن هذا التراث يتشكل بدوره من تراكم الطاقة التى تدفعهم وتحفزهم لمزيد من الأبداع. بالإضافة إلى ذلك ، فالتراث الثقافى هو كتاب المجتمع ، الذى نستكشف من خلال قراءته الطبقات الأركيولوجية لتطور عقله ورصد منجزاته.

ذلك يعنى أن تبديد الإختراق الثقافى للثقافة القومية يعنى قطع المجتمع عن جذوره ، ليصبح بلا قاعدة عن تراثه ، فاقد لصلابته وهويته ، من ثم يصبح من السهل إعادة تطويعه وتشكيله. ذلك يدفعنا إلى إستكشاف عناصر التراث الثقافى للمجتمع ، التى أصبحت موضع هجوم العولمة وهى العناصر التى تتصل باللغة ، ومنظومات القيم التى تشكل بنية الثقافة والقيم، بمعنى المعانى الرمزية المنظمة لتفاعل المجتمع ، والتى تشكل القاعدة الأخلاقية للمجتمع ، إضافة إلى التراث المادى للمجتمع ، إلى جانب نوعية الحياة الإجتماعية فى واقعها اليومى الممارس، ونعرض فيما يلى لتأثير العولمة على الجوانب المختلفة لتراثنا الثقافى.

لذلك يستهدف الصراع الذى تفرضه الحضارة الغربية على حضارتنا الإسلامية العربية إحداث عدد من الظواهر التى من شأنها أن تؤثر فى عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية لأبناء حضارتنا. حيث يعد إنتهاء مرحلة التفرد الحضارى فى التنشئة الاجتماعية والسياسية أبرز ملامح العلاقة بين الحضارة والتنشئة الاجتماعية والسياسية. يتضح ذلك من إننا إذا تأملنا الحضارات العالمية فى فترة سابقة، فسوف نجد أن كل حضارة كان لها طابعها الخاص، من حيث منظومات القيم الأثيرة لديها ، والتى ترى أنها ملائمة لتوجية السلوكيات الاجتماعية والسياسية على السواء. وبينما كانت التراتبية هى التى تميز المشاركة والسلوك الاجتماعي والسياسى فى الحضارة الرومانية والحضارات الغربية التى تلتها، كانت المساواتية هى التى تميز المشاركة والسلوك الاجتماعي والسياسى للحضارة الإسلامية بخاصة فى مراحلها الأولى ، الأمر الذى جعل لكل حضارة ثقافتها السياسية الخاصة. ويرتبط بذلك أن قيم وآليات التنشئة الاجتماعية والسياسية فى الحضارة الإسلامية لم تكن موضع تساؤل أو شك أو

مناقشـة ، حيـث أصبحـت هـذه القيم والآليات مسـلمات أساسـية ينبغـى الإنطلاق منهـا خاصة إذا إسـتندت إلى قاعـدة دينيـة. ولأن الحضـارات الأخرى لم تكن حـاضرة فى الماضى فى ذات الزمان وذات المـكان ، فقـد كان مـن الطبيعـى أن تتحقـق التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية بمسـتوياتها المثاليـة فى نطـاق هـذه الحضـارة ، وأن يتحقـق إلتـزام أبنـاء الحضـارة بمنظومـات القيـم ونمـط المشـاركة الاجتماعيـة والسياسـية والسـلوك الاجتماعـي والسـياسى الـذى تفرضـه الحضارة.

وبرغـم التسـليم المنطقـى والطبيعـى بـأن تقـوم كل حضـارة بتنشـئة أبنائهـا إجتماعيـا وسياسـيا وفـق مضامينهـا الأساسـية ، وهـو مـا كان يحـدث فى المـاضى، إلا أننـا نلاحـظ أن الحضـارة الغربيـة بالتحديـد كانـت تميـل دائمـاً إلى فـرض ثقافاتهـا والسـلوكيات الاجتماعيـة والسياسـية التـى ترتضيهـا عـلى أبنـاء الحضـارات الأخـرى. وقـد بـدأت هذا السـلوكيات نحـو الحضـارات الأخرى من خـلال حركـة الاسـتعمار ، حيث حاولـت تصدير الثقافة ونوعيـة الحياة متضمنة الجوانب السياسـية والاجتماعيـة فى مقابـل إسـتلاب خيراتهـا الإقتصاديـة ، بحيـث إسـتهدفت بذلـك أن تتضافـر هـذه الجوانـب الثلاثـة مـع بعضهـما البعـض فى فـرض تبعيـة أبنـاء الحضـارات الأخـرى. ثـم تجـدد هـذا السـلوك الحضـارى خـلال مرحلـة التحديـث ، حيـث طرحـت دعـوة إختياريـة للمجتمعـات ، التـى إسـتقلت فيـما بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة وسـعت إلى تنميـة وتحديـث أبنيتهـا فى طـرق نفـس الطريـق الغـربى فى النمـو ، وأسسـت التنظـير الـذى يـشرع ذلـك كـما تجسـد ذلـك فى كتابـات إميل دوركيـم ، وتالكـوت بارسـونز ووالـت روسـتو. وفى الواقـع المعـاصر تسـعى الحضـارة الغربيـة عـلى فـرض رؤيتهـا التحديثيـة بآليـات كثـيرة تـتراوح بين المسـاعدات كنـوع مـن الترغيب وحتـى التهديد بإسـتخدام القـوة كنـوع مـن الترهيـب. وبرغـم أن هـذه الحضـارة – أي الحضـارة الغربيـة – ترفـع شـعارات التنوع ، والوحدة فى التنوع ، إلا أنها تسـعى إلى فرض ثقافاتها الاجتماعية والسياسـية على مختلـف الحضـارات ، بخاصـة الحضـارة الإسـلامية ، لتكـون الثقافـة الموجهـة للمشـاركة الاجتماعية والسياسـية والسـلوك الاجتماعي السـياسى.

وتشـير الظاهـرة الثالثـة إلى أن إتسـاع نطـاق التعليـم الأجنبـى عـلى حسـاب التعليـم القومـى لكونـه – أى التعليـم الأجنبـى - يتحقـق وفـق برامـج ولغـة قوميـة

، بحيث يشير ذلك إلى الضغط المباشر وغير المباشر من قبل الحضارة الغربية بالتحديد، وتتحدد المساحة الغالبة للتعليم الأجنبى الذى يتحقق بلغة أجنبية ، إما فى داخل جدران أجنبية كالجامعات الأجنبية التى تكاثرت فى مجتمعاتنا فى الفترة الأخيرة، أو أن التعليم فيها يتحقق حسب برامج أجنبية كما هو الحال فى الجامعات الأجنبية وغالبية الجامعات الخاصة وأقسام التعليم الأجنبى فى الجامعات الحكومية. وإذا كان ذلك يشهد على حالة الوهن والضعف التى تمر بها حضارتنا ، فإن ذلك من شأنه أن يقود إلى عديد من النتائج السلبية بالنسبة لمجتمعاتنا. فى هذا الإطار يعد هجر اللغة القومية وإستبدالها بلغة أجنبية اول هذه النتائج السلبية ، بحيث يقود ذلك على المدى البعيد إلي هجر الثقافة وهجر الدين لتضافر هذا الثلاثى مع بعضه البعض ، بحيث نجد أن هجر أحد عناصر التضافر سوف يقود حتما إلى هجر العناصر الأخرى. ومن شأن ذلك أن يؤدى بدوره إلى هجر الهوية ، وترسيخ حالة الاستتباع الحضارى ، ومن ثم توسيع مساحة البشر الذين يتعمق لديهم إحساس بالخبرة الثقافية والسياسية الغربية. كما أن ذلك يؤدى إلى تربية أجيال يتميز سلوكها الثقافى والاجتماعى والسياسى بالطابع الغربى ، متخليا عن آية معايير أو قيم تتصل بحضارتنا أو مجتمعاتنا. بل أن هذه الأجيال قد لا ترى فى التبعية للغرب بأساً ، ومن ثم فهى قد تلعب دوراً فى تنظيم تفاعلاتنا السياسة وفق معاييره.

وفى إطار الظاهرة الرابعة نجد أن الحضارة الغربية تدرك أن الدين كان دائماً هو الذى يقود المقاومة داخل العالم الإسلامى. سواء كانت المقاومة موجهة ضد قوى الاستعمار من أجل الحصول على الاستقلال (٣٣)، أو أخذت شكل مقاومة الأنظمة السياسية الظالمة بحثا عن العدل والحرية للمواطنين. وإستناداً إلى هذا الإدراك إتجهت قوى الحضارة الغربية إلى تقليم أظافر الدين ، حتى لا يصبح آلية من آلية المقاومة أو يضحى آلية من آليات بعث الارادة الحضارية القوية والمستقلة. ومن ثم فقد عملت تارة على توسيع مساحة التعليم العلمانى بهدف تقليص مساحة التعليم الدينى. وتارة أخرى من خلال نزع آليات الجهاد والمقاومة والصراع مع الآخر الدينى ، بخاصة الآخر اليهودى ، ليصبح دينا

مستأنساً غير قادر على توجيه السلوك الاجتماعي والسياسى ، الذى يعبر عن الارادة المستقلة والمتمردة أو الرافضة. وفى هذه الحالة لا يصبح الدين مرجعية للتنشئة السياسية التي تدفع إلى المشاركة والسلوك السياسى المستند إلى إرداة مستقلة ، ولتحقيق ذلك فلا مانع من إختراق الدين ببعض التفسيرات أو التأويلات التى تشيع الفوضي فى الحياة الدينية للمجتمع ، مثال على ذلك ظاهرة الإفتاءات الكثيفة والمتنوعة التى طرأت على حياتنا الدينية. أو إستئناسة كما أشرت بحيث يصبح الدين عاجزاً عن التنشئة الاجتماعية والسياسية وفق منطق المقاومة او المنازعة، بل تنشئة البشر بديلا لذلك على الطاعة فى جملة الأحوال. وفى النهاية تأسيس مساحة أو مسافة تتسع كل يوم بين الدين ، الذي تتقلص مساحتة فى حياتنا اليومية ، وبين هويتنا الحضارية لتصبح طافية فى الفضاء ، بلا قواعد دينية تشكل رواسخ أو قواعد ثابته لها ، فى هذه الحالة يمكن تشكيل الهوية بأى طبيعة ودفعها فى أى إتجاه.

وتشير الظاهرة الخامسة إلى أنه بسبب التقارب فى الزمان والمكان فإن الحضارات قد إقتربت من بعضها البعض، بحيث أمكن التعرف على الأساليب المختلفة للتشئة الاجتماعية والسياسية التى تتبعها الحضارات المحتلفة. ومن ثم بدأ مواطنوا الحضارات المختلفة فى المقارنة والمفاضلة بين هذه الأساليب المتباينة السائدة فيها. وفى غالب الأحيان لم تكن المقارنة أو المفاضلة لصالح الحضارة الإسلامية ، أولاً لتحيزات تم تضمينها فى المقارنة أو المفاضلة، فغالبية الذين فاضلوا أنجزوا ذلك بالنظر إلى المرجعية الغربية الكامنة فى وعيهم ، وثانيا لأن الحضارة الإسلامية أبرزت بصورة جامدة وغير متجددة ، اللاهم إلا فى الحاضر القريب ، ولذلك لقى الميل إلى إستبعاد المرجعية الحضارية الإسلامية عن أن تكون مرجعية للتنشئة الاجتماعية والسياسية قبولا ، ووجد المنادين بها مقاومة واضحة ، أحيانا عن عدم فهم وأحيانا عن سوء قصد وسوء نية مبيته. بالإضافة إلى ذلك فقد لعبت التأويلات غير الواعية والمتناقضة أحيانا دورها فى إسقاط الخط الفاصل بين معايير الثواب والخطأ. ومن ثم سقط الإلتزام فى مساحات واسعة من المجتمع بالمرجعية الإسلامية كإطار للتنشئة الاجتماعية والسياسية وفق منظومات القيم الموجهة للمشاركة والسلوك الاجتماعي والسياسى. بحيث

كان ذلك فى بعض الأحيان مقدمة لإستبدالها بمرجعية الحضارة الغربية فى هذا المجال.

وتذهب الحقيقة السادسة إلى أن الإعلام وتكنولوجيا المعلومات الحديثة قد سيطرتا على عملية التنشئة الإجتماعية والسياسية على السواء، وأنها قد لعبت دوراً واضحاً فى تقليص دور وفاعلية كل من الأسرة والمدرسة. ونظراً لأن الحضارة الغربية هى المسيطرة على آلية الأسرة والإعلام ، وهى التى إبتدعتها، فإنها قد إستخدمتها بكامل كفاءتها فى تهديد أمن ووجود الحضارات الأخرى. ونظراً لأن الحضارة الغربية ذات طبيعة مادية وإستهلاكية تشبع غرائز البشر، وتوسع مساحة الغرائز فى حياتهم ، فإنها قد إستطاعت من خلال الإعلام وتكنولوجيا المعلومات أن تنقل ذلك إلى أبناء الحضارات الأخرى. ومن ثم فقد عملت بإتجاه تنشئتهم إجتماعيا سياسيا بحيث تتميز سلوكياتهم بخاصيتين ، الأولى الاحتفاء بكل ما هو مادى وإستهلاكى وغريزى لحساب البعد عن كل ما هو مثالى وجاد ومنتج. والثانية الرضاء بأن تكون القيم والمعايير الغربية وليست الإسلامية العربيةهى الموجهة للمشاركة والسلوك الاجتماعي السياسى.

رابعا: تأثير التحولات الاجتماعية على التنشئة الاجتماعية والسياسية للشباب.

عرضنا فى الفقرات السابقة لطبيعة التحولات التى طرأت على البيئة العالمية والتى إتخذت شكل العولمة التى تستهدف تأسيس ثقافة عالمية متجانسة تكون قاعدة لأوضاع عالمية متجانسة كذلك ، وإن كان ذلك على قاعدة من قيم الثقافة الغربية ونوعية الحياة الغربية كذلك. كما عرضنا لتأثير الإختراق الذى تفرضة الحضارة الغربية للحضارات الأخرى ومن ثم تحاول إعادة تشكيلها بما يساعد على إستمرار إخضاع الحضارات الأخرى ، وأيضا بما يساعد على الابقاء على مصالحها مؤمنة . وبرغم أن هذه التحولات كانت كلية وشاملة إلا أنها كانت ذات تأثير على التنشئة الاجتماعية والسياسية، لكونها تؤثر على المرجعية الثقافية للمجتمع ، والتى تجسدت فى إضعاف الثقافة القومية . بما يساعد على تأسيس فضاء يمتلئ بثقافات سياسية فرعية عديدة إن لم تكن

غريبـة عـلى مرجعيـة الثقافـة القوميـة ، فهـي غـير مواتيـة لهـا أو للتفاعـل الاجتماعـى والسـياسى الحـادث فى المجتمـع.

وفى محاولـة التعـرف على طبيعة التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية التى وقعت فى المجتمـع المـصرى فى النصـف الثـانى من القرن العشرين ، تلك التى أدت إلى تغيرات شـاملة. سـواء التحـولات التـى أثـرت عـلى بنيـة الثقافـة ومنظومـات القيـم ، أو التـى أثـرت على مختلـف جوانب الواقـع الاجتماعـى ومـن ثـم أعادة تشـكيل نوعية الحيـاة، أو على القـوى الاجتماعيـة ذات العلاقة الايجابيـة بالتحـول أو القـوى التـى تقـف منـه موقـف المعارضـة والرفـض. وقـد كان مـن الطبيعى ان تنتـج هـذه التحـولات نتائـج عديـدة يتصـل بعضها بالثقافـة العامـة والثقافة السياسـية ومن ثم بالتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية وتشـكيلها للمارسـة الاجتماعيـة والسياسـية والسـلوك الاجتماعي والسـياسى. وللوهلـة الأولى فإننـا نلاحـظ أن هـذه التحـولات كانـت ذات طبيعـة سـلبية ، ومـن الطبيعـى أن تكـون الغلبة لنتائجها السـلبية.

بدايـة نحـاول التعـرف عـلى ماهيـة التحـول الاجتماعـى. حيـث يشـير تأمـل المفهـوم إلى إقترابـه مـن مفهـوم التغـير الاجتماعـى ، إذ يوجـد تداخـل واضـح بـين المفهومـين. غـير أن مـا يميـز التحـول أنـه ذو طبيعـة كليـة وشـاملة تؤثر عـلى مختلـف جوانب المجتمـع ، فى ثقافتـه ومنظوماته القيميـة وفى أوضاعـة الاجتماعيـة كذلك. وفى العادة تسـلم التحولات المجتمعية إلى تأسـيس أوضاع إنسـانية وثقافيـة وإجتماعيـة وشـخصية جديـدة. وفى إطـار مرحلة التحـول يخضع المجتمـع لحالة ديناميكيـة شـاملة ، لا يسـتقر المجتمـع خلالهـا إلا إذا حقـق المجتمـع غاياتـه (٣٤). ويشـير الـتراث النظـرى لعلـم الاجتـماع إلى التحـول الاجتماعـى بإعتبـاره يتضمـن مجموعـة التغـيرات الاجتماعيـة المتتابعـة والمتشـابكة أفقيـا ورأسـيا ، والـذى يكـون مـن نتيجتهـا تغـير بنـاء المجتمـع مـن حيـث ثقافتـة ونظمـة الاجتماعيـة وكذلـك أطـره وسـياقاته. ويكتمـل التحـول إذا أسـتوعب البـشر متضمناتـه بحيـث يكونـوا هـم أنفسـهم ضمـن أدوات التحول كـما أنهم هدفـه. وقد يبـدأ التحول مـن أعـلى حيـث الثقافـة والأيديولوجيـا ، وقـد يبـدأ مـن أسـفل حيـث الإقتصـاد والـثروة، وقـد يبـدأ مـن الوسـط ، أى مـن البـشر بإعتبارهـم كتلـة سـكانية تتولـد عنهـم كثافـة إجتماعيـة قـادرة

على إبداع التقدم والتطور (٣٥). وقد تكون التحولات ذات طبيعة إيجابية إذا كانت نتائجها لصالح القوى الغالبة فى المجتمع ، او إذا تمكنت من دفع المجتمع على طريق التقدم او إذا ساعدت على تطوير ورفع القدرة التكيفية للمجتمع(٣٦). وفى هذه الحالة يكون المجتمع الذى نتج عن التحول أفضل فى بنيته على البناء السابق على التحول ، وفق مؤشرات إنسانية عديدة. وتصبح التحولات ذات طبيعة سلبية إذا تم إحتكار نتائج التحول من قبل قوة إجتماعية محدودة ، أو أن تظهر ظروف تدفع المجتمع على طريق التراجع بدلاً من التقدم ، أو أن يسلم التحول إلى تآكل القدرة التكيفية للمجتمع. بالإضافة إلى ذلك تشكل التحولات الإيجابية قيما مضافة لرأسمال المجتمع ، بينما تشكل التحولات السلبية قيما مستبعدة او منتقصه تضعف إمكانياته وتهدر موارده.

وحتى ينجح التحول فإنه نبغى أن يشبع حاجة بنائية ، وذلك إنطلاقا من تصور أن المجتمع الإنسانى هو عبارة عن كائن عضوى ، يحتاج دائماً إلى التكيف مع بيئته المحيطة. ولما كانت هذه البيئة ليست ساكنة ، وتصدر عنها تغيرات عديدة ، فإنه من الطبيعى أن يواكب المجتمع هذه التغيرات التى تمت بصورة تدريجية ، فإنها على مدى زمنى بعيد (مائة سنة مثلاً) يصبح تحولاً جذريا شاملاً عن ذى قبل. فإذا لم يستوعب المجتمع هذه التغيرات البيئية فإنها تنتج توترات وضغوط تفرض على المجتمع فى لحظة معينة تأسيس تغيرات شاملة فى فترة محدودة حتى يتسق الكائن أو يتكيف مع بيئته. وقد تصدر هذه التغيرات عن البنية الداخلية للمجتمع ذاته ، حينما يؤدى النمو المتآزر أحيانا ، أو عدم أشباع الحاجات الأساسية للشرائح الغالبة فى المجتمع ، ومن ثم فهى تعانى من الحرمان الذى يسبب توترات عديدة لها (٣٧).

وتقود الحاجة إلى التحول إلى تحديد طبيعته ، حيث يشير تأمل هذه الطبيعة إلى أن التحول مثلما أن له طبيعته التلقائية ، فإنه يحتوى على مساحة من الفعل الإرادى كذلك. وإذا كانت هذه التلقائية تعبر عن طبيعة المجتمع وقوانية الاجتماعية الخاصة به ، والتى تصل أحيانا إلى حد صرامة القوانين الطبيعية بإعتبار أن المجتمع جزء من الطبيعة. فإن البعد الارادى يصدر عادة عن القوى الاجتماعية ذات المصلحة الأساسية فى نجاح التحول ، أو تلك التى

تحاول تعويقه وتقف فى مواجهته. وهناك علاقة بين الأبعاد التلقائية والإرادية للتحول رغم التناقض الظاهرى الذى قد يبدو بينهما. وذلك لأن إنخفاض القدرة التكيفية للمجتمع سواء بسبب ضغوط البيئة الخارجية أو عدم إشباع إحتياجات الشرائح والقوى الاجتماعية ، أو ضغط إحتياجات التطور الاجتماعى . حيث يكون من شأن كل ذلك أن يؤدى إلى ظهور بعض التوترات التى تتصاعد على ساحة بعض الشرائح أو القوى الاجتماعية المضادة ذات المصلحة فى أوضاع ما قبل التحول. بحيث تكون هذه التوترات محسوسة بدرجة، من قبل بعض أعضاء هذه الشرائح أو القوى ، وبذلك تكون هى الأكثر قدرة على بلورتها ، ثم إستخدامها لإعادة تعبئة الجماعة فى إتجاه فعل إجتماعى إرادى لأحداث التحول (٣٨).

إتصالاً بذلك من الضرورى التمييز بين نمطين من التحول من حيث مصادر متغيراته، ويتحدد النمط الأول من التحولات بتلك التحولات التى يؤسسها المجتمع بهدف تعظيم قدرته التكيفية ، وذلك حتى يشغل مكانة فاعلة فى بناء النظام العالمى. هذا النمط من لتحول له إستراتيجيته وله مشروعه الاجتماعى، وله أسلوبه فى التعامل مع البيئة العالمية المحيطة ، نسمية عادة بالتحول المستقل. على خلاف ذلك يعرف النمط الثانى من التحول ، بالتحول المفروض من أعلى ، أى الذى تفرضه قوى النظام العالمى على المجتمع القومى. وفى حالة التحول القهرى المفروض من أعلى تضيق الإختيارات عادة ، وتغلق كل الطرق إلا طريق واحد على التحول ان يطرقه. فطاقة هذا التحول تكون عادة من خارجه ، إما على هيئة ضغوط تفرضها البيئة العالمية المحيطة ، أو على هيئة ضخ مباشر من القوى العالمية حتى ينطلق التحول فى الإتجاه المحدد له ، وإما لأن القوى العالمية هى توفر للتحول طاقتة. هذا النمط من التحول لا يكون له فى العادة مشروع إجتماعى ، إضافة إلى أن أهدافه تكون عادة ذات طبيعة تكتيكية لأن الرؤية الاستراتيجية تكون فى متناول القوى العالمية حينئذ. على الصعيد القومى قد تبدو حركة التحول ذات طبيعة عشوائية ، غير أنها لا تكون كذلك إذا حاولنا فهمها من منظور عالمى. فى هذا الإطار ليس من المهم ان

تشبع مضامين التحول الحاجة إليه على الصعيد القومى بل على الصعيد العالمى بالأساس (٣٩).

كما يمكن التمييز أيضا بين نمطين آخرين من التحول على أساس قدرة التحول على بناء الطاقة التى تزيد من القدرة التكيفية للمجتمع ، أو أن التحول يعمل على تبديد هذه الطاقة وهدرها. أما التحول الذى يساعد على بناء الطاقة فإنه يكون عادة ذو طبيعة إستراتيجية ، حيث يستند هذا النمط من التحول إلى قوى دافعة تتجدد فى كل مرحلة. هذه القوة أو الطاقة الدافعة للتحول قد يكون مصدرها التراكم الفكرى والثقافى ، وقد يكون مصدرها التراكم الإقتصادى الذى يدفع فى إتجاه توسيع مجالات النمو. كما حدث فى نمو البرجوازية التجارية التى لعب دورها فى تحقيق التراكم الاقتصادى والمالى الذي أدي إلى قيام الثورة الصناعية ونمو البرجوازية الصناعية ، وإستمرار إستثمار هذه الطاقة فى إحداث الثورة التكنولوجية والمعرفية. ذلك بالإضافة إلى الحاجة البنائية المستمرة لهذه التحولات ، والتى تشكل بحد ذاتها طاقة كافية مفجرة للتحول أو دافعة له. هذا النمط من التحول الاستراتيجى يمتلك فى العادة قدرة ذاتية على الإنطلاق والاستمرار وهو مستمر طالما أن هناك وجود إنسانى وإجتماعى فعال (٤٠). ويتميز النمط الثانى للتحول بالطابع التكتيكى ، حيث يكون مسارة متقطعا أو متردداً يهدر الطاقة بطبيعته ، وهو يقع فى المجتمع ساعيا إلى تغيير جملة جوانبه. غير أنه ما يلبث أن يتعرض لتحول من نمط آخر أو مضاد فى طبيعتة ، يلغى متضمنات التحول الأول التى تجسدت على أرض الواقع. هكذا تستمر التحولات فى إتجاهات متضاده تنفى بعضها البعض ، جزئيا أو كليا، ومن ثم فإننا نجد أن كافة هذه التحولات تتعرض للإجهاض بصورة مستمرة ، ونتيجة لذلك نجد أن إنجازاتها محدودة. وفى العادة نجد أن القوى المعوقة لهذه التحولات تكون ذات طبيعة داخلية أو خارجية ، أو ان هذه القوى تفرض على التحولات أن تسير فى إتجاهات محددة. وينتشر النمط الثانى المبدد للطاقات فى مجتمعات الجنوب ومنها المجتمعات العربية والإسلامية، ومن الطبيعى أن يؤدى هذا النمط من التحول بالإضافة إلى إهدار الطاقة، وإلى تمزيق النسيج الاجتماعى ، بل وتبديد رأس المال الاقتصادى

والاجتماعـى والثقـافى للمجتمـع. وإذا كان ذلـك يحـدث عـلى مسـتوى المجتمـع فإنه مـن الطبيعى أن يؤثـر عـلى وحداته ومؤسسـاته الرئيسـية ، كالأسرة (٤١).

فـإذا تأملنـا التحـولات الاجتماعيـة الاقتصاديـة التـى مـرت بهـا غالبيـة المجتمعـات العربية الإسـلامية فى النصـف الثـانى مـن القـرن العشرين وحتـى الآن ، إسـتناداً إلى معطيـات التحولات التى وقعـت فى المجتمـع المـصرى. بإعتبار أن التماسـك والتجانس العربى كان قويـا فى هذه الفترة بخاصة فى العقـود الثلاثـة الأولى مـن النصـف الثـانى من القرن العشرين. فسـوف نجد أن هـذه المجتمعات قـد خضعـت لمجموعـة مـن التحـولات الاجتماعية المتلاحقة ، بحيـث أدى هذا التلاحق المتسـارع فى بعـض الأحيـان إلى عـدم إسـتيعاب بعـض متضمنـات هـذه التحـولات، إضافـة إلى التغيـير فى طبيعة هـذه التحـولات. بحيـث وجدنـا أن هذه التحـولات تلغى بعضها بعضا ، بـل وتتناقض متضمناتها فى أحيـان كثـيرة مـع بعضهـا البعـض ، الأمر الـذى أدى فى أحيان كثـيرة إلى تبديد طاقـة المجتمع ، وهى التفاعـلات التى إنعكسـت سـلبيا فى أحيـان كثيرة على منظومات القيم الموجهة للتنشـئة السياسـية.

وقـد وقـع التحـول الأول فى العقـد الأول مـن النصـف الثـانى للقـرن العشريـن، وقـد بـدأ هـذا التحـول فى مـصر عـام ١٩٥٢ بإختيـار الليبراليـة التـى تتداخلـت مـع العواطـف القوميـة لـكى تشـكل أيديولوجيـا توجـه التنميـة الإجتماعيـة الاقتصاديـة. وإنتهى عـام ١٩٦١ إلى تبنى الاشـتراكية كأيديولوجيـا توجـه التطـور الإجتماعـى فى المجتمـع، فى ظـل هـذه الأيديولوجيـا صـدرت تشريعات كثـيرة صبـت فى أغلبهـا لصالـح الطبقـة المتوسـطة. نذكـر منهـا قـرارات وقوانـين الإصـلاح الزراعى، وتقنـين إيجـارات الأراضى الزراعيـة فى الريـف ، وقوانـين تأجـير المسـاكن فى الحـضر، بالإضافـة إلى بنـاء الصناعـات الثقيلـة وصناعـة إحـلال الـواردات. إلى جانـب سياسـات مجانيـة التعليـم ، وتشـغيل الخريجـين ، ودعـم السـلع الأساسـية، وقـد توجـت التحـولات فى هـذه المرحلـة ببنـاء السـد العـالى وإسـتصلاح مايقـرب مـن مليـون فـدان مـن الأرض الزراعيـة (٤٢). إضافـة إلى ذلـك فقـد سـعت الدولـة إلى التوسـع فى بنـاء البيروقراطيـة الحكوميـة وفـق أسـس عقلانيـة حسـبما ذهبـت عـالم الاجتـماع ماكـس فيـبر (٤٣). حيـث تضخمـت البيروقراطيـة بفعـل ثلاثـه عوامـل،

ويتمثـل العامـل الأول فى الدولـة المركزيـة ، التـى تجسـدت بأوضح ما يكون فى المرحلة الاشـتراكية. حيـث أصبحـت الدولـة تشرف بشـكل مباشر على تسـيير العمـل فى كل مجالات الحيـاة فى المجتمع. بينـما يتحـدد العامـل الثـانى فى التوسـع فى التعليم وفتح قنـوات الحراك الاجتماعى عـلى مصراعيها ، الأمـر الـذى بعـث فى بناء المجتمـع حالة من الفعالية والحيوية، تجسـدت فى معـدلات النمو العالية التـى تحققـت خـلال هـذة الفترة ، سـواء عـلى صعيد البنـاء التحتـى أو صعيد المؤسسـات الانتاجية (٤٤). ويتصـل العامـل الثالـث بأنـه بسـبب النظـرة التاريخيـة للوظيفـة الحكوميـة ، أصبح العمل بالبيروقراطيـة الحكوميـة هدفـا غالبـا لكل من تدفقوا من خـلال التعليم كقناة للحـراك الاجتماعى. بالإضافـة إلى الهجـرة ، بحيـث نجـد أنه مثلما تضخمـت البيروقراطية ، إتسـعت مسـاحة تنشـئة فئة كبـيرة مـن الموظفـين البيروقراطيـة وفق ثقافـة بيروقراطية خاصة بهـذه المرحلة.

بيـد أننـا إذا تأملنـا هـذا التحـول فسـوف نجـد أنـه كان لصالـح بعـض القـوى الاجتماعيـة ولغـير صالـح قـوى إجتماعيـة اخـرى. فقـد إسـتفادت الطبقـة المتوسـطة لكونهـا الطبقـة التـى ناضلـت فى الفـترة السـابقة عـلى الثـورة ضـد الاسـتعمار وضـد القـصر ، وأيضـا لأن نخبـة يوليـو تنتمـى إليهـا ، وقـد نجحـت حركـة هـذه الطبقـة فى ١٩٥٢ بالإطاحـة بـرأس النظـام السـياسى وتغيـيره وإنتـزاع الاسـتقلال مـن المسـتعمر. فى مقابـل ذلـك فإننـا نجد أن هـذا التحـول كان مضاداً لمصالـح البرجوازيـة العليـا بالتحديـد. فقـد تـم الإسـتيلاء عـلى بعـض أراضيهـا وأممـت مصانعهـا وشركاتهـا ، ثـم كانـت هـى الطبقـة التـى حرمـت مـن المشـاركة السياسـية وفرضـت عـلى أملاكهـا الحراسـات بعـد أن تقاعسـت عـن الإسـهام أو الدفـع برأسـمالها فى تنميـة المجتمـع. ويؤخـذ عـلى هـذا التحـول أن الموجهـين لدفتـه، إضافـة إلى تصفيـة البرجوازيـة العليـا بـدلاً مـن تأسـيس الظـروف لمشـاركتها فى التنميـة الاجتماعيـة الاقتصاديـة ، فإنهـم تولـوا القضـاء عـلى الجماعـات الأيديولوجيـة التـي لا تتسـق توجهـات الأيديولوجيـة مع التوجهـات الأيديولوجية للنظام السـياسى. الأمـر الـذي حـرم المجتمـع مـن خـلاف الأفـكار وتفاعلهـا ، وجعـل التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية تتحقـق بصـورة أحاديـة مملاه فى الغالـب مـن أعـلى. كـما أنهـا لم تهيـئ الإطـار الملائـم لمشـاركة

جماهيريـة فعالـة فى دفـع عجلـة التنميـة والتطـور ، ضاربة عـرض الحائـط بالممارسـة الديموقراطية الواعيـة. مسـتبدلة إياهـا بتنظيـم حـزبى وحيـد ، هش ورخـو ، غير قادر على السـيطرة عـلى الواقع إضافـة إلى عجـزة عـن تعبئـة الجماهير. وقد تأكد عجزه حينما تسـلقته عناصر إنتهازية ، فسـيطرت عليـه ، وعاثـت فسـاداً فى كل إتجـاه ، حتـى تـآكل التحـول والنظـام الـذى أسسـه مـن الداخـل ، حيـث كانـت هزيمـة ١٩٦٧ هـى نقطـة نهايـة هـذا التحـول. ونسـتطيع القول بـأن هـذا التحول لم يسـتطيع خـلال سـيطرته عـلى المجتمـع ترسـيخ منظومـة القيـم الاشـتراكية كمنظومة تقـود التحول وذلـك بسـبب عـدم التأكيـد القـوى على هـذه القيم ، إضافة إلى أن من سـعوا إلى تطبيق الإشـتراكية لم يكونـوا إشـتراكيين في حقيقـة امرهـم. ذلـك إلى جانـب غيـاب مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية الفعالـة خـلال هـذه المرحلـة ، بأسـتثناء بعـض التنظيمات التربوية أو السياسـية الهشـة التـى لم تسـتطيع تجذيـر هـذه القيم ، إضافة إلى ضعف مؤسسـات التنشـئة الاجتماعية والسياسـية القائمـة. إلى جانـب ذلـك فقـد شـهدت هـذه المرحلـة بداية تبلور وإتسـاع مسـاحة منظومـة القيم الانتهازيـة ، حيـث إسـتند هـذا الاتسـاع إلى رافديـن. ويتمثـل الرافـد الأول فى الشـعار الـذى رفـع خـلال هـذه المرحلـة ، والـذي تمثـل في التفرقـة بين أهل الثقة وأهـل الخبرة، حيث دفع هذا الشـعار إلى سـعى البعـض لتقديـم الـولاءات ، ولـو كانـت عن غـير قناعة ليحظـو بمكانة أهل الثقـة ، بحيث أصبحـت القيـم الانتهازيـة هـى القيـم التـي حكمـت المشـاركة والسـلوك السـياسى لشريحـة غالبة. وقـد سـاعد عـلى نمـو منظومـة القيـم الانتهازيـة أن نسـبة عاليـة ممـن تحركـوا إلى أعلى مـن خلال التعليـم ، إصطنعـوا وسـائل وسـلوكيات أخرى غـير المعايير الموضوعيـة فى آدائهم لوظائفهـم. فقبلوا التملـق ممـن هـم أقـل منهـم فى مسـتوياتهم الوظيفية وقدموه لمـن هم أعلى منهـم ، بحيث أصبح رضـاء الرئيـس مـن المعايـير الأساسـية للترقـى فى الوظيفـة الحكوميـة (٤٥). ومن الطبيعـى أن يلجأ الموظـف البيروقراطـى سـواء فى التنظيـمات السياسـية أو البيروقراطيـة لطـرق كل السـبل ولـو غـير المشروعـة وغـير الموضوعيـة للحصـول عـلى هـذا الرضـاء ، بإعتبـاره جـواز المـرور للترقـى والصعـود الوظيفـى والإجتماعى.

وقـد تبنـى التحـول الثـانى الـذى وقـع خـلال هـذه الفـترة التوجهـات الليبراليـة،

حيث تولى الرئيس السادات الذى كانت إرتباطاته بالاشتراكية واهنة. ومن ثم فقد إتجه بمجرد تولية دفة الحكم إلي أعادة دفع التحول فى المجتمع بقوة بإتجاه التنمية وفقا للأيديولوجيا الليبرالية . التى كانت بعض مؤشراتها قد بدأت فى قلب التحول الاشتراكى السابق بصدور القرار الوزارى رقم ١٠٠ لسنة ١٩٦٩ والذى أتاح الفرصة لرأس المال الخاص ، العربى والأجنبى، للأستثمار فى المشروعات الصناعية المسموح بالاستثمار فيها لرأس المال الوطنى . ولتأكيد ذلك أصدر النظام السياسى ترسانه قانونية لترسيخ هذا التحول الجديد، كان أولها صدور القانون رقم ٦٥ لسنة ١٩٧١ وهو القانون الخاص بإستثمار رأس المال العربى والأجنبى والمناطق الحرة. ثم القانون رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٢ الذى رد الاعتبار للبرجوازية العليا ، من خلال إجراءات مثل فك الحراسات ، ودفع التعويضات لمن أممت ممتلكاتهم ومشروعاتهم. وإلغاء القيود الواردة فى القانون الصادر فى نوفمبر ١٩٦٣ بحظر مباشرة الحقوق السياسية بالنسبة لبعض الفئات. ولإستكمال دفع عملية التطور فى هذا الاتجاه تم حل مجلس الشعب - حينئذ – وأجريت إنتخابات جديدة أفسحت المجال للعناصر الجديدة المنتمية للبرجوازية العليا بالأساس. ولتأكيد ذلك أعيد تنظيم الاتحاد الإشتراكى بحيث تشكلت المنابر داخل عباءته التى تحولت إلى أحزاب صريحة بعد ذلك. ثم بدأ النظام السياسى الليبرالى يسحب الإمتيازات الكثيرة التى حصلت عليها الطبقة الوسطى فى مرحلة التحول الاشتراكى. بل والإتجاه إلى تصفية وبيع شركات القطاع العام الخاسرة، ثم الإتجاه بعد ذلك إلى مزيد من تصفية وبيع القطاع العام إلى القطاع الخاص ، الوطنى ، والأجنبى ، حتى أصبح الأخير هو المسيطر على إقتصاد المجتمع. وقد صاحب هذه الفترة إنطلاق موجات الهجرة إلى مجتمعات الخليج ، بخاصة من قبل أبناء الطبقة الوسطى ، الذين وجدوا أن السياق الليبرالى غير موات لوجود الطبقة الوسطى وطموحاتها.

وبسبب التفاعل بين النظام السياسى والطبقة المتوسطة فى هذه المرحلة ظهرت مجموعة الثقافات الفرعية التى شكلت منظومات القيم التى وجهت التنشئة الاجتماعية والسياسية خلال هذه المرحلة. فمن ناحية نجد أن التيار

الإسلامى الذى عادي النظام السياسي فى الفترة الإشتراكية قد قام النظام الليبرالى بتدعيمة ماديا ومعنويا، حتي يصبح في إمكانه تقليص مساحة التيارات الأيديولوجية الأخرى كالناصرية والماركسية. بحيث أصبحت منظومة القيم الإسلامية والليبرالية هى التى شكلت مرجعية التنشئة الاجتماعية والسياسية خلال هذه المرحلة. وحينما حدث تناقض بين التيار الإسلامى والنظام السياسى الليبرالي، فإن خريطة المرجعية التى وجهت عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية خلال هذه المرحلة إنقسمت إلى سته مرجعيات. مرجعية الإسلام السياسى ، وهى المرجعية التى إعتمدتها عديد من جماعات الإسلام السياسى التى إعتمدت العنف كسلوك سياسى. إضافة إلى مرجعية الإسلام المعتدل - ظاهريا- والتى جسدتها توجهات جماعة الأخوان المسلمين وحاولت التمدد والسيطرة علي النظام السياسي ، ذلك جانب المرجعية الليبرالية التى بدأت تتسع مساحتها خلال هذه الفترة ، إضافة إلى بعض المرجعيات اليسارية الماركسية والناصرية. يضاف إلى ذلك ثقافة الاستهلاك التى إخترقت الفضاء الثقافى للمجتمع من ثلاثة مصادر ، الحرمان التاريخى للطبقة الدنيا وبعض شرائح الطبقة الوسطى. إلى جانب عائدات عمل المهاجرين إلى مجتمعات الخليج، والتى لم تنظم لها أوعية إدخارية توجهها نحو الاستثمار. يضاف إلى ذلك أرصدة الطبقة العليا خاصة "المحدثة" التى تدفق بعضها فى قنوات الاستهلاك. وبرغم أن هذه المرجعيات الثقافية للتنشئة الاجتماعية والسياسية كانت قائمة فى المجتمع ، إلا أن التنشئة الاجتماعية والسياسية وفق هذه المنظوات لم تتخذ الطابع المنظم ، بل تبنت الطابع التلقائى والعشوائى الذى بلغ حدود فوضى التنشئة الاجتماعية والسياسية فى غالب الأحيان.

وقد بدأ التحول الثالث مع إغتيال الرئيس السادات المسئول عن التحول الليبرالى فى عام ١٩٨٠. فى هذه الفترة تزايد المد الليبرالى على الصعيد العالمى ، حتى إنطلاقه إلى آفاق رحبة مع إنهيار الاتحاد السوفيتى السابق، وتربع الولايات المتحدة الأمريكية على قمة نظام عالمى جديد ، وحتى إنهيار برج التجارة العالمة فى ٢٠٠١. وإذا كانت العولمة قد بدأت قبل ذلك بكثير ، غير أنها إبتداء من العقد الأخير للألفية الثانية والعقد الأول من الألفية الثالثة، إتسعت

فعاليتها بسبب تأسيس فضاءات عالمية مفتوحة تدفقت عبرها السلع والأفكار وسقطت الحدود أو المعوقات، بحيث تميز هذا التحول بأربعة خصائص. أول هذه الخصائص إتساع مساحة القطاع الخاص وتضافراً مع ذلك إتسعت فاعلية دور رجال الأعمال ، وسيطر أبناء البرجوازية العليا على مقاليد الأمور. بينما تشير الخاصية الثانية إلى فاعلية المؤسسات الدولية ، سواء كانت مؤسسات ذات طبيعة سياسية كمنظمات حقوق الإنسان أو مؤسسات إقتصادية كمؤسسات التمويل الدولية أو المؤسسات الثقافية كمنظمة اليونسكو. ونظرا لأن القوى الكبرى فى العالم تسيطر على هذه المؤسسات ، فإن ذلك يوضح حجم الإختراق والسيطرة التى أصبحت للقوى الكبرى على مجتمعات الجنوب. وتتصل الخاصية الثالثة بالإنسحاب التدريجى للدولة من مجال الإنتاج ، وكذلك من مجال الخدمات والإبقاء على دورها فى الحدود الدنيا كما يتصور ذلك المذهب النفعى. وترتبط بذلك الخاصية الرابعة التى تتمثل فى نمو تنظيمات المجتمع المدنى ، وبخاصة المنظمات الأهلية ، التى قد يتسع دورها بحيث أصبحت تؤدى بعض المهام التى كانت من إختصاص الدولة (٤٦). فإذا نحن تأملنا هذا التحول الأخير ، فسوف نجد أن القوى العالمية تباركه، لأنه سوف يعنى خضوع الدولة بما يؤمن مصالحها. كما سوف تسعد به الدولة لأنه سوف ينقل الأعباء المفروضة عليها إلى القطاع الخاص وتنظيمات المجتمع المدنى. ومن الطبيعى أن يساعد ذلك على تدفق الأرباح إلى خزائن القطاع الخاص بدون رقابة جادة من قبل الدولة ، كما سوف أنه يطلق يده فى السيطرة على الأسواق. وفى مقابل ذلك سوف تكون الطبقة المتوسطة والشرائح الطبقية الدنيا هى القوى التى قدر عليها أن تتحمل معاناة هذا التحول ، الذى يتم التفاعل فى إطاره وفق آليات وقوانين السوق ، لكونها لا تمتلك آية وسائل تستطيع بواسطتها تأمين مصالحها.

ونحن إذا تأملنا حصاد التحولات التى وقعت فى النصف الثانى من القرن العشرين فى محاولة لإستكشاف تأثيرها على عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية، فسوف نجد ان هذه التحولات أنتجت منظومات قيمية عديدة شكلت مرجعيات متنوعة – سلبية أو إيجابية – لعملية التنشئة الاجتماعية والسياسية . ولتوضيح ذلك فإننا تؤكد منذ البداية على محورية منظومات القيم بالنسبة

للتحـول الاجتماعـى ، سـواء كانـت هـذه المنظومـات القيميـة متضمنـة فى التراث الـذى تدفـق للمجتمـع مـن ماضيـة فى الثقافـة الناتجـة عـن تفاعله المعـاصر ، أو كانـت متضمنـة فى الأيديولوجيا الـذى تبناهـا النظـام السـياسى لتقـود عمليـة تحديـث المجتمـع برغـم كونهـا صـادرة عـن الخـارج. وإذا كان مـن الطبيعـى أن تشـكل هـذه المنظومـات القيميـة مرجعيـة تقـدم تصـورات لنمـوذج المجتمـع الجديـد أو الـذى ينبغـى أن يكـون . بحيث يحتوى هـذا التصور على معـانى جديدة ينبغى أن يسـتوعبها البـشر مـن خـلال عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية، وتلعـب دورهـا فى توجيه سـلوكياتهم ، وتحـل محـل التصـورات القديمـة التـى لديهـم. فإنـه حتـى تتمكـن هـذه المنظومـة القيميـة مـن تحقيـق ذلـك فإنهـا ينبغـى أن تكـون متماسـكة، إضافـة إلى ضرورة إمتـلاك المجتمـع لآليـات التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية التـى تتـولى تنشـئة البشر وفق معـانى المنظومـات القيمية الجديـدة. بحيـث يصبـح البـشر الذيـن إسـتوعبوا هـذه المعـانى قـادرون على تحمـل أعبـاء التحول وتحقيـق أهدافـه (٤٧).

وتـؤدى القيـم دورهـا المحـورى فى تأكيـد تماسـك المجتمـع ودفعـه عـلى طريـق التحديـث مـن خـلال ثلاثـة حـالات . فى الحالـة الأولى ، وهـى الحالـة المثالية يقـدم التحول منظومتـه القيمية القويـة ثـم يعمـل عـلى إعـادة تنشـئة البشر وفقـا لها من خـلال آلياتـه العديدة. بحيث يسـتوعب البـشر هـذه القيـم ، ومـن ثـم يصبحـوا هـم القـوة الدافعـة للتحـول والحارسـة لمنجزاتـه. وفى الحالـة الثانيـة يـأتى التحـول بمنظومتـه القيميـة ، غـير أنـه لا يمتلـك الآليـات الفعالـة لتنشـئة البشر وفـق معـانى هـذه المنظومـة. ومـن ثـم تقـع أحـداث التحـول ومنجزاتـه ، غـير أن البـشر ليسـت لديهـم المعـانى أو القيـم التـى تربطهـم بهـذه الإنجـازات. ومـن ثـم يظـل التحـول ومنجزاتـه قائمـاً كموضوعـات تشـغل حيـزا فى مسـاحة المـكان ، غـير أن معانيهـا لم تتسـلل إلى ذوات البـشر لتشـكل وعيهـم ، الـذى يدافعـون إسـتناداً إليـه ضـد أى تهديـد لهـذه المنجـزات. وفى الحالـة الثالثـة تقـع أحـداث التحـول مصحوبـة بمنظومتـه القيميـة لتتعايش مـع المنظومـة الثقافية والقيميـة القائمة فى المجتمـع ، يضـاف إلى ذلـك أيـة منظومـات قيميـة أخـرى، فى هذه الحالـة قد توجـد منظومة القيم التقليديـة أو التراثيـة إلى جانـب منظومـة القيـم الحديثـة. فـإذا لم تتمكـن إحدى هـذه المنظومات

السيطرة على المنظومات الأخرى ، وتعايشت فى ذات الوقت وذات الساحة مع بعضها البعض ، فإن ذلك قد يؤدى إلى تأسيس حالة شبيهة بحالة "الأنومى". حيث يضيق البشر بتعدد المنظومات القيمية وتناقض معانيها ، الأمر الذى يضعف تأثيرها فى مجملة ، مثل هذه الحالة تدفع إلى بروز الأيديولوجيات او المنظومات القيمية الفردية والانتهازية الخاصة، التى تشكل المعانى الموجهة للسلوك المحقق للمصالح الفردية ، ذلك أن تناقض المنظومات القيمية يؤدى غالبا إلى عدم الالتزام بها جميعا.

وتعد الفجوة بين الأيديولوجيات السياسية التى سادت هذه الفترة وبين ثقافة المجتمع وتراثه من الظواهر التى نتجت عن تحولات النصف الثانى من القرن العشرين. وإذا كانت الحالة المثالية أن تنبثق الأيديولوجيا من ثقافة المجتمع وتراثه ، بإعتبار أن الأيديولوجيا هى منظومة القيم الأكثر عقلانية وتقنينا لثقافة المجتمع التلقائية. فإننا نجد أن هذه الفترة شهدت ظاهرة الازاحة الأيديولوجية ، حيث تزيح الأيديولوجيا الاشتراكية الأيديولوجيا القومية ، ثم تأتى الأيديولوجيا الليبرالية لتقوم بإقصاء الأيديولوجيا الاشتراكية ، كل ذلك يحدث منفصلاً عن ثقافة المجتمع ، لذلك نجد ان هذه الأيديولوجيات المتتابعة لم تعمل على تطوير ثقافة المجتمع أو تطوير نوعية الحياة فيه. بل إننا نجد أن غالبية هذه الأيديولوجيات سعت إلي التعامل البراجماتى مع الثقافة العامة كالادعاء بأن الإسلام أصبح إشتراكيا ، او ليبراليا ، أو يتعانق مع هذه الأيديولوجيات على ساحتة العلم والإيمان. ولذلك بقيت الثقافة العامة قائمة من غير مصادر أيديولوجية تضخ الحيوية فى بنائها ومن ثم بدأت تضعف ، وفى احيان كثيرة أضحى وجودها شكليا(٤٨).

وتتمثل الظاهرة الثانية التى طرأت على منظومات القيم او الثقافة التى تشكل مرجعية التنشئة الاجتماعية والسياسية ، فى أتجاه منظومات القيم إلى التراجع عن ما هو إيجابى إلى ما هو سلبى ، وعن ما هو شامل إلى ما هو جزئى وضيق، وعن ما هو مثالى إلى ما هو عملى براجماتى. تأكيدا لذلك أن ليبرالية الثلاثينيات والأربيعينيات ذات الطابع الانتاجى تحولت إلى ليبرالية إستهلاكية فى نهاية النصف الثانى من القرن العشرين. وإشتراكية أو ماركسية الستينيات

إسـتبدلت عنـد البعـض بالحديـث عـن العلمانيـة فى نهايـة ذات الفترة. والإسـلام الوسـطى المعتدل ظاهريـا بعنفـه الكامـن، الـذى عمـل عـلى إحيائـه الشـيخ حسـن البنـا مـن خـلال حركـة الأخـوان المسـلمين التـى لعبـت دوراً على مختلف السـاحات الاجتماعية، في سـعي تاريخي محموم للامسـاك بالسـلطة تحـول حينـما سـنحت الظروف ، إلى إسـلام سـياسى تطرفـت وعنفت بـه جماعات أضرت بإعتداليـة الإسـلام ووسـطيته وسـماحته ، وسـاهمت فى تشـويه صورتـه. وقيم الثقافـة العربية التى تتحـدث عـن مجتمـع عـربى وقومـى واحـد ، دفـع بهـا إلى خلفيـة المـسرح لتحـل محلهـا ثقافـات قطريـة ضيقـة الأفـق (٤٩). وذلـك يرجـع بطبيعـة الحـال إلى أن منظومـات القيـم لم تتمكـن مـن إعـادة إنتـاج ذاتهـا ، إمـا بسـبب تشـتت أو تـشرذم التحـولات الاجتماعيـة الاقتصاديـة ، أو بسـبب الضعـف والوهـن الـذى أصـاب مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية، أو لأن البـشر أعضـاء المجتمـع لم يسـتوعبوا هـذه المنظومـات القيمية.

بالإضافـة إلى ذلـك سـبحت فى الفضـاء الثقـافى للمجتمـع منظومـة القيـم السـلبية، التـى نتجـت بالأسـاس عـن ضعـف منظومـات القيـم السـوية ، وإفتقـاد إمتـلاك المجتمـع لمعايـير وقيـم مشـتركة متفـق عليهـا. فقـد تواجـدت منظومـات القيـم الفرديـة التى حلت محـل الثقافـة العامة التـى تآكلـت ، ونعنـى بالقيـم الفرديـة تلـك التى لا تحتكـم إلى آية معايـير أو مرجعيـات إجتماعية وجماعيـة. بـل تصبـح المصلحـة الشـخصية هـى المعيـار المقبـول والمعترف بـه ، بحيـث تصبح هذه الأخـيرة المدخـل إلى توليـد ثقافـة الفسـاد. وبغيـاب الثقافـة العامة المسـتندة إلى قاعدتهـا الدينية ، والتـى تمجـد قيـم الإنتـاج والتقشـف ، سـيطرت ثقافـة الاسـتهلاك والـترف والاسـترخاء. ذلـك يرجع إلى أنـه فى الفـترات التـى يعجـز فيهـا البـشر عـن تحقيق طموحاتهـم ونجاحاتهـم ، فإنهـم يتحولون إلى كائنـات إسـتهلاكية تسـتهلك لمجـرد إثبـات البقـاء. بالإضافـة إلى ذلـك فقد برزت ثقافـة الجنس والمخـدرات وإشـباع الغرائـز ، لأن القيـم والمعـانى التـى تؤكـد أو ترسـخ الجوانـب الروحيـة للبـشر ضعفـت أو إسـتقالت ، ولم تعـد قـادرة على كبح جمـوح الغرائز أو تقييدها ، ومـن ثم فقد إنطلقت تعربـد فى كل إتجـاه ، بحيـث أصبح ذلك شـاهدا على سـقوط الطهارة عن الثقافـة العامة للمجتمع.

بالإضافـة إلى ذلـك بـرزت القيـم أو السـلوكيات الانتهازيـة ، التـى تتحين الفـرص للإرتقاء أو الحـراك الشـخصى، مـن خـلال إقتناص الفرص بعيداً عـن الاحتكام إلى آية معايـير مثالية. وإذا كانت بدايـات الثقافـة الإنتهازيـة قـد وجـدت بداياتهـا الأولى فى التفرقـة بـين أهـل الثقـة وأهـل الخبرة أو فى حالـة الأنومـى الثقافيـة التـى ميـزت الفضـاء الثقـافى للمجتمع عبر عقـود عديدة. فإن مسـاحتها قـد إتسـعت بسـبب التحـول القيمـى الذى أصـاب شرائح واسـعة من أبنـاء الطبقة الوسـطى الذين تحركوا إلى أعلى مسـتويات المناصب البيروقراطية فى المرحلة الإشـتراكية. وبسـبب إعتيادهم الحراك ، فقـد ورثـوا، إرتباطـا بذلـك ، حـراك القيـم ومرونـة المنظومـات الثقافيـة والأيديولوجيـة ، ومـن ثم التحقـوا بكافـة الأيديولوجيـا المتتابعة ، وكذلـك بكافة تنظيمات الأنظة السياسـية المتعاقبة. وحينما أدركـوا أن السـفن الاشـتراكية تواجـه الغـرق ، تخلـوا عـن شـعاراتهم الأيديولوجيـة وقفـزوا كالفئران المذعـورة التـى هربـت رعبـا لتتعلـق بالأسـتار الليبراليـة. ذلـك يرجع إلى أنـه لم تحدث لهم تنشـئة اجتماعيـة وسياسـية فعالـة خـلال المرحلـة الاشـتراكية ومن ثم لم تؤسـس بداخلهم منظومـات القيم أو السـلوكيات الاجتماعيـة والسياسـية المقنعـة بالنسـبة لهـم ، والتـى على أساسـها يتحـدد موقفهم مـن مسـائل الواقـع الاجتماعـى المحيط بهم.

بالإضافة إلى ذلك فقد ظهرت فى نهاية فترة التحول ، بخاصة فى العقد الأول من الألفية الثالثة ثقافـة الرفـض والتمـرد ومنظومـات القيم المتضمنة فيها والسـلوكيات المرتبطة بهـا. وبرغم أن هذه الثقافـة مـا زالـت محـدودة ، لكونهـا ما زالت محصـورة بجماعة محدودة من المثقفـين ، فإنها عبرت عـن ظاهـرة إيجابيـة نتجـت عن هـذه التحولات وتجلـت إيجابيتهـا لكونها تمثل بحـث عن بصيص أمـل نقـى وديموقراطـى وطاهر. ويمكن إسـناد تبلور هـذه الثقافة إلى مصادر وظـروف عديدة، أول هذه الظروف طبيعة الممارسات التعسفية التى يمارسها النظام السياسى ، ذلك برغم إدراك قطاعات عريضـة فى المجتمـع لضعفـة وعجـزة. ويتمثـل المصـدر الثـانى فى الظـروف الاقتصاديـة والسياسـية المترديـة ، حيـث غيـاب فـرص الحصول على العمـل والدخـل أو الخدمات الملائمة ، إضافـة إلى غياب

العدالـة الاجتماعيـة عنـد توزيـع مختلـف الفـرص ، الأمـر الـذى أدى إلى حالـة مـن الاسـتقطاب الاجتماعـى الـذى يعتـبر ظهـور الجماعـات الرافضـة أو المتمـردة مـؤشراً عـلى وقوعهـا. إضافـة إلى رفـض النظـام السـياسى للمشـاركة الاجتماعيـة والسياسـية الجـادة. ذلـك إلى جانـب الـدور الـذى لعبتـه تنظيـمات المجتـع المـدنى سـواء فى التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية والتدريـب على الممارسـة الاجتماعيـة والسياسـية ، أو فى حراسـة المشـاركة المحـدودة حتـى تكون جـادة قدر الامـكان. إضافة إلى إسـتنفار تنظيـمات المجتمـع المـدنى الضغـوط العالميـة ، التـى تعمل بإتجـاه تقييـد فاعلية العصا الأمنيـة الغليظـة للنظـام السـياسى. غـير ان هـذه الثقافـة مـا زالـت محـاصرة ، إمـا بسـبب العصـا الأمنيـة الغليظـة للنظـام السـياسى ، وهـو الأمـر الـذى يحـرم الجماعـات الرافضـة أو المتمـردة مـن الاتسـاع أو الامتـداد. أو لأن هـذه الجماعـات ، بإعتبارهـا جماعـات مثقفـين لم تعـثر بعـد عـلى الأسـلوب الأمثـل لإسـتنفار الجماهير ودفعها بإتجاه المشـاركة بسـبب إنشـغال الأخـيرة وتكيفها مع صعوبـات الحيـاة اليوميـة ، حتـى تسـتطيع توفـير مـا يشـبع حاجاتهـا الأساسـية لتأمـين البقـاء على قيـد الحياة .

بالإضافـة إلى ذلـك تتحقـق التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية عـلى مرجعيـة ثقافـة التكييف والتحايـل، حيـث يتـم تنشـئة الجماهـير وفـق هـذه الثقافـة بآليـات كثـيرة. وتتمثل الآليـة الأولى فى حفـاظ الدولـة عـلى إسـتمرار حالـة الفـوضى فى المجتمـع والمحافظـة عليهـا بواسـطة الآليـة الأمنيـة ، حتـى لا تتحـول إلى حالـة مـن التمـرد العـام. فى هـذا الإطـار يفـرض عـلى البـشر التكيـف مـع نـدرة الفـرص أو الخدمـات وعـدم العدالـة فى توزيعهـا ، ومـن ثـم يتحولون مـن الاهتـمام بالقضايا العامـة والكليـة التـى تهـم الوطـن إلى قضايـا تفصيليـة او جزئيـة تهـم الحيـاة اليوميـة للمواطـن الفـرد ، ومـن ثـم الانـصراف عن الاهتـمام بقضايا المجـال العام إلى الإهتـمام بقضايا المجـال الخاص. يضـاف إلى ذلـك تعمـد المسـئولين فى الدولـة عـن قصـد أو بـدون قصـد إطـلاق وعـود كلاميـة بحل كل المشـكلات ونـشر حالـة مـن الأحـلام الورديـة التـى تتناقـض مـع عذابـات الواقـع. وحتـى تمنـع الجماهـير مـن التحـرك الرافـض لمسـاحة الفجـوة بـين القـول والفعل ، فـإن العصـا الأمنيـة الغليظة

تلعب دورها فى حصار حياتهم فى ظل نوع من الحرمان المطلق، دون إمتلاك القدرة على التحرك أو الرفض. إلى جانب ذلك تعمل الدولة على إدارة المجتمع باسلوب اصطناع الأزمات المحدودة ، حيث يعيش المواطن طول يومه يحاول أن يقدم حلولاً فردية لهذه الأزمات. أزمة عدم وجود مياه الشرب ، وأزمة الرغيف ، وأزمة غرق العبارات ، وأزمة الكهرباء وأزمة عدم بيع محصول القطن ، أزمة المرور ، إضافة إلى الأزمات الدائمة كأزمة البطالة ، والإسكان ، وتردى مستويات المعيشة بسبب غياب الدخل الملائم. بحيث تستهلك هذه الأزمات الاهتمامات والسلوكيات اليومية للمواطن ، وتنشئة على الاهتمام بالقضايا أو المشكلات اليومية والجزئية المحدودة ، ومن ثم لا يتبقى لديه الوقت أو الطاقة لمتابعة قضايا أو مسائل تتصل بالشأن أو المجال العام.

فإذا حاولنا رصد تأثير التحولات الاجتماعية الاقتصادية التى مرت بها مجتمعاتنا على التنشئة الاجتماعية والسياسية، فسوف تبرز أمامنا مجموعة من الظواهر الأساسية. وتتمثل الظاهرة الأولى فى أننا إذا نظرنا إلى هذه التحولات من منظور شامل فى بعدها التاريخى، فسوف نجد أن هذه التحولات تضمنت منظومات قيم عديدة. تعددت أحيانا وتناقضت فى أحيان أخرى ، بحيث أدت هذه الحالة إلى إضعاف فاعلية الثقافة عموما ، وهو الأمر الذى أسلم إلى حالة من الفراغ الثقافى الذى ساعد فى مرحلة تالية على ملئة بقيم فردية وإنتهازية، الأمر الذى ساعد على تبلور ثقافة إنتهازية أصبحت طافية وطاغية فى فضاء المجتمع. كما ساعد فى مرحلة أخرى على تيسير الظروف لإختراق فضائنا الثقافى بمنظومات قيم غريبة على مجتمعاتنا، بحيث بشرت هذه الظروف جميعا بحالة ساعدت على طرق الأفراد المواطنين أبواب سلوكيات سياسية غير مواتية لإحتياجات وتطلبات المجتمع.

وتشير الظاهرة الثانية إلي إننا إذا نظرنا إلى الساحة الثقافية عبر نصف قرن من التحولات ، مع إختزال البعد التاريخى أو الزمنى - بإعتبار أن

العمليات الثقافية، سواء بإتجاه الحيوية أو الإنهيار، تستغرق زمنا طويلاً – فإننا سوف نجد ان الفضاء الثقافى للمجتمع إمتلأ بمنظومات ثقافية عديدة. أضعفت من ناحية بعضها البعض – على نحو ما أشرت – فأسست فراغاً ثقافيا فى المجتمع، غير أنها من ناحية أخرى كانت نتيجة لتحولات إجتماعية مترددة ومتأرجحة أو لعبت دوراً فى تأسيسها. إضافة إلى تأرجح أو تردد مؤسسات التنشئة الاجتماعية والسياسية بين القيم التى كانت مسيطرة على فضاء التحولات من ناحية وبين المنظومات القيمية التى من المفترض أن تتحقق التنشئة الاجتماعية والسياسية وفقا لها لتجسد المضامين المستهدفة لهذه التحولات . الأمرالذى أدى فى النهاية إلى تمزيق النسيج الثقافى للمجتمع ، بحيث أصبحت قدرته ضعيفة على قيادة تنشئة سياسية فعالة لمواطنية ، أو متابعة تبنيهم لقيم اجتماعية وسياسية معينة أو ممارستهم لسلوكيات اجتماعية وسياسية محددة. وقد ساعد على ذلك أن الأنظمة السياسية المتتابعة إرتكبت خطيئة العجز عن متابعة عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية، فلا هى أسست عن قصد تنظيمات أو مؤسسات تتولى تربية النشئ وتنشئتهم اجتماعيا وسياسيا وفق أيديولوجيات التحولات – بغض النظر عن تباينها أو تناقضها – ولا هى حافظت على مؤسسات التنشئة الاجتماعية والسياسية التى طورها المجتمع فى مسيرته التطورية. والنتيجة أن المجتمع عاصر حالة أو وضع غابت فيه التنشئة القصدية التى عجزت الأنظمة السياسية المتتابعة عن تأسيسها ورعايتها، والتى يمكن أن تقوم بها مؤسسات رسمية. كما ضعفت فاعلية المؤسسات التقليدية للتنشئة الإجتماعية والسياسية،وهى الحالة التى فرضت تنشئة سياسية ضعيفة. جعلت المواطنين الصغار نهبا لأية قيم ومضامين اجتماعية وسياسية منحرفة يمكن لهم أن يستوعبوها وتوجه سلوكياتهم.

من الظواهر التى برزت على ساحة التحولات الاجتماعية الاقتصادية تناقض مضامين التنشئة الاجتماعية والسياسية والإجتماعية بالنسبة لمختلف

الفئات الإجتماعية ، فى مختلف مراحل التحول الإيديولوجية. تأكيدا لذلك أن التنشـئة الاجتماعية والسياسـية فى المرحلـة الإشـتراكية قـد عانـت مـن عـدة تناقضـات أو تطرفـات، مثـال عـلى ذلـك أن بعـض الفئـات التـى إسـتفادت مـن المرحلـة الإشـتراكية بـدأت تنشـئ أبنائهـا - مـع كل السـلبيات التـى أشرت إليهـا - حسـب القيـم الإشـتراكية بإعتبارهـا قيـم المرحلة التـى منحتهم إمتيـازات كثيرة ، بحيـث أدت هـذه التنشـئة بهـؤلاء الأبنـاء لأن يكون أكـثر إرتباطـا بالوطن فى هـذه المرحلة وأقوى إنتـماءاً لـه. فى مقابـل ذلـك فإننا نجـد بعض الفئـات أو الشرائح الإجتماعية التى أضـيرت فى المرحلة الإشـتراكية، نتيجـة لسـحب بعـض إمتيازاتهـا ، تتجه إلى تنشـئة أبنائها وفق مضامين غير إشـتراكية أو مضامـين لا تعكـس طبيعـة هـذه المرحلـة الأمر الذى يـؤدى إلى أضعاف إنتمائهـا الاجتماعى لمجتمع ودولـة هـذه المرحلـة. وبـين هـذه الفئـات المتباينـة وجـدت شرائـح إجتماعيـة عملت على تنشـئة أبنائهـا وفـق قيـم فرديـة نفعيـة، أدت بهـم إلى القناعـة بمضامـين الثقافـة والسـلوكيات الإنتهازيـة. وهـى الثقافـة السياسـية التى وإن بدأت فى المرحلة الأشـتراكية إلا أنها إزدهـرت فى المرحلة الليبرالية بعـد ذلـك. وقـد مارسـت ذات الفئـات أدواراً معكوسـة لإنجـاز التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية فى المرحلـة الليبراليـة ، حيـث تبدلـت مواقـف الشرائـح والفئـات الإجتماعيـة مـن التجربـة الليبراليـة ، ومـن ثـم تبدلت ممارسـاتها فى عملية التنشـئة الاجتماعية والسياسـية لأبنائهـا ، بحيث وقعت نتائج وآثـار لهذه الممارسـة.

وتعـد ظاهـرة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية الوطنيـة فى الخـارج مـن ملامـح المرحلـة الليبراليـة التـى بـدأت مـع بدايـة السـبعينيات. وقد بدأ هـذا النمط من التنشـئة مع هجـرة أعداد كبـيرة مـن المصريـين إلى مجتمعـات الخليـج . بلغـت فى بعض السـنوات حـوالى أربعة ملايين نسـمة تتبـدل بمعـدل كل خمـس سـنوات ، وهـو مـا يعنـى أن نسـبة كبـيرة مـن المواطنـين الذيـن سـافروا بعائلاتهم أو الذين بقيت عائلاتهم هنا فى الوطن. تمت تنشـئة أولادهم وهم يدركون أن حاجاتهم

الأساسية تشبع من موارد وسخاء وطن غريب ، بحيث كان ذلك مدخلاً لاستيعاب ثقافتة ومفرداتـه التى تسربت إلى ذواتهم. الأمر الذى توازى معه نشأة ونمو عواطف سلبية تزايدت مساحتها فى وعيهم الثانوى ، بأن المجتمع الخليجى هو مصدر الأشباع، بينما وطنهم لم يكن كذلك، الأمر الذى قوى من إرتباطهم بالمجتمع الخليجى ، وأضعف فى نفس الوقت إرتباطهم بمجتمعهم وإنتمائهم له. وهى الحالة التى أدت أيضا إلى التعامل مع الوطن ليس وفق منطق عاطفى يستنفر فى الإنسان مشاعر مثالية تؤكد على الإرتباط به ، ولكن وفق منطق عقلانى رشيد يؤكد على قيم المصلحة والمنفعة الأنانية فى التعامل مع الوطن أو فى العلاقة المتبادلة معه.

المراجــــــع

١. محمـد زاهـى بشـير المغـيربى : قـراءات فى السياسـة المقارنـة ، بنغـازى ، منشـورات جاعة قاريونـس ، ١٩٩٤ ، ص ٤٣.

٢. نفس المرجع ، ص ٤٧.

٣. محمـد ياسـين حمـودة: بحـوث فى واقـع أمتنـا ، مجلـة كليـة الآداب والعلوم الأنسـانية ، المجلـد الأول ، ١٩٩٤،ص ص ٥-١٢.

٤. أديـب عقــيل : التليفــزيون وتحديـات التنشـئة الاجتماعيـة ، aabanna.www//:ptth. mth.nuzfilt/46abn/gro.

٥. على ليلة: العولمة والأمن القومى العربى ، الأبعاد الثقافية والإجتماعي، الكتاب الأول ، دار الأنجلو المصرية ، ٢٠١١ ، ص ٤٩.

٦. عـلى ليلـة : العـراق ٢٠٢٠ ، رؤيـة مسـتقبلية ، بحـث للحلقـة السـابعة عـشر "مجلـس الفكـر العـربى ، "مركـز الخليـج للدراسـات الاسـتراتيجية" إبريـل ٢٠٠٧، ص ٣٩.

٧. نفس المرجع : ص ٤٧.

٨. محمـد عابـد الجابـرى: العولمـة والهوية الثقافية ، عـشر أطروحات (فى) العـرب والعولمة "نـدوة" مركـز دراسـات الوحدة العربيـة ، بيروت ٢٨-٣٠ ، ديسـمبر ١٩٧٧ ، ص ٢٠.

٩. عـلى ليلـة: العولمـة والأمـن القومـى العـربى، الأبعـاد الثقافيـة والإجتماعية، مرجع سـابق ، ص ٢٨.

١٠. محمد عابد الجابرى : مرجع سابق ، ص ٢٢.

11. Turner, Brain: Theories of Modernity and Post-Modernity. London, Suage, 1990,P.184.

١٢. كريـم أبـو حـلاوة: الآثـار الثقافيـة للعولمـة ، خطـوط الخصوصيـات الثقافيـة فى بنـاء عولمـة بديلـة ، عـالم الفكـر ، المجلـة ٢٩ ، العـدد ٣ ينايـر – مـارس ٢٠٠١ ص ص ١٧٤-١٧٥.

١٣. نفس المرجع : ص ١٨٣.

١٤. عـلى ليلـة: العولمـة والأمن القومى العـربى ، الأبعاد الثقافية والإجتماعية ، مرجع سـابق ، ص ٥٣.

١٥. وحيـد بـن حمـزة هاشـم: العلاقة بين التنشـئة الوطنية والاسـتقرار ، ورقـة عمل مقدمة لنـدوة المجتمـع والأمـن ، كلية الملـك فهد الأمنية ، الريـاض ، ٢١-١٤٢٤/٢/٢٤هـ ، ص ٩.

١٦. عـماد علـو : دور منظـمات المجتمـع المـدنى فى العملية السياسـية ، جريـدة المدى "آراء وأفـكار" الأحد ١٥ يوليـو ٢٠٠٧. http;//www.almodapapor.com

١٧. عـلى ليلـة: العولمـة والأمـن القومى العربى ، الأبعـاد الثقافية والإجتماعية، مرجع سـابق ، ص ص ٦٥-٦٦.

١٨. عـلى ليلـة: ثقافـة المخـدرات ، البحـث عن نمـوذج نظرى ، دراسـة غير منشـورة "ندوة" المركـز القومـى للبحوث الاجتماعية والجنائيـة ، ٢٠٠٣ ، ص ١٢.

١٩. محمد عابد الجابرى : مرجع سابق ، ص ١٤.

٢٠. عـلى ليلـة: العولمـة والأمـن القومى العربى ، الأبعـاد الثقافية والإجتماعية، مرجع سـابق ، ص ص ٦٧-٦٨.

٢١. على ليلة : قضايا ومشـكلات التخلف فى العالم العربى ، جامـــعـــة عين شـمس ، ٢٠٠٠، ص ٣٠٧.

٢٢. عـلى ليلـة: ماكـس فيـبر والبحث المضـاد فى أصل الرأسـمالية المعـاصرة ، المكتبة المصرية للطباعـة والنشر ، ٢٠٠٤، ص ص ٦٣-٦٤.

23. Abdel Hakim, S.S:

٢٤. عـلى ليلـة : تفاعـل الحضـارات بـين إمكانيات الإلتقـاء وإحتمالات الصراع، مركز دراسـة الحضـارات المعـاصرة ، جامعـة عين شـمس ، ٢٠٠٦ ، ص ٩٧.

٢٥. عـلى ليلـة: العولمـة والأمـن القومـى العـربى ، الأبعاد الثقافيـة والإجتماعية، رجع سـابق ، ص ١٠٣.

٢٦. نفس المرجع : ص ١١٢.

٢٧. نفس المرجع: ص ١١٣.

٢٨. كريم أبو حلاوة: مرجع سابق ، ص ١٧٢.

٢٩. علي ليلة: العولمة والتراث الثقافى للمجتمع ، بحث مقدم "لندوة" العولمة والثقافة المادية، يناير ٢٠٠٦ ، ص ٣٢.

٣٠. عبد الله بلقيز : عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة "فى" العرب والعولمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت "تحرير" أسامة الغزالى ، يونيو ١٩٩٨، ص ٤٢.

٣١. نفس المرجع ، ص ٣٠.

٣٢. علي ليلة : العولمة والأمن القومى العربى، الأبعاد الثقافية والإجتماعية، مرجع سابق ، ص ١١٦.

٣٣. ـــ : تفاعل الحضارات بين إمكانيات الإلتقاء وإحتمالات الصراع ، مركز دراسة الحضارات المعاصرة ، جامعة عين شمس ، مرجع سابق.

٣٤. ــــ : العولمة والأمن القومى العربى ، الأبعاد الثقافية والإجتماعية ، مرجع سابق ، ص ١٧٢.

٣٥. نفس المرجع: ص ١٧٢.

٣٦. نفس المرجع : ص ١٣٣.

٣٧. نفس الرجع : ص ١٣٤.

٣٨. نفس المرجع: ص ١٣٤.

٣٩. علي ليلة : تفكيك أدوار المرأة مدخل لتفكيك بناء المجتمع "بحث فى مؤتمر" "المرأة علي ساحة أطر حضارية متباينة ، مركز الدراسات المعرفية ، قسم الإجتماع ، جامعة عين شمس ، نوفمبر ٢٠٠٦. ص ٤٢.

٤٠. ـــ : نفس المرجع ، ص ٦٧.

٤١. ـــ: العولمة والأمن القومى العربى، الأبعاد الثقافية والإجتماعية، مرجع سابق ، ص ١٧٣.

٤٢. محمود عودة ، علي ليلة : تاريخ مصر الاجتماعى ، جامعة عين شمس، برنامج التعليم المفتوح ، ٢٠٠٢ ، ص ٢٨٤.

٤٣. نفس المرجع: ص ٢٨٥.

٤٤. نفس المرجع : ص ٢٨٧.

45. Palmer,Monte & Ali liela & Sayed Yassin: The Egyption Bureaucray, Syacuse University Press, 1988, P. 32.

٤٦. محمود عودة ، على ليلة : مرجع سابق ، ص ٢٨٩.

٤٧. على ليلة: العولمة والأمن القومى العربى، الأبعاد الثقافية والإجتماعية ، مرجع سابق ، ص ١٧١.

٤٨. نفس المرجع : ص ١٧٤.

٤٩. نفس المرجع: ص ١٧٥.

الفصل الرابع

سياقات ومضامين

التنشئة الاجتماعية والسياسية للشباب

الفصل الرابع

سياقات ومضامين

التنشئة الاجتماعية والسياسية للشباب

تمهيد

تعـد التنشـئة الاجتماعية والسياسـية مـن العمليات الضرورية لوجود وإسـتمرار أى مجتمع مـن المجتمعـات، وذلـك بإعتبـار أن التنشـئة الاجتماعية والسياسـية – وهى موضـوع الفصل الحالى – تسـتهدف بالأسـاس بنـاء الضمـير الاجتماعـي والسـياسى للفـرد. وهـو الضمـير الـذى ندركـه مـن خـلال تجليـات عديـدة، أبرزهـا أن تنمـو هويـة الفـرد بحيـث تعكـس هويـة الجماعـة، وكلاهـما يعكـس هويـة المجتمـع، يضـاف إلى ذلـك أن هـذا الضمـير – فى حالـة إكتمالـة – يدفـع الفـرد إلى الإرتبـاط بالمجتمـع والإنتـماء لـه. وفى هذه الحالة فإنه يسـعى إلى المشـاركة فى بناء تفاعلاته، سـواء الاجتماعيـة أو السياسـية، وهـو مـا يـؤدى فى النهايـة إلى تقنـين علاقـة البـشر ببعضهـم البعـض على مرجعيـة المواطنـة، وهـو مـا يعـد مدخـلا لتحقيـق الاسـتقرار الاجتماعـى والسـياسى، ويحافـظ على الهويـة القومية.

ونظـراً لمحوريـة عمليـة التنشـة الاجتماعيـة السياسـية بالنسـبة الأفـراد المجتمـع – بخاصـة الشـباب – فإننـا نجـد أن المجتمعـات تـوكل عمليـة إنجازهـا لفواعـل عديـدة. فى هذا الإطـار يعتبر السـياق الاجتماعـى الـذى ينتمـى إليـه الفرد فاعـلاً أصيـلاً فى إنجاز عمليـة التنشـئة الاجتماعية، إلى جانـب بعـض السـياقات الفرعيـة. وإرتباطـا بذلـك يعـد السـياق الريفـى هـو السـياق الاجتماعـى القاعـدى فى المجتمـع المـصرى، وهـو سـياق يتميـز بسـيطرة الثقافـة التقليديـة، وسـيطرة الطبيعـة الجماعيـة وقـوة العواطـف الدينيـة. حيـث نجـد أن هـذه الطبيعة تؤسـس تنشـئة سياسـية، تتميز بالمحافظـة والتقليديـة، والميـل إلى الخضـوع للسـلطة الاجتماعيـة والسياسـية بإعتبارهـا إمتـداداً لسـلطة التقاليـد ورب العائلـة وشـيخ البدانـة وأعيـان المجتمـع المحـلى. ثـم أن التنشـة الاجتماعية فى هـذا السـياق تتميـز بترسـيخ القيـم والمعايـير، المحافظة عـلى إسـتقرار السـياق الاجتماعى، وهى الأبعـاد التـى تشـكل مرجعيـة السـلوك الاجتماعـي والسـياسى للإنسـان الريفى.

ويعـد السـياق الحـضرى احـد فواعـل التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية كذلـك، حيـث نجـد أن التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية فى هـذا السـياق لهـا طابعهـا المميـز، تأكيـدا لذلـك أننـا نجد أن السـياق الحـضرى يتميـز بالفرديـة التـى تشـكل فى غالـب الأحيـان قاعـدة للقيـم النفعية والسـلوك الاجتماعـي والسـياسى الأنـانى والمنفعـى وربمـا الانتهـازى. بالإضافـة إلى ذلـك فإننـا نجـد أن الثقافة الاجتماعيـة والسياسـية الضابطـة للتفاعـل فى السـياق الحـضرى، تتميـز بالتنـوع إلى حـد التبايـن أو التناقـض، وهـى الحالـة التـى قـد تفـضى فى أحيـان كثـيرة إلى حالـة الأنومـى فى الثقافـة الاجتماعيـة والسياسـية. حيـث نجـد فى إطارهـا أن القيـم والمعايـير إمـا أنها ضعيفـة بحيث نجدهـا عاجزة عن توجيـة السـلوك الاجتماعـي والسـياسى للمواطنين. أو أنهـا متناقضة بحيث نجدها تسـلم أحيانا إلى سـلوكيات اجتماعيـة وسياسـية متناقضـة، وهـو مـا ينشر أحيانـا حالة مـن الأنومى وفوضى السـلوك الاجتماعـي والسـياسى فى السـياقات الحضريـة. بالإضافـة إلى ذلـك فـإن عقليـة الحشـد قـد تحكـم السـلوك الاجتماعـي والسـياسى فى السـياقات الحضريـة كـما تتجسـد أحيانـا فى بعـض التظاهـرات والإضرابـات الحضرية.

ونظـراً لأن العشـوائيات تعـد ظاهـرة حضريـة بالأسـاس، حيـث تضـم بداخلهـا نسـبة عالية مـن السـكان المهمشـين إجتماعيـا وإقتصاديـا وثقافيـا وسياسـيا. فمـن الناحيـة الاجتماعيـة يسـكن العشـوائيات الأفـراد الذيـن إنتقلـوا حديثـا من الريـف إلى المدينة، وهم يعيشـون حالـة من التحول بدرجـة كاملـة، مـن الثقافـة والقيـم الريفيـة إلى الثقافـة والقيـم الحضريـة. وفى الغالـب نجدهم لم يتخلـوا عـن الثقافـة الريفيـة التقليديـة تمامـا، ولم يكتسـبوا الثقافـة الحضريـة بعـد، فهـم فى حالـة إنتقاليـة، الثقافـة والقيم الاجتماعية والسياسـية التى تشـكل مرجعية سـلوكياتهم مـا زالت ضعيفة، ولذلـك نجـد أن سـلوكياتهم الاجتماعيـة والسياسـية مضطربـة، وفى أحيـان كثـيرة منحرفـة. كـما أنهـم مهمشـون مـن الناحيـة الاقتصاديـة. حيث تضم العشـوائيات الفقـراء الذين لفظتهـم الأحياء الأخـرى فى المدينـة، إضافـة إلى الفقـراء الذيـن هاجـروا مـن الريـف، وسـكنوا العشـوائيات إنتظـاراً للحصـول عـلى بعـض فـرص الحياة. ومـن الناحيـة الثقافية فإن الظـروف الأيكولوجية والسـكنية فى

العشـوائيات، تلغـى الخصوصيـة الثقافيـة والاجتماعيـة أحيانـا، الأمـر الـذى يؤدى إلى إزدهـار عديد مـن القيـم والسـلوكيات المنحرفـة، وبذلـك يقـود التهميـش الاجتماعـى والاقتصـادى إلى حالـة مـن التهميـش الثقـافى والأخلاقـى. ومـن الطبيعـى أن يـؤدى كل ذلـك إلى حالـة من التهميش السـياسى، فغالبيـة سـكان العشـوائيات يدركـون أن قوتهم محـدودة من حيث تأثيرهـم فى العملية الاجتماعية والسياسـية، وهـى الحالـة التـى تشـعرهم بالإحباط وإنعـدام القيمـة. وهى المشـاعر التى تضعهم عـلى أعتـاب رفـض العمليـة الاجتماعيـة والسياسـية إمـا مـن خـلال الامتنـاع عـن المشـاركة، أو مـن خـلال إسـتفادتهم مـن التنافس الاجتماعي والسـياسى فى العمليات الاجتماعية والسياسـية والتعامل مـع بمنطـق نفعـى، وفى هذا الإطار يلعبـون أدوارهم بإعتبارهم آلية للبلطجـة، وشراء الأصوات. غير أن خطرهـم يتجـلى بأوضـح مـا يكـون حينـما يتعـرض السـياق الحضرى لبعـض مظاهـر الفوضى، فى هـذه الحالـة فإننـا نجـد أن سـكان العشـوائيات، يـبرزون بإعتبارهـم كتلـة ناريـة قادرة عـلى تدمير وأحـراق مجتمـع لإناقـة لهم فيـه ولا جمل.

ويشـكل السـياق الطبقـى أو الفئـوى السـياق الاجتماعـى الثالـث الـذى له علاقة بالتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية، ونحـن إذا تأملنـا بعـد السـياق الطبقـى فسـوف نجـد أنفسـنا امـام بنـاء طبقـى غـير مكتمـل. قـد تكون هنـاك كتل طبقيـة منفصلة عن بعضهاعلى أسـاس مسـتوى الدخل، حيـث ينقسـم المجتمـع إلى الطبقـة العليـا والوسـطى والدنيـا، غـير أن هـذه الطبقـات غـير ناضجة، لأنهـا لم تمتلـك وعيهـا بعـد، وهـو الأمـر الـذى يجعـل سـلوكها السـياسى يتصـف بالعشـوائية أحيانا، وعـدم الاتسـاق مـع مصالـح الطبقـة فى احيان كثـيرة. فإذا تأملنا التنشـئة الاجتماعية والسياسـية فى كل طبقـة مـن الطبقـات فسـوف نجـد أن الطبقة العليـا مثلاً يتلقـى أبناؤها التعليـم الأجنبى، وهم منفتحـون عـلى الثقافـة ومنظومـات القيـم الغربيـة. وفى الغالب يكـون ذلك على حسـاب ثقافتهم وهويتهـم القوميـة، لذلـك نجـد أن روابطهـم بمجتعهـم دائماً ضعيفـة، وإنتمائهم لـه أضعف، هم فى الغالـب فرديـون نفعيـون أنانيـون يغلبـون مصالحهـم عـلى مصالح المجتمـع. على الطـرف المقابل نجـد الطبقـة الدنيـا لم يحصـل أبناؤهـا عـلى فـرص التعليـم الكافيـة، لذلـك كان من السـهل تزييف

وعيهـم، لدفعهـم فى إتجـاه سـلوك سـياسى ضـد مصالحهـم، وربمـا ضـد مصالـح المجتمـع. فى بعـض الأحيـان نجـد لـدى بعـض أفـراد هـذه الطبقـة متاجـرة بالسـلوك الاجتماعـي والسـياسى، فبعضهـم يبيـع أصواتـه فى بعـض العمليات السياسـية، بخاصة الانتخابات والاسـتفتاءات. غير أن نسـبة عالية مـن هـذه الطبقـة قـد تدعم السـلوكيات السـوية المرتبطـة بالعمليـات الاجتماعية والسياسـية، أملا فى الحفـاظ عـلى ممارسـيها باقـين فى منطقـة السـواء الاجتماعى.

تبقـى الطبقة الوسـطى التى تشـكل رمانة ميزان المجتمع، غالب أبنـاء هذه الطبقة تتطابق مصالحهـم مـع مصالـح المجتمع، فى العادة تموج سـاحة الطبقة الوسـطي بعديد مـن الأيديولوجيات والتوجهـات السياسـية، غـير أن التوجـه الحقيقـى لهذه الطبقة هـو التوجه المعبر عـن نواتها الصلبة أو شريحتهـا الوسـطى. قـد يرفـض قطـاع مـن هـذه الطبقة صيغـة الاسـتقرار ويطالـب بالتغيير، فى مقابـل قطـاع متمـرد آخـر قـد يطالـب بالتغيـير، حتـى التغيـير الراديـكالى. إذا تأملنـا مسـيرة هـذه الطبقـة، فسـوف نجـد أنهـا خضعـت لحالة مـن الحـراك الاجتماعى إلى أعـلى فى المرحلة الاشـتراكية، حيـث حصلـت عـلى كثير مـن فرص الحيـاة، فى التعليم والصحة والأسـكان والعمل. غـير أننا نجدها قـد قـادت حـراكا متراجعـا فى المرحلـة الليبراليـة، التـى بـدأت مـع توجـه المجتمـع إلى التأكيـد عـلى الأيديولوجيـا الليبراليـة، وقيـادة القطـاع الخـاص لعمليـة التنميـة والتحديـث. ونظـرا لأنهـا حرمت فى هـذه المرحلـة مـن الفـرص، فإنهـا تبنت سـلوكيات اجتماعية وسياسـية غـير منتميـة إلى حد كبير، فهاجـرت مـن المجتمـع سـعيا وراء مصالحهـا الخاصة ولو على حسـاب المجتمع. إضافة إلى ممارسـة سـلوكيات تشـير إلى إنطلاقهـا مـن مرجعيـة إنتهازيـة، يضـاف إلى ذلـك أننـا نجد أنه قـد طورت على سـاحتها سـلوكيات التطـرف الدينـى والعنـف. كـما نمـت فى نطاقهـا توجهـات سياسـية عديـدة فى العقـود الأربعـة السـابقة عـلى ثورة ٢٥ يناير، تؤكـد بضرورة التغيير الراديـكالى. وفى أعقاب ثورة ٣٠ يونيـو نجدهـا قد رفعت شـعارات الدولة المدنية، وبسـبب كـثرة الحركات والتوجهـات التى تطورت عـلى سـاحتها، فهـى تعد اكثر الطبقات ديناميكيـة من الناحيـة الاجتماعية والسياسـية.

بالإضافـــة إلى ذلـــك تعتـــبر الفئـــات الاجتماعيـــة مرجعيـــة للتنشـــئة الاجتماعيـــة

والسياسـية التـى يخضـع لهـا أفـراد الفئـة الاجتماعيـة، فى هـذا الإطـار فإننـا نجـد أن هنـاك بعـض الفئـات الاجتماعيـة، التـى تبلـورت عـلى سـاحتها ثقافـة اجتماعيـة وسياسـية شـكلت مرجعيـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية عـلى سـاحتها. تأكيـدا لذلـك فإننـا نجـد أن المـرأة مثـلاً أصبحـت تقـود سـلوكيات اجتماعيـة وسياسـية، تنطلق من مرجعية حقوق الإنسـان وحقوق المـراة، فى مقابل تخليهـا عـن بعـض السـلوكيات التـى تفرضها عليهـا الثقافة التقليديـة. ومن ثم نجدها مـن الناحية الاجتماعيـة والسياسـية تقـف إلى جانـب التوجهـات الليبراليـة الحديثـة، التـى تؤكـد عـلى حقـوق الإنسـان والتحـول الديموقراطـى. إضافـة إلى تبنـى قطاعـات كبـيرة مـن النسـاء، لمضامـين التنظـير النسـوى فيـما يتعلـق بالموقـف مـن مقتضيـات الثقافـة التقليديـة.

يضـاف إلى ذلـك الشـباب، الذيـن أصبحـوا أكـثر إنفتاحـاً عـلى الثقافـة الحديثـة مـن خـلال الاعـلام وتكنولوجيـا المعلومـات، وإسـتوعبوا مضامـين مـا بعد الحداثـة ،التى أصبحـت ترفض كل ما هـو مـوروث وتقليـدى. ولذلـك نجدهـم يقفـون دائمـاً فى معسـكر التمـرد والرفـض، يطالبـون دائما بالحريـة والكرامـة الإنسـانية والعدالـة الاجتماعيـة، بإعتبارهـا موجهـات أو شـعارات أيديولوجيـة، تسـتهدف بنـاء المجتمـع الـذى يرغبـون الحيـاة فيه.

كما يعتبر النظام السـياسى احد الفواعل الأساسـية للتنشـئة الاجتماعية والسياسـية للشباب، وفى هذا الإطار يشـير تأمل دور الأنظمة السياسـية فى التنشـئة الاجتماعية والسياسـية، إلى أن قدرتها فى هـذا الصـدد تتجـه إلى التراجـع. فبعد أن كانت هـى صاحبة الاختيار الأيديولوجـى، الذى يحتوى المضامـين التـى تتـم بالنظـر إليها التنشـئة، فإنه لم يصبح أمامها سـوى تبنى التوجهـات الأيديولوجية لقـوى العولمـة. إضافة إلى أن هناك آليات عالمية ومجتمعية عديدة، تحاصر آداء الأنظمة السياسـية فى هـذا الصـدد. فهـى مـن ناحيـة محاصرة بآليـات وقوى العولمـة، ومن ناحية ثانيـة فهى محاصرة بواسـطة قـوى وثقافـة المجتمـع التقليـدى. ويتصـل بذلـك المجتمـع المـدنى الـذى يشـارك فى هـذه المرحلة فى عملية التنشـئة الاجتماعية والسياسـية، حيث يعمل المجتمع المدنى بإتجاه تطوير الوعى

السياسى للجماهير التى يتعامل معها. حتى تصبح مشاركتها الاجتماعية والسياسية رشيدة، يضاف إلى ذلك أن المجتمع المدنى يعمل بإتجاه التاكيد على حالة من التعددية السياسية، ومن ثم فهو يدرب الجماهير على قبول الآخر والتسامح معه، بغض النظر عن الخلافات فى التوجه أو الرأى. يضاف إلى ذلك أن المجتمع المدنى، من خلال المنظمات الحقوقية، بدأ يلعب دوراً اساسيا فى الدفاع عن الجماهير فى مواجهة النظام السياسى، أو آية مؤسسات داخلية او خارجية تسعى لفرض القهر عليه.

وإلى جانب هذه الفواعل الشاملة، التى تلعب دوراً اساسياً فى عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية للشباب، هناك مجموعة من الفواعل التى تلعب دوراً مباشراً فى عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية. وتعتبر الأسرة اول هذه الفواعل، حيث تبدأ التنشئة الاجتماعية والسياسية داخل الأسرة، وحسب طبيعة الأسرة تكون القيم التى يستوعبها الطفل وتوجه سلوكه الاجتماعي والسياسى مستقبلا، كما تتباين الأسرة من حيث قدرتها على تطوير الوعى السياسى للأبناء، وأيضا فى دفع الأبناء بإتجاه المشاركة الاجتماعية والسياسية الإيجابية. غير أن الأسرة خضعت فى الفترة الأخيرة لإختراقات إجتماعية وثقافية عديدة، أعجزتها عن السيطرة على التنشئة الاجتماعية والسياسية للأبناء، بل وخفضت قيمتها فى مخيلتهم، فتراجعت كفاعل له تأثيره فى عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية. ويتكامل دور النظام التعليمى إبتداء من المدرسة وحتى الجامعة مع دور الأسرة، فى عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية، فمن خلال الحياة المدرسية والتفاعل فى إطارها، يتعلم الطفل أسس التفاعل الديموقراطى مع الاخر. كما تدربه على قيم الديموقراطية وحقوق الإنسان، إضافة إلى أنها تدرب الطلاب على أسس التعامل الرشيد مع السلطة. وأخيرا يأتى الاعلام وتكنولوجيا المعلومات، التى برزت على الساحة كفاعل تزداد قوته بصورة مستمرة، من حيث قدرته على السيطرة على عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية. حيث يستوعب الشباب المضامين الاجتماعية والسياسية المتدفقة من الاعلام وتكنولوجيا المعلومات لتشكل مرجعيته الموجهة لسلوكياته الاجتماعية والسياسية، ونحن إذا

تأملنـا آداء الاعـلام، فسـوف نجـد أن مسـاحة فاعليتـه تتزايد بصورة مسـتمرة على حسـاب إنكماش فاعليـة الفواعل الأخرى.

وإذا كنـا قـد تحدثنـا عـلى تعـدد الفواعل القائمة بالتنشـئة الاجتماعية والسياسـية للشـباب فإننـا نعتقـد أن مضامـين التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية يغيـب عنهـا التجانـس الـذى ينبغـى ان يتوفر للقيم التى تشـكل مضامين هذه التنشـئة. إذ تعانى مضامين التنشـئة الاجتماعية والسياسـية مـن تغـير الأيديولوجيـات السياسـية، التـى تـأتى إلى السـاحة وتنسـحب منهـا بصـورة متتابعـة. كما تعـانى أحيانـا مـن تبايـن مضامـين التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية، وتناقضهـا إلى حـد أنهـا تجسـد حالـة الأنومـى فيـما يتعلق بالمرجعيـة الثقافية والأخلاقية الموجهة للتنشـئة الاجتماعية والسياسـية، وهـى الحالـة التـى تنعكس على طبيعة السـلوكيات السياسـية للشـباب فى مختلـف المجالات، وهـى القضايـا التـى نعرض لهـا فى الصفحـات التالية.

أولاً: التنشئة الاجتماعية والسياسية على خلفية السياق الريفى – الحضرى.

يمكـن إعتبـار التفاعـلات التـى وقعـت عـلى السـاحة الريفيـة – الحضريـة أحـد المتغـيرات المؤثرة على التنشـئة الاجتماعية والسياسـية على السـواء. وترجع فاعلية هذا المتغير إلي أن الانتقال مـن السـياق الريفـى إلى السـياق الحضرى ، يعنى الانتقـال من الثقافة الريفيـة التقليدية إلى الثقافة الحضريـة ، والتـى ربمـا كانـت حديثـة او عشـوائية متخلفـة ، كـما يعنـى هـذا الإنتقـال أو الحـراك الافـلات مـن سـطوة التكوينـات الجماعيـة التقليديـة ، إلى حيـاة تمجـد الفرديـة المسـتندة إلى القيم الفرديـة والنفعيـة التـى تميز السـياقات الحضرية. وهو ما يعنى أن التنشـئة الاجتماعية والسياسـية تصطبـغ عـادة بالإطـر التـى تحققـت فيها. فى هـذا الإطار فإننا نجـد ان لدينا ثلاثة أطر أو سـياقات إجتماعيـة ، كان للتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية فى كل منهـا طبيعة خاصة . فلدينا السـياق الريفى التـى تنظـم الثقافـة التقليديـة التفاعـل الحـادث فيـه بمـا فى ذلـك التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية للبـشر. كـما أن لدينا السـياق الحضرى الذى من المفروض ان ينظم التفاعـل فيه وفق معايير الثقافة

الحديثة. ثم السياق الإنتقالى ، وهو بالأساس سياق تصورى قد يكون فى القرية التى إخترقتها ثقافة التحديث ، أو فى المدينة التى هاجرت إليها الثقافة التقليدية. ومن الطبيعى أن تسود هذا السياقات تناقضات كثيرة تنعكس على فوضى التنشئة الاجتماعية والسياسية فى إطارها. وفيما يتعلق بالتنشئة الاجتماعية والسياسية فى السياق الريفى ، فإننا إذا تأملنا الواقع العربى والمصرى نجد أن السياق الأول والقاعدى هو السياق الريفى الذى له نوعية حياته وثقافته ونمط التنشئة الاجتماعية والسياسية وآلياتها فى إطاره ، حيث نجد أن هذا النمط قد تغير بفعل عملية التحديث التى تضافرت مع هجرة او حراك إجتماعى من الريف إلى الحضر بحثا عن فرص الحياة الأفضل. إرتباطا بذلك ترجع عملية الهجرة من الريف إلى المدينة إلى عاملين أساسيين، ويتمثل العامل الأول فى عدم التوازن بين قدرة الاقتصاد الريفى المحدود وبين سكانه المتزايدين ، وهى قضية إشار إليها عالم الاجتماع إميل دوركيم فى معالجته للتحول من المجتمع التقليدى ، الذى سماه بمجتمع "التضامن الآلى" ، إلى المجتمع الحضرى الحديث ، الذى سماه بمجتمع "التضامن العضوى". فقد ظلت الأرض الزراعية ثابتة تقريبا. تأكيداً لذلك أننا إذا تأملنا واقع المجتمع الريفى فسوف نجد أن هذا التناقض إتضح بأوضح ما يكون فى فترة القرن التاسع عشر والقرن العشرين. فبينما بلغت المساحة الزراعية عام ١٨٩٤ نحو ٤,٧ مليون فدان ، ثم إرتفعت إلى نحو ٥,٦٦ مليون فدان عام ١٩١٤، ثم إرتفعت عام ١٩٣٠ لتصبح ٥,٩٢ مليون فدان ثم إنخفضت لتصبح ٥,٩٩ مليون فدان عام ١٩٥٢، فإننا نجد فى ذات الوقت إزدياد عدد سكان الريف عن نفس السنوات على التوالى من ٧,٥٨ مليون نسمة إلى ١٠,٠٣ مليون نسمة إلى ١٠,٣٧ مليون نسمة إلى ١٢,٦ مليون نسمة (١). وهو ما يعنى أنه فى مقابل الثبات النسبى لمساحة الأرض الزراعية تزايد عدد السكان إلى الضعف تقريبا. وهو ما يشير إلى أن هذا الفائض السكانى من الطبيعى أن يطرق قنوات الهجرة إلى الحضر، بحثا عن مختلف فرص الحياة. بحيث نجد أن سكان الحضر تزايدوا خلال هذه الفترة بسبب الهجرة إلى جانب الزيادة الطبيعية ، حيث قدر عدد المهاجرين من الريف إلى الحضر خلال الفترة ١٩٤٧-١٩٨٠ بنحو ١٠,٧٪ من سكان المجتمع المصرى (٢). وحينما

ذهبـوا إلى الحـضر تخلـوا عـن عائلاتهـم الممتـدة التى كانـت لهم فى الريف وشـكلوا عائـلات نووية جديـدة أو عاشـوا فى نطـاق حدودها. ذلك بالإضافة إلى أن هـذه الشرائح بدأت تتخلى تدريجيا عن ثقافاتهـا التقليديـة وسـعت إلى إكتسـاب قيـم الثقافة الحضرية ، التى هى بالأسـاس ضعيفة بسـبب تأثـير التحـولات الاجتماعيـة الاقتصاديـة كـما أشرنـا. وفى بعـض الأحيـان عاشـت الأسر المهاجرة على أطـراف المـدن او فى العشـوائيات، بـلا منظومـات قيميـة سـوية ان لم تكن هـذه المنظومات مطعمة بعنـاصر ثقافيـة منحرفـة(٣). هـذه السـياقات العشـوائية فى الغالـب بعيـدة عن السـيطرة الكاملة للدولـة، ومـن ثـم نجدهـا تشـكل سـاحات عـدم الاسـتقرار الاجتماعـي والسـياسى. ومـن الطبيعـى أن تصـاب التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية فى هذه السـياقات العشـوائية بتشـوهات عديدة تفرض على سـكانها ممارسـات وسـلوكيات اجتماعية وسياسـية مشـوهة كتشـوة التنشئة.

وقـد تضافـرت عمليـة التحديـث أيضـا مع الحـراك التعليمـى، الأمـر الـذى أدى إلى إندفاع موجـات أخـرى مـن سـكان الريـف إلى الحضر ، حيث سـاعدت علي ذلك ثـورة الطموحـات والآمال التـى أطلقتهـا شـعارات التحديـث عـبر مراحـل التحـول المتتابعـة. إضافـة إلى فتـح قنـوات التعليـم ومجالاتـه عـلى مصراعيـة امام أبنـاء الريف الأمر الـذي أدي إلى تدفقهم عبر هذه القنـوات ليتعلموا ثـم ليشـغلوا وظائـف فى البيروقراطيـة الحكوميـة، بخاصـة فى المرحلـة الإشـتراكية. غـير أنهـم أثنـاء صعودهـم الاجتماعـى تخلـوا فى الغالـب عـن قيم الثقافـة التقليدية وضعفـت إرتباطاتهم بالسـياق الريفـى وثقافتـة. وفى ذات الوقـت لم يحققـوا إكتسـابا قويـا لقيـم الثقافـة الحضريـة ، ومـن ثـم عاشـوا فى بعـض الفـترات حالـة مـن الفـراغ الثقـافى، لأن القيـم لا تسـقط فجـأة ولا تكتسـب فجـاة كذلـك. وهـو الفـراغ الـذى إمتـلأ بقيـم وأيديولوجيـات فرديـة تـبرر الصعـود الاجتماعـى وتـزوده بمنظومـة القيميـة التبريريـة ، وتدريجيـا تولـدت لديهـم فلسـفة الغايـات التـى تبرر الوسـائل (٤). وهـو مـا يعنـى مزيـداً مـن إضعـاف الثقافـة التقليديـة، أو لتصبـح ثقافـة تقليديـة مشـوهة يعيش وفـق معاييرهـا المهاجـر فى عشـوائيات المدينة.

إرتباطـا بفاعليـة العوامـل السـابقة أخـذت الثقافـة التقليديـة تواجـه حالـة مـن

الوهـن أو الضعـف ، خاصـة أن سياسـات الدولـة إتجهـت بالأسـاس نحو تحديث الريـف من خلال السـعى إلى نـشر أو نقـل الثقافـة الحضريـة إليـة. حيـث تحقق لهـا ذلك من خلال نشر المؤسسـات التعليميـة بمسـتوياتها المختلفـة فى القـرى ، بحيـث سـاعد ذلـك عـلى إرتفـاع عـدد الملتحقـين بهـا ، إضافـة إلى التحديـث مـن خـلال فـرض أتسـاع شـبكة المواصـلات والاتصـال الحديثة ، بحيـث لعبت كل هـذه العوامـل دوراً فى هـز رواسـخ الثقافـة التقليدية مـن ناحية وتفتيت الأبنيـة الجماعية ذات الطبيعـة القرابيـة فى الريـف من ناحيـة ثانية.

فـإذا تأملنـا الواقـع الريفـى الحضرى فسـوف نجد أن لكل سـياق تأثيره على عملية التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية إرتباطـا بنوعيـة الحيـاة وطبيعـة الثقافـة التـى تسـوده. وإذا كان السـياق الريفـى هـو السـياق الأول فى هـذة المعادلة ، فإننا سـوف نـدرك وجود متغيرين هما المسـئولين عن تنظيـم الحيـاة والتفاعـل على سـاحته. ويتمثل المتغـير الأول فى ان الحياة الريفيـة والثقافة المنظمة للتفاعـل فى إطارهـا تؤكـد عـلى ضرورة مراعـاة الاتفـاق القيمـى والمعيـارى للمجتمـع. وذلك يرجع إلى أن البنـاء المعيـارى هـو الـذي يضبـط سـلوك الإنسـان مـن الخارج حسـبما تذهب وجهـة النظر الهوبزيـة. فى هـذا السـياق تـؤدى المعايـير دورهـا كأحـد الآليـات المنظمـة للتفاعـل الاجتماعـى فى السـياق الـذى ينجـز فى إطـاره الإنسـان سـلوكه. غير أننـا نجد أن إميـل دوركيم يطور هـذا الموقف الهوبـزى ، حينـما يؤكـد أن لـدى الإنسـان التزامـا أخلاقيـا ذاتيـا بهـذه المعايـير الأخلاقيـة. ذلـك أن المجتمـع مـن خـلال عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية يعيـد تأسـيس الإنسـان كشـخصية مدربـة أخلاقيـا، بـأن يقـوم بتدريبـه عـلى المعايير الأخلاقيـة التى تنظم سـلوكه فى مختلـف مجالات الواقـع الاجتماعـى. بحيـث تصبـح هـذه العناصر المعياريـة مسـتوعبة فى داخل الفـرد وذاته. ومن ثـم يصبـح بمعنـى مـا متوحـداً مـع هـذه المعايـير ، التـى تشـكل فى النهايـة ضمـيره الداخـلى (٥). وهـو مـا يعنـى أن الفـرد فى السـياق الأولى مراقـب فى سـلوكة الاجتماعـى والسـياسى بآليتـين ، فهـو مراقـب بالقواعـد والقيـم والقوانـين التـى تعـرف عليهـا ونشـئ وفقـا لهـا حسـبما يذهـب الموقـف النفعـى ، ثـم هـو مراقـب أيضـا بضمـيره الداخـلى الـذى تشـكل مـن خـلال التنشـئة الاجتماعيـة

والسياسـية المتنوعـة والمتتابعـة حسـبما يذهـب الموقـف الدوركيمـى. ويتشـكل المتغـير الثـانى مـن الجماعـة القرابيـة التـى تعد الوسـيلة الثانية المنظمة للتفاعـل داخل الحياة الريفيـة. فى هذا الإطار يؤكـد أميـل دوركيـم أن للبطـن أو العائلـة سـلطة هائلـة عـلى الأفـراد مـن أعضائهـا ، فى مواجهـة السـلطة المركزيـة التـى يكـون وجودهـا ضعيـف فى هـذا السـياق (٦). وذلـك يرجـع لأن السـياق الريفـى يتشـكل مـن جماعـات صغـيرة هـى الجماعـات القرابيـة التـى تكـون عـادة قويـة بالنسـبة للفـرد. خاصـة إذا تضافـرت قوتهـا مـع قـوة الثقافـة التقليديـة التـى يدعمهـا الديـن ، الأمـر الـذى يمكـن الجماعـة القرابيـة مـن التدخـل عـادة فى تفاصيـل الحيـاة والخصوصيـات الفرديـة وتنظيمهـا بمـا يلائـم تحقيـق مصالـح الجماعـة (٧). وإذا كانـت التكوينـات القرابية الكبـيرة كالقبيلـة والبدنة هـى التكوينـات القاعديـة ، فـإن التكويـن القـرابى السـائد فى السـياق الريفـى حـاضراً هـو العائلـة الممتـدة. التـى بـدأت هـى الأخـرى تواجه التحلـل بإتجاه العائلـة "النوويـة" ، وإن كانـت فعاليتها فى الريـف ، خاصـة فيـما يتعلـق بالتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية مـا زالـت قائمـة. ويسـتند ذلـك إلى أننـا إذا تأملنـا السـياق الريفـى فسـوف نجـد أن العائلـة الممتـدة ، لكونهـا ذات عمـق رأسى وأفقـى فإننـا نجدهـا تقـوم بعمليـة تنشـئة سياسـية ذات طبيعـة معينـة. ونقصـد بالعمـق الرأسى أن زيـادة عـدد أجيـال الأسرة الذيـن يعيشـون مـع بعضهـم فى دار معيشـية house-hold واحـدة، مـن شـأنه أن يدعـم قدرتهـا عـلى آداء عملياتهـا الإنتاجيـة إضافـة إلى فعاليتهـا السياسـية وادوارهـا الاجتماعيـة والثقافيـة. إلى جانـب ذلـك فـإن زيـادة كثافتهـا مـن حيـث عـدد الأفـراد يتحـول عـادة إلى مـا يمكـن أن يسـمى بالكثافـة الاجتماعيـة التـى يكـون لهـا وطأتهـا عـلى أفرادهـا. مـن خـلال تنشـئتهم إجتماعيـا وثقافيـا وسياسـيا، بما يسـاعد على بنـاء الضمائـر الداخلية لأعضائهـا ، إضافة إلى القـدرة الضبطيـة العاليـة لهـذه العائلـة . وذلك بإعتبار إتسـاع عدد الأفـراد الذين مـن حقهم تربية الابـن ، ومراقبـة سـلوكه وممارسـة الضبـط والرقابـة عليـه. بالإضافـة إلى ذلـك فـإن العائلـة الممتدة هـى الأكـثر نجاحـا فى عملية التنشـئة بسـب إعتـماد الفرد عليها سـواء فيـما يتعلق بإشـباع حاجاته الأساسـية سـواء الماديـة أو المعنويـة المتصلـة بالعـزوة التى تمنحهـا العائلة للفرد فتسـاهم فى تحديد

وتدعيـم مكانتـه. ومـن الواضـح أن هـذا النمـط – الجماعـة القرابيـة - هـو الأكثر تجـذرا فى ثقافتنا العربيـة التـى إنحـدرت إلينـا من القبيلـة العربية ، إضافـة إلى التأكيد الدينى عليها مـن خلال تأكيد الديـن عـلى المكانـة الخاصـة للوالديـن، والأهـل ولـذوى القـربى والأقربين بحيـث يعتبر هـذا النمط مـن العائلـة مدخـلاً للاسـتقرار الاجتماعـى ولتماسـك المجتمـع (٨). ومـن المؤكد أن ثمـة تضافر بين الثقافـة التقليديـة وبنيـة العائلـة الممتـدة ، حيـث يدعم كل منهما الآخـر بصورة متبادلـة. فالثقافة التقليديـة التـى تدفقـت مـن القبيلـة العربيـة تؤكـد عـلى التكوينـات العائليـة المناظـرة أو التـى تعكـس صورتهـا مـن حيـث بنائهـا وتوزيـع مكاناتهـا وأدوارهـا. والعائلـة بدورهـا كوحـدة تلعـب دورهـا فى نقـل الـتراث الثقـافى التقليـدى ، ثـم أن العائلـة الممتـدة هـى اكـثر أنمـاط العائـلات مـن حيـث قـدرة الاعتـماد عـلى الـذات ، ومـن ثـم فهـى لا تميـل إلى الإعتـماد كثـيراً عـلى مـا هـو خـارج عـن حدودهـا، كـما أنهـا تـتردد فى قبول بعـض عنـاصره. وتتطلب العائلـة الممتدة أن يـذوب الفرد فى بنائهـا ، فمطالـب العائلـة مقدمـة عـلى مطالبـه، وهو ما يعنى أن ينشـأ بحيث يكـون ذو طبيعة إيثاريـة. فطالمـا أن العائلـة تدعمـه مـن خـلال إشـباع إحتياجاته الأساسـية ، وتحميـة فى موجهة أى إعتـداء عليـه ، فإنهـا تتطلـب منـه أن يخضـع لهـا خضوعـاً كامـلاً ، يسـتوعب ثقافتهـا وقيمهـا مـن خـلال التنشـئة ويقـوم بـالأدوار التـى ترسـم لـه، بحيـث يـؤدى هـذا التفاعل إلى إسـتقرار السـياق الريفـى كـما ندركه.

إرتباطـا بذلـك تذهـب إحـدى الدراسـات المنطلقـة مـن مرجعيـات غربيـة إلى التأكيـد عـلى أن هـذه الثقافـة التقليديـة المنتـشرة فى السـياقات الرعويـة و "الزراعيـة" تنمـى قيـم الرضـوخ والتسـلط وتعمـل عـلى ترسـيخ روح العجـز والإتكاليـة والاذعـان لمـن هـم أقـوى منـه. وتذهـب الدراسـة إلى أن الحيـاة الاجتماعيـة العربيـة مبنيـة فى إطـار سلسـة مترابطـة مـن علاقـات التسـلط والرضـوخ ، بـين الأب والأبنـاء ، الأخـوة والأخـوات ، الكبـير والصغـير ، الرئيـس والمـرؤوس ، وهكـذا إلى أن تصـل إلى العلاقـة بـين الحاكـم والمحكومـين. ومـن الطبيعـى أن تنعكـس علاقـات التسـلط والرضـوخ المنتـشرة فى الحيـاة الإجتماعيـة العربيـة ، وروح الإذعـان والاتكاليـة فى نهايـة الطـاف عـلى الحيـاة الاجتماعيـة والسياسـية ذاتهـا ، فيصبـح مـن الطبيعـى

على الإنسان العربى أن يتقبل أى نظام تسلطى ، حيث أن هذا ما تعود عليه طيلة حياته. ويصبح عنده إحساس بالعجز وعدم القدرة على المشاركة فى إتخاذ القرارات ، حيث أنه قد تعود على الحياة فى سياقات عائلية أبوية ، ومن ثم على وجود من يتخذ له القرارات فى جميع جوانب حياته الأخرى ، وهو ما يجعله يتقبل وجود من يتخذ له القرارات بالنيابة عنه فى المجال الاجتماعي والسياسى. ويؤدى عدم إدراك المواطن فى هذا النمط العائلى لحقه فى المشاركة فى إتخاذ القرارات ، ومن ثم عجزة عن هذه الممارسة إلى القبول بأى نظام تسلطى ، باعتباره أمر متفق مع طبيعة الأشياء فى مجتمعه. بغض النظر عن مشاعره تجاه هذا النظام ، وعادة ما تكون مشاعر سلبية مشوبة بالكراهية وعدم القبول به ، يصاحب ذلك إحساس بالعجز تجاه النظام التسلطى وعدم القدرة على تغير سياساته (٩).

وتذهب دراسة أخرى إلى أن هذا العجز فى مواجهة السلطة والكراهية لها وعدم القبول بها برغم طاعتها، تنعكس بجلاء فى كثير من الأمثال الشعبية العربية التى تعبر عن إحساس المواطن العربى بالكره تجاه رموز السلطة المختلفة وعلى إتكاله على قوى خارجية لتخليصه منها . كذلك تنعكس روح الاتكالية هذه من خلال تصور المواطن العربى، وإنتظاره البطل الأسطورى وعلى الزعيم المنقذ لتخليصه من رقة الاستبعاد والسيطرة. لذلك تنتشر فى الثقافة الاجتماعية والسياسية العربية ظاهرة الخضوع للفرد والاعتماد على الشخصية الملهمة للزعيم البطل لانقاذ المواطن مما يعيش فيه من عسف وظلم وتسلط(١٠). على هذا النحو ينظر الإنسان العربى إلى وجود سلطة سياسية تمارس عليه تسلطها وعسفها ، وتقوم بإتخاذ القرارات التى تؤثر عليه فى حياته ووجوده نيابة عنه ودون إستشارته ، بإعتباره أمر طبيعى يتفق مع بقية جوانب حياته الأخرى. حيث أنه كان هناك دائماً من يتخذ له القرارات فى البيت والمدرسة ومكان العمل. ويرجع ذلك إلى نوعية الحياة وأنماط السلوك التى يتعلمها الإنسان العربى من خلال قنوات ومؤسسات المجتمع المختلفة (١١). وهو الأمر الذى يجسد نوعية التنشئة الاجتماعية والسياسية التى يتعرض لها الإنسان العربى فى ظل ثقافة

القبيلة العربية أو العائلة العربية الممتدة.

ويشكل السياق الانتقالى الذى يشغل المسافة بين السياق الريفى والسياق الحضرى ، وهو سياق تصورى فى زمانه ومكانة. قد يبدأ فى المكان والزمان الريفى ، غير أن قد يمتد ليوجد أيضا فى السياق الحضرى ، فى العشوائيات وعلى أطراف المدينة. يعانى هذا السياق من حالة إهتزاز التنظيم وتشوه التفاعل. ومن الطبيعى ان تظهر فى مثل هذا السياق حالة "الأنومى" التى تعنى إنهيار القيم والمعايير أثناء مرحلة التحول سواء بالهجرة من الريف إلى المدينة. أو بسبب التحديث الذى فرضته الدولة على الثقافة الريفية التقليدية مدججة بآلية الإعلام. وقد تتخذ حالة الأنومى أشكال عديدة. أولها أن تصبح القواعد الأخلاقية والثقافية القائمة ضعيفة نتيجة لعدم إمتلاكها لجهاز ثواب وعقاب فعال ، فقد تجاوزها التفاعل الاجتماعى ولم تعد قادرة على تنظيمة كما يحدث فى تحول المجتمع الريفى إلى الثقافة الحضرية ، أو هجرة الإنسان الريفى إلى السياق الحضرى. بالإضافة إلى ذلك فقد تظهر هذه الحالة – الأنومى - بسبب التواجد المعى لكم هائل من القواعد الثقافية والمبادئ الأيديولوجية المتنوعة وربما المتناقضة ، والتى تبرر كل منها أفعالاً مدانة من وجهة النظر الأخرى. أو أن المجتمع لا يمتلك قيم ومعايير ثقافية او مبادئ ايديولوجية تشكل مرجعيته ، لأن التحولات التى تمت أصابت بنية الثقافة بالضعف والوهن. إما بسبب عدم فاعلية مؤسسات التنشئة الاجتماعية وعدم تأهيلها للبشر على إستيعاب مضامينها، أو بسبب محاولة فرض أيديولوجيات ذات مضامين ثقافية وقيمية متناقضة معا(١٢). فى هذا السياق الانتقالى تزدهر الثقافات الفرعية. وربما تتجاوز فى فعاليتها الثقافة العامة. وحينما تتم التنشئة الاجتماعية والسياسية وفق مفردات هذه الثقافات الفرعية ، فإن ذلك يعنى تأكيد الانتماء للجماعة الفرعية وثقافتها على حساب الثقافة العامة. ومن شأن ذلك أن يفتح الأبواب واسعة لسلوكيات اجتماعية وسياسية تبدأ بعدم الانتماء للمجتمع العام ، أو اللامبالاة بما يحدث فى إطاره. وتنتهى بسلوكيات الفساد وإعمال القيم والقواعد الخاصة التى تحكم التفاعل مع الاخرين ، وتبرر السعى وراء المنفعة والمصلحة الفردية.

ويعد السياق الحضرى الذى يعيش على ساحته المهاجر أو المتنقل السياق الثالث الذى تقع على ساحته تحولات التحديث وتستقر فيه. ونحن إذا تأملنا مساحات من هذا السياق فسوف نجدها سياقات إنتقالية بطبيعتها، فبرغم إستقرارها وهيئتها العامة إلا أنها تشكل بالنسبة للمهاجر من الريف حالة إنتقالية يتخلى فيها عن أشياء تتعلق بنوعية الحياة التى تسربت إلى بنيته وضميره الأخلاقى الداخلى فى السابق ، بينما هو لم يكتمل إكتسابه أو إستيعابه للثقافة والقيم ونوعية الحياة القائمة فى السياق الحضرى. ذلك يعنى أن الإنسان المهاجر إلى السياق الحضرى يواجه على الأقل فى الجيل الأول إنهيار أطر اجتماعية سابقة ، برغم أنه لم يستوعب نظائرها الحضرية بعد. ويرتبط بذلك إنهيار التكوينات الاجتماعية التى كانت تلعب دوراً محوريا فى تشكيل نوعية حياة الفرد. مثال على ذلك أنه إذا كانت الجماعة القرابية فى المجتمع الريفى قد شكلت إطار إجتماعى يحيط به من كل إتجاه ويدربه وفق قيم ومعايير الثقافة الريفية. فإننا نجد أن هذه الجماعة القرابية قد إنهارت ، فمعظم السياقات الحضرية تتشكل من مهاجرين فرادى لم تهاجر معهم روابطهم القرابية. وبذلك يصبح السياق الحضرى خلو من فاعلية الضبط القرابى الريفى. وفى هذا الإطار يربط دوركيم إنهيار سلطة التقاليد بإنهيار الأطر القرابية ، لأن الحراك الهائل للبشر وهجرتهم إلى الحضر من شأنه إضعاف التقاليد (١٣). فالتقاليد تصبح قوية إذا بقى الإنسان فى ذات المكان الذى تربى فيه ، لأنه يظل باقيا مع نفس الأشخاص الذين يعرفونه والذين يخضع فى سلوكه لهم. غير أنه إذا إنتقل إلى السياق الحضرى ، فإن فاعلية الجماعة القرابية تصبح لا وجود لها ، لأنه خلفها وراءه وهو يغادر السياق الريفى. ومعها سقطت سلطة الثقافة التقليدية ، وذلك بسبب التكوين السكانى للمدينة ، التى تتكون من البالغين الذين هاجروا إليها ، والذين حررت ثقافتها فعلهم من سيطرة الثقافة التقليدية(١٤).

ومع إنهيار فاعلية الجماعة القرابية فى السياق الحضرى ينهار الأتفاق القيمى الذى كان سائد فى الريف، وذلك يرجع إلى أن مجتمع المدينة يتشكل من المهاجرين الذين وفدوا إليه من كل حدب وصوب. حيث هاجر إلى المدينة

أفـراد وجماعـات كثـيرة مـن اماكـن عديـدة ، وتحركت على سـاحة المدينـة فى أماكن عديـدة كذلك. كل منهـم جـاء ومعـه ثقافتـه ومنظوماتـه القيميـة التـى يـرى أنهـا ينبغـى أن تضبـط التفاعـل الاجتماعـى بينـه وبـين الآخـر.

ونتيجـة لذلـك ينتهـى أو يتوقف الاحتكام إلى القيـم أو المعايير أو التقاليـد عموما بإعتبارها آليـات ثقافيـة لتنظيـم التفاعـل الاجتماعـى. وإرتباطـا بذلـك يتـأكل ويضعـف الضمـير الجمعـى ومـن الطبيعـى أن تكـون لذلـك إنعكاسـاته عـلى الضمـير الفـردى ، ليبقـى القانـون والمصلحـة هما وحدهـما المعياريـن الباقـين لتنظيـم تفاعـل البـشر مـع بعضهـم البعـض. على هـذا النحـو نجد أن دوركيـم يؤكـد عـلى أن حيـاة الإنسـان فى المدينـة هـى حيـاة فى قلـب الحشـد Crowd، وفى قلـب الحشـد يصبـح الإنسـان بعيـداً عـن مراقبـة الآخريـن. وفى هـذا الإطار فكلـما كان السـياق الحضرى أكـثر إتسـاعاً ، كلـما كانـت كثافتـه أعلى، كلما تشـتت الانتبـاه الجمعى عـلى نطاق اوسـع ، ومن ثم يعجـز هـذا الانتبـاه عـن متابعـة حـركات كل فـرد. فى هـذا الإطـار نجـد أن الضمير الجمعـى يصبح ضعيفـا كلـما أصبـح السـياق الحـضرى أكثر تعـدداً وإتسـاعاً (١٥).

ذلـك يعنـى أن الإطـار الاجتماعـى تصبـح فاعليتـه الضبطيـة ضعيفـة فى مواجهـة البـشر ، ونتيجـة لذلـك تصبـح الروابـط الشـخصية ذات الطبيعـة الأوليـة نـادرة وضعيفـة ويفقـد الفـرد الآخريـن مـن نطـاق رؤيتـه ، ومـن ثـم يفقـد الإنسـان الاحسـاس بوجـود الآخريـن الذيـن معـه. ويـؤدى هـذا الإهـمال المتبـادل إلى إنهيـار المراقبـة الجماعية او إفتقادها. على سـاحة هـذا التفاعل يتسـع مجـال السـلوك الفـردى تدريجيا ، حتى تصبـح الخصوصية حقا وقاعـدة. وبالنظر إلى ضعف الضبـط الاجتماعـى الجمعـى ، فـإن أنمـاط السـلوك التـى تنتهكـه ترتكـب يوميـا بـدون رد فعـل أو عقـاب ، ومـن ثـم يتوقـف إحـترام القواعـد الأخلاقية ويتأسـس الحق فى الاسـتقلال الكامل للإنسـان عـن هـذه القواعـد (١٦). فى مثـل هـذا السـياق يصبح القانون هـو الآلية الوحيـدة لتنظيم التفاعل الاجتماعـى عـلى السـاحة الحضريـة. ونظراً لأن التنشـئة فى السـياقات الحضرية هـى فردية ونفعية ، فإنهـا تؤكـد دائمـاً عـلى المصلحـة والمنفعـة. ونتيجـة لذلـك يشـهد السـياق الحضرى تجمـع الأفراد

المتجانسـين مـن حيـث المصلحـة فى جماعـات ينتمـى إليها الأفراد ، مـا دامت تلعـب دوراً فى تحقيق مصالـح أعضائهـا . قـد تكون النقابات أو الأحزاب السياسـية أو جماعات الضغط بأشـكالها المختلفة. التـى ينتمـى إليهـا الأفـراد لتحقيـق مصالحهـم فى مواجهـة النظام السـياسى أو الجماعـة الحاكمة أو حتـى الجماعـات الأخـرى. كـما يشـهد السـياق الحـضرى كذلـك حراكيـة القيـم والسـلوك، فالقيـم والسـلوكيات تـدور دائمـاً فى فلـك المصالـح وتزدهـر هـذه الظاهـرة بأقـوى مـا يكـون حينـما تعـانى السـياقات الحضريـة مـن حالـة الأنومـى الحـاد. فـما دامـت المصالـح هـى البوصلـة التـى تحـدد الاتجـاه ، فـإن التضحيـة بالقيـم والتنكـر للأيديولوجيـات والالتزامـات وربمـا مصالـح الوطـن تصبـح قرابـين تقـدم عـلى مذبـح المصالـح الفردية.

ونتيجـة للتحـول العشـوائى غـير المنظـم مـن الريـف إلى الحـضر تـبرز ظاهـرة السـياقات الحضريـة العشـوائية التى تشـكل أطـراً لتكثيف التوتـر وإنفجار أحداث العنـف الداخلى والخارجى على السـواء. يسـكن هذه العشـوائيات سـكان مهمشـون يسـتقرون على أطراف المدينة وأحيانا فى قلـب خرائطهـا. المسـئول عـن هـذه الظاهرة متغـيرات عديدة. أول هـذه المتغـيرات إنطلاق فئات عديـدة مـن المهاجريـن إلى الحـضر منطلقين من السـياقات الريفيـة ، حينما ضاقـت الأرض الزراعية بسـكانها فهاجروا إلى المدن وبخاصة العواصم الأساسـية (١٧). ونظراً لأن غالبية سـكان العشوائيات مـن البسـطاء والفقـراء فقد إسـتقروا بالأسـاس عـلى أطـراف الأحياء الشـعبية أو على أطـراف المدن ، فى مناطـق أقيمـت عشـوائيا وبوضـع اليـد. وبذلك شـكلت تجمعاتهـم أحزمة من الأحيـاء الفقيرة حـول المـدن الكبـيرة وفى قلبهـا. وحينـما ضاقـت هذه الأحزمة العشـوائية بسـكانها إتجـه البشر إلى سـكنى المقابـر كـما هـو الحـال بالنسـبة لمدينـة القاهـرة. ونظراً لتشـكل سـاكنى هـذه المناطق من جماعـات المهاجريـن الذيـن جاءوا حديثـا ، ونظراً لأن كل جماعة تشـكل وحدة بالنسـبة للجماعات الأخـرى ، فقـد أصبـح لـكل جماعـة زعامتهـا التـى تحتكـم إليهـا. ومـن ثـم فقـد ظهـرت الزعامات العشـوائية "كالمعلمـين" الذيـن إحتاجـوا إلى "البلطجيـة" - الذيـن تسـاقطوا إلى هـذه المناطـق من أحيـاء المدينـة الأخـرى. التـى لفظهـم ودفعتهـم إلى عشـوائيات الحـضر - لبسـط نفوذهـم داخـل

الجماعـة أولاً ، ثـم لتوسـيع هـذا النفـوذ ليمتد إلى سـاحة الجماعـات الأخرى بعد ذلـك. الأمر الذى أدى إلى تفجـر صراعـات كثـيرة بـين جماعـات هـذه السـياقات وتوترات كثـيرة كذلـك (١٨). فى مثل هـذه السـياقات ينشـأ الإنسـان عـلى تمجيـد القـوة وإسـتخدام العنـف لأن الدنيـا تؤخذ غلابـا ، كما ينشـأ البـشر عـلى ان الآخريـن هـم الجحيـم بالنسـبة لهـم كأنهـم أصبحـوا وجوديون بحكـم الواقع وليـس بمنطـق الفلسـفة. القـوة والعنـف التـى نشـئوا عليهـا ، مثلـما تنتقـل إلى الآخـر فى المـكان القريـب ، تنتقـل أيضـا إلى الآخـر فى المـكان الأبعـد وحتـى الدولة.

أحيانـا يوصـف سـكان العشـوائيات بالهامشـين ، بإعتبارهـم فائضـا سـكانيا يعيـش عـلى هامـش المجتمـع ، أو تعمـل آليـات الأخـير على دفعهـم إلى الهامش. عـلى هذا النحـو يمكن تحديد الفئـات الهامشـية الحضريـة بإعتبارهـم مجموعـات مـن البـشر الذيـن تعـد الظـروف الاجتماعيـة الاقتصاديـة المترديـة للدولـة والمجتمـع ككل ، هـى المسـئولة عن تهميـش وجودهم . وبهـذا المعنى تصبـح الهامشـية هـى التعبير عن الفقـر والبؤس والحرمان وإنعـدام العدالة الاجتماعيـة. إذا تأملنا الكتلـة الهامشـية فسـوف نجدهـا تضـم شرائـح كبـيرة مـن فقـراء الحـضر الذيـن يلـوذون بالأحيـاء الفقـيرة ومناطـق وضـع اليـد. يشـكلون شرائـح غـير مؤهلـة تشـتغل بالأعـمال العارضـة والمهـن غـير الفنيـة ، والحـرف الصغـيرة والخدمـات الشـخصية والتجـارة البسـيطة. لهـم ثقافتهـم الفرعيـة ووعيهـم بوجودهـم ، وأسـاليبهم الخاصـة فى التعامـل ، وفلسـفتهم الخاصـة فى الحيـاة ، ويرضـون بالعمـل فى أى مهنـة والسـكن فى أى منطقـة ، يسـتخدمون قوتهـم البدنيـة وأدوات إنتـاج متخلفـة لإنتـاج سـلع مغشوشـة ومتخلفـة كذلـك. غايـة ما تبغية هـذه الشرائـح أن تتاح لها فرصـة بيع قوة عملهـا كسـلعة فى سـوق العمـل ، يتعرضـون عادة للظلـم والقهر ويعانـون من البطالـة الصريحة أو المقنعـة. وتـؤدى الأميـة ونقـص التأهيـل المهنى والجهل بأبسـط الحقـوق إلى التأكيد على إسـتمرار تهميشـهم إقتصاديـا وإجتماعيـا. يفتقـدون أى ضـمان بأمـان فى المسـتقبل ، غـير أن الأمـر الـذى لا شـك فيـه إن النظـام الاجتماعـى والسـياسى هو المسـئول عن تهميـش دورهم الاجتماعـى وتحجيمة (١٩).

تتميـــز تنشـــئتهم الاجتماعيـــة والسياســـية بكونهـــا مترديـــة أو منحرفـــة. منـــذ

أن يولـدوا صغـاراً فى السـياقات الحضريـة العشـوائية، يفتقدون جوانب كثيرة مـن المعانى الأخلاقية. يقومـون بـأى عمـل للحصـول عـلى مـا يبقيهـم أحيـاء حتـى ولـو كان ذلـك مـن خـلال الدعـارة أو المتاجـرة بالجسـد ، العنـف والجنـس المبـاح والمتسـع المسـاحة، هـى دائمـا سـلوكيات تتضافـر مـع تنشـئتهم . القـوة هـى معيـار الحيـاة فى السـياق العشـوائى أو الهامـشى ، لا وجـود للدولـة إلا فى أيـام الانتخابـات التـى ينظـرون إليهـا كمصـدر رزق لهـم. ينظـرون إلى سـكان المدينـة الأوفـر حظا بإعتبارهـم الذيـن حصلـوا عـلى كل شـئ ، فأخلـوا بميـزان العـدل الاجتماعـى لغـير صالحهـم. لذلك يتعمـق لديهـم الشـعور بالإحبـاط وعـدم الرضـاء الاجتماعـى ، ومـن ثم تتولـد لديهم ثقافـة الرفض والتمـرد وينشـئوا عليهـا حتـى ولـو كان الرفـض والتمـرد سـلبيا. ونتيجـة لتكثـف مسـتويات التوتر لديهـم فإنهـم يكونـون متأهبـين دائمـاً للخـروج على النظـام من خلال العنـف والجريمـة والانحراف وحتـى إشـاعة الفـوضى عسى أن يحصلوا على مكاسـب مـن وراء ذلك(٢٠). فإذا إسـتمرت أوضاعهم إلى مزيـد مـن الـتردى، أو إذا مـارس النظـام السـياسى القهـر عليهـم بصـورة مفرطـة ، فـإن إسـتنفار سـلوكهم السـياسى يتأرجـح بحسـب أحد أفتراضـين. الأول إفـتراض الحرمان النسـبى ، وهو الإفتراض الـذى يتحول بحسـبه الشـعور بالاحبـاط والحرمـان الاجتماعى إلى الرفـض والعنف والتمـرد. وذلك حينـما يكـون النظـام السـياسى والاجتماعـى أكـثر ديموقراطيـة وأقـل بطشـا، بحيـث يمكـن للعنـف أو التمـرد أن يولـد ضغطـا يسـاعد فى الحصـول عـلى بعـض المكاسـب ، خاصـة إذا كانـت مـبررة أو مشروعـة. يقـع العنـف او التمـرد حسـب منطـق إفـتراض الحرمـان النسـبى إذا كانـت الهامشـية محتملـة فى ظروفهـا ، ويلـوح فى الأفـق إمكانيـة تحسـينها بقدر مـن الضغط. وإذا تصـادف أن كان النظـام السـياسى والاجتماعـى ديموقراطيـا ، أو عـلى الأقـل ليـس قهريـا، حيـث لا يلقـى التمـرد أو العنـف بسـبب ظـروف التهميـش المتردية عقابا صارما بسـبب طبيعة. وقد يحـدث ذات العنف أو التمـرد حينـما يكـون النظـام السـياسى هشـا وضعيفا ، بحيـث يصبح العنـف أو التمـرد فى مواجهته مؤثـراً ، ويسـاعد عـلى التفـاوض وفرض المطالـب(٢١).

عــلى خــلاف ذلــك - حســبما تذهــب بعــض الدراســات - نجــد إمكانيــة إســتنفار

الهامشـيين إسـتناداً إلى أفـتراض الحرمـان المطلـق، الـذى يؤكـد عـلى أن الشـعور بالحرمـان الناتـج عـن الفشـل فى إشـباع الحاجـات الأساسـية والاحبـاط المتراكـم الناتـج عـن ذلـك ، مـن المحتمـل أن يدفعهـم إلى التمـرد ورفـض الأوضـاع المترديـة التى يعيشـون فى إطارها. غير أنـه إذا تصادف أن كان النظـام قهريـا أو إذا أدركـت الكتلة الهامشـية أنها سـتواجه بالقـوة والبطش ، فإنها سـوف تتجه إلى سـلوكيات رافضـة ذات طبيعـة إنسـحابية. وإذا كانت فرضية الحرمان المطلق هـى الفرضية المولدة للثـورة عنـد ماركـس ، فـإن نجـاح الثـورة – عـلى الصعيد النظـرى – إرتبـط فى نظريته بوجـود نظام إجتماعـى وسـياسى ضعيـف (٢٢) . ونظـراً لغيـاب هـذا الـشرط الأخـير فى مجتمعاتنا فسـوف يبقى الرفض عند مسـتوى هروبى وإنسـحابى يتجلى من خلال ممارسـات إنسـحابية أو سـلوكيات إنحرافية عديـدة. غـير أنـه إذا إسـتمرت الأوضـاع الهامشـية والعشـوائية عـلى ما هـى علية، فإن الهامشـيين قـد يسـلكون أحـد طريقـين الأول ، الإنسـحاب والاسـتدارة إلى الـذات، حيث يتأكل الجسـد الهامشى ويتحلـل فى إتجـاه مـا هـو أدنى. بحيـث نجـد قبـول السـياقات الهامشـية المعيشـة فى ظـل أوضـاع إجتماعيـة وأخلاقيـة مترديـة فى مختلـف مجـالات الحيـاة. وفى إطار الطريـق الثانى يتراكـم التوتر فى السـياقات الهامشـية ، ليتحـول إلى أنفجـارات قد تأتى عـلى الأخضر واليابس فى المدينـة الحاوية لهم.

فى مثل هذه السـياقات تتم التنشـئة الاجتماعية والسياسـية وفق ثقافة اجتماعية وسياسية تؤكـد معاييرهـا على القـوة والبلطجة، بإعتبارها قيـم تنظم التفاعل الاجتماعى والسـياسى. وفى هذه السـياقات تتـآكل عواطـف المواطنـة والإنتماء الوطنى الـذى يختزل إلى الإنتماء للدولـة ، التى ضنت عليهـم أجهزتهـا المختلفـة بما يشـبع حاجاتهم الأساسـية. ويتحول شـعور الحرمان لديهم إلى شـعور عـدائى نحـو الدولـة ، بخاصـة أطرافهـا التى تتواجد على سـاحتهم. فهم كارهين لأجهـزة حفظ الأمن والشرطـة ، لا يثقـون فى الأجهزة المحلية ، تنشـئتهم الإجتماعية والسياسـية تـؤدى إلى تآكل ضميرهم الاجتماعي والسياسى. ومن ثم فهم فى سلوكهم الاجتماعي والسياسى يحتكمون إلى معايير المنفعة ،

فهـم يشـاركون فى الأنتخابـات مثـلاً ليبيعوا أصواتهم فى أسـواقها. لا تهمهم قيم الطهارة والشـفافية والنقـاء . لأنهـم فى عشـوائياتهم يعيشـون حالـة الفسـاد التـى ترسـبت عـلى سـاحتهم مـن المجتمع الكبـير والدولـة وأجهـزة الحكـم والضبـط والسـيطرة. يعيشـون فى المـدن التـى يعيثون فيهـا إجراما وإنحرافـا لـكى يحصلـون عـلى مـا يقيم أودهـم، وفى هذا السـياق تزدهـر توجهات الرفـض والعنف التـى تنفجـر لتـؤدى بـكل آخر يعتقـدون أنه أحـد مصـادر حرماناتهم.

ثانياً: الإطار الطبقى للتنشئة الاجتماعية والسياسية للشباب.

يشـكل الإطـار الطبقـى أحـد أبعـاد الإطـار الاجتماعـى للتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. ويسـتوجب الحديـث عـن الإطار الطبقى للتنشـئة الاجتماعية والسياسـية الاهتـمام ببعدين. حيث يتمثـل البعـد الأول فى أن البنـاء الطبقـى بطبيعتـة غـير مكتمـل فى مجتمعـات الجنـوب عامـة ، والمجتمعـات العربيـة كأحـد تكوينـات مجتمعات الجنـوب. وذلك يرجع إلى أن عملية الاسـتقطاب او التبلـور الطبقـى مـا زالـت فى حالـة مـن الفاعلية ، حيث لم تسـتقر بعد على بنيـة طبقية محددة. خاصـة أن غالبيـة المـؤشرات الاجتماعيـة تؤكـد أن الحالـة الطبقيـة التـى عندنـا هـى حالـة مرضيـة بالأسـاس ، فمـن غـير المنطقـى أن يكـون الفسـاد المالى والمخـدرات وغسـيل الأموال آليات لتشـكيل بعـض أجنـة الطبقـة العليـا مثلا. ومـن غير المعقول بنفس القـدر أن تتأكل الطبقة الوسـطي ، وهى العنـصر الـذى يحفـظ تـوازن المجتمـع. والثـانى أنـه نظـراً لأن بنيـة هذه الطبقـات لم تكتمـل ، فإنه مـن الطبيعـى أن لا يكتمـل وعيهـا كذلـك. وبسـبب هذا البنـاء الطبقى غـير المكتمل فإننـا نجد أن بعـض مضامـين التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية مشـتركة بـين مختلف الطبقـات الاجتماعيـة ، وهو مـا يعنـى أن هـذه المضامـين تتصـل بالمجتمـع بصورة عامـة ، بينـما أن هناك بعض آليـات ومضامين التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية خاصـة بطبقة معينـة دون أخرى.

وفى محاولة التعرف على طبيعة التنشئة الاجتماعية والسياسية فى مختلف الطبقات الاجتاعية، فإننـا سـوف نعـرض لطبيعـة البنية الطبقية ، ثـم لطبيعة المتغيرات المؤثرة فيهـا ، ومن ثم أثرت على التنشئة الاجتماعية والسياسية فى نطاقها ، وشكلت بالتالى ممارساتها وسلوكياتها الاجتماعية والسياسية.

وإذا كان المجتمع بخطوط عريضة يتشكل من ثلاث طبقات هى الطبقة العليا والوسطى والدنيا ، فإننا نجد أن ثمة متغيرات متباينة كان لها تأثيرها على كل من هذه الطبقات ، ومن ثم دفعت إلى تنشئة وسلوك اجتماعي وسياسى متباين. وتشكل الطبقة العليا التى تتشكل من كبار الملاك فى الريف وأصحاب الصناعات والمتاجر الكبيرة فى الحضر ، الطبقة التى تقع أعلى سلم الهرم الطبقى. وبرغم أن هذه الطبقة كان لها وجودها على الساحة الإجتماعية والسياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين ، إلا أنها شغلت موقع المفعول به حينا ، والفاعل أحيانا أخرى. فقد خضعت الطبقة العليا خلال عقدى الخمسينيات والستينيات، لإجراءات خشنة من قبل نخبة يوليو ١٩٥٢ لإستعادة توازن البناء الاجتماعى للمجتمع المصرى، بعد أن أهتز توازنه بسبب سلوكيات هذه الطبقة فى الفترة السابقة على ثورة يوليو ١٩٥٢. ولذلك فقد إتجهت جماعة الثورة منذ البداية إلى التخلص من طبقة الأعيان الذين تحكموا فى مصير الوطن خلال السنوات السابقة على الثورة (٢٣). ثم بدت فى تقليص دورهم السياسى بحرمانهم من بعض الإمتيازات السياسية. ففى سبتمبر ١٩٥٢ بدأ التحول الذى لم يكن لصالح الطبقة لكونه قد سعى إلى تقليص أوضاع هذه الطبقة من كل إتجاه. فقد صدرت القوانين المتتابعة للإصلاح الزراعى ، إبتداء من قانون الإصلاح الزراعى الأول رقم ١٧٨ لستة ١٩٥٢ وحتى القانون الأخير رقم ٨٠ لستة ١٩٦٩ ، وهى القوانين التى وضعت حد أقصى لملكية الفرد من الأرض الزراعية بخمسين فدانا(٢٤). وبموجب هذه القوانين إستولت حكومة الثورة على نحو مليون فدان أعادت توزيعها على الطبقة الوسطي والدنيا، وهو الأمر الذى يشير إلى أن الثورة دفعت بكبار الملاك إلى الوقوف إلى جانب الجدار الأعلى للطبقة الوسطى. بحيث دفعها قانون التوريث الإسلامى بعد أقل من جيل واحد إلى قلب هذه الطبقة. وقد حدث تقليص لبنية هذه الطبقة فى السياق الحضرى كذلك ، وإن كان ذلك فى تاريخ متأخر نسبيا. ففى عام ١٩٦٠ تبنت الدولة مجموعة من الإجراءات الحادة التى نقلت بمقتضاها ملكية بنك مصر والبنك الأهلى إلي الدولة. وتلى ذلك نقل التزامات شركات النقل إلى مؤسسة النقل العام بالقاهرة. وفى يوليو ١٩٦١ ،

صدرت قوانين التأميم ١١٧ ، ١١٨، ١١٩، لسنة ١٩٦١ فأممت ٨٠ شركة تأميما كاملاً، وأسهمت الحكومة فى ٨٣ شركة أخرى ، ونص القانون رقم ١١٩ على أن لا يزيد ما يملكه الفرد على عشرة آلاف جنية. ثم شهد عام ١٩٦٣ سلسلة أخرى من التأميمات والمصادرات وسحب التراخيص لنحو ٣٩٠ شركة (٢٥). بحيث أدت هذه الإجراءات الثورية إلى إنسحاب هذه الطبقة ، إما بهجرتها إلى الخارج أو بقاءها فى الوطن دون أن تشارك فى التفاعل الحادث فيه ، أو تبنى بعض ثوريته كأنما هى ملك أكثر من ملك ، وفى كل الأحوال فهى ساكنة وقابعة تنتظر الوقت الملائم للأنقضاض على النظام الثورى ومنجزاته.

وإذا كانت بداية السبعينيات قد شهدت إسدال الستار على التجربة الإشتراكية وبداية التوجه الليبرالى للنظام السياسى الجديد. فقد كان منطقيا أن يستدعى النظام السياسي الطبقة العليا كقوة إجتماعية تدعم التوجه الجديد ، لأنه بدوره يخدم مصالحها. ولأن الطبقة العليا لم تنس تجربتها التاريخية المريرة مع النظام السياسى فى المرحلة الإشتراكية، فإنها أدركت أن إستدعاؤها التاريخى ليس "لسواد عيونها" ولكن لظروف فرضت ضرورة وجودها. من هذه الظروف أن البرجوازية العالمية هى الآن القوة الأقوى فى العالم ، وأن البرجوازية العليا المحلية هى ربيبتها ، ومن المؤكد أنها سوف تحصل على حمايتها. من هذه الظروف كذلك، أن الدولة أصبحت حينئذ محدودة الموارد ، ولذلك فهى تسعى بإتجاه تصفية القطاع العام وقيادة تنمية تعتمد بالأساس على القطاع الخاص. ومن ثم فهى القوة التى يحتاجها النظام السياسى بدرجة أكثر من حاجتها إليه. تأكيداً لذلك إن النظام السياسى أصدر القوانين والقرارات التى تؤمن مصالحها. وقد تعمقت لديها درجة الأمان لأن البرجوازية العالمية شاركتها فى غالبية مشروعاتها ، وهى بطبيعة الحال مؤمنة بالقوى التى تقف وراءها. وبرغم الأمان الذى منح لها فإنها لم تشارك فى الخطة الخمسية ٨٢-١٩٨٧ سوى بربع الاستثمارات اللازمة للخطة إستكشافا للنوايا ، ثم إرتفعت فى الخطة التالية لتصل إلى النصف تقريبا. وبرغم أن بعض عناصر هذه الطبقة شارك فى تنمية المجتمع بإحساس عالى من المسئولية ، إلا أن نسبة عالية منها أبدعت فى إبتكار

أشكال عبقرية للفساد والأفساد. يكفى أن نشير – تدليلا على ذلك – أن هذه العناصر قد إقترضت من البنوك حوالى ٤٧ مليار دولار دون إمكانية الرد. ومزيدا من تدليل الدولة لهم قال عنهم رئيس الوزراء حينئذ "إنهم حفنة بسيطة لا تشوه وجه رجال الأعمال فى مصر" (٢٦). وبطبيعة الحال فإن الفساد الذى سلكته هذه الطبقة أدى إلى حالة الأنومى الأخلاقية والثقافية التي سادت لأربعة عقود تالية تقريبا، كما أدت إلى تراخى القوانين والضوابط الحكومية أو غيابها ، وأيضا إلى ضعف وتدليل الدولة الرخوة ، حينئذ لهم.

فإذا تأملنا التنشئة الاجتماعية والسياسية لأبناء هذه الطبقة ، فإننا نجدها تنشئة مغتربة بالأساس، فحينما تولد الطفولة في هذه الطبقة فإنها تدرب عادة وفق قواعد وأساليب نوعية حياة غربية فى المآكل والملبس والمشرب. وتستوعب منظومة القيم الغربية بإعتبار أنها التى تحتل المكانة الأعلى فى طبقات القيم لديها ، فهى لا ترتبط بقيم التراث ، ولا حتى بالثقافة العامة التى تنظم التفاعل فى المجتمع. تنظر دائما إلى تراث مجتمعها بإعتباره تراث "الفلاحين" والناس "البلدى" أو "الشعبى". بحيث يكبر الوليد وقد إستوعب مساحة كبيرة من منظومة القيم الغربية التى تربطة بمجتمعات الغرب اكثر من إرتباطه بمجتمعه. فإذا كبر هذا الوليد فإن القنوات التعليمية الأجنبية، هى دائما التى يتعلم فى إطارها أبناء الطبقة العليا ، وقد بدأ إرتباط تعليم أبناء هذه الطبقة بالتعليم الأجنبى منذ تاريخ سابق. حدث ذلك حينما كانت هذه الطبقة منكمشة فى داخل حدودها فإن أبناءها كانوا هم بالأساس رواد المدارس الأجنبية التى كانت محدودة فى مصر، أو التى كانت تعلم بلغات أجنبية. وحينما يصل الطالب إلى مستوى التعليم الجامعى، فإن الجامعة الأمريكية كانت مؤسسة تعليم أبناء هذه الطبقة ، أو أنهم يسافرون للتعليم والالتحاق بالجامعات الأجنبية. ليصبحوا بعد تخرجهم مؤهلين للعمل فى المؤسسات الأجنبية التى كانت محدودة كذلك حينئذ ، أو فى السفارات الأجنبية القائمة فى المجتمع. وهم بذلك يشكلون شريحة منفصلة عن مجتمعها ، إنتماؤهم ضعيف ، ومتابعتهم لقضايا مجتمعهم إضعف. وقد أصبح الأمر أكثر فداحة فى المرحلة الليبرالية الأخيرة – ١٩٧٠ وحتى

الآن - ، فلـم يعـد أعضـاء الطبقـة العليـا هـم الذى يعلمون أبناءهـم فى نظام التعليـم الأجنبى فقط ، ولكنهـم إتجهـوا بقـوة لتأسـيس الجامعـات الخاصـة والجامعـات الأجنبيـة ، ليتعلـم فيهـا أبناءهم وأبنـاء القادريـن مـن أبنـاء الشريحـة العليا – إقتصاديـا – للطبقة الوسـطي. لقد أصبحـوا فى الزمن الليـبرالى اكـثر شـجاعة فعملـوا علانيـة لتصبـح التنشـئة من خـلال الإعـلام والتعليـم أجنبيـا ومغتربا عـن مجتمعـه ، إضافـة إلى أنهـم سـاعدوا فى توسـيع مسـاحة التعليـم الأجنبـى، أو الذى يتـم باللغة الأجنبيـة ليتغلغـل فى المؤسسـات التعليميـة الحكومية حتـى الجامعات. وحتى يوسـعوا من المكون الأجنبـى فى النظـام التعليمـى ، جعلـوا مخرجاتـه اكـثر أتسـاقا مـع إحتياجـات سـوق العمـل، وفى نطـاق هـذا النمـط يتحقـق الإغـتراب عـن الوطن. وهـم فى ذلك على خـلاف مع سـلوك البرجوازية الأوربيـة التـى تحملـت المسـئولية الاجتماعيـة لتطويـر مجتمعاتهـا. يتعاملـون مـع الوطـن بمنطق نفعـى بحـت، فهو بالنسـبة لهم سـاحة لجلب الأرباح وتحقيـق المنافع. وفى سـبيل تضخيم ثرواتهم ليـس هنـاك حـدود للحـرام، الذى يبـدأ بالإحتكار، ويمر بسـلوك الكيـف حيث الأتجـار فى المخدرات لينتهـى بالفسـاد والإفسـاد ، ونهـب أمـوال البنـوك والهـروب بهـا أو التلاعـب فى سـدادها. يضـاف إلى ذلـك سـعيها للتضافـر مـع السياسـة لتمتلـك القـوة ولتتمكـن مـن مزيـد مـن النهـب لرأسـمال المجتمـع. وهـى بذلك تؤسـس تنشـئة إجتماعية وسياسـية تولد ضعـف الانتماء ، وتجعل سـلوكيات الفـرد حياديـة ونفعيـة فى مواجهـة المجتمـع تغيب عنهـا آية عواطـف وطنية.

الطبقـة الدنيـا هـى الطبقـة المقابلـة ، ظلمـت فى التاريـخ الإشـتراكى والليـبرالى على السـواء. وإذا كانـت الطبقـة العليـا قـد وجهـت وجهها شـطر الخـارج تسـتلهم قيمـة ونوعيـة حياتـه ، تسـعى إلى نقلهـا أو عـلى الأقـل الحيـاة وفـق مقتضياتهـا، فإننـا نجـد أن الطبقـة الدنيـا منكفئـة إلى الداخـل. ظلمـت فى المرحلـة الإشـتراكية حينـما تدفقـت غالبيـة مكاسـب الثـورة إلى سـاحة الطبقـة الوسـطي. حقيقـة أن الطبقـة الدنيـا قـد حصلـت على بعـض رذاذ الخـير حينئذ، غـير أنها لم تحصـل عـلى نصيـب واضـح مـن الكعكة . يتضـح ذلك أنـه إذا صادرت حكومـة الثورة مليـون فدان تقريبـا مـن كبـار المـلاك ، نالـت الطبقـة الوسـطي منهـا ٦١٤ ألـف فـدان عـلى حـين لم ينـل الفقراء

سوى ٢١٤ ألف فدان برغم أن نسبة ٤٤٪ من أسر السياق الريفى كانت معدومة حينئذ (٢٧) ، ولم تفعل الإشتراكية لهم سوى رفع الحد الأدنى للأجور حينئذ إلى ٢٢ قرشاً. وحينما حلت المرحلة الليبرالية واجهت ظلما أشد ، فقد قامت الدولة بالتخلص بالبيع من القطاع العام، وأيضا من الشركات المملوكة للدولة أو المشاركة فيها التى كانت توفر لها بعض إحتياجاتها اليومية بالسعر المناسب. إضافة إلى ذلك فإنه حينما باعت الدولة هذه الشركات لم تؤمن فى الغالب حقوق العمال ومكتسباتهم فيها، ومن ثم فإننا نجدهم فجأة وقد أصبحوا عرايا من حماية الدولة لهم فى مواجهة القطاع الخاص الذى تلاعب بعقود العمل والأجور ومتطلبات التأمين. وفى طرفة عين وجدوا أنفسهم يعيشون نوعية حياة تعسة ، يذهب صغارهم مبكراً للتعليم فى الورش ، لأن التعليم أصبح ترفا بالنسبة لهم ، يسربونهم من التعليم ليصبحوا عاملين صغار لهم اجور يساعدون بها أسرهم. العنف يحكم التفاعل بينهم سواء كان داخل الأسرة أو بين الجيران، وبرغم نزاعاتهم الداخلية إلا أنهم ينشئون على إحساس بالظلم والدونية ، الذى ينبغى أن يتكيفون معه خاصة حينما يتعاملون مع الشرطة أو مع بيروقراطية الدولة. إنتماؤهم للوطن باهت، يبذلون طاقات كبيرة من التحايل والتكيف حتى يظلوا أحياء ، سلوكياتهم فى أحيان كثيرة عارية من الأخلاق. السرقة أو صناعة السلع المغشوشة أو التجارة فيها وكذلك الدعارة للحصول على ما يقيم الأود ، فإن لم يتحقق ذلك فليكن الارتماء فى أحضان دين متطرف يبتدعوه. يهربون فى إطار تقشفه ومثالياته من صعوبات الحياة ، بل ويحاولون فرضه على الآخرين. الانتخابات بالنسبة لهم لا تحدد مصير مجتمع أو تحديثه أو تطويره ، مفاهيم ومثاليات لا معنى لها بالنسبة لهم. ولأنهم جوعى فإنهم يتعاملون بمنطق نفعى ، يبيعون أصواتهم فى الانتخابات لمن يدفع أكثر ، يؤجرون بإعتبارهم يتقنون البلطجة ، لمناصرة الكبار أبناء الأحياء الراقية أو المتوسطة يشاركون في موسم الإنتخابات لقاء المال، فإذا إنتهت الأنتخابات فالفراق حتى اللقاء لحظة إنتخابات ثانية. يدركون أن هذا الوطن لا ناقة لهم فيه ولا جمل ، لذلك نجدهم حينما تضعف عصا الدولة ، أو يتزايد مخزون التوتر بسبب صعوبة الحياة، أو

إنتشـار حالـة مـن الفـوضى لأى سـبب ، فـإن شـعار العنـف والتخريب يتملكهـم ، يحطمـون كل ما حولهـم فليـس مـا حولهم سـوى القيـود والعنـت والأغلال.

وتشـكل الطبقـة الوسـطى القـوة الاجتماعيـة الثالثـة ، وهـى قـوة تشـكل حسـبما أشرت رمانـة الميـزان الإجتماعـى. إذا إتسـعت مسـاحة هـذه الطبقـة كان ذلـك دلالة على صحـة المجتمع وعافيتـه ، أمـا إذا تقلصـت مسـاحتها فمعنـى ذلـك أننـا نعيـش فى ظـل حالـة إسـتقطاب طبقـى ، وعـلى أبـواب صـدام أو عنـف إجتماعـى. لذلـك نجـد أنـه كلـما كان النظـام السـياسى رشـيداً، كلما إسـتهدف مشروعـة الاجتماعـى وسياسـاته تطويـر أوضـاع الطبقة الوسـطي وتوسـيع مسـاحتها. إما إذا كان نظـام يفتقـد البـصر والبصـيرة فإنـه يدفعها بإتجاه التسـاقط أو الحراك إلى أسـفل لتنضم إلى الطبقـة الدنيـا. حتـى ماركـس رأى أن ترفيـع Thining مسـاحة هـذه الطبقـة فى النظام الرأسـمالى يعـد مقدمـة للثـورة البروليتارية.

يكشـف تأمـل أوضـاع هـذه الطبقة فى النصـف الثانى من القـرن العشرين أن هـذه الطبقة كانـت القـوة المدللـة مـن قبـل صفـوة يوليـو فى عقـدى الخمسـينيات والسـتينيات. مـؤشرات ذلك عديدة منها أتسـاع مسـاحة الأرض الزراعية للطبقة الوسـطي فى الريف على حسـاب تقلص مسـاحة الطبقـة العليـا ، وبقـاء مسـاحة الطبقة الدنيـا أو المعدمين كما هى تقريبا. إضافـة إلى تطوير أوضاع الطبقـة الوسـطى الحضريـة ، وهـو مـا يعنى ان المـشروع الاجتماعى لثـورة يوليـو كان يعمل لصالح الطبقـة الوسـطي . يسـعى إلى تطويـر قدراتهـا وإشـباع إحتياجاتهـا ، إعتقـاداً من نخبة يوليـو ، أنها القـوة الاجتماعيـة ذات التاريـخ النضـالى المـشرف ، ومـن حقهـا أن تحصل عـلى بعـض الكعكة التى ناضلـت لصناعتهـا وصونهـا. ثـم أنهـا القـوة التـى يمكـن أن يعتمـد عليهـا النظـام السـياسى الثورى فى تأسـيس مشروعاتـه التنمويـة ، وحراسـة منجزاتـه أثنـاء صراعـة مـع البرجوازية العالميـة والمحلية (٢٨). لذلـك إسـتهدفت سياسـات ثـورة يوليو ١٩٥٢ توفير الخدمات الأساسـية لأبنـاء هذه الطبقة ، كخدمات الصحة والتعليم والإسـكان وتوسـيع مظلة التأمينات الاجتماعية ، وتشـغيل الخريجين من أبنـاء الطبقـة الوسـطي ، خاصـة إذا أدركنـا أن نحو ٨٥٪ مـن طلاب الجامعات كانـوا ينتمون للطبقة

الوسـطي. إضافـة إلى فتـح الأبـواب واسـعة أمـام أبنـاء هـذه الطبقـة ليشـغوا أعـلى المراكـز البيروقراطيـة الحكوميـة ، الأمـر الـذى فتـح أمامها المجال للسـيطرة على الجهـاز الحكومى. فى هذه الفـترة إتسـعت مسـاحة وفاعليـة الطبقـة الوسـطى مـن ناحيتـين ، مـن ناحيـة بسـبب السياسـات والإجـراءات التـى تبنتهـا الدولـة حينئـذ. فقـد أدت الإجـراءات الاقتصاديـة التـى أتخـذت النخبـة السياسـية الحاكمـة تجـاه الطبقـة العليا إلى سـقوطها ، أو حراكها إلى أسـفل فى الجيـل الثانى ، نتيجة لهـذه الإجـراءات إلى نطـاق الطبقـة الوسـطي بالإضافـة إلى ذلـك فقـد إتسـعت مسـاحتها بفعـل القادمـين مـن أسـفل ، مـن الطبقـة الدنيـا ، الذيـن إسـتطاعوا تحقيـق قـدر مـن الحـراك التعليمـى خـلال هـذه الفـترة. بالإضافـة إلى ذلـك فقـد تزايـدت فاعليـة الطبقـة الوسـطى، لأن أبنائهـا الذين سـيطروا عـلى البيروقراطيـة الحكوميـة تسـللوا أو تسـلقوا إلى إدارة المؤسسـات المؤممـة أو الممصرة مـن خـلال تعينهـم فى جهازهـا الادارى. بحيـث تحولـت الـشركات المؤممـة إلى مؤسسـات تشـكل نطـاق لتوفـير فـرص عمـل لأجيـال أخرى مـن أبناء الطبقة الوسـطي، الذيـن تخرجوا مـن الجامعات ، والذيـن تولوا إدارتها لحسـاب الدولة وبذلك إتسـعت سـيطرة الطبقة الوسـطى عـلى جهازها(٢٩).

وحينما حدث التحول من النظام الإشـتراكى إلى النظام الليبرالى ، أدركت الطبقة الوسـطى أن البيئـة السياسـية المحيطـة بهـا لم تعد مواتيه. فالنظـام الليبرالى الجديد متنكر لها ويتجه إلى سـحب إمتيازاتهـا. فقـد فك الحراسـات عن الأرض الزراعية ، حيث طرد منهـا الفلاحين الذين وزعت عليهم بفعـل القوانـين الإشـتراكية، ومـن ثم عـادت ثانيـة إلى الطبقـة العليا. وتراجـع التزام الدولـة بتعيين الخريجين، ويتراجع الآن عن تعليم أبناء الطبقة الوسـطي والدنيا. وحررت إيجارات الأرض الزراعية فى الريـف وإيجـارات المسـاكن فى الحـضر، وأدركت الطبقة الوسـطى أن العـالم المحيط ليس عالمها ، ومـن ثـم فقـد قررت الهروب بأحد أسـاليب أربعة. فقـد حاولت من خلال الأسـلوب الأول الهروب إلى الأيديولوجيـا والديـن، ومـن ثـم فقـد ظهـرت مـن رحـم الطبقـة الوسـطى الجماعات الماركسـية والناصرية إلى جانب الجماعات التى تطرفت بالدين ، ودخل الجميع مرات عديدة نوع من الصدام

الحـاد مـع النظـام السـياسى حينئذ. ومن خلال الأسـلوب الثانى هاجر بعض أعضاء الطبقة الوسـطي هروبـا إلى مجتمعـات الخليـج تسـتريح مـن العنـف الـذى فرضـه النظام عليهـا ، والذى إتخذ شـكل سـحب إمتيازاتهـا ، كما يسـتريح النظـام بهجرتها وهروبها. فى نطاق ذلك هاجـر من ثلاثة إلى أربعة ملايـين مـن أبنـاء الطبقـة الوسـطي تكـرروا كل خمسـة سـنوات تقريبـا منـذ منتصف السـبعينيات وحتـى نهايـة الألفيـة الثانيـة، وكان لهـم تأثيرهـم على نـشر الثقافة الإسـتهلاكية فى المجتمـع. بينما إتجـه البعـض الثالـث ليضـع نفسـه فى خدمة المـشروع الاجتماعـى للقطاع الخـاص ، وتعلق باسـتار الطبقـة العليـا، عـلى حـين أثـر البعـض الرابع طرق سـلوكيات الفسـاد والجريمـة والإنهيـار. وفى هذا الإطـار إنفصلـت مصالـح الطبقـة الوسـطى عن قاعدتهـا، ولم يعد هنـاك وجود لتيـارات أيديولوجية وسياسـية متماسـكة، تمثـل رؤية ومصالح هـذه الطبقة فى إجمالهـا نظراً للتحـولات العالمية والمحلية المعلومـة. وإتجهـت معظـم الطلائـع المثقفـة لهذه الطبقـة لتحقيق مصالحهـا الآنيـة والأنانية، وفقا لمنطلقـات براجماتيـه وماديـة بحتـه. فقـد تراجـع تقريبـا عـصر الخطابـات الكـبرى بحسـب تعبـير "ليوتـار" ولم يحفـل بهـا سـوى القلـة ، وبديلاً لذلـك وجهـت إمكانياتها إلى عالم السـوق (٣٠).

ويشـير تأمـل منظومـة القيم التى شـكلت مرجعية التنشـئة الاجتماعية والسياسـية للطبقة الوسـطي إلى أنهـا تميـزت بالطبيعـة السـلبية خـلال جملـة التحـولات التـى حدثت فى النصـف الثانى مـن القـرن العشريـن. وترجـع أهميـة قيـم الطبقـة الوسـطي إلى محوريتهـا بالنسـبة للمجتمـع ، لكونهـا القيـم التـى تحفـظ للمجتمـع هويتـه وتوازنـه. وإذا كانـت الطبقـة العليـا منفتحـة عـلى منظومـات القيـم الخارجيـة بدرجـة أعـلى ، وإذا كانـت الطبقة الدنيا تسـتند فى سـلوكياتها وأفعالها إلى منظومة قيمية ذات طبيعة آدائية بالأسـاس، فإن الطبقة الوسـطي شـكلت السـاحة الاجتماعية التـى تفاعلـت عـلى خلفيتهـا منظومـات قيميـة متباينـة ، بما فى ذلـك المنظومـات القيميـة المرتبطة بالقوى الاجتماعية الأخرى. ونظراً لضخامة حجم الطبقة الوسـطي ، فإننا نجد فى مراحل الاسـتقرار الأجتماعى أن منظومات القيم على سـاحتها تميل إلى الانتقاء فى منطقة وسـط ، لكى تشـكل الطبيعة

الأخلاقيـة لمنظومـة قيـم هـذه الطبقـة. أو أننـا نجـد أن هـذه الطبقـة، لفاعليتها وحيويتهـا، تفيض قيمهـا لـكى لتنظـم التفاعـل على سـاحة الطبقـات الأخرى. ومـن ثم تصبـح قيمها هى المعـانى التى تتدفـق فى المجـرى الرئيـسى للمجتمـع ، غـير أن هـذا النهـر له ضفاف. وإسـتناداً إلى ذلـك فإننا نجد أنـه فى حالـة الصحـة والعافيـة الاجتماعيـة ، تصبـح معـانى الطبقـة الوسـطي ومنظوماتهـا القيميـة هـى المسـيطرة والفاعلـة فى المجـرى الرئيـسى للمجتمـع. لكونها تسـتوعب أفضل مـا فى المنظومات الأخـرى مـن معـانى أو تفـرض عليهـا معانيهـا ، غـير أنهـا فى فـترات الإنهيـار الاجتماعى – التـى تنتج عـن تحـولات ذات طبيعـة سـلبية – تتجـه إلى تبنـى منظومـة قيـم أى من القـوى الاجتماعيـة التى تقـع عـلى ضفـاف المجـرى الرئيـسى. فهى قـد تتبنى قيـما إسـتهلاكية وإنتهازيـة لتحقيـق مصالحها – أسـوة بالطبقـة العليـا أحيانـا – حتـى ولـو كان ذلـك عـلى حسـاب المجتمـع ، أو عـلى حسـاب المثـل ، أو عـلى نقيـض معانيهـا النضاليـة. وهـى إذا إسـتمرت تعيـش حالـة أزمة ، فإننـا نجدها قد تتبنـى قيـما مأخـوذة عـن الطبقـة الدنيـا ، تعينها فى التكيـف مع واقعهـا المادى المـتردى، أو نجدها تسـقط فى هـذه الحالـة فى سـلوكيات ذات طبيعة أخلاقيـة تتناقض مع مضامين أو معـانى منظوماتها القيميـة. وذلـك يقـود بطبيعـة الحـال إلى ثقافـة وأوضـاع إجتماعيـة منهـارة فى المجتمـع أو تكـون نتيجـة لهـذه الإوضـاع. لذلـك قيـل أنه إذا إنهـارت أخلاق الطبقة الوسـطي إنهارت أخـلاق المجتمع ، وإذا إنصلحـت أخلاقهـا إنصلحـت أحوالـه وأخلاقه (٣١).

بالإضافـة إلى ذلـك فإننـا نجـد أن الطبقـة الوسـطي التـى كانـت ذات طبيعـة نضاليـة فى النصـف الأول مـن القـرن العشريـن لم تعـد كذلـك فى النصـف الثـانى مـن ذات القـرن. فقـد إنتـاب العطـب منظوماتهـا الأخلاقيـة التـى شـكلت مرجعيتهـا فى التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية عـلى السـواء. وهـو التناقـض الـذى تجسـده الفجـوة الواسـعة بـين القيـم النضاليـة التـى كانـت للطبقـة الوسـطى فى النصـف الأول مـن القـرن العشريـن، والتـى توجـت بقيـام الثـورة والحصـول عـلى الاسـتقلال ، وبـين القيـم الانتهازيـة الأنانيـة والفاسـدة، التـى أصبحـت تميـز سـلوك أغلـب أعضـاء هـذه الطبقـة مـع نهايـة النصـف الثـانى مـن القـرن العشريـن. ويمكن تفسـير هـذا التحول

فى منظومـة قيـم الطبقـة الوسـطي بأربعـة إفتراضـات. ويرتبـط الإفـتراض الأول بـأن الحـراك الاجتماعـى يـؤدى عـادة إلى تغيير الإنسـان المتحرك لمنظومتـه القيمية. وذلك يرجع إلى أن الإنسـان فى حراكـة الاجتماعـى يسـتوعب عـادة توجهـات مرنـة فيـما يتعلـق بالقيـم ، حسـبما يذهـب عـالم الاجتـماع "بيـترم سروكـين" Pitrium Sorokin . فهـو يتحـرك عبر سـياقات إجتماعيـة عديدة ، وفى كل سـياق يترك قيما سـابقة ليتعامل بقيم السـياق الجديد ، فهو إنسـان فندقى Hotel Man أينما يحـط ترحالـه فإنـه يتعامـل بقيـم السـياق الـذى حـط فيـه (٣٢). لذلـك فالقيـم تتحـول لديـة من غايـات يسـعى إلى تحقيقهـا إلى وسـائل تسـاعده عـلى الإنجـاز وفى تحقيـق التكيف.

ويشـير عـالم الاجتـماع "الفـن جولدنـر Alvin Gouldner" إلي افـتراض ثـاني يفـسر هـذا التحـول القيمـي من خـلال طرحه لمفهـوم "الإفتراضـات القاعديـة" Back-ground Assumption وهـى الإفتراضـات التـى تحـدد لـه طبيعـة إدراك الإنسـان للتفاعـل الحـادث فى الواقـع الاجتماعـى المحيـط بـه. ثـم إفتراضـات المجـال Domain assumption، وهـى الإفتراضـات التـى تحدد وجهة نظـر الفاعـل فى المجـال المبـاشر الذى يتحرك فيه. ثـم الإفتراضات العامـة Genered Assumption وهـى الإفتراضـات التـى تشـكل وجهة نظر الإنسـان فى الحياة والكـون المحيط به. ومـن الواضح أن التأثـير يتدفـق عـادة مـن الإفتراضـات القاعديـة إلى إفتراضات المجـال إلى الإفتراضـات العامة. وعلى ذلـك فـإن تغيـير الإنسـان - بحكـم حراكـه الاجتماعـى - لأوضاعـه وسـياقاته الاجتماعيـة، من شـأنه أن يـؤدى إلى تغيـير إفتراضاتـه القاعديـة ، ومـن ثـم إفتراضات المجـال، ثم تتغير الإفتراضـات العامة بعـد ذلـك. الأمـر الـذى يدفـع هـذا الإنسـان إلى تغيير وجهـة نظـره فى كل ما يحدث حولـه ، فليس لديـه إلتـزام محـدد بوجهـة نظـر ثابتـه (٣٣). الأمـر الذى يؤسـس لدى الإنسـان المتحـرك حالة من عـدم الالتـزام القيمـى والأخلاقـى الثابـت. فالإلتزام دائماً يكـون بالقيم التى تحقق لـه قدرة تكيفية عاليـة مـع موضوعـات ومتطلبات الموقـف المحيط.

ويسـتند الإفـتراض الثـانى إلى التنظـير الراديـكالى، الـذى يـرى فى إطـاره

كارل ماركس أن كل طبقة إجتماعية أثناء صعودها الاجتماعى من المنطقى أن تتبنى أيديولوجيات وتوجهات راديكالية ، فإذا بلغت غايتها وشغلت مراكزها فإنها تسعى للحفاظ عليها ، ومن ثم نجدها تتبنى توجهات محافظة (٣٤). ويتطابق مع ذلك ما ذهب إليه عالم الإجتماع الشهير" س.رايت ميلز" فى مؤلفه الخيال السوسيولوجى ، حيث أشار إلى أن القيادات الطلابية فى عقود تاريخية سابقة، هم الذين يشغلون مراكز السلطة والمناصب الجامعية القائمة فى مرحلة تاريخية تالية. ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى أن الحراك الاجتماعى يولد لدى الإنسان القدرة على التخلى عن منظومة القيم التى لديه والتى حكمت حراكة فى المرحلة السابقة ، وإكتساب منظومة قيمية جديدة تتلاءم مع الظروف أو السياق الجديد (٣٥). وكلما تدفق الحراك رأسيا وأفقيا ، كلما كان ممكنا أن يتخلى المتحركون عن منظومة قيمهم وإكتساب قيم وثقافة جديدة ، الأمر الذى يضعف فى النهاية لديهم بعد الالتزام القيمى ، وتتولد لديهم حالة من المرونه القيمية او الأخلاقية التى تيسر لهم التكيف مع أى قيم ومع أى مبادئ.

ويستند الأفتراض الثالث إلى نظرية التبادل ، وهو الإفتراض الذى يمكن أن نفسر بواسطته حالة "الأنومى" الأخلاقية التى أصابت سياق الطبقة الوسطي. حيث تذهب نظرية التبادل إلى القول بأن البشر فى تفاعلاتهم اليومية يتبادلون قيما. فى هذا الإطار يستند التبادل المستقر إلى تساوى القيم التى تشكل مضمون التبادل، سواء كانت قيما مادية أو معنوية. غير أنه إذا أجزل أحد أطراف التبادل العطاء للطرف الآخر دون إصرار على أن يحصل على المقابل. فإن ذلك من شأنه ان يدفع الطرف الآخر أو المقابل إلى تقليص القيم التى يدفعها فى عملية التبادل ، إذا ضمن أنه برغم تقليص القيم التى يدفعها فى التبادل فإن الطرف الآخر فى التبادل لن يتعامل معه بالمثل وسوف يستمر فى عطائه ، ومن ثم يظهر ما يمكن أن يسمى بالتبادل غير المتوازن. فى إطار هذا التبادل غير المتوازن نجد أنه كلما أجزل طرف العطاء دون الاصرار على المقابل بنفس القيمة ، فإن ذلك يدفع الطرف الآخر إلى تقليص المقابل المدفوع بدرجة أكثر عن ذى قبل ، طالما أنه ضمن الحصول على ما يريد دون أن يدفع المقابل.

وتسـتمر هـذه الحالـة مـن التفاعـل أو التبـادل حتـى تصـل إلى مسـتوى يمكـن أن يسـمى بالتبادل الصفـرى. حيـث يدفـع أحـد الأطـراف كل شـئ ، بينـما لا يحصـل عـلى شـئ فى المقابـل مـن الطرف الآخـر(٣٦)، وهكـذا كانـت علاقـة الدولـة بالطبقـة الوسـطي فى المرحلة الإشـتراكية. حيـث أجزلت الدولـة العطـاء لهـذه الطبقـة من كل إتجـاه وفى مختلف المجـالات دون الاصرار عـلى الحصول منها عـلى المقابـل. وهـى الحالـة التـى دفعـت هـذه الطبقـة إلى تبنـى عـادة الأخـذ مـن المجتمـع دون العطـاء لـه، الأمـر الـذى أضعـف بداخلهـا القيم الإنسـانية وأسـقط منهـا إلتزامهـا الأخلاقى.

وتتصـل الفرضيـة الرابعـة التـى يمكـن أن تفـسر السـلوكيات المعـاصرة لهـذه الطبقـة بحالة الأنومـى الثقافيـة، التـى إنتـشرت فى البنيـة الأخلاقيـة للمجتمـع. ففـى المرحلـة الإشـتراكية طرحت عـلى السـاحة عنـاصر تناقضـت جميعهـا ع بعضهـا البعـض ، فبينـما تبنت الدولـة التاكيـد على قيم الإنجـاز فـإن الواقـع قـد شـهد تفضيـل أهـل الثقـة عـلى أهـل الخـبرة. وعـلى حـين بـدت الدولـة قويـة كـما أوحـى بذلـك خطابهـا السـياسى إذا بهـا تواجـه أشـنع هزيمـة فى عـام ١٩٦٧ ، وعـلى حين أكـدت الدولـة عـلى الإشـتراكية إعتمـدت ثقافة المجتمـع على قاعدة مـن الدين. وعـلى حين أكدت الدولـة عـلى حريـة الإنسـان وكرامتـه إذا بأجهزتـه الأمنيـة تمـزق هـذه المعـانى إربـا. ذلـك بالإضافة إلى الضعـف القـوى أصـاب مختلـف مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية، فـالأسرة خضعـت لتحـولات ألقـت بنـوع مـن الغمـوض عـلى معانى القـدوة. وبرغـم ان التعليـم أصبح مجانيـا إلا أن ذلـك كان عـلى حسـاب الكفـاءة. والاتحـاد القومى ومن بعده الاتحاد الاشـتراكى ثـم الحزب الوطنى الديموقراطـى إمتـلأ بالمنتفعـين الذيـن إنتسـبوا لهـذه التنظيـمات وأيضا بمعتـادى التسـلق على بنية مختلـف التنظيـمات السياسـية. وفى مواجهـة هذه الحالة من الفوضى الأخلاقية، تولدت إسـتجابات متنوعـة بـدأت بالإنسـحاب الكامـل ، وإنتهـت بالتمـرد وحتـى العنـف الإيجـابى مـروراً بالتجديد فى الوسـائل دون الغايـات ، حيـث أصبح هـذا المنطق يحكم سـلوكيات وتفاعلات هـذه المرحلة. حيث السـعى لتحقيـق الغايـات والأهـداف بغـض النظـر عن شرف الوسـيلة، فالغايـة تبرر وسـائلها بغض النظـر عـن آيـة معايـير اخلاقيـة. حيـث كان المنطـق النفعـى فى ذاتـه هـو المنطـق الملائـم لضبـط

إيقـاع سـلوكيات البـشر فى هـذه المرحلـة مـن أجـل التكيـف مـع واقعهـم المحيـط ، نـوع مـن الميكيافيليـة أو الإنتهازيـة التـى تؤكـد أننـا بإمكاننـا تحقيـق أهدافنـا بغـير الوسـائل والسـبل التـى يقرهـا المجتمـع (٣٧).

وإذا كانـت هـذه الفرضيـات الأربعـة تسـعى إلى تفسـير طبيعـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية التـى تعـرض لهـا أبنـاء هـذه الطبقـة فى مراحـل التحـول الاجتماعـى. فـإن المضامـين الأخلاقيـة المتضمنـة فى هذه التنشـئة، مـن الطبيعى أن تشـكل المرجعية الأخلاقية للسـلوكيات التى يتبناهـا أبنـاء هـذه الطبقـة على السـاحة المعـاصرة لمجتمعنـا. وهى السـلوكيات التى يمكـن بلورتها فى ثلاثـة أنمـاط. ويشـكل السـلوك الإنسـحابى نمـط السـلوك الأول الـذى يتبنـاه قطـاع عريـض مـن هـذه الطبقـة. فقـد إدرك هـذا القطـاع أن العـالم الـذى نعيـش فيـه ليـس عـالم الطبقـة الوسـطي ، وكذلـك المجتمـع الـذى نعيـش فيه ليـس مجتمع الطبقة الوسـطي. إذ تشـهد هذه المرحلة سـحب أو تـآكل عنـاصر نوعيـه حياتهـا لتصبـح اكـثر ترديـا ، فقـد ألغيـت مجانيـة التعليـم بأسـاليب كثـيرة وملتويـة ، وتركـت المؤسسـات التعليميـة التـى تعلـم اولادهـا فى حالـة مـن الإهـمال الـذي يعجزها عـن آداء وظائفهـا ، وتخلـت الدولـة عـن تعيـين أبنائها فبقـى أغلبهم فى حالـة من البطالـة الكاملة. وتـردت المؤسسـات الصحيـة التـى كانت تطيب أمـراض ابناء الطبقة الوسـطي ، وأصبحت المسـاكن بأسـعار فلكيـة لا تطيقهـا ميزانيـات أبنـاء الطبقـة الوسـطي. وفى ذات الوقـت فالنظـام السـياسى عصـاه الأمنيـة غليظـة وقويـة وقاسـية ، منتهى قوتهـا تعبر عن منتهـى ضعفة. لذلك آثـرت الطبقة الوسـطي الإنسـحاب من على السـاحة وتحولت بالقهر والسـكوت عليه إلى جسـد يأكل ذاته ، فقد أصبحـت طبقـة بـلا أحـلام ولا طموحات. وفى حالة غياب ما تشـعله المثل ، وأمام ضغط المشـكلات المتصلـة بعـدم إشـباع الحاجـات يتفكك جسـد هـذا القطاع مـن الطبقة الوسـطى ويتهـرأ أو يتآكل نسـيجها الأخلاقـى. مـؤشرات ذلك إرتفاع معـدلات الطلاق وتفـكك الأسر وإنهيارهـا، وكذلك إرتفاع معـدلات الـزواج العـرفى خـارج الشرعيـة بـين أبنـاء الطبقـة الوسـطي ، وأخـيراً تعاطـى المخـدرات للغيـاب مـن حالـة الاجتـماع وأحوال السياسـة.

ويعـــد الســـلوك الإنتهـــازى هـــو الســـلوك الـــذى طرقـــة قطـــاع أكـــبر مـــن أبنـــاء

الطبقـة الوسـطي ، بخاصـة هـؤلاء الذيـن نجحـوا فى تحقيـق حـراك تعليمـى واسـع ومظاهـر هـذا السـلوك كثيرة ومتابعـة. فهـم قـد إنفصلـوا بدايـة عـن إطارهـم الاجتماعى الـذى ولـدوا فيه، لأن التعليـم أكسـبهم قيـما وثقافـة سـاعدت عـلى تفكيـك روابطهـم بخلفياتهـم الاجتماعيـة والثقافيـة التقليديـة ، بـل وتنكـروا لهـا أحيانـا ، سـواء كانـت أطرهـم الطبقيـة أو الاجتماعيـة . وهـم مـن ناحيـة ثانيـة الذيـن تسـلقوا التنظيـمات السياسـية إبتـداء مـن هيئـة التحريـر إلى الاتحـاد القومـى إلى الاتحـاد الإشـتراكى إلى الحـزب الوطنـى الديموقراطـى برشـاقة وقـدرة إنتهازية وتسـلقية منقطعة النظـير. وهـم الذيـن إسـتغلوا نفوذهـم فى الوظائف الإداريـة العليا بجهـاز الدولـة أو القطاع العام قديمـا، فحولـوا نفوذهـم إلى رأسـمال إقتصـادى ، شـكل جـواز حركتهـم للتضافـر مـع الطبقـة العليا التـى تعمـل عـلى تقزيـم طبقتهـم. وهـم الذيـن أصبحـوا عمـد أيديولوجيـا وسياسـات الانفتـاح إبتـداء مـن السـبعينيات، وهـم الذيـن ينظـرون الأن لتصفيـة القطـاع العـام ومؤسسـات الملكيـة العامـة. وهـم الذيـن يلتحقـون بالتنظيـمات السياسـية الليبراليـة المعـاصرة ليـس عن قناعـة ولكن عـن إنتهازيـة ، لأن السياسـة أصبحـت مدخلاً للوظيفة العامـة. كأنما لم يعلنوا يوما أنهم إشـتراكيون بـل وماركسـيون. لقـد تحـول الوطـن إلى فريسـة عـلى مائـدة اللئـام تحصـل الطبقـة العليـا عـلى نصيـب الأسـد ولا مانـع أن يلقـى ببعـض الفتات للفئة المتعاونـة من أبناء الطبقة الوسـطى، فلديهم قابليـة القبول بذلـك (٣٨).

بالإضافة إلى ذلك يوجد القطاع المتمرد أو الرافض من أبناء الطبقة الوسـطى. لقد رأى هذا القطاع ان الإنسحابات السلبية لم تحل مشكلة ، وأن الإنتهازيين من أخوانهم إستبدلوا مصلحة الوطن بمصالحهـم الخاصـة. ومـن ثم فقد تولدت لديهم قناعة أن الاحتجـاج والتحدى والتمرد الإيجابى هو الحـل، خاصـة أن ثمـة ظـروف فى البيئة الخارجية والداخلية تسـاعد على ذلك. وقـد إتخذ الأحتجاج لديهم شـكل ظهور بعض الحركات الاجتماعية كحركة "كفاية" و "لابد" و "شـايفينكم" و "حركة ٩ مـارس" وحركـة "نـادى القضاه" وغير ذلـك من الحركات الاحتجاجية التى قامـت بها بعض النقابات وبعـض تنظيـمات المجتمع المدنى. حيث طالبت هـذه الحركات الإحتجاجية بإصلاحات على الصعيد

السـياسى والاقتصـادى والاجتاعـى والثقـافى. وقـد بلغـت معارضـة وإحتجاجـات الطبقـة الوسـطي ذروتها حينـا رفـض ثلـث مجلـس الشـعب المـصرى فى ٢٠٠٧ التعديـلات الدسـتورية. حيـث رأى بعـض مثقفـى هـذه الطبقات أنهـا دون التوقعـات، وأنها تعديلات قاهـرة للحريات أكثر من كونها موسعة لمسـاحتها.

ثالثاً: مؤسسات وأطر التنشئة الاجتماعية والسياسية للشباب.

نظـراً لأن التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية – وقبلهـا التنشـئة الاجتماعيـة – مـن العمليـات الأساسـية اللازمـة لاسـتمرار الوجـود الاجتماعى فقد أسـس المجتمع لإنجازها عدة مؤسسـات تلعب دورهـا فى تنشـئة البـشر. لتتسـق سـلوكياتهم مـع إحتياجـات المجتمـع مـن ناحية، وبمـا يتلاءم مع تفاعلهـم مـع بعضهـم البعـض مـن ناحيـة ثانيـة. ونحـن إذا تأملنـا هـذه المؤسسـات فسـوف نجـد ان بعـض هـذه المؤسسـات يـؤدى وظيفتـه بصـورة تلقائيـة بالنظـر إلى ثقافـة المجتمـع ومنظوماتة القيميـة كمرجعيـة لذلـك كالعائلـة او الأسرة مثلاً. بينما البعض الأخر من المؤسسـات تحدد الدولة مرجعيـة التنشـئة فيـه بصـورة مسـبقة ، لأن الدولـة مـن خـلال هـذه المؤسسـات تحتاج إلى تنشـئة مواطنيهـا صـورة محـددة. نموذجـاً لذلـك المؤسسـات التعليميـة، والبرامـج التربويـة أو الدراسـية التـى تتبعهـا. ذلـك فى حـين أن هنـاك بعـض المؤسسـات التـى لا تحـدد الدولـة مرجعيـة التنشـئة فيهـا وأن كانـت هـذه المرجعيـة مـا تـزال فى نطـاق أو إطـار مرجعية الدولـة والمجتمـع. ويدخل فى هـذا الإطـار الحـزب السـياسى ومؤسسـات الإعـلام وتنظيـمات المجتمـع المـدنى الأخرى كمؤسسـات للتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. ذلـك برغـم أن هنـاك جانبـا من الإعـلام ومن تنظيـمات المجتمع المـدنى أصبـح خـارج نطـاق سـيطرة الدولـة والمجتمـع (٣٩). وهـو مـا يميـز التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية الحاليـة عـن ذي قبـل ذلـك ، حيـث كانت فى السـابق محـددة بحدود الدولـة والمجتمع ، بينـما هـى الآن قـد تخـرج فى بعـض مكوناتها عن سـيطرة الدولـة أو المجتمع. فى هـذا الإطار فإنه مـن الـضرورى ملاحظـة ان التنشـئة الاجتماعيـة تعـد الإنسـان للتفاعـل فى مختلف مجـالات الحياة الاجتماعيـة، عـلى حـين تقتـصر التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية عـلى إعـداد الإنسـان للتعامـل مـع المجـال السـياسي وبعـض المجـالات التى تتداخـل معه.

إسـتناداً لذلـك تعـد الأسرة أبـرز مؤسسـات التنشـئة الاجتماعية والسياسـية، وذلـك بإعتبار أن الأسرة مـن نمـط الوحـدات المحوريـة فى المجتمـع. وهـى تكتسـب محوريتهـا مـن خـلال بعدين أساسـيين، الأول أن كل فـرد فى المجتمـع مـن الطبيعـى أن ينتمـى لفـترة طويلـة مـن حياتـه لأسرة ، ومـن ثـم فإنـه مـن الطبيعـى أن يمـر كل شـخص بخـبرة الحيـاة الأسريـة. بالإضافـة إلى ذلـك فإننا نجـدد أن الأسرة هـى الأقـوى تأثيرا من بين كل مؤسسـات التنشـئة الاجتماعية والسياسـية لأن الفرد يعتمـد عليهـا عاطقيـا وماديـا الأمـر الـذى ييـسر قبولـة الصعوبـات التـى يتعـرض لهـا أثنـاء عملية التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. لذلـك نـرى تأكيـد غالبيـة المفكريـن عـلى الأسرة بإعتبارها إحدى آليـات التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. تأكيـد لذلـك أن الفيلسـوف الصينـى كونفشـيوس أرجـع صـلاح الحكـم أو المواطنـة الصالحـة إلى قـدرة الأسرة عـلى تلقـين أطفالهـا قيـم الفضيلـة والحـب المتبـادل واحـترام المصلحـة العامـة للوطـن. الأمـر الـذى دعـى الدولـة إلى تحمـل مهمـة التنشـئة السـليمة إبتغـاء تأسـيس نظـام إجتماعى سـياسى يؤدى إلى قيـام حكم صالح رشـيد (٤٠). وفى إطار الفلسـفة اليونانيـة خصـص أرسـطو جـزءاً مـن فلسـفته للحديث عـن دور الأسرة والدولـة فى التربية وتحـدث أيضـا عـن الواجبـات الأخلاقيـة فى هذا المضـمار، ورأى أن الأخلاق الشـعبية تنشـئ الحكم الشـعبى ومضمونـه (٤١). وقـد ذهـب مؤكـدا أنـه لمـا كانـت غايـة الدولـة واحدة وجـب أن تكون التربيـة متماثلـة للجميـع. وأن يكـون السـهر عليهـا مـن شـئون العامـة وليـس مـن شـئون الخاصة (٤٢).

وترجـع أهميـة الأسرة فى التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية إلى أنهـا الخليـة الأولى فى بنـاء المجتمـع ، وهـى المصـدر الأول الـذى يسـتقى منـه الفـرد المفاهيـم والقيـم التـى تشـكل ثقافتـه الاجتماعيـة والسياسـية ومـن ثـم تشـكل سـلوكه الاجتماعـي والسـياسى. بالإضافـة إلى ذلـك فـإن الأسرة تقـوم بهـذا الـدور بكفـاءة عاليـة، بسـب العلاقـة الدائمـة والتأثـير المبكـر والمبـاشر عـلى الطفـل. إضافـة إلى أن التأثـير العاطفـى الـذى يميـز العلاقـة بـين الأسرة والطفـل، مـن شـأنه أن يسـاعد في تجذيـر قيـم الثقافـة الاجتماعيـة والسياسـية فى داخـل الطفـل، خاصـة أن الطفـل فى هـذه المرحلـة تكـون شـخصيته طيعـة وقابلـة للتشـكيل. ذلـك يعنـى أن الطفـل يكتسـب مـن

الأسرة مـن خـلال المحـاكاة والتقليـد فى الطفولـة المبكـرة نمـاذج معينـة مـن سـلوك الوالديـن. ومن خـلال التلقـين فى فـترة الطفولـة المتوسـطة أو المتأخـرة (٤٣). وذلـك يتطلـب بطبيعـة الحـال أن يكـون الوالديـن أو أحدهـما عـلى قـدر من الوعـى الاجتماعي والسـياسى حتى يتلقى الأبـن النماذج السـلوكية الاجتماعيـة والسياسـية السـليمة. كـما ترجـع أهميـة الأسرة كوحدة للتنشـئة الاجتماعية والسياسـية إلى كونهـا تضـم أول نمط للسـلطة يعايشـه الطفـل ، ومن ثم تؤثر طريقة ممارسـة هذه السـلطة فيـه وعـلى إتجاهاتـه ومعارفـه. فـإذا كان الأب متسـلطا فى معاملته لأفراد أسرتـه بات من المحتمـل ان تتأكـد لـدى الأبنـاء قيم الإكـراه والسـلبية الفرديـة. وبالمقابـل إذا كان الأب ديموقراطيا تـربى الأولاد عـلى قيـم الحريـة والإهتـمام بالجماعـة. ويتضـح تأثـير الأسرة فى التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية للأطفـال حينـما تتبنـى أفـكار معينـة ينشـأ الأطفـال عليهـا ، فقـد بينـت الدراسـات أن الأطفـال فى الولايـات المتحـدة يميلـون إلى أن يكونـوا ديموقراطيـين أو جمهوريـين تبعـا للحـزب الذى ينتمـى إليه الوالـدان (٤٤).

وتقـوم الأسرة بـدور تربـوى بارز حينـما تعمل على تفسـير المفاهيم الاجتماعية والسياسـية للطفـل وأسـلوب إعـمال هـذه المفاهيـم. فمثـلا يتعلـم الطفـل داخـل الأسرة أصـول الممارسـة الديموقراطيـة والمشـاركة بإيجابيـة فى صنـع القـرار داخـل الأسرة. إلى جانـب أنـه يتعلـم واجـب الاذعـان للسـلطة المتمثلـة فى الأب والأم ، كـما يتعلـم الطفـل داخـل الأسرة معنـى مفهـوم الحريـة وحدودهـا التـى تقـف عنـد حد امنه وأمـن غيره ، وعدم الإعتـداء على حقوق الآخريـن. كما يتعلم الطفـل داخـل الأسرة كيـف يحـترم ملكيـة الغير وعـدم جواز الاعتـداء عليها ، ويدخـل فى هذا الإطار إحـترام ملكيـة الدولـة والملكيـة العامـة. ويرتبـط بذلـك أن تقـوم الأسرة بعمليـة التوجيـة الواعـى العقـلانى، الـذى يتضمـن غرس القيم والعادات والمعايير والأخلاق وطبيعـة النظرة إلى التراث. إضافة إلى الموقـف مـن المؤسسـات الاجتماعيـة والسياسـية، والموقـف مـن القضايـا الاجتماعية والسياسـية ذات الطبيعـة الحيويـة. إضافـة إلى غـرس القيـم والمثل والمعتقـدات الاجتماعية والسياسـية الملزمة ، والتـى تلعـب دوراً فى تحديـد توجهاتـه نحـو ذاتـه ونحـو الآخريـن. كـما تقـوم الأسرة بنقـل

التوجهات الاجتماعية والسياسية والوطنية الثقافية وغرسها فى شخصية الطفل، حتى تساعد فى تشكيل هويته بإعتبارها تعكس الهوية العامة للمجتمع (٤٥).

وفى بعض الأحيان تصبح التنشئة الاجتماعية والسياسية التى تقوم بها الأسرة متعمدة ، حينما يخضع الوطن لفترات حرجة وصعبة ، كالخضوع للإحتلال الأجنبى أو المشاركة فى صراع ممتد طويل. حيث تعمل الأسرة على تأجيج المشاعر والعواطف الوطنية عند الطفل، مثال على ذلك التنشئة التى تقوم بها الأسرة لأطفالها فى فلسطين المحتلة. فى هذا الإطار يمكن النظر إلى الإنتفاضة الفلسطينية التى قام بها أطفال الحجارة، بإعتبارها تعبيراً عن دور الأسرة الفلسطينية فى التنشئة الاجتماعية والسياسية. التى إستهدفت الحفاظ على الهوية القومية للطفل الفلسطينى، بعد أن زيفت سلطات الإحتلال الإسرائيلى كل المقررات الدراسية ، ونزعت منها أى بعد قومى. وبعد أن ركنت سلطات الإحتلال إلى أن الجيل الجديد نشأ وتربى فى ظروف ستجعله أقل مقاومة ورفضا للإحتلال من جيل الآباء. وإذا بها تفاجأ بأن الأسرة الفلسطينية قد أخرجت لها جيلاً أقوى وأصلب إيمانا وأقدر على المقاومة. بحيث يمكن إعتبار ذلك دليل على أن دور الأسرة الفلسطينية بالنسبة للأطفال، يمكن أن يكون هو خط الدفاع الوحيد أمام الشعوب والأمم فى فترة معينة من حياتها السياسية (٤٦).

ويذهب أحد الباحثين إلى التأكيد على أن الأسرة تقوم كغيرها من المؤسسات الاجتماعية والسياسية، بتأهيل الفرد للمشاركة فى الحياة الاجتماعية والسياسية بأن يكون مصوتا أو مرشحا، أو على الأقل مهتما بالقضايا الاجتماعية والسياسية لمجتمعة، والميل إلى المشاركة فى التفاعلات الاجتماعية والسياسية بشأنها. فى هذا الإطار فإننا قد نجد أن بعض الأفراد لا يقدمون على المشاركة الاجتماعية والسياسية ، حيث قد يرجع ذلك إلى وجود قيم وعادات ، نشئوا عليها فى الأسرة تدفعهم إلى عدم الإهتمام بالأمور الاجتماعية والسياسية. فالطفل حينما يتأثر بنمط تنشئة اجتماعية وسياسية معينة موجهة له ، فإنه يمر بمراحل متعددة كى يحصل على معرفة تجاه السلطة. وتعد مرحلة التعرف على السلطة

بالتسـييس Politicization أول هـذه المراحـل، وفى إطارهـا يـدرك الطفـل مـن خـلال علاقاتـه فى الأسرة والمدرسـة والمجتمـع، أن هنـاك سـلطات أعـلى منـه يجـب عليـه طاعتها من خـلال مواقفة فى الحيـاة معهـم. فبمـرور الوقت يـدرك الطفل أنه مطالـب بطاعة الوالدين ، وتقديـر المعلم أو مدير المدرسـة، وإحـترام رجـل الشرطـة. وتشـير المرحلـة الثانيـة إلى التعـرف عـلى السـلطة بالشـخصانية Personalization. وفى هـذه المرحلـة يمكـن للطفـل أن يبـدأ بجمـع معلومـات عـن شـخصيات معينـة قريبـة منـه ويسـهل عـلى عقلـه إدراكهـا، مثـل مديـر المدرسـة أو الشرطـى ، فيقـوم بطـرح أسـئلة عـن مهـام هـذه الشـخصية ومكانتهـا فى المجتمـع ودورهـا فى الحيـاة المدنيـة والمجتمعيـة. ومـن ثـم تتطـور هـذه العمليـة إلى أن يـدرك الطفـل ويجمـع معلومـات عـن رئيس الدولـة ورئيس الحكومـة فى مرحلـة متقدمـة تتـوازى مـع مرحلـة متقدمـة مـن عمره ونضجـه العلمى والسـياسى. ثـم ينتقـل إلى المرحلـة الثالثـة ، حيـث التعـرف عـلى السـلطة بالمؤسسـات Instiutionalization. وتعـد هـذه هـى أهـم المراحـل فى عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية للطفـل ، فيهـا تتضـح الصـورة لـدى الأطفـال مـن خلال ربط الصفات المترسـبة فى أذهانهـم عن بعض الشـخصيات، كرجل الشرطـة والرئيس، بالمؤسسـات الاجتماعية والسياسـية التى يرتبطون بهـا ، كإدارة الشرطة والمجالس البرلمانيـة والحكومـة وغيرهـا مـن المؤسسـات. الأخـرى مـما يـدل عـلى مـدى النضـج الاجتماعـي والسـياسى لـدى الطفـل الذى أصبـح يدرك تطـور المنظمات والمؤسسـات القائمة فى النظام السـياسى ، ومـن جهـة أخـرى فإن هـذا النمط من التعرف على السـلطة يـثرى المعرفة الاجتماعية والسياسـية للنشـئ. فى هـذا الإطـار فالمعتقد أن وجود تنشـئة اجتماعية وسياسـية صحيحـة للأطفال فى المراحل المبكـرة مـن عمرهـم، تعـد مطلـب ضرورى يحتـاج إلى بيئـة وإرادة سياسـية ، تسـاعد فعـلاً عـلى تفعيـل هـذه العمليـة بشـكل صحيح ومؤثر مـن أجل الحصول عـلى أفراد فاعلـين فى المجتمع (٤٧).

وتتبايـــن أنمـــاط الأسر مـــن حيـــث قدرتهـــا عـــلى التنشـــئة الاجتماعيـــة والسياســـية ، وقـــد تأكـــد إســـتنادا إلى دراســـات عديـــدة، أن العائلـــة الممتـــدة هـــى العائلـــة القـــادرة عـــلى التنشـــئة الاجتماعيـــة والسياســـية الفعالـــة. بإعتبارهـــا الوحـــدة التـــى تســـتمد

قوتهـا مـن تداخـل القيـم الدينيـة والأخلاقيـة لتنظيـم التفاعـل الحـادث عـلى سـاحتها ، إضافـة إلى إمتـزاج ذلـك بالعواطـف الجمعيـة. بحيـث يجعـل كل ذلـك مـن العائلـة وحـدة قوية ومتماسـكة. ومـما يزيـد مـن تماسـك هـذا النمـط وضـوح ترتيـب مكاناتـه وأدواره، بحيـث نجـد أن آداء الأدوار يـؤدى بالنظـر إلى جملـة الحقوق والواجبـات المرتبطة بالـدور. هذا التدرج محكوم بمعيارى السـن والنـوع وهـى المعايـير التـى تتدخـل لتحديد الحقـوق والالتزامـات التى تـؤدى بالنظر إليهـا الأدوار والوظائـف. إضافـة إلى أن هـذا النمـط لـه تأثـيره القـوى عـلى الفـرد لاعتـماد أعضائـه عليـه ماديـا وعاطفيـا. الأمـر الـذى يعمـق إرتباطهـم بدورهـم بـه وإنتمائهـم لـه ، ومـن ثـم فهـو نمـط يسـاعد عـلى تحقيـق الاسـتقرار الاجتماعـى ، إضافـة أنـه يطـور عواطـف العطاء للآخـر والتضحيـة من أجل الجماعـة. هـذا إلى جانـب أنـه يعمـل عـلى إذكاء العواطـف والمشـاعر الروحيـة فى أعضائـه ، كـما يؤكـد هـذا النمـط عـلى ما هو ضرورى لإشـباع الحاجات ، لكونه يبارك المعيشـة المشـتركة البسـيطة ، ومـن ثـم نجـد أن أعضـاء هـذا النمط ليسـوا على إسـتعداد للمشـاركة فى ثقافة الاسـتهلاك والترف (٤٨) أو حتـى فى ثقافـة الرفـض والتمـرد ، وإذا كانـت بعـض هذه المظاهر قد ظهـرت أخيراً فى بعض السـياقات التـى تعيـش فيهـا هـذا النمـط العائـلى فـإن ذلـك يرجـع بالأسـاس لأن هذا النمـط ذاته بـدأ يصـاب بالإنهيـار والتفتـت لصالـح نمـط الأسرة النووية.

تأكيـداً لذلـك أننـا إذا تأملنـا واقعنـا العـربى المعـاصر فسـوف نجـد أن العائلـة الممتـدة أخـذة فى التـآكل ، وذلـك بفعـل عوامـل عديـدة بعضهـا خارجـى فرضتـه حالـة الضعـف التـى عليهـا بنـاء المجتمـع العـربى ، وهـى الحالـة التـى لعبـت دوراً أساسـيا فيهـا عوامـل داخليـة وخارجيـة عـلى السـواء. وقـد أشرنـا إلى العوامـل الداخليـة بإعتبارهـا تتبلـور حـول ضيـق مصـادر الـرزق والدخـل فى السـياق الريفـى إضافـة إلى فاعليـة الإعـلام ، إلي جانـب فاعليـة التعليـم وعديـد مـن المتغـيرات الأخـرى التـى لعبـت دورهـا فى تفكيـك تماسـك الثقافـة الريفيـة التقليديـة والمسـتندة فى جانـب منهـا إلى قاعـدة الديـن. وكذلـك إطـلاق موجـات الهجـرة مـن الريـف إلى الحـضر ، إلى جانـب موجـات الحـراك الإجتماعـى ، وهـى الإنتقـالات التـى فصلـت الأفـراد والأسر

النوويـة عـن العائلـة الممتدة كمرجعية لهـا. بحيث جعلت هذه الظـروف المجتمع فى كليته معرضا لتدفـق موجـات الإخـتراق مـن الخـارج ، وهـو الإخـتراق الـذى أثـر بـدوره عـلى النسـيج الاجتماعى للمجتمـع والوحـدات المكونـة لـه ومـن بينهـا العائلـة الممتـدة. كذلـك هـو الإخـتراق الـذى تضافر مـع العوامـل الداخليـة العديدة التـى صاحبت التحـولات الاجتماعيـة الاقتصادية المتتابعـة ، إضافة إلى الظـروف المتعلقـة بالواقـع الاجتماعـى كثبـات المـوارد الاقتصادية المحـدودة فى مواجهـة الزيادة السـكانية المتناميـة عـلى نحـو مـا آشرت. بحيـث دفعـت هـذه العوامـل مجتمعـه إلى إضعاف هذا النمـط بحيـث أسـلمت نتائـج العوامل الداخليـة والخارجية إلى تشـكل عائلة غير قـادرة على القيام بالتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ناهيـك عـن حمايتهـا من التشـوة. الأمـر الذى عرض هـذه الأسرة والتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية التـى تقـوم بها لمظاهـر عديدة من التشـوة.

مـن هـذه المظاهـر أن الإخـتراق الثقـافى دفـع بقيـم الفرديـة والنفعيـة إلى مقدمـة المـسرح ، وهـى القيـم التـى تؤكـد عـلى المصلحـة لتحـل محـل القيـم الإيثاريـة والعطـاء الـذى ينبغـى أن تتصـف بـه الحيـاة العائليـة. يضـاف إلى ذلـك سـيطرة القيـم الماديـة والإسـتهلاكية عـلى منظومـة القيـم الأسريـة ، الأمـر الـذى يعنـى أن الأسرة أصبحـت تعمـل فى ظـل منظومـة قيميـة ذات طبيعة فرديـة وأنانيـة فى مقابـل إختفـاء القيـم الجماعيـة والإيثاريـة. وهـو الأمـر الـذى دفـع إلى بـروز حقائـق جديـدة ، منهـا ان الفـرد أصبـح مقدمـا عـلى الجماعـة ، وأصبحـت المصلحـة الأنانيـة الفرديـة هـى معيـار المشـاركة فى الحيـاة الأسريـة. وقـد تضافـر ذلـك مـع إخـتراق فضـاء المجتمع بقيـم جديـدة متعلقـة بالنـوع الاجتماعـى تتصـل بالحيـاة الأسريـة ، بحيـث أدى ذلـك إلى فـوضى فى ترتيـب المكانـات والأدوار الأسريـة (٤٩). ومـن الطبيعـى أن ينشـأ الأفـراد فى إطـار فـوضى الحيـاة الأسريـة، وفقـا لهـذه القيـم النفعيـة الفرديـة، يضـاف إليهـا الطابـع الفوضـوى الـذى أصبـح يميـز الحيـاة الأسريـة أو يضمـن فى التنشـئة الإجتماعيـة والسياسـية. بحيـث نجـد أن البـشر الذيـن خرجـوا مـن هـذه الأسر ضعـاف الإنتـماء ، يتعاملـون مـع الوطـن بإعتبـاره سـاحة لتحقيـق المصالـح الفرديـة والأنانيـة ، إضافـة إلى أن هـذه القيـم شـكلت مرجعيتـه للقيـم الانتهازيـة التـى

أصبحت تثقل كاهلنا وتقتل عواطف الأيثارية والغيرية نحو الوطن بداخلهم.

مـن هـذه المظاهـر كذلـك إنتشـار حالـة مـن الفـوضى عـلى سـاحة الحيـاة الأسريـة نتيجـة لمنظومـات قيميـة إقتحمـت فضاءنـا الثقـافى والاجتماعـى. فقـد أدت المنظومـات الفرديـة التـى طرحـت نفسـها فى الفضـاء الأسرى إلى إعـادة تشـكيل التفاعـل الأسرى حـول قضايـا كانـت مسـتقرة ولكنهـا أصبحـت خلافيـة تتعلـق بعمـل المـرأة مـن عدمـه ، مشـاركة الرجـل فى الأعـمال المنزليـة ، والاسـتفادة مـن راتـب الزوجـة للمسـاهمة فى أعاشـة الأسرة مـن عدمـة. وإذا كان ذلـك يرجـع إلى تدفـق قيـم الأنانيـة والمصلحـة فى الحيـاة الأسريـة، فـإن ذلك يرجـع أيضا لعجـز المؤسسـات الدينية والاجتماعيـة عـن تقديـم الفتـاوى التـى تصنـع وعيـا عاما بمـا ينبغى أن تكـون عليه الحيـاة الأسرية ، حتـى تصبـح هـذه الفتـاوى مرجعيـة تنبثق منهـا المعايير التى تنظـم الحياة الأسريـة. إذ أن غياب المعايـير التـى يحتكـم إليهـا فى مثل هـذه القضايا من شـانه أن يؤجج وتيرة الصراعـات الأسرية، ومن ثـم يسـبب التفـكك والإنهيـار الأسرى. مـؤشر ذلـك إرتفـاع معدلات إنهيـار الأسر بالطـلاق فى جميع الفئـات العمريـة والمسـتويات الاجتماعيـة الإقتصاديـة ، وذلـك بسـبب القيـم والادعـاءات النفعيـة والمصلحيـة ، وهـو مـا يعنـى أنـه حينـما لا تتحقـق المصلحـة الفرديـة لأى مـن أعضـاء الأسرة، فإنـه يميـل إلى أن ينفـض يـده من المشـاركة فيهـا، بغض النظر عن عمـر الأسرة أو النتائج السـلبية المترتبة عـلى ذلـك. بحيـث نجـد أن الطفـل الـذى ينشـأ فى الأسرة وفـق هـذا المنطـق ، ينقـل ذات المنطـق إلى المجتمـع ، بحيـث نجـدة يتعامـل تعامـلاً نفعيـا إنتهازيـا مع المصالـح العليا للوطن ، فـإذا لم يعد عليـه عائـد مـادى مـن ورائهـا ، فإنـه ينفـض يـده منها ليبحـث فى مجال آخـر أو حتـى مجتمع آخر عـن ما يحقـق لـه مصالحة الفرديـة والأنانيـة (٥٠).

بالإضافـة إلى ذلـك فقد تبنى الغرب قضية المرأة لتشـوية التراث وشـق عصـا إتفاق الجماعة فى مجتمعاتنـا ، كالإدعـاء بنقـص مواطنة المرأة فى مجتمعاتنا ، ومـا يتصل بذلك من حقوق وواجبات ، مـع أن هـذا الـتراث قـدم مضامـين متقدمـة عـلى الفكـر الغـربى فى هـذا الصـدد. يؤكد ذلـك قوله تعالى"يأأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله

أتقاكـم" (٥١). وقولـه سـبحانه "يـا أيهـا النـاس أتقوا ربكم الـذى خلقكم من نفـس واحدة وخلق منهـا زوجهـا وبـث منهـما رجـالاً كثـيراً ونسـاءاً وأتقـوا اللـه الذيـن تسـاءلون بـه والأرحـام" (٥٢). وهـو مـا يعنـى أن تراثنـا بخاصـة الدينى إفترض المسـاواة الكاملة والمتوازنة بين الجنسـين ، وليسـت المسـاواة الصراعيـة عـلى الطريقـة الغربيـة. ذلـك يعنـى أن نـشر الغرب لتصـور خاطئ عـن التراث فيـما يتعلـق بقضيـة المـرأة ، يعنـى تنشـئة الأبنـاء عـلى إدانـه الـتراث و وصفـه أو وصمـه بالتخلف والجمـود. الأمـر الـذى يفصـل الأجيال المنشـأة فى هذا السـياق عـن تراثهم ، كمقدمـة لفصلهم عن هويتهـم ، وإلباسـهم هويـة تابعـة ترجـع جذورهـا إلى المرجعيـات الغربيـة. فـإذا أصبحـت الهوية تابعـة، أصبحـت الشـخصية تابعـة كذلـك، تسـتوعب كل مـا هـو غـربى ولو عـلى حسـاب مجتمعها وتراثهـا ، شـخصية مفككـة الروابـط بـكل مـن الـتراث والوطـن ، ومما لا شـك فيـه أن لذلـك نتائجه الخطـيرة ، قـد تعنـى ضعـف الإنتـماء للوطـن ، أو محاولـة الحاقـة بالتبعيـة للغـرب فى ظـل إدعـاء التحديـث ، او الإنسـحاب مـن حركـة المجتمـع ، لأنـه يسـير فى طريق ووفـق آفاق غـير غربية ، وهو ما يهـدد بتـآكل المواطنـة ذاتها.

ونتيجـة للإخـتراق الثقـافى لفضـاء التنشـئة الأسريـة ، اسـتبدلت قيـم المـرأة الموقـف والمبدأ والـدور بقيـم بالمـرأة الجسـد ، ليسـتوعبها الصغـار ويعملوا وفـق مقتضياتهـا. تأكيداً لذلـك أننا إذا تأملنـا تراثنـا الأخلاقـى والدينـى فسـوف نجـد أنـه أعـلى مـن شـأن المـرأة ، وخلـع عليهـا لباسـا من الأحـترام والتبجيـل. فالمـرأة التـى أوصى النبـى بها خيراً فى خطبة الوداع ، بإعتبار أن النسـاء شـقائق الرجـال، والمـرأة التـى حاربـت دفاعـاً عـن الأسـلام ودفاعـاً عـن النبـى "صـلى اللـه عليه وسـلم"، فى حينـما حمـى وطيـس الحـرب والنـزال. والمـرأة "أم سـلمة" التـى أشـارت عـلى النبـى "صـلى اللـه عليـه وسـلم" فى وقـت الأزمـة، وأخذ بمشـورتها هـى ذات المـرأة التى تختزلهـا الحضـارة الغربية إلى جسـد يتلـوى ويتعـرى ويسـجل عـلى أشرطـه ممغنطـة، وتفضـح خصوصيتـة عـبر العـالم كمقدمـة لإسـتنفار غرائـز البـشر وإبعادهـم عـن التعلـق بالمثـل. تسـتخدمها تكنولوجيـا الإعـلام والمعلومات الماضيـة والفعالـة فى هـذا الصـدد ، والتـى تلعب دورها فى تنشـئة الكبار والصغار على السـواء ، على

مرجعيـة الجسـد والغرائـز . فمـن الـضرورى أن يتلاقـى الجميـع عـلى سـاحة الجنـس القـادم مـن العولمـة ، المديـر المسـن المـترف مع سـكرتيرته الصغيرة وربما الفقيرة الحسـناء . والعاطـل الذى يعقد زواجـا عرفيـا غـير مـشروع ، والمغتصـب الـذى تختلـط لديـه نـوازع البلطجـة مـع الضغـط الوحشى للغريـزة ،فالجميـع يصـدر عـن جذر واحد. وبرغـم ذلك تدعى الحضـارة الغربية أنهـا المدافعة عن حقـوق المـرأة وحقـوق الإنسـان، ومـن الطبيعـى أن يؤثر ذلك على التنشـئة الاجتماعية والسياسـية للبـشر (٥٣). ذلـك أن المثـل والقيـم عـلى نقيض وتقابـل مع الغرائـز ، والمثل فى غالبهـا تتعلق بقيم الايثـار والتعاطـف مـع الآخـر ولإعـلاء مـن شـأن الجماعـة ، وفداء لهـا بالروح فى سـاعة الأزمـة . أما الغرائـز فتعـبر عـن تراجـع إلى سـاحة أنانية ، يتحقق الأشـباع فيهـا كلما كانت بعيدة عـن الجماعة، وأحيانـا فى غفلـة عـن الجماعـة. وإذا إسـتغرق الإنسـان فى إشـباعاتها ، فمـن المؤكـد أن ذلك سـوف يصرفـه عـن متابعـة أيـة أهـداف ذات طبيعـة مثاليـة، عامـة ووطنيـة ، ناهيـك عـن بـذل الجهـد والنفـس دفاعـاً عنها.

وفى تقييـم لـدور الأسرة فى التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية تذهـب إحـدى الدراسـات إلى أنـه برغـم أن التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية جـزء مـن التنشـئة الاجتماعيـة ، إلا أن هنـاك بعـض العوامـل التـى تقلـص نسـبيا دور الأسرة فى عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. مـن هـذه العوامـل ان كثـيراً مـن الأدوار والعلاقـات السياسـية لا تتـم إلا عنـد الكـبر ، وإن كانـت بعـض مبـادئ المشـاركة تتحقـق مـن خـلال التنشـئة عنـد الصغـر ، إضافـة إلى أن معظـم حالات المشـاركة الاجتماعيـة والسياسـية للفـرد ترتبـط بقضايـا سياسـية معـاصرة ، وترتيبـات حكوميـة محـددة وزعامـات وجماعـات سياسـية معينـة. هـذا بالإضافـة إلى ان الفـترة التـى يكـون فيها الفـرد فى أكثر حـالات وعيه ومشـاركته السياسـية يكـون فى الواقع بعيـدا كل البعد عن مرحلة الطفولـة التى تمتاز بالتأثـير القـوى لـلأسرة. وعـلى هـذا النحو قد يحدث تداخل بـين تأثير الأسرة فى التنشـئة الاجتماعية والسياسـية وبـين السـياق السـياسى لحيـاة الفـرد عند الكـبر ، إلى جانـب أن بنية الحيـاة الاجتماعية والسياسـية قـد تختلـف عـن مـا كان موجـوداً خـلال مرحلـة الطفولـة. بينـما يتمثـل العامـل الثانى

المحـدد لـدور الأسرة فى التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية فى ان الأسرة لا تهتـم كثـيراً بإعـداد أبنائهـا للحيـاة السياسـية مثـل إهتمامهـا بإعدادهـم لأدوار أخـرى. وذلـك يرجـع إلي أن المحيـط السـياسى لا يمثـل شـيئا مهـما وبـارزاً بالنسـبة لمعظم الأطفـال والصبيـان، وأن إعـداد الأبنـاء لآداء أدوار مهنية أسريـة يعتـبر أكـثر أهميـة وأولوية بالنسـبة لمعظم الأسر، مـن إعدادهم للحياة السياسـية. وفى هذا السـياق نجـد أن الأسر تبـذل جهـداً واضحـاً مـن أجـل تعويـد الأطفـال عـلى الاعتـماد عـلى النفـس والقيـام بـالأدوار المختلفـة وتهيئتهـم للـزواج والأبـوة والأمومـة وتربيتهم تربيـة دينية مناسـبة ، أما التعليـم السـياسى وتعليـم المواطنـة فـإن الأسرة لا توليـة إلا جهـدا ووقتـا ضئيـلا (٥٤) وفى الغالـب يتحقـق بصـورة غير مباشرة. بالإضافة إلى ذلك فإن الأسرة من خلال التنشـئة الاجتماعية والسياسـية قـد تغـرس فى الطفل القيم وأنماط السـلوك الاجتماعي والسـياسى والمشـاركة الاجتماعية والسياسـية فى أكـثر مسـتوياتها مثاليـة ، غـير أنـه حينـما يتعامـل فى الواقع إسـتناداً إلى هـذه القيم، فإنـه يواجه فى الحقيقـة بقيـم وسـلوكيات وأنمـاط مشـاركة لا تتسـق ومضامـين التنشـئة الاجتماعية والسياسـية التـى إسـتوعبها خـلال مرحلـة الطفولـة ، الأمـر الذى يؤسـس لديه صدمـة ثقة فى التفاعل السـياسى المحيـط بـه. ذلـك إلى جانـب أن الأسرة العربيـة بإسـتثناء الأسرة فى مجتمعـات الخليـج تتعـرض لظـروف إقتصاديـة صعبـة وضاغطـة . بحيـث تجعـل التفاعـل داخـل الأسرة ليـس مسـتقراً ، إن لم يكـن عدائيـا ، وفى أفضـل الأحـوال قـد لا يتيـح الفرصـة للأسرة التفـرغ للقيـام بالتنشـئة الاجتماعية بالمسـتوى الملائـم ، ناهيـك عن التنشـئة الاجتماعية والسياسـية ، هـذا بالإضافة إلى أن إرتفاع نسـبة الأميـة فى مجتمعاتنـا مـن شـأنه أن يعوق القيام بالتنشـئة الاجتماعية والسياسـية للأبنـاء بخاصة فيا يتعلـق بالجانـب المفاهيمـى أو ببعـض القضايـا ذات الطبيعة السياسـية.

وتشـكل المدرسـة المؤسسة الثانية والمكملة للأسرة فى عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية . ويتميز دور المدرسة فى هذا الصدد فى كونها تشكل المجتمع غير القرابى الذى يعيش فيه الطفل مع أقرانه الغرباء عنه ، والذى عليه أن يدير علاقاته ذات الطابع الاجتماعي السياسي معهم. وقد تنبه الفلاسفة

إلى الـدور الـذى تقوم به المدرسـة فى عملية التنشـئة الاجتماعية والسياسـية، حيـث ذهب افلاطون فى كتابـه "الجمهوريـة" إلى إعتبـار التعليـم واحـداً مـن أهـم أعمدة الدولـة الفاضلة . فهـذه الأخيرة لا تقـوم بغـير مواطنـين صالحـين ، ولا سـبيل إلى خلـق المواطـن الصالـح إلا مـن خلال نظـام تعليمى مميـز ، وتأكيـداً لأهميـة التعليـم فى التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية طالـب أفلاطـون الدولة بتولى مسـئولية الإشراف التـام عـلى التعليـم ، وعـدم تركـه فى أيـدى أفـراد وهيئـات خاصـة (٥٥). ومـن المؤكـد أن دور المدرسـة فى التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية يسـتكمل الـدور الذى قامـت به الأسرة ، حيـث نجدهـما يعمـلان معـاً عـلى تحقيـق النضـوج السـياسى والاجتماعـى للطفـل. وبإعتبـار أن المدرسـة إحـدى مؤسسـات الدولـة ، فـإن الطفـل يتعلـم فيها النظـام، كـما يتعلم حقوقـه فى مقابل حقـوق الآخريـن ووجباتـه نحـو المجتمـع ومـا يضـم مـن مواطنـين ، كـما يتعلـم الالتـزام بمعايـير المجتمـع وقواعـد الديموقراطيـة فيـه، وأدب الحـوار وإحترام المعلـم بإعتباره بديل لـلأب من ناحية وممثـل السـلطة مـن ناحيـة ثانيـة. فإحـترام المعلـم دليـل عـلى تقديـر الطفـل لـدور الأب وتبجيل المعلـم دليـل عـلى إحـترام سـيادة السـلطة والقانـون، وهـو مـا يشـكل جوهـر الوعـى الاجتماعي و السـياسى ، الـذى ينبغـى أن يكـون للتلاميـذ والطـلاب فى مختلـف المرحـل التعليميـة (٥٦).

وقـد أثبتـت البحـوث أن المدرسـة والكتـاب والمـدرس لهـم ثقلهـم وأهميتهـم القصـوى ، بإعتبارهـم مصـدراً لتكويـن المفاهيـم السياسـية للطفـل، مـن خـلال المقـررات الدراسـية والمكتبيـة والأنشـطة الطلابيـة. إضافـة إلى فكـرة الحكـم الـذاتى ومناقشـة الأحـداث والموضوعـات السياسـية ، فالمقـررات الدراسـية تتضمـن الاتجاهـات الأيديولوجيـة السـائدة فى المجتمـع، وتمثـل وجهـة نظـر الدولـة وسياسـاتها. وهـى تسـعى – أى المدرسـة - إلى ربـط الطفـل بوطنـه وجعلـه محـور تفكـيره ، مـن خـلال تعريفـه بوطنـة وجغرافيتـه وتاريخـة ودوره فى رفـع مشـعل الحضـارة. كـما تحتـوي المكتبـة المدرسـية عـلي الكتـب التـى تسـاعد الأطفـال عـلى الاسـتزاده بالمعرفـة لمسـايرة التطـور الحـادث فى الأوضـاع السياسـية العالميـة. وإرتباطـا بذلـك نجـد أن الطفـل يكتسـب بعـض جوانـب ثقافتـه الاجتماعيـة والسياسـية ، مـن خـلال الأنشـطة الطلابيـة

وبصفـة خاصـة الصحافـة المدرسـية، التـى تعتـبر ممارسـة حقيقيـة للديموقراطيـة ، وبنـاء شـخصية الطفـل والتعبـير عـن رأيـه والنقاش والجـدل والاقناع والنقد البنـاء. بالإضافة إلى ذلـك فإننا نجد أن المدرسـة تشـكل الإطـار الذى يعد الطفل للحيـاة والتفاعل فى المجتمع ويوجهة نحـو الحياة العملية. فالمدرسـة تعلـم الأطفـال الحريـة والديموقراطيـة ، كـما تعلمهـم أن ذلـك يتطلب مسـتويات معنية مـن السـلوك والشـعور بالمسـئولية الشـخصية ، إسـتعداداً للتعـاون من أجـل الوصـول إلى الأهداف العامـة. كـما تجسـد المدرسـة علاقـات القـوى فى المجتمـع وتعـبر مـن خـلال مـا تقـوم بتدريسـه للأطفـال عـلى قاعـدة تكوين قناعـات بقبول هـذه القيم والعلاقـات الاجتماعية. فالمدرسـة لا تعيد إنتـاج البنـى الطبقيـة للمجتمـع فحسـب ، بـل هـى تعمـل فى معظـم الأحـوال عـلى إعـادة إنتـاج البنـى الفكريـة والمؤسسـية كذلـك. لذلـك مـن الصعب إنـكار دور المدرسـة فى التنشـئة الاجتماعية والسياسـية. فهـى مؤسسـة إجتماعيـة تربويـة غـير محايـدة فى علاقتهـا بالأيديولوجيـا السـائدة فى مجتمـع معـين ، ومـن ثـم فهـى تسـاعد عـلى إسـتمرارية تراتبيـة وتعيـد أنتاجهـا. وهـو مـا يعنـى أن المقـررات الدراسـية تتضمـن الاتجاهـات الأيديولوجيـة فى المجتمـع وتمثـل وجهـة نظـر الدولـة وسياسـتها فى ذات الوقـت (٥٧).

وتقـوم المدرسـة بعمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية مـن خـلال ثلاثـة أبعـاد أساسـية. ويتمثـل البعـد الأول فى المنـاخ السـائد فى الحيـاة المدرسـية والتفاعـل السـائدة فيهـا. هـل التفاعـل الحـادث مـن النمـط الأوتوقراطـى الفـردى أو الدكتاتورى ، أو التسـلطى والاسـتبدادى، وهو النمط الـذى يسـود غالبيـة مجتمعـات العـالم الثالـث ، وينتـج عنـه الخضوع والطاعـة وقلة فـرص الإبداع. ويعـد النمـط "التسـيبى" أو الفوضـوي هـو النمـط الثـانى للتفاعـل. وهـو نمـط يدفـع إلى الأهمال والتقليل من أهمية العلم والوقت. بينما يعتبر النمط الديموقراطى أو المشـارك هو النمط الثالث ، وهو أفضل أنماط التفاعل داخل الحياة المدرسـية ، لأن الطالب يشـعر فى إطاره بأهميته فى المدرسـة مـما يشـعره بالمسـئولية. ويتمثـل البعـد الثـانى فى دور المقـررات الدراسـية فى التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. فـإلى جانـب أن الطالـب يحصـل عـلى المعـارف مـن خـلال المقـررات الدراسـية ، فإنهـا

تلعـب دوراً فى تنشـئته سياسـيا كذلـك . إذ أنـه مع تطور المراحل الدراسـية تتطـور المفاهيم والقيم والأحداث السياسـية فى تلك المقررات ، لتسـاير بعضها البعض فى نسـق تعليمى متكامل ، ولتواكب النمـو الفعـلى والمعرفى للطالب. وتسـتند تنشـئة الطلاب سياسـيا عـلى مقررات معينـة دون أخرى. فمثـلاً نجـد أن مقـررات التربيـة الوطنيـة أو القوميـة والتاريـخ تكـون فى الغالـب الأكـثر ثـراء مـن غيرهـا فيـما يتعلـق بغـرس القيـم والمعتقـدات الاجتماعيـة والسياسـية . ويمكـن أن نضيـف أيضـا مقـررات اللغـة العربيـة والتربيـة الدينيـة ، حيـث تحتـوى هـذه المقـررات عـلى مضامين تسـتهدف خلـق مواطـن صالـح يهتـم بقضايـا وطنـه . وتتضمـن مـا يسـاعد عـلى الترويـج لأيديولوجيـا معينة أو مذهـب معـين ويخلـع الشرعيـة عـلى النظـام السياسـيى ، وقـد تجمـع المقـررات بـين النوعـين (٥٨). بالإضافـة إلى ذلـك تلعـب المقـررات الدراسـية فى المدرسـة الـدور الأسـاسى فى عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية وتخلـق القيـم التـى سـوف تحملهـا الأجيـال الصاعـدة. ومـن الطبيعـى أن تؤثـر تلـك القيـم فى سـلوكيات ومعتقـدات تلـك الأجيـال. مثال على ذلـك أجرى عدد مـن الباحثين دراسـات حـول ظاهـرة العنـف ضـد السـود فى جنـوب أفريقيـا ، وأظهرت هـذه الدراسـات أن ذلك يعـود لمـا تتضمنـه المناهـج الدراسـية من كراهية للسـود وإبـراز الفظائـع التى إرتكبها السـود بحق البيـض ، وأن البيـض هـم أفضـل من السـود (٥٩).

إلى جانـب ذلـك يلعـب التفاعـل الحـادث فى مجتمـع المدرسـة دوراً اساسـياً فى عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. حيـث تسـاعد بعـض الممارسـات الطقوسـية كتحيـة العلـم، أو ترديـد النشـيد الوطنـى ، والاحتفـالات بالأعيـاد الوطنيـة والقوميـة ، وتعليـق الصـور والرمـوز الوطنيـة عـلى بـث القيـم الاجتماعيـة والسياسـية التـى نسـتهدف غرسـها فى نفـوس النشـئ ، كـما تكـرس الطابـع الجماعـى لحـب الوطـن والانتـماء إليـه ، لكونهـا تمـارس بطريقـة جماعيـة فى الأغلـب الأعـم (٦٠). إضافـة إلى ذلـك يكتسـب الطفـل الثقافـة الاجتماعيـة والسياسـية كذلـك مـن خـلال الأنشـطة الطلابيـة وبصفـة خاصـة الصحافـة المدرسـية التـى تعتـبر ممارسـة حقيقيـة للديموقراطيـة ، لكونهـا تسـاعد في بنـاء شـخصية الطفـل كـما تدربـه عـلى التعبـير

عـن رأيـه والنقـاش والجـدل والاقناع والنقـد البناء. وفى هذا السـياق تقوم المدرسـة بتعليم الأطفال قيـم الحريـة والديموقراطيـة، كـما تعلمهم أن ذلك يتطلب مسـتويات معينة من السـلوك والشـعور بالمسـئولية الشـخصية إسـتعداداً للتعـاون مـن أجـل الوصـول إلى الأهـداف العامـة. كـما تجسـد المدرسـة التفاعـل المتعلـق بعلاقـات القـوى فى المجتمـع وتعبر من خـلال ما تقوم بتدريسـه للأطفال عـلى تكويـن قناعـات بقبـول هـذه القيـم والعلاقـات الاجتماعيـة. وعـلى ذلـك نجـد أن المدرسـة تعيـد إنتـاج البنـى الفكريـة والمؤسسـية، ونتيجـة لذلـك فإنـه مـن الصعـب أن ننكـر دور المدرسـة وأهدافها فى مجال التربية السياسـية. وإذا تأملنا أوضاع المدرسـة فى التنشـئة الاجتماعية والسياسـية فسـوف نجدهـا مؤسسـة غير محايـدة أيديولوجيا ، إذ تتضمن المقررات الدراسـية عـادة الإتجاهات الأيديولوجيـة السـائدة فى المجتمـع والتـى تمثـل وجهـة نظـر الدولـة وسياسـتها. وعـلى هـذا النحـو نجـد أن المدرسـة تسـتكمل النمـو الاجتماعـى والسـياسى لـلأسرة. الأمـر الـذى يفـترض أن تعمـل السياسـات التربويـة عـلى مراعـاه هذا البعد فى تنشـئة الطفل حتى لا يبرز تناقض فى آداء مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ، بحيـث تعمـل المدرسـة وسـائر مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية الأخـرى عـلى تعميـق إلتـزام الطفـل بالثقافـة الاجتماعيـة والسياسـية والأيديولوجيـة للمجتمـع والدولة.

ومـن الطبيعـى أن تسـتهدف التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية أنجـاز عـدة وظائـف أساسـية وتتمثـل الوظيفـة الأولى فى تأكيـد الانتـماء السـياسى للطفـل لمجتمعـه ودولتـه، وذلـك يتحقـق مـن خـلال عمليـة التنشـئة الآجتماعيـة والسياسـية. وإذا كانـت التنشـئة الاجتماعيـة تسـعى لغـرس البعـد الاجتماعـى إلى جانـب البعـد البيلوجـى فى بنـاء الكائـن الفـرد، فيتحـول مـن كائـن بيلوجـى إلى كائـن إجتماعـى، يسـتطيع أن يشـارك مـع غـيرة مـن البـشر فى التفاعـل الاجتماعـى الحـادث فى مختلـف المجـالات الاجتماعيـة . فـإن التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية تعمـل عـلى غـرس منظومـة القيـم الاجتماعيـة والسياسـية فى الكائـن الاجتماعـى ، حتـى يسـتطيع إسـتناداً إلى هـذه القيـم المشـاركة فى التفاعـل السـياسى الحـادث فى مجتمعـه. ولذلـك فإنـه إذا ذهـب البعـض إلى التأكيـد عـلى أن التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية تتـلازم مـع التنشـئة

الاجتماعيـة منـذ مرحلـة الطفولـة فى الأسرة . فإننـا تعتقـد أن التنشـئة الاجتماعيـة تمهـد لقيـام التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ، وهـى حالـة سـابقة عليها ، بإعتبـار أن منظومة القيـم الاجتماعية والسياسـية والتفاعـل السـياسى المرتبطـة بهـا يـأتى فى مرحلة الطفولـة المتأخرة. حينما يبـدأ الفرد فى إدراك طبيعـة التفاعـل السـياسى ، بـل وتتطلـب الظـروف مشـاركتة فيه.

مـن الوظائـف التـى تؤديهـا التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية أيضـا أنهـا تسـتهدف تحقيـق الاسـتقرار الاجتماعـى، وذلـك لأن القيـم الاجتماعيـة والسياسـية تتصـل بشـخصية الفـرد من خلال بعدين رئيسـيين. البعد الأول أن منظوة القيم الاجتماعية والسياسـية تتغلغل إلى داخل الشـخصية مـن خـلال عملية التنشـئة الاجتماعية والسياسـية ، لتشـكل الضمير الداخلى للإنسـان. وهو الضمير الاجتماعـي والسـياسى الـذى يقـود أفعالـه ويوجه سـلوكياته فى المجـال الاجتماعي والسـياسى ، وهو مـا يعنـى أن الإنسـان المواطن مدفـوع إلى نمط معين مـن التفاعل الاجتماعي والسـياسى من داخله. بيـد أن السـياق الاجتماعـى يشـهد وجـود ذات منظومـة القيم الاجتماعيـة والسياسـية ، التى تتولى ضبـط التفاعـل الاجتماعـى الحـادث فى مختلف المواقـف الاجتماعية ، من خلال ما يمكن أن يسـمى بصيغـة التوقعـات المتبادلـة، ألتـى تحقـق إسـتقرار التفاعل فى الموقـف الاجتماعي والسـياسى. وهو مـا يعنـى أن إنهيـار صيغـة التوقعـات المتبادلـة مـن شـانه أن ينـشر حالـة مـن الفـوضى فى التفاعل الاجتماعـي والسـياسى وربمـا فى الحياة الاجتماعية والسياسـية.

وتتصـل الوظيفـة الثالثـة بـأن التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية مطلوبـة فى عـالم الهويـات السـائلة. ففـى العـصر الـذى نعيشـه حيـث تقلـص الزمـان والمـكان ، وتداخلـت مجتمعـات العـالم فى بعضهـا البعـض ، فـإن الحفـاظ عـلى الهويـة القوميـة متماسـكة اصبـح مطلبـا أساسـيا ، للحفـاظ عـلى المجتمـع والدولـة عـلى السـواء. فنظـراً لأن آليـات للتنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ليسـت تحـت السـيطرة الكاملـة للدولـة ، فـإن هـذه الآليـات قـد تبـث قيـما تعمـل عـلى إضعـاف منظومـات القيـم الاجتماعيـة والسياسـية القوميـة ، ومن ثم قـد تتراجع الهوية القوميـة إلى هويات

محليـة أضيـق كالهويـات الإثنيـة ، أو تنفلـت إلى هويـة عالمية غير محددة بسـبب إنفـلات روابطها مـع الهويـة القوميـة ، بحيـث يمكـن أن يصبح مثـل هذا التفاعل مدخـلاً لعدم الاسـتقرار الاجتماعى والسـياسى. إرتباطـا بذلـك فإنـه من الضرورى بالنسـبة للدولة القومية أن تطور مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية، بحيـث تعمـل هـذه المؤسسـات بإتجـاه تأسـيس الهويـة القوميـة. فإذا لم تفعـل ذلـك فإنهـا سـوف تفتـح البـاب واسـعا أمـام تدفـق منظومـات القيـم مـن خـلال آليـات أو مؤسسـات مـن خـارج المجتمـع، وهـو مـا قد يـؤدى إلى إضعـاف الإنتـماء وتشـويه الهويـة وتفكيك روابـط الإنسـان الوطنـى بمجتمعه.

فـإذا تأملنـا واقع التنشـئة الاجتماعية والسياسـية فى مؤسسـاتنا التعليمية فسـوف نجد أنها تعـانى مـن مظاهـر ضعف وتشـوه عديدة. ويتمثـل المظهـر الأول فى غياب التفاعل عن المؤسسـات التعليميـة، وهـو التفاعـل الـذى يتضمـن الممارسـات التى تلعـب دوراً هامـا فى التنشـئة الاجتماعية والسياسـية للتلاميـذ أو الطـلاب. فقـد أختزلـت العملية التعليميـة إلى مجموعة مـن "الحصص" أو "المحـاضرات" التـى تلقـى عـلى الطلاب لتعليمهـم مضامين المقررات الدراسـية وغابت عن المدرسـة التفاعـلات المتعلقـة بالأنشـطة الطلابيـة المختلفة ، والتى يسـودها تفاعل تلقائى يعمل على تشـكيل شـخصية التلاميـذ كمواطنـين قادريـن عـلى المشـاركة المسـئولة. وبـدلا مـن ذلـك إختزلـت هـذه الإنشـطة ، بـل وقـد حـدث عبـث وحـذف فى مضامـين بعـض المقـررات الدراسـية للطـلاب فى بعض المجتمعـات الإسـلامية ، بخاصـة مقـررات الدين والتاريخ والتربيـة الوطنية أو القوميـة ، بحيث أدى ذلـك إلى تشـوية أو تغييـب دور المدرسـة فى التنشـئة الاجتماعية والسياسـية السـليمة والمتكاملة.

ويتمثـل المظهـر الثـانى لتشـوه التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية فى نظمنـا التعليميـة فى إتسـاع مكـون التعليـم باللغـة الأجنبيـة فى مؤسسـاتنا التعليميـة. حتـى أن هناك شرائـح كاملة من الطـلاب تجيـد التحديـث باللغـة الأجنبيـة أكثر مـن إجادته اللغـة العربيـة . بحيث تراجعـت اللغة العربيـة لتشـغل مرتبـة إدنى مـن مسـتوى اللغـات الأجنبية ، بـل وأصبحت لغة الشرائـح الاجتماعية الأدنى والتعليـم الأدنى ، والمكانـة الاجتماعيـة الأدنى، الأمـر الـذى أدى إلى عـدم الإهتـمام بإجادتهـا

لأنها لغـة الفئـات الأدنى مـن كل جانـب أو إتجـاه . وإذا قلنـا أن اللغـة هـى التـى تنظـم التفاعـل الاجتماعـى ، وهـى التـى تعـبر عـن روحة ، فإن عـدم إجادة اللغة يعنـى عدم إجـادة الدين ، وعدم إدراك الـتراث . بـل والانفصـال عـن اللغـة التـى يرتضيهـا المجتمع ، ومـن ثم يحـدث الانفصال وفك الارتبـاط بـكل مـا هـو وطنى أو قومـى ، ومن المحتمل أن يكـون ذلك مدخلاً لتـآكل وإنهيار الهوية.

يضـاف إلى ذلـك مظهـر ثالـث يتصـل بإتسـاع مسـاحة مؤسسـات التعليـم الأجنبـى فى مجتمعاتنـا العربيـة والإسـلامية، حيـث أصبحـت تقـترب فى عددهـا مـن التعليـم الحكومـى ذاتـه. ومـن المعتقـد أن التعليـم فيهـا سـوف يكـون اكـثر مضـاءاً وفاعليـة لثلاثـة إعتبـارات. الأول أن هذه المؤسسـات التعليميـة بخاصـة الجامعـات الأجنبيـة تشـكل مجتمعـا مغلقـا وخاصا ، يـدرب الطلاب فيـه عـلى نوعيـة معينـة مـن الحياة الإجتماعيـة والسياسـية، تتحقق وفـق منظومات قيـم خارجية وليسـت قوميـة. الأمـر الـذى يعنـى تطويـر هوية لهـؤلاء الطلاب ليسـت متطابقـة تماماً مـع الهوية القوميـة ، بمـا يؤسـس لـدى البعـض حالـة يمكـن أن نسـميها بالهويـة الناقصـة أو غـير المكتملـة. والثـانى أن المكـون الوطنـى أو القومـى يكون محدوداً فى هـذه العملية التعليميـة ، وهو ما ينعكس عـلى التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية المتضمنـة فيهـا، حيـث يتولـد لدى الطـلاب إحسـاس بتمجيد الأجنبـى ، أو عـلى الأقـل القابليـة عـلى التواصـل معـه والخضـوع له ، وهو مـا يعنى التأثـير بقدر ما عـلى الإنتـماء الوطنـى لهـؤلاء الطـلاب. ويعـد الإعتبار الثالـث هو الأخطـر ويتمثـل فى أن الشريحة الطلابيـة التـى يمكـن تنشـئتها فى هـذه المؤسسـات التعليميـة، بخاصـة الجامعـات يلتحـق بهـا دائما أبنـاء الطبقـة العليـا ، وكذلـك الشرائـح الطبقيـة التـى تقع أعلى الطبقة الوسـطي . وهـى فى الغالب الشريحـة التى سـوف تشـكل نخبة المسـتقبل فى مختلف المجـالات الاقتصادية والسياسـية والثقافية والاجتماعيـة. بحيـث نجـد أن هـذه النخبـة حينـما تتـولى مقاليـد الأمـور ، فإنهـا سـوف تعمل على دفـع مجتمعاتهـا بعيـداً عـن هويتهـا وجذورهـا بإتجـاه الالتحـاق بالغـرب وربما السـعى لإكتسـاب هويته.

وتشـكل تكنولوجيـا الاعـلام والمعلومـات الآليـة الثالثـة التـى تتـولى تنشـئة الطفـل سياسـيا. وتكمـن قـوة هـذه الآليـة فى أن قيـم التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية تتسـلل

إلى نفـوس النشـئ مغلفـة بإطـار ترفيهـى وعاطفـى ، الأمـر الـذى يجعلهـا تتـسرب بسـهولة إلى شـخصيات الأطفـال. بالإضافـة إلى ذلـك فإن الآلـة الإعلامية هى آلة متعددة الأوجـه تحيط بالطفل مـن كل إتجـاه ، فـإلى جانـب أجهـزة الإعـلام المحليـة هنـاك أجهـزة الإعلام العالميـة والمتنوعـة. ذلك بالإضافـة إلى الصحافـة والأذاعـة وتكنولوجيـا المعلومـات كأجهـزة الحاسـبات وشـبكات المعلومـات الدوليـة. بحيـث نجـد أن الآلـة الإعلامية تشـكل فاعلاً قويا يتـولى صياغة المرجعيـة القيمية للطفل ، بـل وتفـرض عليـه ضغوطـا ناعمـة تجعلـه يقبـل بمـا تبثه مـن أفـكار وتوجهـات ومنظومـات قيم. ونحـن إذا تأملنـا مختلـف المواقـف بشـأن دور الإعـلام فى التنشـئة الاجتماعية والسياسـية، فسـوف نجـد أن بعـض وجهـات النظـر تذهـب إلى التأكيـد عـلى أن الوسـائل الإعلاميـة التي تضـم الصحف والمجـلات والإذاعـة والتلفزيـون تؤدى دوراً هاما ونشـطا فى عملية التنشـئة الاجتماعية والسياسـية ، لكونهـا تـزود الفـرد بالمعلومـات السياسـية ، كما تشـارك فى تكوين قيمـة السياسـية (٦١). وإرتباطا بذلـك يؤكـد علـماء الاجتماع والسوسـيولوجيا السياسـية على أن نجـاح عملية التحديـث والتحديث الاجتماعـي والسـياسى يعتمـد فى قـدر كبـير من تحققه على شـبكة إتصـال إعلامى حديثـة ومتطورة . وأنـه لا وجـود لمجتمـع حديـث يعمـل بفاعلية يحافظ بها على إسـتقرار أنسـاقة وتطويرها فى الآن ذاتـه ، دون وجـود نسـق متطـور مـن وسـائل الإعـلام الوطنيـة ، التـى تلعـب دورهـا فى نـشر ثقافة التعـدد والإختـلاف وقيـم التسـامح والديموقراطية (٦٢).

ويمكـن القـول بتبايـن الآراء حـول الـدور الـذى يمكـن أن يلعبـه الإعـلام وتكنولوجيـا المعلومـات بالنسـبة لتحديـث المجتمـع ، أو إنجـاز التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية ذات الآثـار الإيجابيـة. وفى هـذا الإطـار نجـد أن البعـض يؤكـد عـلى أن الإعـلام يدعـم الاحسـاس بالمواطنـة والانتـماء، والرغبـة فى بنـاء الوطـن والاسـهام فى تشـكيل الهويـة الوطنيـة ومحاولـة خلـق وعـى عـام لـدى الجماهـير بأهميـة الاكتفـاء الـذاتى والاعتـماد عـلى النفـس. كـما يعمـل بإتجـاه الحفـاظ عـلى القيـم الذاتيـة الوطنيـة ، وتعزيزهـا والحيلولـة دون التعـرض لفاعليـة الغـزو الثقـافى وآثـاره السـلبية ، كفـرض إتجاهـات إجتماعيـة وسياسـية ونمـاذج سـلوكية قـد تعـوق

التنميـة ، وتؤكـد عـلى إسـتمرار أوضـاع الظلـم الإجتماعـى والتبعيـة ، وأن كان ذلـك لا يمنـع مـن الإنفتـاح – مـن خـلال الإعـلام – عـلى الثقافات الأخـرى (٦٣). بيد أن هذا الانفتـاح ينبغى أن يكون فى حـدود تحديـث المضامـين الإعلاميـة وتزويدهـا بالمسـتجدات الحديثـة على الصعيـد العالمى دون الإخـلال بالهويـة القوميـة. وإذا كانـت الثقافـات المخترقـة مـن خلال الإعـلام تقدم مضامـين غريبة عـلى مجتمعاتنـا أو تعمـل عـلى تقويـض إسـتقرارها . وإذا كان مـن الصعـب الوقـوف فى مواجهـة تدفـق منظومـات القيـم الغربيـة عـلى سـاحة ثقافتنـا بسـبب الفضـاءات المفتوحة التـى تيسر هذا التدفـق . فإنـه مـن الممكـن أن يعمـل الإعـلام الوطنى عـلى الترويج لمعـانى ومنظومات قيـم موازية تدعـم هويـة المجتمـع وتربطـه بتراثـه، وتسـاعد عـلى تدريـب المواطـن عـلى المشـاركة الاجتماعية والسياسـية الفعالة ، التى تعمق قيم المواطنة وتسـاعد على تأكيد الاسـتقرار الاجتماعى والسـياسى.

بيـد أن هنـاك رأيـا آخـر يؤكـد عـلى الـدور السـلبى الـذى يمكـن أن يلعبـه الإعـلام سـواء بالنسـبة لعمليـة التحديـث أو لعمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. يذهـب هـذا الـرأى إلى القـول بأنـه نظـراً لأن الإعـلام يقـع تحـت سـيطرة السـلطة السياسـية ويعـبر عـن قيمهـا وتوجهاتها ويغيـب عنـه النقـد والتحليـل والنقـاش الحـر لمختلـف الآراء والتوجهـات. فـإن ذلـك مـن شـأنه أن يـؤدى إلى تعزيـز الشـخصية التسـلطية فى الإنسـان العـربى وإلى تأكيـد نمـط الثقافـة الاجتماعيـة والسياسـية التـى تفـرض الخضـوع للسـلطة المتسـلطة (٦٤). بالإضافـة إلى ذلـك فـإن الإعـلام قـد يلعـب دوراً سـلبيا، حينـما يـترك مسـاحة ولـو ضيقـة لبعض المسلسـلات الأجنبيـة والمعدة لتناسـب أذواق وقيـم المجتمعـات الغربيـة ، حيـث يبـث إعلامنـا هـذه القيـم فى مجتمعاتنـا الشرقيـة فتبدو غريبـة أو تشـعر المشـاهد لدينـا بإحبـاط مـن نـوع خـاص(٦٥). بـل إننـا نجـد أن الإعـلام الغـربى يحـاول أحيانـا أن يـضرب منظوماتنـا القيميـة ومقدسـاتنا فى الصميـم ، كما يحدث حينما يشـوهون رموزنـا الثقافيـة والدينيـة والسياسـية لنصبـح أمـة بـلا رمـوز ، ومـن ثـم يؤخـرون إنبعاثنـا أو طرقنا لآفـاق التحديـث (٦٦).

بالإضافــة إلى ذلــك يؤكــد بعــض المفكريــن عــلى أن الإعــلام مــن الممكــن أن يلعــب

دوراً محوريـا فى التأثـير عـلى مواقـف الأفـراد وتوجهاتهـم ومواقفهـم الاجتماعيـة والسياسـية ، وفى التأثـير عـلى أذواقهـم ومجمل نمـط حياتهم. ونظـراً لأهمية الإعلام هذه تسـعى الأنظمة السياسـية للسـيطرة عليـه وتوجيههـه لخدمتهـا ، موظفـة المتخصصـين فى مجـالات الإعـلام فى هـذا الصـدد، حتـى تحقـق النتيجـة المرجـوة والتـى تتمثـل فى الهيمنة عـلى أفكار النـاس وعقولهـم (٦٧). ولذلك أسسـت النظـم السياسـية المختلفـة أسـاليب رقابيـة متنوعـة ، حتى تسـتطيع الدولة السـيطرة على جهـاز الإعـلام بمـا يؤكـد سـيطرة هـذه النظـم وهيمنتها عـلى المجتمـع. وفى هـذا الإطار فإننـا نؤكد مـع البعـض الـذى يـرى فى الإعـلام جهـاز يخاطـب عقولنـا، ويحـاول جاهـدا تشـكيل نفسـية الفـرد والجماعـة معـا صـوب هـدف محـدد سـلفا. وهـو الأمـر الـذى يتطلـب إمتـلاك الإعـلام للمرجعية الأخلاقية والسياسـية ، التى على أساسـها يتصور التفاعل السـياسى والاجتماعى الذى ينتوى تحقيقة ، وأيضـا توفـير الحراسـة لترسـيخ القيـم الأخلاقيـة التـى تيـسر ذلـك. وفى هـذا الإطـار فإننـا نجد أن دور الرقيـب ليـس عبثيـا ولا مجانيـا بقـدر ما يمثل ذلـك الحارس الأمـين للمنظومـة الأخلاقية. وهنا لا بـد أن نفـرق بـين المنظومـة القيميـة والأخلاقيـة التـى يريـد النظام السـياسى غرسـها فى المواطن ، وبـين المنظومـة القيميـة والأخلاقيـة الملائمـة لتطـور المجتمـع. وفى هذه الحالـة الأخيرة فـإن الرقابة قـد تلعـب دوراً إيجابيـا، بـأن تسـاعد عـلى أن يلعـب الإعـلام دوره فى دفـع المجتمـع عـلى طريـق الديموقراطيـة والتحديث.

وفى هـذا الإطـار فإننـا نلاحـظ فى بعـض المجتمعـات المتخلفـة أن الأنظمـة السياسـية المتسـلطة تسـعى لأن تكـون كل وسـائل الإعـلام تحـت سـيطرتها ، أى تحـت سـيطرة السـلطات العامـة ، ومعبئـة فى خدمـة أيديولوجيـة النظـام السـياسى. وفى مثـل هـذه المجتمعـات نجـد أن الرقابـة أو الرقيـب يمـارس سـلطة مطلقـة فى تحديـد المسـموح بـه بحجـة الحفـاظ عـلى إسـتمرار المجتمـع. وفى حقيقـة الأمـر ليـس الهـدف الدفـاع عن قيـم المجتمع وعقائـده ، بل حفاظ السـلطة الحاكمـة عـلى جوانـب معينـة مـن ثقافـة المجتمـع ، تلـك التـى تسـتمد منهـا مشروعيتهـا ، ومـن ثـم مواجهـة ثقافـات تتعـارض مـع مصالحهـا أو تعمـل عـلى تعريـة حقيقتهـا. وفى هـذا الصـدد

فإننا نجد أن الأنظمة السياسية تغفل أن الرقابة المانعة أو السلبية وإن كانت تساعد على الهيمنة مرحليا إلا أنها تكون مهددة لسلطتها. كما تعمل على عدم وإستقرار النسق الاجتماعى والسياسى معا على المستوى البعيد، خاصة بعد إنتشار وسائط الاتصالات فوق الدولة ، تلك التى لا تخضع لضبط معايير الدولة القومية (٦٨). ويوضح هذه الحالة بتطرف أحد الباحثين المغاربة، من خلال تأكيده على إرتباط الإعلام السمعى البصرى بالمغرب بجهاز وزارة الداخلية فى كل مستوياته التسييرية والتوجيهية ، بل وحتى التدبير المباشر. حيث يكون المسئول رجل سلطة قبل أن يكون إعلاميا أو صحفيا ، وهى فترة إمتازت بهيمنة أمنية واضحة لخطاب أمنى إكراهى متخلف ، جعل من جهاز التلفاز ملحقة إدارية بالوزارة المذكورة (٦٩).

وبرغم حدوث قدر من الإنفتاح الإعلامى خاصة مع بداية التسعينيات، فإن هذه الهيمنة الرقابية ما تزال قائمة ، وذلك يرجع إلى أن كل نسق سياسى أو أجتماعى أو ثقافى يحتاج إلى آليات للضبط والرقابة تمكنة من الاستمرار والحفاظ على إستقراره وتوازنه. غير أن هذه المسلمة لا يجب أن توحى لنا بأن كل تغيير أو تحديث هو بالضرورة مهدد لإستقرار النسق، فقد تكون المعادلة معكوسة ، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بمؤسسة ذات فعالية وحساسية كبرى كالمؤسسة الإعلامية. فالتسليم بضرورة الرقابة لا يعنى ممارستها بشكل تقليدى ومتخلف ، وذلك يرجع إلى قاعدة أن كل دفاع عن النظام القائم فى مواجهة التغيير هو بالتأكيد دفاع عن مصالح شخصية، ومنافع ذاتيه لا علاقة لها بمصلحة المجتمع وإمكانيات تحديثه وتطويره. ففى ظل التطور الهائل فى مجال الاتصال والتواصل ، لم يعد بإمكان الحكام توجيه سلوك ونمط تفكير الجماهير ، وذلك لأن الإعلام الخارجى يعمل على إختراق الفضاء القومى بمساحة واسعة بحيث أصبح العالم يشهد تفاعلاً غير متوازن يتحرر فى إطاره الإعلام العالمى من كل قيد وفى ذات الوقت يفرض نفسه على الإعلام الوطنى أو القومى. الأمر الذى يفترض معه أن تحرير الإعلام القومى من سيطرة مراكز القرار والهيمنة سواء على المستوى القومى أو العالمى أصبح ضرورة حيوية ملحة. إذ لا

يكفـى تأسـيس وحـدات إعلاميـة أخـرى تعيـد إنتـاج نفـس الثقافـة المهيمنـة والخطـاب السـائد، بـل المطلـوب نـشر قيـم الحريـة والتضامـن والتسـامح والديموقراطيـة . وتربيـة الأجيـال الجديـدة عـلى قبـول الاختـلاف والقـدرة عـلى الاقنـاع وإمتـلاك وعى كبـير بالذات والمحيـط معا. ذلـك يعنى أن المهمـة الحقيقيـة للرقابـة الإعلاميـة تتحـدد فى مسـألتين. الأولى أن تعـى أن دورهـا ليـس كبـح جـماح التطـور المجتمعـى بقـدر مـا يتمثل فى دعمـه بجرعات كافية مـن قيم التنشـئة الديموقراطية الحديثـة . التـى تمكنـة مـن بلـورة هويتـه ومـن ثـم حمايتـه مـن أى إنـزلاق غـير محمـود محتمل ، وهـو مـا يتطلـب بالـضرورة تأهيـل المـوارد البشريـة التـى تقـوم بوظيفـة الرقابـة، وتوسـيع هامش الحريـة امامهـا ، وحثهـا عـلى الخلـق والإبتكار. وكذلـك تحرير الجهـاز الإعلامى مـن المنطق الأمنى الضيـق ، وأيضـا مـن الإخـتراق الـدولى. أى العمـل عـلى تأسـيس إعلام جـاد فاعل قادر عـلى تحقيق التنميـة والتحديـث والانتقـال نحـو الديموقراطيـة، إضافـة إلى الإعلام المرسـخ للمواطنـة (٧٠).

ويعـد المجتمـع المـدنى أحـد الآليـات أو الفواعـل التـى تلعـب دوراً أساسـيا فى التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية، وذلـك يرجـع إلى أن مجتمعـات الجنـوب تعانى عموما من ضعف المشـاركة الاجتماعية والسياسـية والشـعبية ، وإتسـاع حجم الأغلبيـة الصامته. إضافة إلى تـدنى الوعى الحداثى ، بحيـث تشـكل هـذه الظـروف قيـوداً عـلى التطـور الديموقراطـى وبناء المجتمـع المـدنى. وإرتباطا بذلـك مـن الـضرورى بلـورة وعـى سياسى حديـث ، يؤسـس لـدى أفـراد المجتمـع قناعـة كاملـة بـأن الديموقراطيـة ينبغـى أن تشـكل مرجعيـة النظـام السـياسى الأكـثر ملاءمـة لحيـاة الإنسـان فى الظـروف المعـاصرة. وفى هـذا الإطـار فإنـه مـن المفـترض أن يعمـل نشـطاء المجتمع المـدنى وحقوق الإنسـان عـلى تكثيـف دورهـم التوعوى الهادف نحو تنشـئة اجتماعية وسياسـية حديثـة ، أى تنمية شـخصية الفـرد بإعتبـاره مواطـن ديموقراطـى يشـارك فى مجمـل العمليـات الاجتماعية والسياسـية، والاجتماعيـة، وتترسـخ فى وعيـه رؤيـة حداثيـة لطبيعة النظـام السـياسى بإعتباره معـبراً عن حاجات المجتمـع وأهدافـه (٧١).

لذلــك تزايــد الإهتــمام بالمجتمــع المــدنى الــذى يشــير إلى الطبيعــة المدنيــة ذات

البنـاء المؤسـسى والتعاقـدى ، التـى تميـز الدولـة والمجتمـع، وبذلـك يكـون حضـور دولـة الحـق والقانـون تعبـيراً عـن مـدى نضـج وتبلـور معنـى المجتمـع المـدنى ، وهـو المعنـى الـذى يعـبر عـن مجتمـع يقـوم عـلى الديموقراطيـة والتعددية السياسـية وحقوق الإنسـان وتداول السـلطة وسـيادة الشـعب. وإرتباطـا بذلـك يشـير المجتمع المـدنى بالمفهوم الخـاص إلى مجمل المؤسسـات الإقتصادية والاجتماعيـة والسياسـية والثقافيـة ، التـى تتصـف بكونهـا غـير حكوميـة وغـير إرثيـة ولا تهدف إلى الربـح ، وتقـوم عضويتهـا مسـتندة إلى الطوعيـة أو الإراديـة (٧٢). ويضم المجتمع المـدنى عدة أبنية تقـترب أو تبتعـد مـن حيـث تعبيرهـا عـن روحـة، وتعد المنظـمات غـير الحكومية المكـون الأول فى بنـاء المجتمـع المـدنى ، وهـى تعـبر عـن روحـة بإمتيـاز، لكونهـا لا تميـز بـين الأفـراد فى الخدمـات أو الأدوار التـى تؤديهـا بالنسـبة لهـم . وهى تقع فى المسـافة القائمة بين الدولـة والأسرة أو الفرد ، وهى وإن كانـت فى أغلبهـا لا تتعاطـى السياسـة إلا أنهـا فى أغلبهـا تـدرب البـشر على السياسـة. وتشـكل الأحـزاب السياسـية – مـا دامـت ليسـت فى السـلطة – تنظيـمات بـارزة فى بناء المجتمع المـدنى ، بيد أن هنـاك ظـروف تؤثـر عـلى طبيعـة الأحـزاب فـلا تجعلهـا تعـبر عـن روح المجتمـع المـدنى بصـورة كاملـة ، عـلى سـبيل المثـال فـإن الأحـزاب تخـدم قطـاع المنتمـين إليهـا وربمـا تتوقـف عـن تقديـم الخدمات للخارجين عنها ، ناهيك عن تنشـئتهم سياسـيا . بالإضافة إلى ذلك فإن الأمسـاك بالسـلطة هـو الشـغل الشـاغل للتنظيـم الحـزبى ، الأمر الـذى يجعله بهذا البعد السـياسى يخرج عـن المجتمع المـدنى، بخاصـة إذا شـغل كـرسى الحكم. كذلك النقابـات وإن كانت تدخل فى نطـاق المجتمع المدنى إلا أن عضويتهـا وخدماتهـا تقتـصر عـلى المنتمـين لهـا ، وعـادة مـا تفـرض مواصفـات معينـة. بذلك نجـد أن المنظـمات غـير الحكوميـة هـى التـى تعـبر – كـما أشرت – عـن روح المجتمع المـدنى (٧٣).

وبرغـم أن المنظـمات غـير الحكوميـة ظلـت لفـترة طويلـة مـن تاريخهـا لا تتعاطـى السياسـة، ذلـك أنهـا أول مـا ظهـرت تأسسـت بإعتبارهـا تنظيـمات تقـوم برعايـة بعـض الفئـات الاجتماعيـة ، التـى تحتـاج إلى الرعايـة مـن خـلال تقديـم الخدمـات المختلفـة لهـا. وإذا كان الجيـل الأول مـن المنظـمات غـير الحكوميـة قـد إهتـم بالجوانـب

الرعائيـة ، فـإن الجيـل الثـانى أكـد عـلى التنميـة مـن خـلال المشروعـات التنمويـة ، التـى تتأسـس حتـى يسـتطيع صاحـب الحاجـة الاعتماد على نفسـه ومسـاعدة الآخريـن، عملاً بالقـول الصينى "لا تعطنـى سـمكه بـل علمنـى كيـف أصطـاد السـمك". ثـم ظهـر الجيـل الثالث مـن التنظيـمات غير الحكوميـة ، والـذى يركـز بالأسـاس عـلى تنميـة القـدرات الإنسـانية ، حيث يسـتطيع الإنسـان بهذه القـدرات بنـاء مختلـف المشروعـات ، وهـو التطـور الـذى تبنى شـعار "التمكـين" فى بعـض جوانبه. ثـم ظهـر الجيـل الأخـير والمتمثـل فى المنظـمات غـير الحكوميـة الدفاعيـة ، وهـو الجيل الـذى تلاءم ظهـوره مـع التطـورات العالميـة المعـاصرة ، التـى طرحـت شـعارات الديموقراطية وحقوق الإنسـان. وهـو الأمـر الـذى يعنـى إتجـاه المجتمع المـدنى إلى إكتـمال تنظيماته مـن ناحية، وإلى إمتـلاك القوة فى مواجهـة النظـام السـياسى مـن خـلال آليـة التشـبيك من ناحيـة ثانية.

وتسـعى تنظيـمات ومؤسسـات المجتمـع المـدنى المختلفـة إلى نـشر الثقافـة المدنيـة فى المجتمـع بقيمهـا العديـدة ، كالعمـل الجماعـى والمسـاواة والتسـامح ، وإحـترام الآخـر ، وقبـول تعـدد الآراء والأفـكار . إضافـة إلى الموافقـة عـلى تعـدد الانتـماء السـياسى ، وإدارة الإختلافـات بطـرق سـلمية ، ونبـذ العنـف ثقافـة وخطابـا وممارسـة . إلى جانـب تأمـين حـق المرأة فى المشـاركة الاجتماعيـة والسياسـية والاقتصاديـة والإجتماعيـة ، إضافـة إلى المرونـة وسـعة الأفـق والرؤيـة ، والوعـى بحقـوق المواطنـين ، وكذلـك القـدرة عـلى المشـاركة والمسـاندة والعطـاء (٧٤). بالإضافـة إلى ذلـك تعمـل تنظيـمات المجتمـع المـدنى بإتجـاه تأهيـل أعضاءهـا حتـى يتمكنـوا مـن المشـاركة الاجتماعيـة والسياسـية وفـق المعايـير السـوية والمثاليـة للمشـاركة. فهـى تـدرب أعضاءهـا عـلى إنتخـاب أعضـاء الجمعيـة العموميـة أو مجلـس الإدارة ، بمـا يسـاعد عـلى التأكيـد عـلى قيـم المشـاركة والممارسـة الاجتماعيـة والسياسـية إسـتناداً إلى معايـير موضوعيـة. ذلـك بالإضافـة إلى تدريـب البـشر عـلى مفـردات ثقافـة العمـل التطوعـى ، وعـلى الشـفافية وعـلى القـدرة عـلى قـراءة المعلومـات والمحاسـبة والشـفافية . ذلـك إلى جانـب نـشر قيم محاسـبة أو مسـاءلة السـلطة والتأكيـد عـلى خدمـة الصالـح العـام. وهـو مـا يعنـى أن تنظيـمات المجتمـع المـدنى – إذا توفـرت

له الظروف الملائمة – فإنها تعمل على التنشئة الاجتماعية والسياسية الجادة للجماهير.

بيد أننا إذا تأملنا الواقع العربى والمصرى فيما يتعلق بدور تنظيمات المجتمع المدنى ، فسوف نجد أن هناك مجموعة من الظروف التى تعوقه عن آداء وظيفته فى التنشئة الاجتماعية والسياسية. من هذه الظروف ما يرجع إلي الدولة، وما يرجع إلى المجتمع ، وما يرجع إلى تنظيمات المجتمع المدنى ذاتها. وفيما يتعلق بالدولة فإننا نجد أن الدولة فى مجتمعات الجنوب دولة غير واثقة من نفسها، عاجزة عن إشباع حاجات مواطنيها ، ولذلك نجدها تحاصر تنظيمات المجتمع المدنى العديدة ، حتى لا تشاركها ولاء الجماهير حيث ترى فى ذلك تهديد لشرعيتها. ومن ثم فهى دائما ما تحاصرها بالقيود والقرارات السلبية من كل إتجاه. وتتعلق العقبات المتعلقة بالمجتمع بغياب ثقافة العمل التطوعى وضعف فاعلية الثقافة المدنية. وفيما يتعلق بالسلبيات المتصلة بتنظيمات المجتمع المدنى ، فإننا نجد أن بعض هذه التنظيمات تخون أحيانا منظوماتها القيمية . على سبيل المثال أننا نجد أن غالبية هذه التنظيمات تقع فى خطيئة غياب تداول السلطة ، إضافة إلى تغييب المعلومات ، ومن ثم غياب القدرة على المساءلة وغياب القبول بها (٧٥). ذلك بالإضافة إلى سقوطها فى بعض الأخطاء والإنحرافات ، التى تؤثر على قدرتها على آداء التنشئة الاجتماعية والسياسية بمستوى ملائم من الكفاءة. ذلك إلى جانب ضيق نطاق فاعلية غالبية تنظيمات المجتمع المدنى ، مثال على ذلك أن العدد الكبير من الأحزاب بدون فاعلية ، أو السيطرة المباشرة للدولة عليها كما هو الحال فى بعض التنظيمات النقابية.

رابعاً : منظومات قيم التنشئة الاجتماعية والسياسية للشباب.

يتطلب نجاح التنشئة الاجتماعية والسياسية توفر منظومة قيم التنشئة الاجتماعية والسياسية ، وهى المنظومة التى تشكل مضمون الثقافة الاجتماعية والسياسية التى يستوعبها الطفل من خلال عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية التى تقوم بها المؤسسات المعنية بذلك. وفى هذا الإطار فإننا نجد أنه لكى تتحقق

التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية بالمسـتوى الملائـم ، فإنـه من الـضرورى أن تتم بالنظـر إلى مرجعية ثقافيـة وأيديولوجيـة فعالة ومتماسـكة ، هى التى توجه التنشـئة وتشـكل بوصلتهـا الموجهة. وذلك لأن مرجعيـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية قد تتأثر سـلبيا من خلال ثلاثة جوانـب ، حيث يتمثل الجانـب الأول فى التناقـض أو عـدم التطابق بين مضامين التنشـئة الاجتماعيـة الى تتحقق فى المجتمع . حيـث تعكـس بعـض هـذه المضامين ثقافة المجتمـع ومعانية المنظمة للتفاعل فى إطـاره ، فى مقابل مضايـن التنشـئة التـى تفرضهـا أيديولوجيا النظام السـياسى، الأمر الذى يخلق حالـة من الفوضى فى المنظومـات أو المعـانى الثقافيـة والقيميـة. ويتحـدد الجانب الثانى المؤثر سـلبيا على عملية التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية فى التغـيرات الأيديولوجيـا المتتابعـة ، وهـو مـا قـد يـؤدى إلى التناقـض بـين مضامـين الأيديولوجيـات المتتابعـة الأمـر الذى جعلهـا تعيش خارج الشـخصية، لكونها لم تسـتوعبها بدرجـة كافيـة بحيـث تكون قـادرة وفعالة عـلى توجية سـلوكيات البشر فى مختلف مجـالات الواقع الاجتماعـى. ذلـك بالإضافـة إلى التناقـض الـذى قـد يقـع بـين أيديولوجيـا النظـام السـياسى وثقافـة المجتمـع ، الأمـر الـذى قـد يحـرم الأولى مـن قاعدتهـا الصلبـة المتمثلـة فى ثقافـة المجتمـع . ويتصل الجانـب الثالـث بضعـف مؤسسـات التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية وعـدم إسـتنادها إلى مرجعية واحـدة ، الأمـر الـذى يجعلهـا تضـخ فى الشـخصية قيـما متنوعـة وربما مختلفـة ومتناقضـة ، لا تيسر تراكمهـا ومـن ثـم تضعف قوتهـا وفاعليتها.

ويجـد المتأمـل لطبيعـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية فى مجتمعاتنـا أن مرجعيـة التنشـئة تعـانى مـن حالـة الأنومـى الثقافيـة التـى رافقـت عمليـة التنميـة والتحديـث فى النصـف الثـانى مـن القـرن العشريـن. وإذا كانـت الحالـة الإفتراضيـة لثقافـة المجتمـع تؤكـد عـلى ضرورة تجانسـها او الاتفـاق عليهـا بالنسـبة لغالبيـة البـشر فى المجتمـع ، فإننـا نجـد أن هنـاك ظـروف عديـدة أضعفـت الاتفـاق والتجانـس الثقـافى. مـن هـذه الظـروف تعـدد العنـاصر التـى تشـكلت منهـا بنيـة الثقافـة فى المجتمـع ، إذ يوجـد بالثقافـة العنـصر الـتراثى الـذى بـدأ مـن الـتراث الفرعـونى وحتـى الـتراث القبطـى ، ثـم الثقافـة العربيـة ذات النظـرة الخاصـة إلى بعـض

القضايا كالنظرة إلى المرأة والسلطة ، ثم العنصر الإسلامى حيث منظومة من المعانى والقيم الرافضة لبعض مضامين الثقافة العربية. ثم الثقافة الغربية التى إخترقت منظوماتها الفضاء العربى والإسلامى على هيئة أيديولوجيات ليبرالية وإشتراكية. وأخيراً منظومات قيم الثقافة الاستهلاكية التى تحولت فى العقدين الأخيرين إلى ثقافة إستهلاك الجنس وشحذ الغرائز، بحيث أننا إذا نظرنا إلى هذه العناصر الثقافية، فإننا سوف ندرك أننا أما ثقافة تفتقد التجانس ، تتنافر عناصرها إلى الحد الذى يسلب هذه العناصر القوة والفاعلية (٧٦).

ويتصل الجانب الآخر لحالة أنومى الثقافة الاجتماعية والسياسية ، فى تباين منظومات قيم الأيديولوجيات التى إختارتها الأنظمة السياسية لقيادة عملية التنية والتحديث ، مع منظوات قيم ثقافة المجتمع التى تطورت معه تاريخيا وإستندت فى أساسها إلى قاعدة من الدين . وإذا كانت الحالة الأفتراضية أن تنطلق الأيديولوجيا من رحم ثقافة المجتمع وإحتياجاته الواقعية ، ومن ثم فهى تدعم ثقافة المجتمع وتعمل على تطويرها . فإننا نجد أن الأيديولوجيات التى قادت عملية التنمية والتحديث قد عجزت عن آداء هذا الدور ، أولا لأن هذه الأيديولوجيات – ليبرالية كانت أم إشتراكية – قد فرضت على المجتمع من خارجه. ومن ثم فهى تحتوى على مضامين ومعانى مختلفة عن المضامين والمعانى الكامنة فى ثقافة المجتمع ، إن لم تتناقض معها. يضاف إلى ذلك أن هذه الأيديولوجيات فشلت فى أن تشكل تراكما متواصلاً أثناء عملية التحديث، فقد تتابعت الأيديولوجيات وراء بعضها البعض. حيث الأيديولوجيا الليبرالية ، ثم القومية ، ثم الإشتراكية ثم الليبرالية ثانية. حيث كانت الإيديولوجيات تحل محل بعضها البعض، وتلغى كل أيديولوجية الأيديولوجية السابقة عليها والانجازات التى تحققت فى ظلها ، ومن ثم حدث نوع من هدر رأس المال الأيديولوجى للمجتمع . إضافة إلى أن التنشئة الاجتماعية والسياسية وفق هذه الأيديولوجيات كانت متغيرة ومتأرجحة وغير ثابتة أو مستندة إلى معانى أيديولوجية محددة ، الأمر الذى أعجزها عن تحقيق التنشئة الاجتماعية والسياسية التى تؤهل إنتماء الإنسان للمجتمع وسعيه إلى المشاركة فى تفاعلاتة(٧٧).

ويتمثـل الجانـب الثالـث لحالـة الأنومـى فى أنـه بسـبب التواجـد المعـى فى بعـض الأحيـان لهـذه المنظومـات القيميـة الأيديولوجيـة والثقافيـة ، المتجـاورة أو المتناقضـة فى الفضـاء الثقـافى للمجتمـع، فإننـا نجـد أن هـذه الحالـة ادت إلى نتيجتـين ، الأولى إضعـاف هذه المنظومـات القيمية لبعضهـا البعـض. والثانيـة أن الفضاء الثقـافى والأيديولوجى للمجتمع إمتـلأ إلى جانب ذلك بمنظوات قيميـة ذات طابـع سـلبى وفـردى بالأسـاس . وهـو الوضع الذى أدى إلى إتسـاع إنتشـار الأيديولوجيا الفرديـة التـى تؤكـد على معايـير المنفعة والمصلحة الشـخصية ، وهـى الأيديولوجيات التى إسـلمت – بإمتدادهـا الطبيعـى – إلى قيـم وسـلوكيات الفسـاد. وإذا كانـت الحالـة المثاليـة لثقافـة المجتمع أن تعتمـد عـلى قاعـدة مـن القيم الدينيـة المتصلـة بتنظيم المجتمـع وتاريخه المتطـور ، فإن ضعف هـذه الثقافـة أو عـدم فاعليتهـا دفـع إلى بـروز ثقافـة الاسـتهلاك. ففـى الفـترات التـى يعجـز فيهـا البـشر عـن تحقيـق طموحاتهـم ونجاحاتهم ومثلهم فإنهم يتحولون إلى كائنات إسـتهلاكية تسـتهلك لمجـرد إثبـات البقـاء. بالإضافـة إلى ذلـك فقـد بـرزت ثقافـة الجنـس والغرائـز، حيـث ضعفـت الجوانـب الروحيـة التـى كانـت تشـكل غـذاء معنويا للبـشر أو إسـتقالت ، ولم تعد قـادرة على كبح جـماح الغرائـز، فإنطلقـت تعربـد فى كل إتجـاه ، بحيـث يمكـن إعتبـار ذلـك مـؤشراً عـلى سـقوط الطهـارة عـن الثقافـة العامـة للمجتمع.

ذلك يعنى أن المجتمع أصبح يعانى من حالة الأنومى وهى الحالة التى أضعفت المنظومات الثقافيـة الخاصـة بالمجتمـع ، بـل وفتحت أبـواب فضائه لتتدفـق منظومات ثقافية جديـدة وغريبة أصبحـت هـى التـى تشـكل، برغـم تعددهـا وتنافر عناصرهـا أحيانـا، مرجعيـة التنشـئة الاجتماعية والسياسية فى المجتمع. بحيث نجد أنفسنا فى النهاية فى مواجهة منظومات قيم تنتمى إلى مجتمعات ثـلاث – الطبيعـى والسـياسى والمـدنى - غـير أنـه لم يحـدث إنصهـار بين هـذه المنظومـات القيمية فى بوتقـة واحـدة ، الأمـر الـذى دفعها إلى إضعاف بعضها البعض. وهو ما يعنـى أن تأثيرها على توجية السـلوكيات الواقعية يصبح ضعيفا. وفى هذه الحالة فإننا نجد أن الإنسـان السـياسى يتعامل بصورة نفعيـة وذرائعيـة مـع هـذه المرجعيـات القيميـة المتباينـة ، لكونها تتحول لديه إلى وسـائل وليسـت

غايـات. فى هـذا الإطـار قـد ينحـرف الفعـل الفـردى عـن مرجعيـة معينـة لمجتمـع بعينـة ليحتمى بمرجعيـة أخـرى لمجتمـع آخـر. مثال على ذلك أن المطالبـة بالدولة ذات المرجعيـة الدينية قد تبارك قولـه المرجعيـة الدينيـة ، بينـما قد تدينـة المرجعية الإشـتراكية والليبراليـة وترفضه، والملحـد الخارج عـن الديـن والملـة قـد تباركـه بعـض الأيديولوجيـات العلمانيـة، غـير أنـه يصبـح مدانا مـن مرجعية أصحـاب التوجهـات والقيـم الدينيـة. وهـو ما يعنـى أن تعدد المرجعيـات يقود عـادة إلى حالة من الفـراغ الأخلاقـى الـذى قـد يسـود المجتمـع ، وفى هـذه الحالـة قـد يصبـح سـلوك البشر مهـدداً بأن يكـون عشـوائياً وعاريا من الأخـلاق(٧٨).

وفى محاولـة إستكشـاف المنظومـات القيميـة التـى تواجـدت فى معيـة واحـدة فى الفضـاء الثقـافى للمجتمـع ، فأشـاعت الفـوضى فى عملية التنشـئة الاجتماعية والسياسـية. فإننا بداية سـوف نجـد أن الـتراث الدينـى للمجتمـع هـو الـذى يشـكل المنظومـة القاعديـة فى المرجعيـة الأخلاقيـة للمجتمـع. حيـث يحتـوى الـتراث الدينى عـلى طبقات عديدة تبـدأ من ديانات الحضـارات القديمة غـير السـماوية وحتـى اليهوديـة والمسـيحية والإسـلام. وهو ما يعنى أنـه برغم تنوع الأديـان وتتابع تراكـم طبقاتهـا فى بنـاء الشـخصية فى مجتمعاتنا ، فإننا نجدها تدعم روحاً واحـدة هى روح التدين. تأكيـدا لذلـك أننـا إذا تأملنـا الواقـع الاجتماعـى الدينـى فسـوف نجـد أن المشـاهد الدينيـة واحـدة ومتداخلـة ، فمقابـر الفراعنـة والموميات وهامـات إجراس الكنائس ومأذن المسـاجد ، صورة العذراء ومعلقـات "آيـات القـرآن" تثير كلها فى النفس ذات العواطف الدينية. ولذلك شـكلت القيم الدينية قاعـدة الثقافـة ، واصبـح الـتراث الدينـى هـو المرجعيـة التـى يقـاس بالنظـر إليها قبـول أو رفض أى منظومـات قيميـة أخـرى. فالدين متجـذر فى التاريخ ، والدين أيضا يتغلغـل فى الأوضاع المعاصرة لأن النسـبة الغالبـة مـن السـكان متدينة بالأسـاس، لذلـك أصبح الدين آليـة من آليـات النضال كما هو آليـة مـن آليـات التكيـف. آليـة مـن آليـات الدفع بإتجـاه العمـل والإنتاج كـما هو آلية مـن آليات الدفـع بإتجـاه الاسـتمتاع بالحيـاة. وقد تضافرت منظومـة القيم العربية مع منظومـة القيم الدينية ، فاللغـة العربيـة هـى لغـة القرآن ، وهى اللغة التى يقرأ بها المسـحيون الأنجيـل . ومن خلال اللغة

تسربـت ثقافـة القبيلـة العربية التـى تتناقض فى بعض قيمهـا مع القيم الدينية وإن شـكلت الأخيرة المرجعية الأساسـية أو القاعدية للتنشـئة الاجتماعية والسياسية.

بالإضافـة إلى ذلـك فقـد شـكلت القيـم الليبراليـة المنظومـة الثقافيـة الثانيـة فى مرجعيـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية، ويكـن القـول بـأن منظومـة القيـم الليبراليـة قـد تدفقـت فى فضـاء المجتمـع عـلى موجتـين. الموجـة الأولى حينـما وفـدت هـذه القيـم مع القـوى الاسـتعمارية ، وإعتنقتهـا الطبقـة الإسـتقراطية ، بحيـث نجـد أن هذه المنظومـة كانت المنظمة للتفاعـل فى المجال السـياسى والتنظيـمات السياسـية التـى بـرزت حينئـذ. وإسـتمرت هـذه الموجـه حتـى قيـام ثـورة يوليـو ١٩٥٢ ، التـى قامـت بتقليـص مسـاحة منظومة القيـم الليبرالية فى حياة المجتمـع. وقد بدأت الموجـة الثانيـة للأيديولوجيـا الليبراليـة مـع بدايـة السـبعينيات فى أعقـاب سـقوط النظـام الإشـتراكى والأيديولوجيـا الإشـتراكية، حيـث تدفقـت منظومـات قيم الموجـة الثانيـة للأيديولوجيـا الليبرالية فى حياتنـا بتأثـير إتسـاع المـد العالمـى لهـذه الأيديولوجيـا. وبرغـم أنـه قـد تحققـت بعـض الإنجـازات السياسـية والاقتصاديـة فيـما قبـل ١٩٥٢ فى ظـل هـذه الأيديولوجيـا، فإنهـا فيـما بعـد السـبعينيات كانـت ذات تأثـير كارثى عـلى بنـاء المجتمـع (٧٩).

وقـد شـكلت منظومـة القيم الإشـتراكية المنظومـة القيمية الثالثـة التى تواجـدت فى الفضاء الثقـافى للمجتمـع . وبرغـم أن هـذه الأيديولوجيـا قـد بـشرت بهـا بعـض الكتابـات فى الثلاثينيـات والأربعينيـات ، مثـل كتابـات المفكـر الإشـتراكى "سـلامة مـوسى" وجماعة "الماركسـيين الإشـتراكيين"، حيـث كانـت هـذه الأيديولوجيـا وراء بعـض المطالبـات الأصلاحيـة فى هـذه المرحلة. غـير أنه حينما قامت ثورة يوليو التى إنتمى غالبية أعضاء نخبتها إلى الشرائح الدنيا والمتوسـطة للطبقة الوسـطي. والذين كانت عواطفهم ذات طبيعة إشـتراكية بالأسـاس. وإرتباطا بذلك سـاعدت الضغوط العالمية الاستعمارية على تعميق الخط الإشتراكى لثورة يوليو ، وإتصالاً بذلك أجهد المثقفون أنفسهم – لإقناع الجماهير ذات القناعة الدينية – فى هذه الفترة فى البحث عن رابطة عضوية تربط بين منظومة القيم الإسـلامية كمنظومـة مرجعيـة وبين القيم الإشـتراكية. وفى هذا الإطار برزت دعاوى وشـعارات كثيرة

تؤكـد عـلى هـذه العلاقـة "كإشـتراكية الإسـلام" و "الأشـتراكيون أنـت إمامهـم لـولا دعـاوى القـوم والغلـواء" يقصـد بذلـك سـيدنا محمد "صلى الله علية وسـلم". والناس شركاء فى ثلاثـة "الماء والكلأ والنـار" وكـثر الحديـث عـن "أبـاذر الفقـارى" كصحـابى فقير إعتـبر مبشراً أسـبق بالإشـتراكية. (٨٠).

وتعـد منظومـة القيم الأسـتهلاكية هـى المنظومة الثقافيـة الرابعة التـى كان لها وجودها فى الفضـاء الثقـافى للمجتمـع ، ويمكـن تتبـع موجـات إتسـاع منظومـة الثقافـة الاسـتهلاكية فى المجتمع مـن خـلال عـدة مراحـل. وقـد بـدأت الموجـة الجنينيـة الأولى لثقافـة الاسـتهلاك ، حينـما فضلـت الطبقـة العليـا - الريفيـة والحضريـة - التـى أضـيرت مصالحهـا فى المرحلـة القوميـة والاشـتراكية أن تبـدد مدخراتهـا إسـتهلاكيا ، فعاشـت حيـاة مترفة داخل مجتمعها أو مارسـت الترف خـارج حدوده. وقـد نتجـت الموجـة الثانيـة للأسـتهلاك نتيجـة لهجرة أبنـاء الطبقة الوسـطي والدنيـا إلى مجتمعات الخليـج. حيـث حصلـوا هنـاك عـلى مرتبـات عاليـة لم تجـد طريقـا إلى قنـوات إسـتثمارية إنتاجية ، ومـن ثـم فقـد تدفقـت إلى أسـواق الاسـتهلاك. بحيـث يمكـن القـول بـأن المهاجريـن إلى مجتمعات الخليـج هـم المسـئولون بإمتيـاز عـن موجـة الاسـتهلاك الثانيـة فى المجتمـع. وقد إتسـعت مسـاحة ثقافـة الاسـتهلاك فى الموجـة الثالثـة بفضـل إخـتراق العولمـة لثقافتنـا، وهـى الثقافـة التـى أعـادت تنشـئة الصغـار والشـباب والمـرأة بالأسـاس وفـق منظوماتهـا القيميـة ، وقـد إسـتخدمت الإعـلام والأعـلان وتكنولوجيـا المعلومـات لتعميـق الإقتنـاع بهـذه القيـم. ونظـراً لأن ثقافـة الاسـتهلاك غـير متلائمـة وإحتياجـات الواقـع الاجتماعـي الذي نعيش في إطاره ، فإننا نجد أنه وإن إسـتوعبت نسـبة غالبـة مـن السـكان قيمهـا ، الإ أنهـا لا تسـتطيع المشـاركة فى التفاعـل وفقا لهـا . الأمر الـذى يصيبها بالحنـق والحقـد وضعـف الانتـماء ، يرجـح ذلـك أن ٤٠٪ مـن سـكان المجتمـع يعيشـون تحت خط الفقـر، محرومـين مـن أشـباع حاجاتهـم الأساسـية ، وأن ٢٥٪ مـن هؤلاء يعيشـون تحت خـط الفقر المدقع (٨١).

وتعـد ثقافـة الفسـاد هـى المنظومـة القيميـة الخامسـة التـى لهـا وجودهـا فى الفضـاء الثقـافى لمجتمعاتنـا. وتتضمـن ثقافـة الفسـاد عديـدا مـن القيـم والمعـانى

التـى أصبحـت مؤثـرة فى عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية. وإذا كانـت ثقافـة الفسـاد لهـا بعـض جذورهـا التـى ترجـع بالأسـاس إلى حـراك أبنـاء الطبقـة الوسـطي ، فـإن كثـيراً مـن قيم هذه الثقافـة تدفـق مـع إختراقـات ثقافـة العولمـة عـبر الأيديولوجيـا الليبراليـة وسياسـات أو إجـراءات الخصخصـة والتحريـر الاقتصـادى والمـالى بإعتبارهـا الصيـغ الرابحـة للنجـاح الاقتصـادى (٨٢)، صيغ تصلـح لـكل مجتمـع ، غنيـا أو فقـيراً ، ولـكل شـخص قويـا أم ضعيفـا. ولثقـة هـذه الثقافـة – أى ثقافـة العولمـة - بنفسـها ، فقـد عملـت عـلى إضعـاف طهـارة الثقافة القوميـة ، ويمكـن العثور على مـؤشرات عديـدة لفاعليـة هـذه الثقافـة فى توجيـه سـلوكيات البـشر ، من خلال إنتشـار الرشـوة فى مختلـف مسـتويات الادارة الحكوميـة. إضافـة إلى قيـام بعـض رجـال الأعـمال مـن القطـاع الخاص إلى الأقـتراض مـن المؤسسـات الماليـة للدولـة ، أو المؤسسـات الاقتصاديـة الدوليـة ، والهـروب بهـذه القـروض التـى ليسـت سـوى الضرائـب التـى يدفعهـا المواطنـين المتعبـين ، يضـاف إلى ذلـك أعضـاء مجلـس الشـعب المهتمـون بالحصـول عـلى القـروض دون ردهـا ، أو المتاجرين فى المخدرات وغسـل الأمـوال العائـدة منهـا، إضافـة إلى أشـكال عديـدة مـن الفسـاد التى تعبر عـن مرجعيـة أو منظومة قيميـة كامنـة وراء سـلوكياتها (٨٣).

إضافـة إلى ذلـك توجـد منظومة قيم الثقافة الانتهازية، وهى ثقافة تبلورت مع تشـكل حالة الأنومى فى الثقافة المصرية. لقد بدأت هذه المنظومة تتشـكل إبتداء من المرحلة الاشـتراكية ، حيث بـدأت قيـم هذه الثقافة تظهر على سـطح الطبقة الوسـطى فتحل محل قيمهـا النضالية. فقد بدأت هـذه القيـم عـلى خلفيـة تفضيل أهـل الثقة وأهـل الولاء على أهل الخبرة لحراسـة المـشروع الثورى والاشـتراكى. ومـن ثـم فقـد تقلـد أعضـاء هـذه الشريحـة أعلى المناصـب لآحسـاس النظام السـياسى بالأمـان تجاههـم وحدهـم . الأمـر الذى دفع الكثيريـن من نظرائهم لأن يسـعوا أو يطلبوا أو يقدموا الـولاءات – ولـو بصـورة ظاهريـة ودون إقتنـاع حقيقـى - ليصبحـوا أهـل ثقة . يضـاف إلى ذلك أن تفاعلات الدولة الإشـتراكية سـاعدت على نمو القيم الانتهازية ، وإتسـاع الشريحة الحاملة لهذه القيم ، بحيـث بـدأت تظهـر خـلال هـذه المرحلة تفضيـل الصالح الخاص عـلى الصالح العام ، ثم إسـتغلال

الصالح العام لتمكين الصالح الخاص. وحينما غرقت السفينة الإشتراكية قفزت الفئران الإنتهازية مذعورة إلى السفينة الليبرالية. فأبناء الطبقة الوسطي والدنيا من هذا النمط – الذين تعلموا فى المرحلة الإشتراكية - هم الذين ساعدوا فى صياغة سياسات الانفتاح وترسانتة القانونية . وهم الذين تحالفوا – برؤوس أموالهم الصغيرة التى حصلوا عليها من وظائفهم فى القطاع الحكومى أو عمولات التعامل مع القطاع الخاص فى المرحلة الاشتراكية – مع رجال اعمال الطبقة العليا . متجاهلين أنهم فى يوم سابق كانوا من عمد الاشتراكية وأنهم قد شاركوا فى تصفية هذه الطبقة. ذلك يعنى أن القيم الانتهازية إزدهرت فى هذا الفراغ الثقافى وإتسعت مساحتها ، حتى باتت تشكل ظهيراً لمنظومة قيم الفساد ، وتلعب دوراً فى عملية الانهيار القيمى والثقافى للمجتمع ، وهى التى تشكل الآن مرجعية لكل مظاهر الفساد وعدم الشفافية فى المجتمع (٨٤).

ذلك يعنى أن التنشئة الاجتماعية والسياسية تتحقق وفق مرجعية قيمية وثقافية ضعيفة من حيث تماسكها ، تسودها تناقضات وتباينات كثيرة ، إضافة إلى أنها مرجعية ثقافية تتسع فيها مساحة الفساد والانحراف. إلى جانب أنه ليس هناك تأكيد أو التزام مجتمعى أو سياسى للعمل وفق مفرداتها أو عناصرها الصالحة. الأمر الذى يعنى أنه إذ كانت مرجعية التنشئة الاجتماعية والسياسية ضعيفة ومشوهة ، فإن ذلك من شأنه أن ينعكس على عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية ذاتها. وهو ما يعنى أن ذلك سوف يسلم فى النهاية إلى قناعات وسلوكيات ليست ملائمة لاحتياجات تحديث المجتمع أو النهوض به.

المراجــع

١. عـلى ليلـة : المجتمـع الريفـى ، تحليـل للتحـولات البنائيـة والاجتماعيـة ، المكتبة المصرية للتوزيـع والنـشر ، ينايـر ١٩٩٤، ص ١٣٤.

٢.عـلى ليلـة: العولمة والأمـن القومى العربى، إخـتراق الثقافة وتبديد الهويـة، مكتبة الانجلو المصرية ، ص ١٦٣.

٣. نفس المرجع : ص ١٦٤.

٤. نفس المرجع: ص ١٦٧.

٥. نفس المرجع: ص ١٦٢.

٦. محمـد ياسـين حمـودة : بحـوث فى واقـع أمتنـا، مجلـة كليـة الآداب والعلـوم الأنسـانية، المجلـد الأول، ١٩٩٤، ص ٩.

٧. نفس المرجع : ص ١١.

٨. نفس المرجع ك ص ١٢.

٩. عـلى ليلـة : النظريـة الاجتماعيـة المعـاصرة ، دراسـة لعلاقـة الإنسـان بالمجتمـع ، الطبعة الثالثـة ، دار المعـارف ، ١٩٩٠ ، ص ٣٢٢.

١٠. نفس المرجع : ص ٣٢٥.

١١. نفس المرجع : ص ٣٢٧.

١٢. نفس المرجع : ص ٣٢٨.

١٣. عـلى ليلـة : تقاطعـات العنـف والأرهـاب فى زمـن العولمـة ، مكتبـة الأنجلـو المصريـة ، ٢٠٠٧ الطبعـة الأولى ، ص ١٦٢.

١٤. نفس المرجع : ص ١٦٢.

١٥. نفس المرجع : ص ١٥٧.

١٦. نفس المرجع : ص ١٦٤.

١٧. عـلى ليلـة : ليـلى عبـد الجـواد ، ربـاب الحسـينى ، وآخـرون : تعاطـى المخـدرات عنـد الهامشـيين الفقـراء ، المركـز القومـى للبحـوث الاجتماعيـة والجنائيـة، ص ١٤.

١٨. نفس المرجع : ص ٢٤.

١٩. نفس المرجع : ص ٢٥.

٢٠. نفس المرجع : ص ٢٥.

٢١. على ليلة : العولمة والأمن القومى العربى ، مرجع سابق، ص ١١٢.

٢٢. نفس المرجع : ص ١١٤.

٢٣. نفس المرجع : ص ١١٥.

٢٤. نفس المرجع : ص ١٢١.

٢٥. نفس المرجع : ص ١٣٧.

٢٦. نفس المرجع : ص ١٣٢.

٢٧. على ليلة : المجتمع الريفى ، تحليل للتحولات البنائية والاجتماعية، المكتبة المصرية للتوزيع والنشر، يناير ١٩٩٤، ص ١٣٩.

٢٨. على ليلة : العولمة والأمن القومى العربى، إختراق الثقافة وتبديد الهوية ، مرجع سابق ، ص ١٢٢.

٢٩. على ليلة : الشباب العربى ، تأملات فى ظواهر الأحياء الدينى والعنف ، دار المعارف ، ١٩٩٠ ص ١٣٨.

٣٠. على ليلة : الثابت والمتغير فى بناء الطبقة العاملة المصرية، بحث مقدم لندوة مركز دراسات وبحوث الدول النامية ، مايو ٢٠٠٦، ص ٤٠.

٣١. على ليلة: الاستراتيجية الناصرية لتذويب الفوارق بين الطبقات (فصل) فى "ثورة يوليو ١٩٥٢ ، دراسات فى الحقبة الناصرية "تحرير" محمد السعيد إدريس ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، وحدة دراسات الثورة المصرية ، ص ٣٥٥.

32. Sorokin, P: Social Mobility, Naw York, Mc-Hill, 1952,P.74.

33. Gouldner, Alvin: The Coming Crisis of Western Sociology, Heinmann, London, 1971, P.113.

٣٤. على ليلة :النظرية الاجتماعية المعاصرة ، دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع ، مرجع سابق ، ص ١٤٣.

35. Mills,C.Right: The Sociological Lmigenation, Grove Fress, New York, 1961,P.118.

36. Alvin Gouldner: Op,Cit, P.230.

37. Merton, R.K :Social Theory and Social Structure, The Free Press of Glencoe, 1962, P.73.

٣٨. عـلى ليلـة : الاسـتراتيجية الناصريـة لتذويـب الفـوارق بين الطبقات ، مرجع سـابق ، ص ٣٥٣.

٣٩. موسـوعة الشـباب السياسـية ، "المشـاركة بـين الثقافـة والتنشـئة" مركـز الدراسـات السياسـية والاسـتراتيجية ، http://www.ahram.org.og/acpss/

٤٠. عيـسى أبـو زهـرة : التسـامح والمسـاواة فى المنهـاج الفلسـطينى "مـواد الصفـين الأول والسـادس الأسـاسي نموذجـا" مجلـة تسـامح ، العـدد الرابـع ، السـنة الثانيـة ، بـذار ٢٠٠٤، ص ٣٢.

٤١. نفس المرجع : ص ٣٤.

٤٢. نفس الرجع : ص ٣٥.

٤٣.سوسـن رسـلان : مصـادر التنشـئة الاجتماعيـة والسياسـية للطفـل ،٢٢ نوفمـبر ٢٠٠٦.
http://www.neasy.org/index2.php?option=com-Contnet&task=view&id=3483&Itemid=9s&pop=1&Page=o

٤٤. وحيد بن حمزة هاشم: مرجع سابق ، ص ١٠.

٤٥. نفس المرجع ص ١٢.

٤٦. نفس الرجع ص ١٢.

٤٧. نفس المرجع ص ١٣.

٤٨. عـلى ليلـة : تحـولات الثقافـة ومنظومـات القيـم عـبر نصـف قـرن ، الهيئـة القبطيـة الإنجليـة ٢٠٠٤، ص ٩.

٤٩. نفس المرجع : ص ٢١.

٥٠. نفس المرجع : ص ٢١.

٥١. نفس المرجع: ص ٢٥.

٥٢. نفس المرجع : ص ٢٥.

٥٣. نفس المرجع: ص ٣٢.

٥٤.على حسين الاجبابي: الأسرة والتنشئة الاجتماعية والسياسية ٢٠٠٦/٦/١٨. ila_ moc.liamtoh@ibabhala

٥٥. عيسى أبو زهرة : مرجع سابق ، ص ٣٢.

٥٦. سوسن رسلان : مرجع سابق.

٥٧. نفس المرجع.

٥٨. مبارك محمد بن مظفر الشامى: القيم والمناهج الدراسية ، بحث مقدم لمؤتمر "الحوار الوطنى السعودى ، الرياض ، ٢٠٠٤/٢/١٧.

٥٩. عبد العزيز بن حمد الشيشرى : التنشئة الاجتماعية فى البيئة السعودية، بحث مقدم لمؤتمر "الحوار الوطنى السعودى" الرياض ، ٢٠٠٤/٢/١٧.

٦٠. سوسن رسلان : مرجع سابق.

٦١. حسين على الحمدانى : التحول الديموقراطى والدور المطلوب ، 2006/17/7 suh_ moc.oohay@46suh

٦٢. عبد الله طلال : الرقابة التلفزية كآلية للتنشئة الاجتماعية والسياسيةptth:// wwwalittihad.press.ma/Comment.aspx?Codelangue=6&codeinfo=.

٦٣. أديب عقيل : مرجع سابق

٦٤. زاهى بشير المغيربى : مرجع سابق

٦٥. أديب عقيل : مرجع سابق

٦٦. هدى العدوانى: التنشئة الاجتماعية والجنسية للطفل المغربى، دراسة ميدانية للتربية الجنسية داخل الوسط المدرسي .http:// www.arabsynet.com/Journal/Jac160. HTM#Contents

٦٧. عبد الله طلال : مرجع سابق

٦٨. نفس المرجع

٦٩. نفس المرجع

٧٠. نفس المرجع

٧١. فـؤاد الصلاحـى: دور التربيـة الدينية فى تجسـيد ودعم قضايا المواطنة وحقوق الإنسـان ، بحـث مقـدم "لورشـة عمـل" التعليـم مـن أجـل مواطنـة ديموقراطيـة /pw/ten.trfw//:ptth mth.3_eve_pw/udEytiC

٧٢. نفس المرجع

٧٣. عـلى ليلـة : دور المنظـمات غـير الحكوميـة فى مواجهـة الفقـر ، الشـبكة العربيـة للمنظـمات الأهليـة ، ٢٠٠٢ ، ص ٧٩.

٧٤. نفس المرجع : ص ٨٣.

٧٥. أمـانى قنديـل ، عـلى ليلة : الأدارة الرشـيدة للحكم فى المنظمات الأهلية العربية ، دراسـة مقارنة ، مصر – المغرب – اليمن – الشـبكة العربية للمنظمات الأهلية ، ٢٠٠٧ ، ص ص ٢٠٣-٢٣٩.

٧٦. عـلى ليلـة : العولمـة والأمـن القومـى العـربى ، إخـتراق الثقافـة وتبديـد الهويـة، مرجـع سـابق ، ص ١٢٣.

٧٧. نفس المرجع : ص ١٣٧.

٧٨. نفس المرجع : ص ١٣٩.

٧٩. نفس المرجع: ص ١٤٢.

٨٠. نفس المرجع : ص ١٤٠.

٨١. نفس المرجع : ص ١٤٤.

٨٢. نفس المرجع : ص ٤٥.

٨٣. نفس المرجع : ص ٦٧.

٨٤. نفس المرجع: ص ١٤٣.

الفصل الخامس

حراك الشباب وتفاعلاته

بين المجتمع الواقعي والمجتمع الإفتراضي

الفصل الخامس

حراك الشباب وتفاعلاته

بين المجتمع الواقعى والمجتمع الإفتراضى

تمهيد

وقعت تغيرات كونية جذرية وشاملة فى الثلث الأخير من القرن العشرين والعقد الأول من الألفية الثالثة، فرضت علينا واقعاً إجتماعياً وثقافياً جديداً وليس نطاقا عالميا جديداً فقط. حيث خضعت الثوابت لتغيرات زلزلت قواعدة، إذ تجلت هذه التغيرات من خلال مظاهر عديدة، فقد حدث تحول من الحداثة إلى ما بعد الحداثه. من الحديث عن النسق المتوازن الذى يسعى إلى الإكتمال بإتجاه الحديث عن التفكيك والوحدة الكامنة فى التنوع. وبدلاً من الحديث عن العالم المتخلف والنامى الذى يسعى من خلال التحديث إلى إكتساب خصائص الغرب المتقدم، إنطلقت العولمة من الغرب، متعجله تسعى إلى إعادة صياغة عالم بأسره. وبعد أن كانت الدولة القومية قاطرة تحديث مجتمعاتها، تراجعت لتلعب دور المنظم لآليات جديدة لتحديث المجتمعات ضمت القطاع الخاص الأجنبى والوطنى. إضافة إلى المجتمع المدنى الذى بدأ دوره فى التزايد. ومع تراجع الدولة وتقدم جحافل العولمة سقطت الحدود التى تشكل احد أبعاد الدولة والهوية القومية. وأصبحت الفضاءات الثقافية والإقتصادية والسياسية مفتوحة لتدفق تأثيرات العولمة التى إتجهت إلى إعادة صياغة كل شئ بحسب طبيعتها.

وحتى تحقق العولمة أهدافها وأهمها صياغة تجانس عالمى على قاعدة طبيعتها، فقد إمتلكت آليات كثيرة أبرزها التطور الحاسم لتكنولوجيا الإعلام والمعلومات، التى شكلت أبرز آليات التدفق والإختراق. والتى بدأت تنقل مضامين ثقافية ومادية عديدة إلى مجتمعاتنا، حيث كثر الحديث عن التنمية المستدامة التى تشارك فى تجسيدها الجماهير بدلاً من التنمية التى شكلت إختياراً محدداً برؤية النخبة. يضاف إلى ذلك فقد أمتلأت فضاءات المجتمعات المتخلفة والنامية بشعارات الديموقراطية وحقوق الإنسان وحقوق الأقليات، وإدارة الحكم الرشيد. حيث إستنفرت هذه الشعارات عواطف الجماهير، التى خضعت لسيطرة قهرية

مـن قبـل نظـم أبويـة، أخذت مـن الأبويـة الهيمنة، ولم تنقـل الرحمـة. وإذا كانت هذه الشـعارات قـد شـكلت ضغوطـا عـلى نظـم المجتمعـات المتخلفـة غـير أنهـا فى ذات الوقـت أيقظـت عواطـف وأشـواق الجماهـير بإتجـاه المشـاركة والتنميـة وحريـة التعبير والحيـاة بلا خوف. سـواء الخوف من العجـز عـن إشـباع الحاجـات الأساسـية أو الخـوف من الإنسـحاق تحت سـنابك خيـل الأمن.

ونتيجـة لذلـك تفجـرت صراعات وإحتجاجات على سـاحات غالبية مجتمعـات العالم الثالث تعبـيراً عـن عواطـف وتوتـرات مكتومـة بـين الجماهـير مـن ناحيـة، والنظـم السياسـية مـن ناحيـة ثانيـة. النظـم السياسـية متمترسـة وراء عنادها وأبويتهـا المتهالكة، وإمتلاكها لآليـات القوة القاهرة، التـى بواسـطتها تفـرض إرادتهـا ورؤيتها على المجتمـع. وأضافـت إلى قهرها الأمنـى تجملها المخادع أمـام العـالم بأنهـا مـع الحريـة والديموقراطية والمشـاركة، فى مقابـل الجماهير العربية التـى تدرك أن العـالم مـن حولهـا ينتفـض ويتمـرد، وتفرض جماهـيره الحريـة، وتتمنى أن يسـتنفر ذلـك طموحاتها لتسـير عـلى دربهـا. بيـد أن هـذه الجماهـير تـدرك أن أنظمتهـا السياسـية نجحـت فى دفعهـا إلى الإهتـمام بقضايـا الحيـاة اليوميـة الصغـيرة فى مقابـل تخليهـا عـن القضايـا والأحـلام الكبيرة. سـاعد عـلى ذلـك حجـم الحرمـان وتـردى نوعيـة الحياة التـى تعيشـها الجماهير، إضافـة إلى فاعليـة العصا الأمنيـة إذا إسـتردت بعـض هـذه الجماهـير بعـض وعيها وآثـرت التحرك.

وإذا كان الشـباب هـم دائمـاً القطـاع السـكانى المخفـف القيـود مقارنـة بالكبـار، وإذا كانـوا هـم الذيـن يعانـون بدرجـة أكـثر مـن عـدم إشـباع حاجاتهـم الأساسـية. وإذا كانـوا هـم الأكـثر قـدرة عـلى التعامـل مـع مسـتحدثات العولمـة، ولأنهـم الأفضـل مـن حيـث ظـروف نوعيـة حياتهـم – لانتـماء غالبيتهـم للطبقـة العليـا والشرائـح العليـا مـن الطبقـة الوسـطي – مقارنـة ببقيـة الشرائـح الشـبابية الأخـرى، فقـد قـررت النضـال الناعـم أو المخمـلى. فقـد أدركـت أن نظمهـا السياسـية أصبحـت مخادعـة، وأن عصاهـا الأمنيـة أضحـت قاسـية وماكـرة، والجماهـير غارقـة حتـى أذنيهـا فى تفاصيـل الحيـاة اليوميـة تسـعى وتكـد طيلـه يومهـا لتحصـل عـلى مـا

يحافظ على مجرد البقاء، فليست لديها المساحة الكافية ولا حتى الوعى لتأمل القضايا أو الأحلام الكبيرة.

على هذه الخلفية تحددت مهمة الشباب المتفاعل فى إطار المجتمع الإفتراضى وأبرزها شباب "المواقع الافتراضية"، الذين أدركوا أن الواقع لا يشبع غالب إحتياجاتهم، إبتداء من الحاجة إلى حرية التعبير وحتى الحاجة إلى الجنس. ومن ثم فقد تدفقوا إلى المجتمع الإفتراضى، إتخذوا من صفحات "المواقع الافتراضية" منبراً للنقد السياسى والإجتماعى والثقافى لكل ما هو واقعى. يسعون من وراء ذلك إلى إيقاظ وإستنفار وعى الجماهير، وفى ذات الوقت إضعاف الأنظمة السياسية التى تشكل عقبة كؤود أمام دوران عجلة التحديث والتغيير. لقد هربوا من المجتمع الواقعى إلى المجتمع الإفتراضى، ليتخذوا من آلياته منابر لنقد المجتمع الواقعى بكل تكويناته، فى محاولة لتغييره. غير أننا نعتقد أن حركتهم ودعواتهم إلى الأحتجاج والتظاهر، وإن أفزعت الأنظمة السياسية الضعيفة، غير أنها غير قادرة لفرض إنهيارها. وذلك لأسباب عديدة منها أن تمردهم شامل وغير مركز الهدف، ويستنفر ضدهم جبهات عديدة، إبتداء من النظام السياسى حينما يعايرونه بعجزة، ويطالبون بضرورة إزاحته. وحتى المجتمع الذى يتناقضون مع تراثه وأخلاقه حينما يطالبون بحرية الجنس وإباحة الشذوذ. ولذلك فإنهم وإن كانوا قادرين على إستنفار الوعى ببعض القضايا، غير أننا لا يمكن أن نعتبرهم قوة قادرة على التغيير إنهم أطفال الثورة الصغار حسب تعبير جيرجون هابيرماس.

أولاً: حقائق أساسية حول مواقع المجتمع الإفتراضى

يعد "المواقع الافتراضية" أحد مكونات شبكة المعلومات الدولية، إضافة إلى أنه يشكل قطاع متيز، له طبيعته الخاصة فى المجتمع الإفتراضى، الذى أصبح له وجوده المؤثر، على تفاعلات المجتمع الواقعى الذى نعيش فيه. ويحاول البعض تعريفه بإعتباره مدونة أو صفحة شخصية على شبكة المعلومات. يناقش فيه صاحب الصفحة أصدقاءه ويتكلم معهم ويتبادل معهم الصور والفيديو والصوتيات(١)، وهو ما يعنى أن المواقع الافتراضية فى أساسة موقع ألكترونى،

يتضمـن شـبكة إجتماعيـة تسـاعد الأفـراد عـلى الإتصـال بأصدقائهـم وعائلاتهـم، وأصدقـاء العمـل بفاعليـة عـبر شـبكة المعلومات. ويشـير أسـم الموقع - الفيس بـوك- إلى ورقة التعريـف Facebook التـى تمنـح للطـلاب الوافدين إلى الحرم الجامعـى فى الولايات المتحدة، والمـدارس والكليات ليتعارف كل منهـم عـلى الآخـر (٢). وقـد أسـس الموقـع "مـارك جوكربـرج" الطالـب بجامعـة "هارفـارد" لتسـهيل عمليـة التواصـل بـين طلبـة الجامعة، بإنشـاء موقـع يمكنهم من تبـادل أخبارهـم وصورهـم وآرائهم.

وقـد أنشـئ موقـع «الفيـس بـوك» كأحـد المواقـع الافتراضيـة فى ٢٠٠٤ (٣) وأصبـح الموقـع الإجتماعـى الأشـهر عـلى شـبكة المعلومـات فى مـصر والمجتمعـات العربيـة، ومـما يـدل عـلى أهمية هـذا الموقـع أنـه تجـاوز موقـع "مـاى سـبيس "My Space" مـن حيث عـدد المشـتركين فى الولايات المتحـدة، الذيـن بلغـوا نحو ٨٠ مليون مشـترك أو أكثر قليـلاً، وبذلك يعد موقـع "المواقع الافتراضية" هـو الأشـهر والأهـم عالميـا، حيـث يبلـغ عـدد المشـتركين فى الموقـع نحـو ٢٠٠ مليـون عـلى الصعيـد العالمـى (٤). ويجتـذب الموقـع الأمريكيـين بالدرجـة الأولى وتصـل نسـبة الأمريكيـين الملتحقـين بالموقـع نحـو ٣٨٪ مـن زوار الموقـع. وتـأتى فى المرتبـة الثانيـة كنـدا، ثـم تـاتى المملكـة المتحـدة فى المرتبـة الثالثـة، حيـث يصـل عـدد الذيـن ينتمـون إليهـا نحـو ٣,٥ مليـون بريطـانى، وتـأتى مـصر فى المرتبـة الرابعـة. حيـث يصـل عـدد زوار الموقـع مـن المصريين نحـو ٢,٥٪ مليون زائر وبذلك يشـكل المصريـون ١,٢٥٪ مـن زوار الموقـع.

ويدخـل إلى "المواقـع الافتراضيـة" يوميـا نحـو ١٥٠ ألـف زائـر، وقـد بـدأ الموقـع فى مـصر بدايـة متواضعـه، ولم يكـن عليـه إقبـال كبـير فى البدايـة، حيـث تشـكلت جماعـات عديـدة حـول موضوعـات متنوعـة يلتقـى الشـباب حولهـا. ويدور بشـأنها حـوار ونقـاش كبير حـول قضايا تتصل بـآداء الدولـة والنظـام السـياسى. حتـى أصبحـت هـذه الصفحـة موقـع رفـض مـن قبـل المراقبـين لآداء هـذا الموقـع لأسـباب ذات طبيعـة سياسـية فى مضمونهـا. وهنـاك بعـض الدول التـى قاطعت

موقع المواقع الافتراضية كلية، حتى وصل الأمر إلى حد منع إستخدامه فى مجتمعات مثل سوريا وإيران لأسباب سياسية (٥) وأن أدعى أن المنع كان لأسباب إجتماعية. وهو ما يعد شهادة على فعالية الموقع ودرجة تأثيرة على تفاعلات المجتمع الواقعى، والأنظمة السياسية المهيمنة عليه.

ويشير تأمل "الموقع الافتراضي" من حيث فاعلية والحوارات التى تدور حوله إلى تميزه ببعض الحقائق الأساسية. حيث تتمثل الحقيقة الأولى بهذا الصدد، فى أنه على الرغم من الإنتشار الواسع لتكنولوجيا شبكة المعلومات الدولية. فإن موقع "المواقع الافتراضية" يعد أحد قطاعاتها، غير أنه يتميز على المواقع الأخرى فى بعض الجوانب، أبرزها أنه يسمح بالتحكم في من يمكنه رؤية المعلومات الشخصية المتاحة. إذ يمكن لصاحب الصفحة، وضع قيود على بعض الأنشطة، بحيث يراها مجموعة الأصدقاء الذين يختارهم فقط، بالإضافة إلى إمكانية رفض مصادقة أى شخص بسهولة. "فالموقع الافتراضي" لا يسمح لأى شخص أن يتصفح أخبار الآخرين، إلا إذا كان من الأصدقاء المشتركين أو الذين ينتمون لنفس الشبكة. التى لا يمكن الإشتراك فيها إلا عن طريق E-mail بريد الكتروني معين خاص بهذه الشبكة. ويعكس ذلك مدى "الموقع الافتراضي" على حماية خصوصية أعضائه، وبذلك شكل هذا الموقع نقله فى عالم شبكات المعلومات (٦).

وتتصل الحقيقة الثانية بتميز "الموقع الافتراضي" بعدة خصائص أساسية، من هذه الخصائص "خاصية الدوام" وهى يعنى بقاء المعلومات المتعلقة "بصفحة" الشخص لفترة طويلة قد تصل إلى ستة شهور. وذلك على عكس الحديث أو المعلومات المؤقتة التى تتدفق من خلال الوسائط الإتصالية عموما، والتى ينتهى وجودها بمجرد الفراغ منها. فى هذا الإطار فإننا نجد أن هذه المعلومات تسجل من أجل الإستخدامات المستقبلية، بحيث ييسر ذلك تحقيق الإتصال غير المتزامن. كما أنه يشكل إطارا لأنطلاق الحديث فى أى وقت آخر، فيما يتعلق بذات الموضوع. ذلك يعنى أن الأحاديث والتعليقات المتبادلة والمسجلة على الموقع، يمكن الرجوع إليها بعد دقائق او أيام أو حتى شهور من

تسـجيلها. وفى ذلـك فهـى تختلـف عـن المحادثـات العاديـة بـين الأفـراد والتـى تحـدث فى نطـاق الإجتماعـات والتفاعـلات الحياتيـة. ذلـك يرجـع إلى أن الكلـمات التـى يتبادلهـا الأفراد تكـون عادة لحظيـة وغـير مسـجلة، ولا يسـتطيع الفرد إسـترجاعها بعد اللحظـة التى قيلت فيها (٧). ومن شـأن هـذه الحقيقـة أن تجعـل التفاعـل عـلى شـبكة المعلومـات أكـثر كثافـة مقارنـة بالتفاعـل الواقعـى، وذلـك لأن بعـد المـاضى يسـقط مـن بنيـة التفاعـل، الأمـر الـذى ييـسر إمكانيـة إعـادة التفاعـل مع بعـض هـذه المضامـين وإعـادة تأملهـا وإحياء بعـض جوانبها. وفى هـذا الإطار فإنـه إذا كان زمان أى تفاعـل ينقسـم إلى ثلاثـة مراحـل المـاضى والحـاضر والمسـتقبل. فـإن هـذه المراحـل توجـد فى معية واحـدة ويسـقط التمييـز بينهـا بالنسـبة للتفاعـل الإفـتراضى، فى مقابـل أن بعـد المـاضى هـو الـذى يسـقط مـن التفاعـل الواقعـى، الأمـر الـذى يشـير إلى كثافـة أعـلى فى التفاعـل الحـادث بـين شـباب شـبكة المعلومـات، مقارنـة بالتفاعـل الواقعى.

وتشـير الحقيقـة الثالثـة إلى تميـز التفاعـل الحـادث عـلى سـاحة شـبكة المعلومـات، وبخاصـة عـلى "الموقـع الافـتراضي" بالقـدرة عـلى العـزل والتصنيـف، وذلـك يرجـع إلى أن البيانـات المتعلقـة بالهويـة مسـجلة فى صفحـة المشـارك كنـص. وإذا كان التفاعـل الواقعـى يحـدث بصـورة عشـوائية أحيانـا وتلقائيـة ولا إراديـة احيانـا أخـرى، الأمـر الـذى قـد يتسـبب في وقـوع هـدر واضـح للتفاعـل. فـإن أدوات البحـث والإكتشـاف فى "الموقـع الافـتراضي" تسـاعد النـاس عـلى العثـور إراديـا عـلى العقليـات المشـابهة التـى لهـا وجـود رقمـى، أو بينهـا إتصـال مبـاشر عـلى شـبكة المعلومـات، وهـو الأمـر الـذى يتحقـق بمجـرد إجـراء عـدة ضغوطـات عـلى لوحـة المفاتيـح (٨). بحيـث يعـد ذلـك مقدمـة لتشـكيل جماعـات أكـثر تجانسـاً تكـون قـادرة عـلى تطويـر ثقافـة محـددة، وربمـا أهـداف محـددة، بـل ويسـاعد تفاعلهـا المتجانـس إلى إسـتكمال هويـة أعضاءهـا بصـورة واضحـة. ويدخـل فى هـذا الإطـار بعـد الإراديـة، بمعنـى أن تشـكيل الجماعـات يكـون عـادة محكومـاً بالمرجعيـة التـى أصبحـت متقاربـة، إسـتناداً إلى البيانـات التـى وردت فى "صفحات الأعضـاء". كـما يرفـع ذلـك مـن مسـتوى العقلانيـة، لأن الإنتقـاء يكـون رشـيدا فى هـذه الحالـة،

فالجماعة التى تهتم بمناقشة القضايا السياسية، من غير المعقول أن تضم أعضاء يمارسون "السخرية" أو إطلاق "النكات".

وتذهب الحقيقة الرابعة إلى إمكانية النسخ المتكرر للأفكار التى طرحت على ساحة التفاعل الحادث على الموقع إنطلاقا من أى صفحة من صفحاته. ويعنى ذلك أنه يصبح من السهل نسخ صورة أو تعليق أو مقال من أحد الصفحات، ونقلة لصفحة أخرى بدون تغيير أى من ملامحه، وبالتالى فإن فرصة عدم الدقة فى النقل أو إنتشار الشائعات أو النقل الخاطئ تقل كثيراً (٩). وهو ما يعنى القدرة على الإحتفاظ بالنص كنواة صلبة، يمكن أن يلعب دوره بصورة دائمة، وبنفس الطاقة تقريبا فى إتجاه إستنفار تفاعل كل من يطلع عليه. بحيث يكون التفاعل مع النص عادة فى طبيعته الصحيحة وغير المحرفة، ومن ثم تظل له دائماً قدرة إنتاج ذات التفاعل.

وتؤكد الحقيقة الخامسة على وجود الجمهور غير المرئى، وهى حقيقة ينبغى التنبية إليها، وهى فى ذلك تختلف عن التفاعل الواقعى، الذى يقع عندما يتحدث الفرد إلى صديق أو زميل فى الحياة اليومية. حيث يكون من السهل فى الغالب معرفة من بإستطاعته إدراك أو سماع المحادثة الجارية، وفى هذا الإطار يلعب الزمان والمكان دوراً فعالاً. غير أن هذا الأمر يختلف بالنسبة لما يقع على شبكات المعلومات، إذ أنه بإمكان أى شخص الدخول على الموقع وقراءة أو "سماع" المحادثة المسجلة فى أى وقت، وبدون علم أطراف المحادثة – وإن وضع موقع "المواقع الافتراضية" بعض التحديدات على ذلك – يسهل ذلك الخواص السابقة، التى أشرنا إليها وهى "الدوام وقابلية البحث، وإمكانية التكرار، والجمهور غير المرئى". حيث يمكن البحث عن المحادثة، كما يمكن نقلها من موقع إلى آخر، وبالتالى زيادة إنتشارها بدون علم أطراف المحادثة. وعلى الرغم من ذلك فإن معظم مشتركى المواقع والشبكات الإجتماعية يدخلون عليها للمحافظة على صداقات موجودة بالفعل فى حياتهم اليومية. ولتسهيل الإتصال بهؤلاء الأصدقاء، فإن الشخصيات والمحادثات تظل موجودة ومسجلة لآلاف أو لملايين أخرى من البشر، الذين يستطيعون رؤيتها فى أى وقت ومن أى مكان

(١٠) ومن ثم يكون بإمكانهم التفاعل معها.

وتشير الحقيقة السادسة إلى أن الصفحات الشخصية Profile المتاحة على "الموقع الافتراضي" تساعد على تحقيق التفاعل الإجتماعى المستند إلى قاعدة التباين - التكامل. إذ يساعد التفاعل من ناحية فى تاسيس مجموعات متجانسة من حيث إهتماماتها، لأن البيانات المتاحة على الصفحة تساعد على تحقيق التواصل بين الأفراد الأعضاء معاً. ومن ثم تقوم الصداقة بين الأعضاء المتشابهين فى الصفات والهويات والأفكار. وعلى هذا النحو يساعد مثل هذا الوضع فى تشكيل مجموعات متجانسة من الداخل حول إهتمام مشترك، وأن تباينت مع الجماعات الأخرى. وفى هذا الإطار تتبلور جماعات حول قضايا محددة كقضايا السياسة أو الجنس أو الدين، أو الموقف من بعض الظواهر الإجتماعية. أو حتى من بعض القضايا "التافهة" إذا نظرنا إليها من مرجعية المجتمع الواقعى، وإن كانت تشبع حاجة لدى الشباب. بحيث تشكل هذه الجماعات المتباينة – يضاف إلى ذلك الجماعات التى تتبلور حول إهتمامات مزدوجة – بنية المجتمع الإفتراضى الذى يعمل موقع "المواقع الافتراضية" بالإضافة إلى المواقع الأخرى على إبراز ملامحة.

وتتصل الحقيقة السابعة على أن التعبير من خلال "الموقع الافتراضي" يتميز بكونه محرراً من القيود، ويمكن النظر إلى أن هذا التحرر يتحقق على ثلاث طبقات، الطبقة الأولى أنه تحرر يتحقق من خلال آليات المجتمع الإفتراضى. وهى الآليات التى لا يستطيع الكبار التعامل بواسطتها، ومن ثم نجد الشباب محررون من سلطة الكبار فيما يتعلق بالمضامين التى يتداولونها. وفى إطار الطبقة الثانية فإنه بإمكان الشباب من أجل أن يصبح تعبيرهم حراً، أن يظهروا أنفسهم من خلال صفات مستعارة غير صفاتهم الشخصية، وفى إطارها يعبرون بلا حرج عن كل ما يدور بداخلهم بدون إعتبار لأية قيود. والثالثة أن بإستطاعة شباب "الموقع الافتراضي" أن يمنع الآخرين من الدخول على صفحاته، كما أن بإستطاعته أن يمنع النقل منه. وهو ما يمنحه قدراً أكبر من التحرر والحرية فى التعبير، ولذلك وجدنا أن التعبير عن مختلف القضايا صريحا ومحرراً من آية قيود.

وتذهـب الحقيقـة الثامنـة والأخـيرة أنـه برغـم الفعالية العالية لشـباب المجتمـع الإفتراضى، فـإن حجمـه ومـدى فاعليتـه مـا زال محـدوداً. وذلـك بإعتبـار كونـه يخضـع لإسـتقطاب الشـمال والجنـوب والتوزيـع غـير العـادل لآليـات الإتصـال. ذلـك أن إسـتخدام آليـات الدخـول إلى المجتمع الإفـتراضى كإمتـلاك الكومبيوتـر وتكاليـف الدخـول إلى شـبكة المعلومـات، وإمتلاك المهـارات لإنجاز ذلـك قـد تكـون ميـسرة للبعـض. غـير أنهـا تصبـح ذات تكاليـف باهظـة وعاليـة للغايـة بالنسـبة للبعـض الآخـر فى هـذا العـالم. فمثـلا نجـد أن نصـف الشـباب فى الولايـات المتحـدة يتعاملـون مع هـذه الخدمـة، بالإضافـة إلى فاعليـة متغـيرات الدخـل والنـوع والتعليم والسـن، حيـث تحدد هذه المتغـيرات مـن هـم السـكان وما هـى الشرائح الاجتماعيـة التى تسـتفيد من هذه الخدمـة. غير أن الأمـر يصبـح أكثر سـوءاً بالنسـبة للمجتمعـات الفقيرة، حيث تنخفض نسـبة المتعاملـين مع المجتمع الإفـتراضى بصـورة واضحـة. وإسـتناداً إلى بيانـات البرنامـج الإنمـائى للأمـم المتحـدة، فإننـا نجـد أن المجتمعـات الصناعيـة يصـل سـكانها الذيـن يتعاملـون مع شـبكة المعلومـات الدوليـة إلى نحو ١٥٪ مـن سـكان العـالم غـير أن نسـبتهم تصـل إلى ٨٨٪ مـن مسـتخدمى شـبكة المعلومات فى هـذا العالم. تأكيـداً لذلـك نجـد أن ٥, مـن واحـد فى المائة من السـكان هم الذين يسـتفيدون من هـذه الخدمة. وأن ربـع مجتمعـات العـالم لديهـم أقـل مـن تليفـون واحـد لـكل مائـة شـخص، الأمـر الـذى يجعل إمكانيـة الحصـول عـلى خدمة شـبكات المعلومات أملا صعبـا فى المدى القصـير (١١)، وهو ما يعنى أن توزيـع هـذه الخدمـة يتصـف بعـدم العدالة عـلى الصعيـد العالمى.

ويتسـاوى مـع ذلـك عـدم عدالـة مناظـرة تصبـح أكـثر وضوحـاً فى مجتمعـات الجنـوب، حيـث نجـد أن إمتـلاك إمكانيـة الدخـول إلى المجتمـع الإفـتراضى عبر آلياتـه ميسرة بالنسـبة للطبقة العليـا والشريحـة العليـا للطبقـة الوسـطى. التـى يمتلـك أبناؤهـا الحاسـبات الآليـة وتكاليـف الإشـتراك فى الشـبكة، وفى العـادة يدخـل هـؤلاء إلى المجتمـع الإفـتراضى مـن داخـل منازلهـم. عـلى خـلاف ذلـك نجـد أن أبنـاء الشرائـح الوسـطى والدنيـا للطبقـة الوسـطى، الذيـن يدخلـون إلى المجتمـع الإفـتراضى وإن كان ذلـك بمسـتوى أقـل نسـبيا. وذلـك لأنهـم لا يمتلكـون فى الغالـب

آليات الدخول إلا بصورة مؤقتة وغير منتظمة، من خلال "قهاوى الإنترنت" لقاء تكاليف منخفضة نسبيا، تأكيداً لذلك أننا نجد أنه بينما تبلغ نسبة الشباب فى المجتمع المصرى نحو ٣٤٪، أى ما يعادل خمس وعشرون مليون شاب، لا يدخل منهم شبكة المعلومات سوى مليونان ونصف شاب. يضاف إلى ذلك أن هناك غياب للعدالة بين الريف والحضر، حيث نجد أن سكان الحضر هم بالأساس المتعاملون مع المجتمع الإفتراضى. يضاف إلى ذلك وجود بعض التحيزات فيما يتعلق بمتغير النوع والسن والتعليم، حيث نجد أن الذكور والشباب والمتعلمون هم الأوفر حظا من حيث إمتلاك القدرة للدخول إلى المجتمع الإفتراضى، مقارنة بالإناث وكبار السن والأميين.

ذلك يعنى أننا من خلال "الموقع الافتراضي" نطل على مجتمع إفتراضى غالبية مواطنية من الشباب، الذين تحرروا من قيود واقعهم الإجتماعى، ومن ثم شرعوا فى التعبير عن ذواتهم، بحرية تمكنهم من إختراق المحرمات كالدين والجنس والسياسة. وهى القطاعات التى تعتبر مجالات عمل مفضله بالنسبة للشباب، إضافة إلى أنها المجالات التى تفرض القيود بكثافة عليها. وإذا كنا فى الفقرة السابقة قد عرضنا لبعض الحقائق المتعلقة "الموقع الافتراضي"، بإعتباره الموقع المتميز بين مختلف المواقع على شبكة المعلومات، فإننا نعرض فى الفقرة التالية لبعض الإعتبارات المتعلقة بإستخدام الشباب لمواقع "المجتمع الافتراضي".

ثانياً: إعتبارات أساسية حول تفاعل الشباب فى المجتمع الإفتراضى

نحاول فى هذه الفقرة تطوير مجموعة من الإعتبارات الأساسية التى تتصل بطبيعة العلاقة بين الشباب «ومواقع المجتمع الافتراضي"، بإعتبارها الأبعاد التى تحدد طبيعة التفاعل الثقافى والإجتماعى. وتتصل هذه الإعتبارات بجوانب كثيرة ابرزها دوافع دخول الشباب على أي من مواقع المجتمع الافتراضي، وأنماط الشباب المشاركين فى هذه المواقع. إضافة إلى الدور الذى يلعبه الموقع فى تشكيل الكتلة الشبابية التى تتفاعل فى المجال الإفتراضى،

الـذى أسسـه الموقـع. ومـا هـى خصائـص هـذه الكتلـة، ثـم مـا هـى القيـم أو الثقافـة التـى توجه سـلوكها عـلى "مواقـع المجتمـع الافـتراضي" وعلاقـة ذلـك فى مجملـة بالإطـار الإجتماعى للشـباب فى مجتمعـه الواقعـى. ويتمثـل الإعتبـار الأول مـن هـذه الإعتبـارات فى طبيعـة الدوافـع، التـى تدفـع الشـباب للتعامـل مـع هـذه المواقـع، فى هـذا الإطار تذهـب أحدى الدراسـات على أن أهـم الدوافع هـى الدوافـع الطقوسـية، والتـى يسـعى مـن خلالهـا الشـباب لتمضيـة وقـت الفـراغ والتسـلية والتنفيـس عـن الـذات. وفى هـذا السـياق فإننـا نجـد أن التفاعـل الحـادث عـلى المواقـع الافتراضية يشـكل الجانـب العاطفـى أو الدافـئ فى حيـاة الشـباب لكونـه يشـكل السـاحة التـى يهـرب إليهـا مـن مصاعـب الحيـاة اليوميـة. والـذى تـؤدى إلى تزايد إرتبـاط الشـباب بالمجتمع الإفـتراضى عموما، وبالمواقـع الكائنـة فيـه بصفـة خاصة. وتشـكل الدوافع المعرفيـة الدافع الثانى، حيث يتجه الشـباب إلى التعامـل مـع الموقـع للحصـول عـلى المعلومـات المتعلقـة بمختلـف المجـالات، خاصـة أن هـذه المعلومـات تقـدم لـه أحيانـا مـن خـلال ثقافـة الصـورة الأكـثر ملاءمـة لعقليـة الشـباب. بالإضافـة إلى ذلـك هنـاك الدوافـع الإجتماعيـة للتعامـل مـع الموقـع، والتـى تتمثل فى السـعى لإقامـة علاقات إجتماعيـة جديـدة، والحـرص على التفاعـل الإجتماعى والمشـاركة الإجتماعية مع الأصدقـاء. خاصة أن الأطـر الإجتماعيـة التقليديـة الواقعيـة كالأسرة والمدرسـة لم تعـد قـادرة عـلى إحتضـان الشـباب. وتوفـير إشـباع لحاجاتـه العاطفيـة، فضـلا عـن حريـة الـرأى والتعبـير التـى يفتقدهـا فى مختلـف المجـالات وعـلى كافـة المسـتويات. إلى جانـب محاولـة تأسـيس علاقـات عاطفية مع أصدقـاء جدد، لم يرتبـط بهـم الشـباب بأيـة علاقـات خـارج شـبكة المعلومـات (١٢). يؤكـد ذلـك دراسـة أجريـت عـلى عينـة مـن الشـباب حـول دوافـع تعامل الشـباب مـع موقـع "المواقـع الافتراضية" فأشـاروا إلى التسـلية والترفيـة، وذلـك بنسـبة ٧٠٪ مـن عينة الدراسـة. إلى جانب تشـكيل صداقـات جديدة كما ذهبـت نسـبة ٤١,٢٪، والتواصـل مـع الآخريـن كـما أشـارت نسـبة ٣٧,٥٪ والتنفيس عـن الذات كما ذكـرت نسـبة ٢٤,٣٪ . ثـم البحـث عـن علاقـات رومانسـية كما ذهبت نسـبة ١٨,٤٪، والإشـتراك فى مجموعـات متنوعـة كـما أشـارت نسـبة ١٥,٤٪. وهـى كلهـا دوافـع تشـير إلى إفتقاد الشـباب لهذه

الجوانب فى المجتمع الواقعى، ومن ثم فقد لجأوا إلى المجتمع الإفتراضى الذى بدأ يشكل سياقا لإشباع الحاجات الشبابية.

ويذهب الإعتبار الثانى إلى أن تعامل الشباب مع مواقع المجتمع الافتراضي يؤدى إلى عديد من الآثار الإجتماعية الإيجابية والسلبية على السواء. وهى الأثار التى تبدأ من إتاحة الفرصة للأنفتاح على الآخرين، وهو الإنفتاح الذى قد تكون له نتائجه الإيجابية، كما قد تكون له نتائجه السلبية. ومن النتائج الإيجابية التى أكدت عليها إحد الدراسات أن التعامل مع المواقع الافتراضية يساعد الشباب على أن يكونوا منفتحين على الآخرين بوزن نسبى يصل إلى ٤٤٪. أو أنه يساعد الشباب على التخلص من الوحدة التى يشعرون بها فى سياقاتهم الواقعية وذلك بوزن نسبى يصل إلى ٨٣,٠٩، أو أنه يساعد الشباب على التخلص من ضغوط الحياة بوزن ٧٨,٣٨ . إضافة إلى أنه يساعد الشباب فى تطوير علاقات إجتماعية، تساعد هى فى التواصل مع الأصدقاء من خلال الموقع كبديل للتواصل معهم فى الواقع بوزن نسبى يصل إلى ٦٦,٠٣ . كما أنه يساعد فى تأكيد قدرة الشباب على التكيف مع مشاكلهم وذلك بوزن يصل إلى ١٥٦,٣٧.

فى مقابل ذلك هناك بعض الأثار الإجتماعية السلبية، كالشعور بالملل، بسبب قضاء وقت طويل فى التعامل من خلال الموقع مع الآخرين، الأمرالذى يجعل الإنسان أكثر قلقا لأنه يعيش مشكلاتهم وذلك بوزن ٥٩,٥٦ . يؤكد ذلك قول أحد الشباب أن بعض المواقع الافتراضية كموقع "الفيس بوك" ده دايما مليان دراما، أنا خلاص زهقت من الألم والدموع والغيرة والحزن والحقيقة والأكاذيب... دى حاجة فظيعة...أنا بجد زهقت جداً من الدراما، مش قادره أستحمل أكثر من كده، بدل من الحب المفروض نشعر به ... أنا عندى أصحاب بيشتكوا لى أنهم مش رقم واحد من ضمن أفضل ثمانية أصدقاء عندى، مش مقعول، إكبروا بقى، سارة ١٧ سنة"(١٣). إضافة إلى أن التفاعل من خلال المجتمع الإفتراضى يجعل الإنسان سلبيا فى مواجهة تفاعلات المجتمع الواقعى وذلك بوزن ٤٩,٥١ . يضاف إلى ذلك أن التفاعل من خلال الموقع مع الاخرين،

مـن شـأنه أن أثـر عـلى التفاعـلات ذات الطابـع الجماعـى كتلـك التـى تقـع فى نطـاق الأسرة وذلـك بـون ٤٣,٦٣ . الأمـر الـذى يعنى أن إسـتغراق الشـاب فى تفاعلات المجتمع الإفـتراضى، يؤثر بطبيعة الحـال عـلى درجـة مشـاركتة فى تفاعـلات المجتمـع الواقعـى، وعـدم الإهتـمام بقضايـاه وظواهـرة (١٤).

وإلى جانـب أن المشـاركة الإجتماعيـة فى المجتمـع الإفـتراضى مـن خـلال أي مـن المواقـع لـه آثـاره السـلبية والإيجابيـة، فـإن لهـذه المشـاركة أثارهـا النفسـية الإيجابيـة والسـلبية كذلـك. فمـن الآثـار الإيجابيـة ذكـر نسـبة مـن الشـباب أنهـا تشـعر بسـعادة كبـيرة حينـما تتواصـل مـع أصدقـاء قدامـى، وذلـك بـوزن ٩٢,٤. إضافة إلى تأكيد بعض الشـباب بأنه يشـعر بالأهميـة والإيجابية حينما يشـارك الآخريـن همومهـم وأخبارهـم ومناسـباتهم، وذلـك بـوزن ٨٣,٨٥. كـما ذكـر البعـض أنـه لا يشـعر بالوحـدة أو الإنطـواء عندمـا يتفاعـل مـع الآخريـن مـن خـلال المواقـع وذلـك بـوزن ٨١,٨٦. كـما ذكـر آخـرون بتزايـد قدرتهم على المشـاركة وإتخـذ القرار، من خـلال التفاعل من خـلال الموقع وذلـك بـوزن ٦٩,٨٥. أو أنهـم يشـعرون بتحقيـق ذواتهـم من خـلال التفاعل مع آخريـن فى الموقع وذلـك بـوزن ٦٧,٨٥ ، كـما ذكـرت شريحـة أخـرى بتغير مزاجهـا بسـبب التفاعـل كثـيراً مـن خـلال الموقـع، وذلـك بـوزن ٦٥,٤٤. بالإضافـة إلى ذلـك توجـد الآثـار السـلبية كذكـر شريحـة من الشـباب بأنهـا تشـعر بالسـلبية، حينما لا تسـتطيع المشـاركة فى حل مشـاكل الآخرين المتفاعلـين معهم خلال الموقـع وذلـك بـوزن ٦٢,٥. كذلـك ذكـر بعضهم عدم الإرتياح لتغير أسـلوبهم فى الحيـاة وذلك بوزن ٥٧,٦ ، وتأكيـد البعـض بـوزن ٥١,٧٢ بأنهـم يشـعرون بالعصبية لإدمـان التفاعل مـع الآخرين داخل الموقـع. وذكـر البعـض بأنهـم يتقمصـون أدوارا غـير حقيقيـة فى التعبـير عـن حالهـم داخـل الموقع، وذلـك بـوزن ٥٠,٢٥ كـما أكـد البعـض عـلى الشـعور بالقلـق والإكتئاب بسـبب التفاعل على سـاحة الموقع (١٥).

وذلـــك يعنـــى بطبيعـــة الحـــال أن التحـــول فى طبيعـــة التفاعـــل الإجتماعـــى مـــن هيئتـــه الواقعيـــة إلى شـــكلة الإفـــتراضى، يجعـــل الشـــخص اكـــثر ميـــلا للإصابـــة ببعـــض التقلصـــات الإجتماعيـــة والنفســـية. وذلـــك يرجـــع إلى أن الشـــخص قـــد تمـــت تنشـــئتة

فى سياق واقعى التفاعل، وهو الآن يتفاعل بهذه المكونات الواقعية فى سياق إفتراضى. الأمر الذى يفرض على بعض شرائح الشباب الأحساس بالميل إلى العزلة، أو القلق بشأن مشاكل الآخرين، أو بسبب الإبتعاد عن التفاعل الأسرى الذى إعتاد عليه. وذلك يرجع إلى أننا أمام تفاعلات جديدة يمكن أن تمس رواسخ المجتمع الواقعى، لولا أن الشرائح المشاركة فى التفاعل الإفتراضى ما زالت محدودة للغاية، لا تتجاوز ٢,٥ مليون شاب. ينتمون فى غالبهم إلى الشرائح العليا من الطبقة الوسطي أو الطبقة العليا، وهى شرائح لها موقعها المنعزل نسبيا فى بناء الترتيب الإجتماعى.

ويتصل الإعتبار الثالث بأن "الموقع الافتراضي" يلعب دوراً محوريا فى تشكيل الكتلة الشبابية، لتؤسس ما يمكن أن يسمى بشعب "الموقع" حيث تتأسس جماعة الكترونية، يشارك فيها الشباب الذين ينتمون إلى مجتمعات مختلفة، وإلى أعمار مختلفة نسبيا وإن كان داخل الحدود الشبابية (١٦). وبرغم قيام هذه الوحدة الشبابية ذات الطابع العالمى، إلى أن البعد القومى ما زال قائماً. إذ يتميز شعب "الموقع الافتراضي" بكونه – كما أشرت - يتشكل فى غالبة من أبناء الطبقة الوسطى، الذين إتسعت مساحة الإحتجاج الإجتماعى لديهم تارة بسبب إرتفاع الأسعار، أو مظاهر الأزمات الأخرى التى تعانى منها الطبقة الوسطى. وتارة بسبب أشكال التعذيب فى المعتقلات، حينما يحاول أبناء هذه الطبقة الإحتجاج بسبب سوء ظروفها وأوضاعها، أو بسبب تراجع الأوضاع الإجتماعية فى مصر مقارنة بالفترة الإشتراكية السابقة التى إزدهرت فيها أوضاع الطبقة الوسطى (١٧). وذلك بإعتبار أن الطبقة الوسطى هى الطبقة التى يتولى أبناؤها عادة التعبير عن الصوت المكتوم للمجتمع. ويساعد فى تشكيل هذه الكتلة الشبابية، أن جميع الشباب يدخلون إلى "الموقع الافتراضي" متخلين تماماً عن تحيزاتهم الواقعية الإثنية. إذ لا يلعب الإنتماء العرقى أو الطبقى دوراً يذكر فى الدخول والمشاركة فى تفاعلات الموقع. فالمراهقون الفقراء السود يرغبون مثل بعض المراهقين البيض من الطبقات الأغنى فى الالتحاق

بالموقـع، عـلى الرغـم مـن أن ما يمارسـونه عـلى الموقع يتأثـر بطبيعة الحـال بخلفاتهـم الإجتماعية" (١٨).

ويذهـب الإعتبـار الرابـع إلى تميـز "شـعب الموقـع الافـتراضي" - حسـبما تذهـب بعـض الدراسـات - بـأن غالبيـة مسـتخدمى الإنترنت هم من الشـباب، مقارنـة بالبالغين. وهـو الأمر الذى إنعكـس عـلى سرعة إتسـاع الشـبكة الألكترونية لأسـباب عديـدة منها أن الشـباب يشـكلون الغالبية بخاصـة فى مجتمعاتنـا العربيـة، إذ تصـل نسـبتهم فى العـالم العـربى إلى نحو ٣٤٪ من جملة السـكان العـرب. وثانيـا لأن الشـباب هـم الذيـن لديهـم الميـل إلى المغامـرة وإستكشـاف مـا هـو جديـد، وقـد ضاعـف مـن ذلـك الزمـان المتسـارع الأحـداث والتفاعـل، والـذى يتسـق فى تحولاتـه السريعـة مـع طبيعـة الشـخصية الشـابة. بحيـث يسـاعد ذلـك عـلى إتسـاع مواقـع الشـبكات الإجتماعيـة عـبر شـبكة المعلومـات الدوليـة بصـورة سريعـة جـداً، حتـي أنهـا لعبـت دورهـا فى تأسـيس علاقات وقيـام صداقـات بـين المسـتخدمين للشـبكة فى المنطقة الواحدة(١٩). والتى إتسـعت أحيانا لتشـمل التجمعـات الشـبابية عـبر العـالم، مـا دامـت التفاعـلات تـدور حـول ذات الإهتمامـات المشـتركة. وحيـث تقـوم الصداقـة بـين الأعضـاء المتشـابهين فى الصفـات والهويـات والأفـكار، وهـى الظـروف التـى تتيـح لهـم التعـرف عـلى بعضهـم البعـض، والتواصل فيـما بينهم. مثـل هذا التجمع يكتسـب خصائـص إجتماعيـة جديـدة ومحـددة، أهمهـا إلغـاء فاعليـة المتغـيرات، التـى قـد تلعـب دورها فى تفتيـت هـذه الكتلـة الشـبابية. فمثلاً يشـير تأمل حالة متغـير النوع بين شـباب "الموقع الافتراضي" إلى أن ٤٥,٦٪ منهـم مـن الذكـور حسـبما تذهـب أحدى الدراسـات فى مقابل ٥٤,٤٪ مـن الإناث هم الذيـن يشـاركون فى الموقـع (٢٠). وهـو مـا يعنـى التقارب فى الإشـتراك فى "الموقع الافـتراضي"، وإن ظهـرت الإنـاث بدرجـة أكـثر، لأنهـن الأكثر تعرضـا للقهـر فى المجتمع الواقعـى، ومن ثـم الهروب إلى المجتمـع الإفـتراضى. بالإضافة إلى ذلك فإن تأمل متغير السـن يكشـف أن شـعب "الموقع الافتراضي" شـبابى بالأسـاس. حيـث نجـد أنـه برغـم إمتـداد الإشـتراك فى موقـع "الموقـع الافـتراضي" إلى أسـفل حتـى شـمل طلبـة المـدارس الثانويـة، إلا أن عـدد المشـاركين مـن هذا المسـتوى مـا زال محـدود إلى

حـد كبـير. حيـث نجـد فى ذات الدراسـة أن نسـبة المشـاركين أقـل مـن ١٨ سـنة بلغت نحـو ١٤,٦٪ وأن نسـبة المشـاركين بـين ١٨ سـنة إلى ٢٠ سـنة بلغـت نحـو ١٦,٢٪. ونسـبة المشـاركين مـن ٢٠-٢٢ سـنة بلغـت نحـو ٣٠,٩٪، وأن مـن هـم أكثر من ٢٢ سـنة حتى الحد الأعلى المفترض لسـن الشـباب، وهـو ٣٠ سـنة بلغـت نحـو ٣٨,٢٪ (٢١). وهـو مـا يشـير إلى أن طـلاب المرحلـة الجامعيـة والثانوية هـم الجهـور الرئيـسى "للمواقـع الافتراضيـة". يضـاف إلى ذلـك أننـا إذا تأملنـا الأمـر مـن الناحيـة الإجتماعيـة، فإننـا سـوف نجـد أن غالبيـة المشـاركين فى "المواقـع الافتراضيـة" هـم مـن الغـرب". فى هـذا الإطـار تذهـب ذات الدراسـة إلى أن العـرب بلغت نسـبتهم نحـو ٨٦,٨٪، فى مقابـل المتزوجين الذيـن بلغـت نسـبتهم نحـو ١٣,٢٪. وهـو الأمـر الذى يشـير إلى أن شـبكة "المواقـع الافتراضية" وما يتـم تداولـة عـلى سـاحتها أصبح المرجعية الأساسـية للشـباب العزب، ومـن الطبيعـى أن يكون ذلك عـلى حسـاب تقليـص روابطهـم الإجتماعيـة الواقعية، على عكـس المتزوجين الأقل مشـاركة فى موقع "المواقـع الافتراضيـة"، وربمـا فى المجتمـع الإفتراضى عمومـا. لأنهم أكثر إسـتتراقاً فى تفاعلات وعلاقات المجتمـع الواقعـى، ومـن ثـم فلا حاجـة لديهم للإسـتغراق فى تفاعـلات المجتمـع الإفتراضى.

وإذا كان الإعتبار السابق يشير إلى دور "المواقع الافتراضية" فى تشكيل الكتلة الشبابية فإن الإعتبـار الخامـس يهتـم بتشـكيل الوعى الشـبابى، من خـلال دخول الشـباب للتواصل مـع الآخرين. حيـث يؤكـد أحدهـم "لأنـه المـكان الذى فيه أصدقـائى"، يدخل الشـباب معبرا عن طبيعتـه إلى هذا الموقع ودون بحث فى منطق هذا السلوك، حيث نجدهم يجيبون على سؤال لماذا الدخول إلى الموقع، فيجيـب "مـش عـارف ...بأخـش وخلاص"(٢٢) تأكيداً لميل إنسـياب إلى المغامـرة والبحث عن ما هو جديـد. بالإضافـة إلى ذلـك فـإن الموقـع يلعـب دوره فى تدعيـم التواصل الإجتماعى بـين مجموعات الأصدقـاء. وهـو مـا يعنـى أن الشـباب ينضـم إلى الموقـع الافـتراضي للمحافظـة عـلى إتصالاتهـم مع الأصدقاء. بحيث يساهم تصفح صفحات بعضهم البعض في تعميق التواصل والتفاعل. بحيث يمكن

أن يؤدى ذلك بداية تشكيل مضامين هذه الصفحات مرجعية للأفكار والقيم والسلوك.

وإنطلاقا من الصفحات الخاصة يتحرك الجميع إلى تأسيس صفحة أو بروفايل عام "يعط الحائط أو الجدار أحد أشكالها ذلك لأن الشباب يميلون إلى إمعان النظر فى بروفيلات الآخرين يبدأون بالصديق الذى دعاهم. وبرؤيتهم لهذا "البروفايل" تطرح أمامهم روابط لأصدقاء "الموقع"، وفى هذه الحالة يكون فى مقدرتهم أن يقضوا ساعات لا حصر لها، يتصفحون شبكة الموقع. يقفزون من صديق إلى صديق ويلملمون أثناء ذلك مضامين وقيم ومعطيات، وفى هذا الإطار يتعرف الشباب على أنواع التقديم التى تكون مناسبة إجتماعيا. إذ تقدم لهم صفحات الآخرين أمثلة واضحة لما ينبغى عليهم أن يقدموه على "البروفايل" الخاص بهم (٢٣). ومن ثم يتحرك الجميع بإتجاه الإتفاق على مجموعة من الأسس- بدون التفاعل الفيزيقى المباشر – التى ينبغى أن تراعى سواء فى بناء "البروفايل" أو السعى إلى تصفحه، أو ما يتعلق بالمضامين التى ينبغى أن توضع فيه. وهو ما يعنى أن التفاعل الإجتماعى مع الاخرين على "الموقع الافتراضي" يؤدى إلى تنمية المهارات الشخصية والخبرات الحياتية والتعامل مع الآخرين، فضلاً عن أن الروابط الإجتماعية على شبكة المعلومات، تساعد على بعث الشعور بالراحة لدى المستخدمين (٢٤)، فهم فى مجتمعهم وبين نظرائهم.

على هذا النحو تتشكل كتلة شبابية بإعتبارها واقع متجسد ومتفاعل فى نطاق مجتمع إفتراضى أو لنقل خيالى. ومن المثير أن هذه الكتلة ليست ساكنة ولكنها متحركة، تسعى إلى أن تتحول من كتلة فى ذاتها إلى كتلة لذاتها – إذا إستخدمنا اللغة الماركسية – حيث يتحقق ذلك حينما تكتسب الوعى الفاعل من خلال الحوارات المتطرفة والمتناقضة أحيانا، حول قضايا متنوعة تهم مجتمعاتنا، ويهتم بها شباب "الموقع الافتراضي". من هذه القضايا قضية التفاعل بين العالمية والمحلية، فقد ظهرت مجموعات شبابية مناصرة لإدماج القيم الغربية فى ثقافة المجتمعات العربية من أجل الأسراع فى خطى التقدم بها. فى مقابل مجموعات أخرى تطالب بالإنعزال عن وسائل التكنولوجيا الحديثة، حماية للهوية

العربيـة مـن القيـم الدخيلـة عـلى المجتمعـات العربيـة. وبـين هذيـن الموقفـين المتناقضـين ظهـر تيـار وسـطى يـرى أهميـة دمج الإتجاهـين، بحيث يسـاعد هذا الدمـج فى عملية التحديـث والتقدم العـربى. قضيـة ثانيـة بـرزت حينـما شـنت إسرائيـل العدوان عـلى غزة، حيـث ظهرت نتيجـة لذلك حـوارات عـلى "الموقـع الافـتراضي" تعـبر عـن ميـل البعـض إلى التراجـع، والإكتفـاء بمتابعـة القضايـا الوطنيـة والإنكفـاء عليهـا، عـلى حـين وضـع البعـض الآخـر القضايـا العربيـة فى المقدمـة، بإعتبارهـا تسـبق الإهتـمام بـكل القضايـا الوطنيـة(٢٥). وهـو مـا يعنـى أنـه ثمـة تفاعلات تمـوج بها السـاحة الشـبابية عـلى "الموقـع الافـتراضي" وهـى التفاعـلات التـى تعـبر عـن ثلاثـة أبعـاد أساسـية. حيـث يشـير البعـد الأول إلى كـسر إحتـكار مجموعات شـبابية معينة للعمل الشـبابى إما لقربهـا من النظم السياسـية، التـى تتيـح لهـا فرصـة اكبر للتعبـير، وإمـا لإحتمائها بمظلـة جماعـة إثنية معينـة، تفرض تقـدم المجموعـة الشـبابية عـلى غيرها.

بينـما يتمثـل البعـد الثـانى فى تحـرك المجموعـات الشـبابية المشـاركة فى "الموقـع الافتراضي" مـن موقـع المتلقـى إلى موقع المشـارك، أى من شريحـة خاملة لا صوت لها إلى شريحة فاعلة تشـارك فى صنـع القـرارات. ودون التضخيـم فى نسـبة هـذا التغير، إلا أنـه من الملاحظ حـرص غالبية المواقع الألكترونيـة عـلى فتـح خاصيـة التعليـق عـلى محتوياتهـا لـكل زوارهـا مـن الشـباب. وهـو مـا أتاح الفرصـة للشـباب، بوضعهم يشـكلون غالبية مسـتخدمى الشـبكة الألكترونية، للدخـول بقوة فى هذا المجـال والتعبـير عـن وجهـة نظرهـم، تجـاه القضايـا المطروحـة. وتقييـم أو نقـد طريقـة التعامـل الحكومـى معهـا، بحيـث يتـم الإسـتفاده مـن هـذه المدخلات وإعـادة تدويرهـا لتنعكس فيـما تبثة الفضائيـات من أخبـار وتحليلات.

ويتصـل البعـد الثالـث ببنـاء شـبكة علاقـات الكتلـة الشـبابية، فلـكى يزيـد شـباب المجتمـع الإفـتراضى، مـن قوتهـم فإنهـم يلجـأون إلى آليـة التشـبيك. والتشـبيك يتـم بعبـور الحـدود القطريـة إلى الإتصـال بالتجمعـات الشـبابية العربيـة، لتشـكيل تجمعـات شـبابية عابـرة للحـدود الوطنيـة. وبالرغـم مـن أنـه لا يوجـد تحديـد واضـح لأهـم هـذه المجموعـات ونطـاق عملهـا والمعوقـات التـى تواجههـا، إلا أنـه يمكـن الحديـث

عـن عدة مجموعات شـبابية نشـطة فى هـذا المجال عابرة للحـدود القطرية، منها مجموعة "شـباب بـلا حدود" (٢٦). وتتسـع عملية التشـبيك بمسـاحة أوسـع حينـما تتصل بعض مجموعات الشـباب العـربى ببعـض مجموعـات الشـباب عـلى الصعيـد العالمـى، لـشرح بعـض القضايـا العربية للشـباب (٢٧). وهـو مـا عجـزت عنـه، أو لم تـؤده بنفـس الكفـاءة مؤسسـات الأنظمـة السياسـية، وبقدر ما مؤسسـات المجتمـع المدنى.

ويتمثـل الإعتبـار السـادس فى بـروز تبايـن واضـح بـين الشـباب فى المجتمـع الإفـتراضى، الذيـن يمتلكـون إمكانيـة التعامـل مـع التكنولوجيـا الألكترونيـة. التـى تشـكل مدخلهـم إلى المجتمـع الإفـتراضى مـن ناحيـة، والكبـار الذيـن تتتابـع دوائرهـم مـن الكبـار فى الأسرة إلى الكبـار فى المدرسـة إلى الكبـار فى مؤسسـات الدولـة المختلفـة. ومـن الثابـت أن هـؤلاء الكبـار لم يتيحـوا الفرصـة الكافيـة فى كثـير مـن الأحيـان للشـباب، للتعبـير عـن أنفسـهم. سـواء مـن خـلال الأسرة التـى لم تعـد قـادرة عـلى إسـتيعاب أبنائهـا، أو التـى تفجـر الـصراع عـلى سـاحتها، بسـبب الإنهيـار والهشاشـة التـى تعـانى منهـا. أو المدرسـة التـي تخلـت عـن وظائفهـا التربويـة وسـقطت عـلى سـاحتها القـدوة، والأحـزاب السياسـية، وتكوينـات المجتمـع المـدنى التـى لم تسـتطع أن تسـتوعب الطاقـات الشـابة مـن ناحيـة ثانيـة. مثـل هـذا التبايـن أدى إلى تـرك شريحـة مـن الشـباب، الأكـثر وعيـا والأكـثر قـدرة عـلى التعامل مع هـذه التكنولوجيـا الحديثـة في المجتمع الواقعـى. واللجوء إلى المجتمـع الإفـتراضى، إذ يـرى الشـباب أن المجتمـع الإفـتراضى الـذى يشـاركون فى تأسيسـة ، والمواقـع الألكترونيـة الأخـرى هـو "الفضـاء الخـاص لهـم، فهـو مسـاحة للشـباب بحكـم كونهـم شـباب. " إرتباطـا بذلـك يـدرك الشـباب أن المجتمـع الواقعـى للكبـار يفـرض عليهـم كثـيراً مـن القيـود، التـى تحرمهـم مـن المشـاركة، ومـن أبـداء وجهة نظرهم. كما يشـعرون بأنهـم متأرجحـون، وفى حيرة من أبائهـم الذيـن يعتقـدون فى المضامـين السـلبية لهـذه الإتصـالات، تلك التـى تقع بينهم وبـين رفاقهم الشـباب الذيـن يتفاعلـون معهـم عـبر شـبكة "المواقـع الافتراضيـة". ويؤسسـون معهـم مجتمعـا إفتراضيـا يقـدم إشـباعاً لإحتياجاتهـم الشـابة عـلى المسـتوى المعنـوى. وتتطـور عـلى سـاحتة صيـغ

عديـدة للتوقعـات المتبادلـة التـى تشـير إلي أنـه مجتمـع فى إتجـاه الإكتـمال. تأكيـداً لموقـف الأهل الشـكى مـن هـذه الإتصـالات تؤكد إحـدى الفتيات الصغيرات السـن "ياسـمين ١٧ سـنة" قائلة "لأنى كنـت زهقانـة، وكـونى قاعـدة عـلى الكومبيوتـر السـاعة إثنـين ونصـف صباحاً مـش معنـاه إنى مش كويسـة. يعنـى إمبـارح جـت "أمـى" وزعقـت فى علشـان أنـام. ولما مـا نمـتـش بقت تقـول (طيب بتعمـلى أيـه، ورينـى بتعمـلى إيـه). طبعاً كنـت بأتفرج على "بروفيـلات" "الموقع الافـتراضي" ، لأنه مفيـش حاجـة تانيـة أعملها، لكن مـا ينفعش أشرح لهـا ده، لأنها مش حتفهـم"(٢٨). وتقول اخرى "أنـا أمـى صعبـة جـداً، فصعـب أوى أروح أى مـكان دى تبقـى معجـزة كبـيرة، علشـان كـده بأكلم النـاس مـن خـلال الموقـع الافـتراضي أنـا عارفـة إنهـا تقصـد خـير، عارفـة إنهـا مش عايـزانى أفسـد... بـس سـاعات بتحتـاج تجـرب علشـان تعرف إنـك غلطت. سـاعات بتحتـاج الأخطاء علشـان تعرف إيـه الصـح. لازم نجـرب" "سـوزان ١٥ سـنة"(٢٩). وتقـول ثالثـة "أنـا عنـدى أصدقاء مـش بيقولوا لأهاليهـم عـن "مـاى سـبيس" أو "المواقـع الافتراضية" لحسـن يتعاقبوا، أنـا أعرف إثنـين إتمنعوا منه بـس بيدخلـوا برضـة فى الـسر "ليالى ١٥ سـنة" (٣٠).

وتقـف الدولـة نفـس هذا الموقف الشـكى من الشـبكات الإفتراضيـة، فمثلاً إذا تأملنا سـلوك الحكومة – حسبما يعبر مدير مركز الأندلس" عن إضراب ٦ إبريل قائلا "المشكلة الأساسية فى إضراب ٦ إبريل أن الحكومة تعاملت مع "الفنكوش" قاصدا "الموقع الافتراضي" الذى مثل بالنسبة الحكومة حينئذ" عدوا مجهولاً. وإسـتطرد قائلا "أن الحكومة تسـتخدم مع الشـعب أسـلوب المصادرة المادية والفكريـة، مستشـهداً بكتـاب "علشـان متضربـش عـلى قفـاك" الذى صادرتـه الحكومـة. ومع ذلك قـام الشـاب بنـشره على الإنترنـت بما فى ذلك من دلالة على أن "شـباب هذا الجيـل يرفض المصادرة، وليـس لديـه أى إسـتعداد لقبولها"(٣١). ويذهـب باحث آخـر إلى أن "الحكومة هـى التى فرضت هـذه الوسـيلة على الشـعب ومنحته التسـهيلات الممكنـة ليصل إلى كل فئاته، قاصـدة من وراء ذلك أن يكـون وسـيلة للإلهـاء فقـط، ولكـن مـا فعلتـة إنقلـب إلى ضدها. فالشـباب وجد نفسـه يتفاعل

على شبكة المعلومات ويشعر بالإغتراب داخل بلده، بحيث إعتبرت والمواقع الألكترونية منبراً سياسياً وإجتماعياً وثقافياً، وذلك يرجع أيضا إلى حرمان الشباب من المشاركة السياسية واقعيا. تأكيداً لذلك أن نسبة التمثيل السياسى للشباب داخل الأحزاب السياسية بلغت ١,٧٪ فقط، كما نشرت ذلك صحيفة النيويورك تايمز (٣٢).

ويتصل الإعتبار السابع بسعى الشباب لتطوير هوية إفتراضية جديدة على "الموقع الافتراضي". حقيقة أن بعض عناصر الهوية الإفتراضية لم تنشأ من فراغ، بل تمتد جذورها فى السياق الواقعى وتتأثر ببعض ملامحة والتفاعلات الحادثة فيه. ويتعلق البعد الأول للهوية التى يطورها الشباب على "المواقع الافتراضية" بالمرحلة العمرية للملتحقين بهذا الموقع. إرتباطا بذلك هناك بعض الدراسات التى أكدت أن ٨٧٪ من المتعاملين مع الشبكات الألكترونية، تتراوح أعمارهم بين ١٢-١٧ سنة. وأن ٦٤٪ منهم من ١٥-١٧ سنة، وإن كان السن حسب دراسة أخرى يرتفع قليلاً إلى أعلى بالنسبة "للفيس بوك" إلى ما بعد ٢٢ سنة. وهو ما يعنى أن مرحلة الشباب -كما أشرت - هى البعد الأبرز فى تحديد هوية المتفاعلين على ساحة "المواقع الافتراضية". ويتحدد البعد الثانى فى الهوية الشبابية لمرتادى هذه المواقع، فى إنتماء أغلب المتعاملين معها والمجتمع الإفتراضى عموماً من الشباب، المنتمي إلى أعلى الطبقة الوسطي، والطبقة العليا. وهم فئات الشباب الذين فى إمكانهم التعامل مع هذه التكنولوجيا الحديثة. وإذا كانت الطبقة الوسطى فى العالم العربى ومصر بالتحديد تعيش فى أزمة من حيث وجودها الواقعى، أحد أبعادها أن ثقافتها أصبحت معرضة للتآكل إلى حد كبير (٣٣). بحيث إنعكس ذلك على دينامية تشكل هوية شباب هذه الطبقة فى المجتمع الإفتراضى، حيث نجد أن التفاعلات جميعا، تدور حول عدة مشكلات أو قضايا تتصل إما بالإحتياجات الشبابية. التى تميل إلى التواصل مع الآخرين، الذين حلوا من خلال المجتمع الإفتراضى محل أسرة الطبقة الوسطى المتهتكة النسيج، والتى تعانى أيضا من مشكلات عدم التواصل بين أعضائها. أو مسائل تتعلق بالفساد، الذى يرى هؤلاء الشباب أنه قد أنتشر

فى المجتمـع، وبـدأ يلعب دوراً سـلبيا من حيث كونة سـببا لعدم إشـباع حاجاتهـم، أو حتى التفاعل حـول قضايـا مجتمعيـة عامـة، غـير انهـا تتصـل بإنهيـار أوضـاع الطبقـة الوسـطى. وبسـبب الطابع الأخلاقـى لثقافـة الطبقـة الوسـطى، يتأرجـح شـباب "المواقـع الافتراضيـة" فى تفاعلهـم بين سـلوكين متناقضـين. الأول أنهـم يسـعون أحيانـا إلى إخفـاء بعـض ملامـح هوياتهـم، حتـى لا يعرفـوا، وحتـى يمكنهـم التفاعـل بقـدر مـن الحريـة مـع نظرائهـم عـلى سـاحة "الموقـع الافـتراضي"، كى لا يصبحـوا منكشـفين. وفى ذات الوقـت فهـم يتفاعلـون مـع نظرائهـم ولديهـم رغبـة عارمـة فى الحصـول عـلى الإعـتراف الإجتماعـى بهـم من قبـل هؤلاء الأخرين، وهو الأمـر الذى يقود إلى إنكشـافهم فى النهاية. وفى إعتقادنـا أن ذلـك يعـبر عـن حالـة مرحليـة فى التعامـل مـع "المواقـع الافتراضيـة". إمـا زمنيا أو معنويـا، حيـث يمـر الشـاب بمرحلـة يكـون فيهـا أكـثر تأثـراً بقيـم المجتمـع الواقعـى. الأمـر الـذى يجعلـه يسـتعين بقيمـة فى البدايـة، وفى مرحلـة ثانيـة يتجـه إلى ممارسـة قيـم سـلبية كالكـذب، أو إنتحـال أسـماء وصفـات لا تعـبر عـن ذاتـه. حتـى إذا إطـمأن إلى التفاعـل الحـادث، والذى يشـارك فيـه، فإنـه يكشـف عـن ذاته، ويتفاعـل فى الواقع الجديـد أو المجتمع الجديد بقيـم جديدة ومعايير جديـدة كذلك.

ويشـير البعـد الثالـث إلى أننـا إذا تأملنـا شـباب المجتمـع الإفـتراضى بصـورة عامـة، فسـوف نجـد أن المتعاملـين مـع المجتمـع الإفـتراضى، هم الشـباب الذين لديهـم قابلية التفاعـل الإيجابى مع مضامـين العولمـة. بحيـث يـؤدى ذلـك إلى نتيجتـين، الأولى قابليـة الإنتزاع مـن سـياقهم الإجتماعى، والإهتـمام بقضايـا تتصـل بصـورة محوريـة بإحتياجاتهـم، وإن إنفصلـت نسـبيا عن التفاعـلات التى تقـع عـلى سـاحة مجتمعاتهم. فهم يسـتخدمون تكنولوجيا المعلومات ويسـبحون فى فضاء المجتمع الإفـتراضى بعيـداً عـن مجتمعاتهـم. ومـن ثـم نجدهـم قـد يهتمـون بقضايـا ذات طبيعـة عالميـة ليسـت ذات أهميـة محوريـة بالنسـبة لمجتمعاتهـم. وفى هـذا السـياق تشـير النتيجـة الثانية إلى أن شـباب "المواقـع الافتراضيـة" وإن إحتـج فى السـياق الإفـتراضى إلا أنـه تخلى نسـبيا عـن الإحتجاج فى السـياق الواقعـى. وفى هـذا الإطـار فإننـا نجد أن لنا ملاحظتـين، حيث تتمثل الملاحظـة الأولى فى أن

التفاعـل عـلى سـاحة "المواقـع الافتراضيـة" يسـاعد في تفريـغ شـحنات الإحتجاج الإجتماعـى، الذى التـى قـد يطفـو عـلى سـاحة الطبقة الوسـطى. حيـث قد يلعـب هـؤلاء الشـباب دوراً فى الإحتجاج والإدانـة والنقـد عـلى صفحـات "المواقـع الافتراضيـة"، غير انـه بمجرد الكتابـة، فإن شـحنة الإحتجاج الإجتماعـى يتـم تفريغهـا من بنية شـخصياتهم. ومن ثـم فهم وإن كان بإمكانهـم تحريك الإحتجاج الإجتماعـى إلا أنهـم غـير قادريـن بفاعلية للإشـتراك فيه أو تحمـل تبعاته. وتتمثـل الملاحظة الثانية بإرتبـاط شـباب المواقـع الافتراضية" ببعـض مضامين العولمة من خلال بـروز دور الجنس فى صفحات هـذه المواقـع. إبتـداء مـن تشـكيل جماعـات لمناقشـة الجنـس والتعامـل مـع معطياتـه، ومـروراً بتبـادل الألفـاظ الجنسـية النابيـة عـلى صفحـات الموقـع، وهـى الدعوة إلى نقـل الظواهر الجنسـية الشـاذة والغريبـة عـلى مجتمعاتنـا، والمطالبـة بنشرها بين الشـباب، الأمر الذى يؤكد أننـا أمام واقع يتداخـل عـلى سـاحتة تفاعلات المجتمـع الواقعـى ولزومياته مع متطلبـات العولمـة وتفاعلاتها.

ويعـد التعبـير بغـير إيمـاءات الجسـد البعـد الرابـع الـذى يميـز هويـة الشـباب فى المجتمـع الإفـتراضى. تأكيـداً لذلـك أننـا إذا تأملنـا التفاعـل الواقعـى فإننـا نجـد أن هـذا التفاعـل يتحقـق بنسـبة كبـيرة مـن خـلال إشـارات الجسـد، وذلك لتوصيـل بعـض المعلومـات المتعلقة بنـا إلى الآخر، وسـواء مـن خـلال حركـة الجسـم أو الملبـس أو الحديـث أو تعبـيرات الوجـه. ثـم نسـتقبل ردود فعـل الآخريـن لنـدرك مـدى إدراكهـم لما أردنـا توصيلـة إليهم. ومـدى نجاحنا فى هـذا الصدد، وهو مـا يسـمية "إبرفنـح جوفـمان Erving Goffman إدارة الإنطبـاع (٣٤). وهـو مـا يعنـى أن نـدرك أن أسـلوب إدارة الإنطباعـات يعـد مهـارة إجتماعيـة، يتـم تطويرهـا وتأكيدهـا مـن خـلال الخـبرة. بحيـث يسـاعدنا ذلـك فى إدراك أو إسـتخلاص المعنـى مـن الموقـف، إسـتناداً إلى مـا نعرضـه عـلى الآخريـن وردود أفعالهـم التـى نتعـرف عليهـا. وذلـك يشـير أن تعلـم قـراءة الإشـارات الإجتماعيـة والإسـتجابة وفقـا لهـا يشـكل جوهـر عمليـة التكويـن والتكيف الإجتماعـى مع التفاعـل الإجتماعى الحـادث فى المجتمـع. وإذا كانـت هـذه العمليـة تبـدأ داخـل الأسرة فى إطـار عمليـة التنشـئة الإجتماعيـة، فإنهـا تلعـب دوراً محوريـا فى إندمـاج الشـباب وتفاعلهـم داخـل مختلـف السـياقات

الإجتماعيـة الأوسـع، التـى تتيـح لهـم بدورهـا تطويـر هـذه المهـارات (٣٥). بيـد أن مـا يحـدث فى المجتمـع الإفـتراضى مـن خـلال مختلـف المواقع مثلا، أن الأجسـام لا تكـون منظورة، والمهـارات التى يحتـاج النـاس إلى إدارتهـا تكـون مختلفـة. وحسـبما تذهـب "جينـى سـاندن Jenny Sunden" فإن النـاس ينبغـى أن يكتبـوا بأنفسـهم عـن أنفسـهم (٣٦). حيـث يصبـح النـص والصـورة والصـوت والفيديـو وسـائل ذات قيمـة لتطويـر وجـود فعـلى، ومـن الطبيعـى أن يختلف المنطق الـذى يحدد الأسـلوب الـذى نوصـل بـه معلومـات لهـا معنى من خـلال أجسـادنا عن الأسـلوب الـذى نوصل به المعـانى مـن خـلال المجتمـع الإفتراضى حيـث غياب الجسـد. وهو تأمـل ذاتى يرى جدنـز Giddens أنـه ضرورى لتشـكيل الهويـة وتأسـيس الجسـم الإفـتراضى، أو الرقمى حسـبما يذهـب ميشـيل فوكو Foucault (٣٧).

وبرغـم ذلـك فـإن المعلومـات التـى يدفـع بهـا الشـباب المتفاعلون عـلى صفحـات "المواقع الافتراضيـة" تكـون أكـثر فجاجـة وأقـل دقـة، بحيـث يمكـن للمتلقـى تفسـيرها لإكتشـاف أن كان بهـا زيـف. وتوضـح ذلـك "إيمـى بروكـمان Amey Bruckman" بقولهـا أن المعلومـات الأساسـية عـن جسـد الشـخص تكـون حـاضرة ومتاحـة عـلى شـبكة المعلومـات، حتى حينـما يحاول الشـخص إخفائهـا والمراوغـة بشـأنها، البرهنـة عـلى ذلـك أن النـاس يبرعـوا نسـبيا فى إكتشـاف متـى يكـون الشـخص رجـلاً حتـى لـو أقـر بأنـه امـرأة (٣٨). حيـث يمكـن مـن خـلال إكتشـاف إشـارات معينـة تدلنـا عـلى مسـاحة الخـداع (٣٩).

ويشـير الإعتبـار الثامـن إلى الحالـة الثقافيـة لشـباب "المواقـع الافتراضيـة" وهـى الحالـة التـى تشـير إلى إتجـاه الشـباب إلى تفكيـك روابطـة مـع ثقافـة المجتمـع الواقعـى. وإتجاهـه بديـلا لذلـك إلى تطويـر ثقافـة تنمـو جنينيـا داخـل المجتمـع الإفـتراضى، ويرجـع تفكيـك شـباب "المجتمـع الافـتراضي" لروابطـة مـع ثقافـة المجتمـع الواقعـى إلى عـدة عوامـل. أبرزهـا ضعـف دور مؤسسـات التنشـئة الإجتماعيـة التقليديـة، وعجزهـا عـن تشـكيل ثقافـة الشـباب، فقـد أصبـح تفاعـل شريحـة مـن الشـباب مـع مضامـين "المواقـع الافتراضيـة" أكـثر مـن تفاعلـه مـع المحيطـين بـه مـن أسرتـه. يضـاف إلى ذلـك إفتقـاد هـذه المؤسسـات لقدرتهـا عـلى

رقابة الأنماط السلوكية الناتجة عن الإحتكاك بالعالم الخارجى من خلال المجتمع الإفتراضى. وترك ذلك لآليات التصحيح الذاتى التى يقوم بها كل شاب على حدة، إعتماداً على تجربتة الشخصية. وقد تزامن ذلك مع إتجاه بعض الشباب إلى الإنعزال عن مجتمعاتهم، والإنكفاء خلف جهاز الكومبيوتر، الذى أصبح قناة عبوره إلى العالم الخارجى (٤٠). وبذلك سقطت الثقافة عن أن تشكل منظوماتها القيمية مرجعية للسلوك الشبابى فى الواقع الإجتماعى او المجتمع الإفتراضى. وأصبحت القيم التى طورها الشاب على صفحات "الموقع الافتراضي" هى التى شكلت مرجعية سلوكه.

لقد وجد الشباب فى مواقع المجتمع الإفتراضى قناة للتعبير ومنفذا للإنتشار، وعرض وجهات النظر والآراء، إستناداً إلى مرجعية قيمية وأخلاقية إنتقوها من القيم المتاحة فى الفضاء العالمى أو طوروها بما يعبر عن طبيعتهم، بحيث لعبت هذه الشريحة دوراً أساسياً إستناداً إلى مرجعيتها فى إبراز البعد النقدى أو الرافض أحيانا للثقافة الشبابية الواقعية. ثم حاولت دفع النقد على صفحات "المواقع الافتراضية" لكى يشكل طاقة دافعة لها تأثيراتها على تفاعلات وأحداث السياق الواقعى. ومن ثم فإذا كان بعض الشباب قد لجأوا إلى "الموقع الافتراضي" للتعبير على صفحاته نتيجة لحرمانهم الواقعى، فإن ذلك كان لمرحلة إستداروا بعدها إلى الواقع بأفكارهم فى محاولة تغييره.

ولا يتوقف الأمر عند حد إضعاف الثقافة، بل يتسع التشوية ليشمل اللغة التى تعد وعاء التعبير عن الثقافة، حيث تراجع إستخدام اللغة العربية لصالح اللهجات العامية. بل والإتجاه نحو إستخدام مزيج من الحروف والأرقام الإنجليزية بديلاً عن الحروف العربية. ويحاول البعض تفسير هذا التراجع بسبب شعور الشباب بالإغتراب والرغبة فى التمرد على قيود الأباء ومن ثم لغتهم. بينما يرى البعض الآخر أن ظهور لغات جديدة للشباب هو أمر طبيعى يحدث من مدة لأخرى، وأن التعامل مع شبكة المعلومات ليس هو المسئول عن ذلك. حيث برز إتجاه إلى زيادة إستخدام اللغة الأجنبية أو بعض الفاظها فى لغة الحياة اليومية، بسبب تأثيرات العولمة (٤١). بيد أننا نعتقد إلى جانب صحة

التفسـيرات السـابقة أن مشـاركة الشـباب فى الواقـع الإفـتراضى مـن شـأنه أن يتطلب ثقافـة جديدة غـير تلـك التـى تضبـط التفاعـلات الواقعيـة، ومـن الطبيعـى أن تتطلـب هـذه الثقافـة بدورها لغة جديـدة. وإذا كانـت مشـاركة الشـباب فى المجتمـع الإفـتراضى تمثـل فصـلا جديداً فى علاقة الشـباب السـلبية بالمجتمـع. فـإن إبداعه لإشـكال متتابعة مـن التعبير اللغوى يعد تعبيراً عـن هذا الإنفصال، كـما يعـبر عن سـعى دؤوب نحو إسـتكمال ملامـح الهوية الشـبابية.

ثالثاً: حراك الشباب من السياق الواقعى إلى السياق الإفتراضى

الـذى لا شـك فيـه أن ثمـة علاقـة عضويـة بـين المجتمـع الواقعـى والمجتمـع الإفـتراضى، وأن الشـباب هـم حلقـة الصلـة بـين المجتمعـين، وفى هـذا الإطـار فإننـا نسـتطيع أن نرصـد الحركـة الشـبابية فى إتجاهـين. الأول بسـبب عجـز المجتمـع الواقعـى عـن إشـباع الحاجـات الأساسـية للشـباب، وأهمهـا التعبـير عـن إحتياجاتهـم وعـن ذواتهـم فيـما يتعلـق بقضايـا السـياق المحيطـة بهـم. بينـما يشـير الإتجـاه الثـانى إلى تحـول الشـباب إلى التعبـير عـن أنفسـهم مـن خـلال "الموقـع الافـتراضي" كآليـة لتغيـير الواقـع الإجتماعـى، الـذى خلفـوه وراءهم وقطعـوا روابطهم بـه. بداية لا بـد أن نوضـح أن ثمـة إختلافـات أساسـية بـين المجتمـع الواقعـى والمجتمـع الإفـتراضى الـذى يتفاعل الشـباب عـلى سـاحاته. حيـث يشـير الإختـلاف الأول إلى أن تفاعـلات المجتمـع الواقعـى تؤكـد عـلى التواجـد الجسـدى، بما للجسـد من إشـارات وإيمـاءات تلعب دوراً بـارزاً فى التفاعـل. بينما تفاعلات المجتمـع الإفـتراضى ذات طبيعـة عقليـة بالأسـاس، إنـه تفاعـل بالصـور والرمـوز ومقاطـع الفيديـو، وأحيانـا تفاعـلات بـين شـحصيات خياليـة تخفـى ذواتهـا أحيانـا لتـمارس الكـذب والهـروب. يضاف إلى ذلـك أن التفاعـل فى المجتمـع الواقعـى هـو تفاعـل فورى، الفعـل ورد الفعل المبـاشر له، بينما فى المجتمـع الإفـتراضى نجـد أن الإتصـال غـير مبـاشر، قـد يصبـح رد الفعـل إنتقائيـا وقد يصبـح متأخراً ولا فوريـا. بالإضافـة إلى ذلـك فإنـه إذا كان التفاعـل فى المجتمـع الواقعـى يتـم متأثـرا بمتغـيرات السـن والنـوع ومسـتوى التعليـم والحالـة الإجتماعية والمسـتوى الإجتماعـى الإقتصـادى. فإن هذه المتغـيرات تنتفـى فاعليتهـا فى المجتمـع الإفـتراضى، حيـث يحـدث التفاعـل بـلا متغـيرات منظمـة،

أو مـن الممكـن أن يحـدث فى ظـل رمـوز كاذبـة عـن هـذه المتغيرات (٤٢). عـلى هـذا النحـو فإننا نـدرك كلا المجتمعين مـن منطـق الإسـتقطاب، وليـس مـن منطـق المتصـل. ومـن ثـم فالإنتقـال مـن المجتمـع الواقعـى إلى الإفـتراضى، هـو رفـض للواقعـى بـكل خصائصـه وتفاعلاتـه، وإقـتراب من المجتمـع الإفـتراضى والمشـاركة فى نسـج تفاعلاتـه. فحينـما يسـتدير الشـباب إلى المجتمـع الواقعـى، إنطلاقـا مـن الواقـع الإفـتراضى، فإنه يسـعى مـن وراء هـذا التحول إلى نقـد المجتمـع الواقعى، حتى يمكـن تطويـره بمـا يسـاعد عـلى إشـباع حاجاته.

ذلـك يطـرح سـؤالا، لمـاذا رفض الشـباب للمجتمع الواقعـى؟ الإجابة على ذلـك تحتوى على بعديـن، الأول بعـد وجـودى، ويتمثـل فى أن الشـباب بحكـم طبيعتـه ونظرتـه المسـتقبلية غـير قادر عـلى التكيـف الكامـل مـع المجتمـع الواقعـى فى الحـاضر. فهـو دائمـاً ينشـد مـا هـو مثـالى ويرفـض مـا هـو واقعـى وسـلبى، أما البعـد الثانى فيتمثـل فى أن واقـع مجتمعاتنـا متخم فى العادة بالمشـاكل التـى تكـون لهـا وطأتهـا الأكـبر عـلى الشـباب. والقطيعة مـع المجتمـع الواقعى تبدأ مـن عجزة عن إشـباع الحاجـات الأساسـية للشـباب، كالحاجـة إلى الوظيفـة للمشـاركة فى سـوق العمـل. والحاجـة إلى الدخـل لإشـباع الحاجـات الأساسـية والحصـول عـلى فرصـة مسـكن وتشـكيل أسرة، حيـث يدرك الشـباب أن رفاقهـم الأكـبر سـنا منهـم، مـا زالـوا يعانـون من حالـة الإحباط هـذه. ومن ثـم تتبلور لديهـم حالـة مـن القطيعـة السـيكلوجية مبكـراً مع المجتمـع. بالإضافـة إلى ذلك يعانى الشـباب من مشـكلات الفـراغ والتغييـب والخضـواع والتهميـش وحرمانـة مـن المشـاركة فى مختلـف المجـالات (٤٣). الأمـر الـذى يجعـل الهـروب إلى المجتمـع الإفـتراضى فـرض عـين أو فـرض حيـاة بالنسـبة للشـباب. بالإضافـة إلى ذلـك فإنـه إذا كان العجـز عـن التعبـير السـياسى هـو احـد دوافـع الهـروب إلى المجتمـع الإفـتراضى، فـإن ذلـك يرجـع إلى أن الأحـزاب الواقعيـة لا تسـتوعب الشـباب، ولا تعمل بصـورة منظمـة عـلى تربيتهـم أيديولوجيـا، كـما لا تتيح لهـم فرصة التعبير مـن خلال قنواتهـا، الأمر الـذى يدفعهـم إلى البحـث عـن قنـوات جديدة من خـلال "المواقـع الافتراضيـة" (٤٤).

بالإضافـة إلى ذلـك يـدرك الشـباب أنـه يتحـرك فى نطـاق مجتمـع واقعـى

وعـدائى فى ذات الوقـت. حيـث تتتابـع دوائـر العدائيـة لتدعـم بعضهـا البعـض وتـؤدى إلى إرهاق الشـخصية الشـابة. الدائـرة الأولى حيث الأسرة، حيث يدرك الآبـاء أن التفاعل فى المجتمع الإفتراضى، الـذى يشـارك فيـه الشـباب غـير محكـوم بقيمهـم، وربمـا لا يعرفـون مـا يمارس فيـه. ومن ثـم فهم يراقبـون الأبنـاء وربمـا يتلصصـون عليهـم، وفى مقابل ذلك نجد أن الشـباب، قد يـترك لهم الصفحات التـى إسـتطاعوا قراءتهـا لينشـئوا مواقـع جديـدة موازية لهـا ولا يعلم الكبار عنها شـيئا.

بالإضافـة إلى ذلـك فـإن التفاعـل الواقعـى فى نطـاق الأسرة، يتم عـادة فى ظل ثقافـة قهرية، تؤكـد عـلى ضرورة إنجـاز الواجبات المدرسـية، أو البقاء فى نطاق الأسرة للتفاعـل مع الآخرين فى ظل قواعـد محـددة. فـالأسرة والمسـكن بالنسـبة لكثـير مـن الشـباب هـو فضـاء منظم تنظيـما محكما يتأسـس التفاعـل والعلاقـات فى إطـاره فى ظـل قواعـد وأعـراف صارمـة، يـشرف الكبار عـلى تفعيلها بدقـة(٤٥). الأمـر الـذى يدفع الشـباب إلى إختـلاس الفرصة للهـروب بإتجاه المجتمـع الإفتراضى من خـلال "المواقـع الافتراضيـة" (٤٦). وفى هـذا الإطـار فـإن أهـم مـا يميـز شـبكة المعلومـات يتمثل فى أنهـا تتيـح للشـباب أن يشـاركوا فى تبنـى مواقـف مـن القضايـا العامة، التـى إحتكرها الكبـار. وهم فى مواقعهـم عـلى سـاحة الفضـاءات الماديـة المنظمـة للكبـار مثـل البيـوت والمدارس، بحيـث يصبح هـذا السـلوك فى حـد ذاتـه موضع تفاعل بين الشـباب والكبار. فالولدان يسـعيان إلى تنظيم سـلوك الشـباب فى هـذا الفضـاء الألكـترونى الجديـد، بحيـث يـؤدى ذلك بـدوره إلى دفع الشـباب إلى إخفاء تفاعلاتهـم على سـاحة الفضاء الإفـتراضى (٤٧).

الدائـرة العدائيـة الثانيـة التـى يتعامـل مـع الشـباب هى التـى تضـم الكبار الذيـن ينتمون إلى التنظيـمات الوسـيطة، المدرسـة والنـادى الريـاضى والمؤسسـة الدينيـة. جميعهـا مؤسسـات تفـرض النظـام، كـما تفـرض عـلى الشـباب أن يكـون سـلوكه فى هـذه المجـالات وفق قواعـد محددة وصارمـة، وذلـك إنطلاقـا مـن قناعـة لـدى العاملـين أو المشرفـين على هذه المؤسسـات، بأن الشـباب ملائكـة وشـياطين فى نفـس الوقـت. فهـم ملائكـة لأنهـم يمتلكـون الـبراءة التـى قـد توردهـم مـوارد التهلكـة والخطـأ أو الإنحـراف دون قصـد منهـم، وهـم شـياطين لأنهـم يأتـون سـلوكيات غير

ملتزمة بأعراف المجتمع، ولديهم قابلية نشر الفوضى فى إطاره. ومن ثم فهم بحاجة إلى متابعة ورقابة وحماية، ولذلك فإنه من الضرورى تقييد سلوكهم حتى لا يضروا بأنفسهم أو يعملوا على هز إستقرا المجتمع. وهو ما يؤسس الصراع بين الشباب والكبار، ويزداد هذا الصراع ضراوة إذا تمسك الكبار بالتراث المتدفق من الماضى والذى يساعد فى الحفاظ على الإستقرار. الشباب الذين يعيشون حالة تسارع التغير وتدفق المعانى فى الحاضر، الأمر الذى يجعل الواقع الإجتماعى من وجهة نظر الشباب – على عكس تصورات الكبار – فى حالة من الدينامية والسيولة. بحيث يصبح الهروب إلى المجتمع الإفتراضى ضرورة لتفاعل يلائم الشباب، حيث لا قيود وإذا كانت هناك قيم تنظم التفاعل، فهم الذين إبتدعوها وبإمكانهم تغييرها، فهم صانعوا التفاعل على صفحات "الموقع الافتراضي"، وهم القادرون على تغييره وإعادة صياغتة.

ويشكل النظام السياسى الدائرة العدائية الأوسع التى يفر من أسرها الشباب، ليمارسوا حريتهم على ساحة المجتمع الإفتراضى. وفى نطاق هذه الدائرة، تناقش علاقة شباب "المواقع الافتراضية" بالأحزاب السياسية، ثم العلاقة المتبادلة بين السلطة وشباب "المواقع الافتراضية"، ثم السياسات التى تتبعها الأنظمة العربية فى مواجهة شباب المواقع الافتراضية. وفيما يتعلق بالأحزاب السياسية فإننا نجدها تكوينات هشة، لم تتسع لجذب الشباب. وعلى هذا النحو فطالما أن الأحزاب قد فشلت فى تشكيل معارضة قوية ذات قيمة للحزب الحاكم، فإن شباب "المواقع الافتراضية" قدموا أنفسهم كبديل للأحزاب السياسية كتعبير عن المعارضة والتنفيس عن الغضب. فى هذا الإطار يرى الشباب أن الأحزاب السياسية أصبحت "دقة قديمة" والإنضمام إليها يخلو من "الروشنة". وفى ذلك يقول أحد الشباب "أننى أستطيع آداء دورى الوطنى وأنا فى البيت مستلقيا "بالبيجاما" على السرير وبجانب اللاب توب" (٤٨). بهذه المفاهيم البريئة والساذجة وجة شباب "المجتمع الافتراضي" ضربة تحت الحزام لمجمل التجربة الحزبية فى مصر، وكشفت عن مدى ضعف البنية المؤسسية التى توشك على الإنهيار فى مختلف القطاعات. وأثبتت المواقع الافتراضية أنها

أصبح منافساً شرسا للمؤسسات الحزبية الوطنية، العلنية منها والسرية، فهي الحزب الذى إستطاع أن يجتذب العشرات من الآلالف من الشباب بدون أى غطاء أيديولوجى أو أسس فكرية يستند إليها (٤٩).

وإذا كان النظام السياسى قد شكل أحد قطاعات الدائرة العدائية فى مواجهة شباب "المواقع الافتراضية" فإن ذلك يتأكد من خلال إشارة أحدى الدراسات إلى أن بعض هذه المواقع يعتبر إمتداداً لحركة التدوين فى مصر، إضافة إلى أن لديه مساحة حرية أكبر مقارنة بالمدونات للهروب من مراقبة الحكومة مما أفقدها السيطرة علي هذه المواقع وعلى أعضائها... إرتباطا بذلك ينصح أحد المحامين شباب "المواقع الافتراضية" بقولة "أطالبكم بتسهيل مهمة الدفاع عنكم أما القضاء، بإستخدام الفاظ فى التعبير عن الرأى لا تضعكم تحت طائلة القانون، كما أطالبكم بالتخطيط لانتخابات موازية لإنتخابات الحكومة من خلال الإنترنت، للهروب من أبداع الحكومة فى عملية تزوير الإنتخابات. وأخيراً أتمنى أن تكثفوا جهودكم لمواجهة ليس التشريعات الجديدة فقط، وإنما طريقة تعديلها التى تظل فى الظلام حتى لحظة إقرارها" (٥٠). ولتوجية النقد للأنظمة السياسية فقد طور شباب "المواقع الافتراضية" حائطا ليكتبوا عليه جميع ما يجول بخاطرهم، كما تحدث فى أرض الواقع، حيث يستيقظ أهل المدينة ليجدوا على الحائط كلمات جديدة، إما ضد السلطة أو ضد كل ما هو عدائى للمجتمع والشباب (٥١). بحيث دفع ذلك بعض السلطات إلى تكثيف الجهود الأمنية لتعقب شباب "المواقع الافتراضية" كما حدث فى سلوك الأجهزة المصرية فيما يتعلق بالدعوة إلى إضراب ٦ إبريل. أو ما قامت به سوريا حينما حجبت بعض المواقع الافتراضية الذى إشترك فيها ٢٨ ألف خلال عدة شهور، جميعهم من الإعلاميين والفنانين ورجال الأعمال وأغلبهم من الشباب، ليس بسبب الثغرات الأمنية التى يحتويها الموقع، ولكن بإعتبار أن هذه الخطوة من قبل النظام السورى، تشكل حلقة فى مسلسل الحجب الذى طال عدد من المواقع الإخبارية والصحف العربية والدولية. وأيضا لأن "الموقع الافتراضي" شكل متنفساً لعدد كبير من الشباب السورى، وفرصة للتعبير عن آرائهم فى القضايا السياسية

والإجتماعيـة والثقافيـة بعيـداً عـن مقـص الرقيـب. حيـث تجـلى ذلـك حينئـذ مـن خـلال إنشـاء عـدد كبـير مـن المجموعـات مثـل "إلغاء عقوبـة الإعدام فى سـوريا" و "نحـو مجتمع علـمانى" و "لا لحجـب مواقـع الإنترنـت فى سـوريا". ومـن الواضـح أن الحكومـة السـورية – كأغلـب الحكومـات العربيـة – قامـت بحجـب منتـدى "شـبابلك" الـذى يضم أكـثر من ٥٧ ألـف عضواً. الأمـر الذى أثار تسـاؤلا أمـام عـدد كبـير من الشـباب السـورى، حـول إسـتمرار النظام فى حجـب مواقـع عالمية مثل "يوتيـوب" و "بلـوغ سـيوت"، إضافـة إلى عـدد من الصحـف والمواقـع الإخبارية العربيـة، كصحيفة الـشرق الأوسـط اللندنيـة وصحيفـة النهـار اللبنانيـة، فضلا عـن صحيفة إيـلاف الألكترونيـة (٥٢).

وإذا كان الشـباب قـد إتجهـوا إلى مواقـع المجتمع الإفتراضى هروبا من الواقـع لتطوير ثقافة نقديـة يعـبروا مـن خلالهـا عـن الكبـت المفـروض عليهـم بواسـطة الأوضـاع السياسـية والإقتصادية والإجتماعيـة السـائدة فى المجتمعـات العربيـة. حيـث يناقشـون بدرجـة مـن الحرية غير المسـبوقة قضايـا الشـأن العـام والتعبـير مـن خـلال مـا هـو مكتـوب بعيـداً عـن قيـود البيئـة التسـلطية التـى رسـختها معظـم النظـم الحاكمـة. بذلـك يكـون "الموقـع الافتراضي" قـد قدم فرصة جديـدة لم تكن موجـودة للشـباب الـذى تـم تهميشـة، يناقـش بحرية الأزمات والمشـاكل التـى تعانى منهـا مجتمعه بـدون محرمـات تقليديـة، بإسـتثناء مـا يسـتحدثة الشـباب لتنظيـم أنشـطتهم. حيـث إقتحمـت صفحاتهـم محرمـات السـلطة والديـن والجنـس، عـلى نحـو أصبـح معه المجتمـع والنظام السـياسى مكشـوفا وبـدون ورقـة تـوت. وتزامـن ذلك بالطبع مع نشـاط الفضائيـات والصحـف الخاصة التى شـكلت تحالفـا مـع شـباب الإنترنـت لتعرية الدولة وكشـف مشـاكلها الحقيقيـة (٥٣).

ذلـك يعنـى أن "الموقـع الافـتراضي" يشـكل رقابة عـلى آداء الدولة وسـلوك النظام السـياسى يتنامى دوره ويتسـع، ويؤدى وظيفة المعارضة الحقيقية، فى حرية بلا قيود، وبلا مطامع أن تحصل عـلى "لقمـة" كعكـة السـلطة. الأمـر الـذى نتصور فيـه أن تـزداد فعاليتهـا بتراكم آدائهـا، إضافة إلى إنتشـار تكنولوجيـا المعلومـات الحديثـة بين شرائح تتسـع فى المجتمـع. إرتباطا بذلـك فإننا نتوقع أن

تسلك الدولة العربية أحد ثلاث سيناريوهات. حيث يتمثل السيناريو الأول بالسلوك غير الرشيد لبعض الأنظمة العربية، والذى يتجلى عدم رشدة فى بقاء الأنظمة السياسية صامتة فى مواجهة ما يحدث على صفحة "المواقع الافتراضية" . من إنتقادات وتقييمات لسياساتها منطلقة من إحساس شباب "المواقع الافتراضية" بالحرية المفرطة، فى طرح القضايا وتحليلها على صفحاتهم. بحيث تصبح شرعية هذه النظم فى خطر حقيقى، فهى معرضة للتآكل نتيجة لعجزها عن إستيعاب التيارات الشبابية الجديدة، التى رفعت سقف توقعات المواطنين ومطالبهم من النظام السياسى. ومن المدهش والمثير للسخرية أن تسعى هذه النظم لمواجهة تآكل الشرعية باللجوء إلى مزيد من فرض القيود على حرية التعبير، بل ومساءلة وإعتقال بعض الناشطين من الشباب والتضييق عليهم بواسطة الأجهزة الأمنية.

وإذا كان السيناريو السابق يتسم بالتشاؤم فإن السيناريو الثانى يتسم بالتفاؤل، حيث تراهن بعض النظم السياسية على نجاح الحركات الشبابية الجديدة، التى يقودها مبدعين إجتماعيين ونشطاء شبابيين على قدر عالى من الثقافة والخبرة. والذين يمكن أن يلعبوا دوراً فى تغيير أوضاع المجتمعات العربية، من خلال السماح لهم بقدر من الحرية فى التعبير، عن قضايا ومشاكل إجتماعية وسياسية تتفاعل معها هذه النظم بإيجابية. غير أن فرص نجاح هذا السيناريو غير مضمونة، لأن ذلك يعتمد على قدر تماسك هذه الجماعات الإفتراضية من ناحية. والإستراتيجيات التى سوف يتبعها كل نظام سياسى على حدة، إضافة إلى قدر الرشد الذى سوف يكتسبة سلوك الأنظمة السياسية فى مجتمعاتنا. ويتجة السيناريو الثالث إلى تشكل التآلف الثالث للسيناريوهين السابقين المتناقضين. حيث يجمع هذا السيناريو بين الإتجاه إلى الدمج الحقيقى للشباب النشط فى حركة المجتمع، من خلال العمل بمضامين النقد والإعتراض التى تتجلى على صفحاتهم فى "المواقع الافتراضية" والمواقع الإفتراضية الأخرى. واللجوء فى أضيق الأحوال بإتجاه التضييق فيما يتعلق بمناقشة بعض القضايا الحساسة، خاصة فيما يتعلق بالجوانب الأخلاقية للمجتمع. فإذا تبنت الأنظمة السياسية هذا السلوك الرشيد، فإن ذلك من شأنه أن يدفع شباب

"المواقع الافتراضية" والمواقع الأخرى إلى البعد عن التطرف، والعمل إنطلاقا من المنطقة الوسط(٥٤).

رابعاً: تحولات المجال العام فى المجتمع الإفتراضى

يعتبر عالم الإجتماع جيرجون هابيرماس إبرز من تولى بلورة مفهوم المجال العام، الذى راى فيه الفضاء الذى يتوسط بين مجال السلطة العامة من ناحية والمجال الخاص، الذى قد يؤكد على الأسرة وشئون الأفراد الخاصة من ناحية ثانية. وفى نطاق المجال العام - كما تبلورت حدودة فى الديموقراطيات الغربية - كانت تمارس المناقشات حول السياسات الحكومية، وعلى ساحته تتبلور إتجاهات الرأى العام. وقد عرف هابيرماس المجال العام بأنه" مجتمع إفتراضى أو خيالى ليس من الضرورى أن يتواجد فى مكان معروف أو مميز. فهو يتكون من مجموعة من الأفراد الذين لهم سمات مشتركة مجتمعين مع بعضهم كجمهور (٥٥)، يتفاعلون مع بعضهم على قدم من المساواة حول قضايا مشتركة.

فى هذا الإطار تشير كلمة عام إلى السياقات التى يمكن لأى شخص أن يشارك فيها. دون أن يكون المشاركين فيها على معرفة ببعضهم البعض. وبرغم ذلك فإنهم يتقاسمون فهما عاما للعالم المحيط بهم، وهم يطورون هوية مشتركة، تطور إهتماما جمعيا بنصوص مشتركة، سواء كانت هذه النصوص تعبر عن رؤية كونية أو قضايا محددة أو أفعالا وأحداث معينة (٥٦)، كما يعنى العام فى المجتمع الإفتراضى انه متابع من قبل كل فرد (٥٧). على عكس ذلك يشير تعبير المجال الخاص إلى السياقات المحدودة كالأسرة والجماعة الإثنية، حيث تسود فى هذا المجال تفاعلات محكومة بمنظومة قيم ضابطة للآداء فى نطاق هذا المجال الخاص. ومن حق أفرادها التفاعل بشأن قضايا المجال الخاص، وليس من حق الآخرين خارج هذه السياقات الخاصة ان يشاركوا فى تفاعلاتها أو مناقشة قضاياها.

غير اننا إذا تأملنا الأمر بالنظر إلى "المواقع الافتراضية" الكائنة على ساحة المجتمع الإفتراضى، فإننا سوف نلاحظ بروز مجموعة من التحولات

الأساسية على كل من المجال العام والمجال الخاص. من هذه التحولات ظهور ما يمكن أن يسمى بالمجالات الوسيطة، وهى المجالات التى تتجاوز كثيراً المجال الخاص وتقع ساحاتها دون المجال العام. ويمكن تحديد المجالات الوسيطة بانها المجالات التى تقع بين المجال الخاص والمجال العام، وفى العادة تضم المجالات الوسيطة عدة أنماط من المجالات. الأول هو المجال الوسيط الخاص بفئة أو فئات معينة، إذ نجد على "المواقع الافتراضية" جماعات متنوعة، سياسية وثقافية وترفيهية وإجتماعية، كل جماعة لها قضايا الخاصة بها غير أنها قضايا مطروحة طرحاً عاما ولكن فى حدود الجماعة ذاتها، حيث يمكن الدخول فى هذا المجال لكل من تتوفر له صفات أو أهلية المشاركة. فى هذا المجال يتم التفاعل والحوار لتطوير رأى عام وسيط خاص بجماعة معينة، غير أنها جماعة تشكلت تشكلا إراديا وطوعيا، وتتفاعل على قدم من المساواة، وإن كانت غالبها من الشباب. ويتمثل النوع الثانى من المجال الوسيط، بذلك المجال الذى يحتوى على جمهور يتفاعل بشأن قضية معينة أو يشكل رأى عام بشأنها. ومثال على ذلك أنه إذا طرحت قضية تتعلق "بالتحرش الجنسى" مثلا فإننا نجد أن نسبة من زوار "الموقع الافتراضي" يناقشون هذه القضية، ويطورا رؤية عامة مشتركة بشأنها. وبذلك، فإن تعبير المجال الوسيط هنا يقتصر على قضية أو قضايا معينة دون أن يشمل الحوار قضايا أخرى. وفى هذا الإطار من الممكن إعتبار المجال العام الذى يتيحة "الموقع الافتراضي" هو مجال وسيط، بإعتبار أن المنتمين له من شباب هذا الموقع الذين لا يتجاوز عددهم ٢,٥ مليون. وهم بالأساس من أبناء الشرائح العليا للطبقة الوسطى وأبناء الطبقة العليا، وهم بالنظر إلى حجمهم العددى، وأيضا خلفياتهم الطبقية لا يمكن أن يشكلوا مجالاً عاما، بل نجدهم يشكلون مجالاً وسيطا بإمتياز، لأن هناك فئات أخرى يمكن أن يكون لها مجالاتها الوسيطة كذلك.

ويتمثل التحول الثانى فى ظهور ما يمكن أن يسمى بالمجال أو المجال الأعم، ويتجاوز هذا المجال الأعم المجال العام بإعتبار أن الأخير فى مكوناته يتطابق مع النسق القومى، أو المجتمع القومى. غير أننا إذا نظرنا إلى نظامنا

العالمـى المعـاصر، فسـوف نجـد تراجعا نسـبيا للدولة القوميـة والمجتمع القومـى المحتفظ بحدودة. وبـروز مـا يمكـن أن يسـمى بالمجتمـع العالمـى، أسسـته قـوى العولمـة، ولعـب الإعـلام وتكنولوجيـا المعلومـات دوراً محوريـا فى تجسـيد وجـوده. بحيـث أصبـح لهـذا المجتمـع العالمـى مجالـه الأعـم الـذى تطـرح فى إطـاره قضايـا قـد تتصـل بالنظـام أو المجتمـع العالمـى ذاتـه كتلـك المتصلـة بالأزمة الإقتصاديـة العالميـة. أو الهجـرة غـير المشروعـة، أو حالـة الديموقراطيـة وحقـوق الإنسـان. بحيـث تناقـش مثـل هـذه القضايـا فى هـذا المجـال ويتـم تطويـر رأى عـام بشـأنها، يشـارك فى هـذا الـرأى العـام شرائـح معينـة فى مختلـف المجتمعـات القوميـة، وتتفاعـل بشـأنها لتشـكل قوة ضغـط تدفع التفاعـلات فى إتجاهـات معينـة.

ويتصـل التحـول الثالـث بـأن المواقـع الألكترونيـة، قـد لعبـت دوراً أساسـيا فى فـرص تـآكل المجـال الخـاص لصالـح المجـال العـام. وفى أحيـان أخـرى تتـم حركـة عكسـية، حيـث تـآكل المجـال العـام لصالـح المجـال الخـاص. فى الحالـة الأولى نجـد أن كثـيراً مـن القضايـا التـى ينبغـى أن يتـم التفاعـل بشـأنها داخـل الحياة الأسريـة أو فى حدود ذات الفرد تنتقل لتصبـح موضع حوار فى المجال الوسـيط أو المجـال العـام. فالحديـث عـن جمـود الآبـاء عـلى "الموقع الافـتراضي" أو عن شـكهم فى أبنائهـم حينـما يجلسـوا إلى جهـاز الحاسـب الآلى للإتصـال بالمجتمـع الإفـتراضى. هـو نـزع لآحـدى قضايـا المجـال الخـاص لتناقـش فى المجـال العـام. وحديث أحـدى الفتيات عن تحـرش جنسى حدث لهـا، ونـشره عـلى "الموقـع الافـتراضي" هو تحويـل أو نقل لقضية خاصـة إلى المجال العـام. وقد يسر تـآكل المجـال الخاص لصالح المجال العـام، الدور الذى يلعبه الإعلام المعـاصر وتكنولوجيا المعلومات الحديثـة فى التنشـئة الإجتماعيـة. حيـث تتم التنشـئة فى إطاره وفق قيم عامة وليسـت خاصة، فقد أنتهـى العـصر الـذى كانـت فيـه الأسر تحتكر عملية التنشـئة الإجتماعيـة أو الجماعة الإثنية تنشـئة الأبنـاء وفـق قيـم معينـة. لأن الإعلام وتكنولوجيا المعلومات همشـت تأثير هذه المؤسسـات الأولية والتاريخيـة. يضـاف إلى ذلـك التحـولات التـى طـرأت عـلى بنيـة الأسرة ذاتهـا، فقـد أصبحـت أعجز مـن أن تكـون مجـالاً للتنشـئة الإجتماعيـة او أعجـز من أن تشـكل إطـاراً لخصوصية بعـض القضايا.

ويتصل العامل الثالث لتآكل المجال الخاص بمجموعة الأصدقاء مرتادى "المواقع الافتراضية" والذى يطرحون ما هو خاص بهم بصورة متطرفة، ليصبح موضوعاً للنقاش العام. على سبيل المثال المطالبون بالمثلية الجنسية والشذوذ، بحيث نجد أن طرح مثل هذه القضايا ليتشكل بشأنها رأى عام فى العلن، بعد أن كانت فى ظل القيم التقليدية من السلوكيات الأشد خصوصية.

ويتصل التحول الرابع بأننا إذا تأملنا القضايا التى تناقش فى المجال العام للمجتمع الإفتراضى، فإننا سوف نجد أن المتفاعلين على ساحة المواقع الألكترونية بدأوا يطورون منظومات قيمية تعد مقابلة لمنظومات القيم السائدة فى المجتمع الواقعى. ويرجع ذلك لإنتماء منظومتى القيم إلى أنماط مختلفة من المجتمعات. منظومة القيم فى المجتمع الواقعى، هى منظومة قيم تطورت عبر تشكل التراث الثقافى للمجتمع. وهو تراث من صنع الكبار الذين يميلون إلى تطوير منظومات قيم تضبط التفاعل حفاظاً على الإستقرار الإجتماعى، ومن ثم نجد أنها منظومات تتسم بالتقليدية والمحافظة. والتغيير فيها يتم فى حدود ضيقة على ما يذهب التراث السوسيولوجى، فهى من إبداع الكبار، ومسئولية الكبار الحفاظ عليها كذلك. على خلاف ذلك نجد أن منظومات القيم التى بدأت تتبلور على ساحة المجتمع الإفتراضى من خلال المواقع المختلفة، هى منظومات قيم جذورها فى الغالب مشدودة إلى العالمية، أو العولمة، ثم أنها منظومات قيم من صنع الشباب. ولأن الشباب هم مبدعوها ولأنها تتشكل فى عالم متسارع التغير، فإننا نجد أن مضامينها رافضة للإستقرار وتميل إلى التغير كذلك، وليس من الضرورى أن يتم العمل وفقا لها على قاعدة الإتفاق العام، كما هى الحال بالنسبة لمنظومات القيم فى المجتمع الواقعى. إذ تخضع منظومات فى المجتمع الإفتراضى لحالة من التفكيك الذى يشكل السمة الغالبة لمجتمعات ما بعد الحداثة.

ويشير التحول الأخير والخامس إلى أن التفاعلات الحادثة والمواقع الإفتراضية تشكل نوعاً من المعارضة الإجتماعية والثقافية، أي المعارضة للتفاعلات ومنظومات القيم والسلوكيات التى تقع فى مختلف المجالات. ويرجع

تميز التفاعلات الحادثة فى المجتمع الإفتراضى بالطابع المعارض إلى ثلاثة أبعاد، الأول يتمثل فى أن الشباب هم الذين يوجهون التفاعلات وهم الذين يطورون القيم فى المجتمع الإفتراضى. حيث نجد أن الشباب على صفحات "الموقع الافتراضي" بطبيعتهم رافضين للمجتمع الواقعى التقليدى، لأنهم وإن كانوا يعيشون فى الحاضر إلا أن فاعليتهم الحقيقية فى المستقبل. ومن ثم – حسبما يذهب التراث النظرى – فإنهم يميلون إلى تقليص الحاضر لصالح المستقبل، ومن ثم فهم على رفض ضمنى له، خاصة أنهم على خلاف الكبار لم يستوعبوه بصورة كاملة داخل ذواتهم. بينما يذهب البعد الثانى إلى أن الشباب، بخاصة فى المجتمعات النامية والمتخلفة يعيشون فى ظل حالة من عدم إشباع الحاجات الأساسية. إبتداء من الحاجة إلى العمل والدخل، وحتى الحاجة إلى التعبير والمشاركة، الأمر الذى يعنى أنهم رافضون للمجتمع الواقعى القائم. ومن ثم فهم يقفون من خلال المواقع الألكترونية موقف المعارضة لكل تكوينات المجتمع الواقعى تقريبا. إبتداء من الثقافة والقيم، ومرورا بطبيعة التفاعلات المتصلة بنوعية الحياة، وحتى ممارسات النظام السياسى. فى حين يتصل المصدر الثالث لنمو المعارضة فى كون الشباب أصبحوا منفتحين من خلال تكنولوجيا الإعلام والمعلومات على العالم الخارجى، بخاصة المجتمعات المتقدمة والمسيطرة على هذه المواقع والشبكات، يطلعون على نوعية الحياة فيها، وعلى الثقافة والقيم المنظمة للتفاعل فى إطارها، وعلى إتساع مساحة إشباع الحاجات فى نطاقها. وهو ما يعبر عن ظاهرة الإختراق الثقافى من خلال تكنولوجيا الإعلام والمعلومات، بحيث يستوعبها الشباب لتشكل مرجعيته فى رفض مختلف عناصر التفاعل الواقعى. وبذلك تصبح المعارضة الشبابية لما هو قائم فى مختلف المجالات رأس حربة لتفكيك المجتمع الواقعى. بهدف القضاء على بعض تكويناته الثقافية والإجتماعية والسياسية، فكأن السياق الواقعى بسبب ظروفه السلبية هو الذى دفع الشباب إلى السياق الإفتراضى ليطور أفكارهم ومعارضتهم بهدف تغيير السياق الواقعى. ونحن إذا تأمنا المعارضة الشبابية فسوف نجد أنها تتضمن منظومات قيم وسلوكيات ثقافة، تدفع إلى

تغير التفاعل الحادث فى مختلف المجالات وفقا لمضامينها الأساسية.

على هذا النحو تشكل "المواقع الافتراضية" مجتمعا مدنيا خاليا من المعانى والقيم الإرثية والإثنية، التى تؤثر على تفاعلات المجتمع الواقعى فى إطاره. حيث يعبر الشباب والملتحقين الآخرين بالموقع عن أنفسهم فيما يتعلق بقضايا إجتماعية وإقتصادية وثقافية وترفيهية متنوعة. فى إطار هذه المواقع تناقش مختلف القضايا بلا قيود، وفى هذا النطاق تقتحم محرمات المجتمع الدين والجنس والسياسة كما أشرت. بالإضافة إلى ذلك ولإبراز المعارضة تتشكل مجموعات حول شخصيات متنوعة، إبتداء من الشخصيات التى لها علاقة بالشباب فى المجال الفنى، وحتى الشخصيات السياسية التى تثير إعجاب الشباب بآدائها. وبرغم أن حرية التعبير متاحة على صفحات "المواقع الافتراضية" وبرغم القيم والمعايير التى بدأت تتشكل فى إطار هذا التجمع المدنى فى الواقع الإفتراضى. وأبرزها أن يكون النقد موضوعيا او على الأقل يعبر عن وجهة نظر الذات، ولكن بدون "شتائم" (٥٨) حسبما يؤكد المتفاعلون مع الآخر على أساس من المساواه وبدون أى متغيرات فاصلة كما يحدث فى المجتمع الواقعى، أو حتى مع الآخر على الصعيد العالمى (٥٩).

خامساً: القيم السياسية للشباب فى المجتمع الإفتراضى

فى محاولة التعرف على منظومات القيم الموجهة لسلوكيات المشاركين على صفحات المواقع الافتراضية فإننا ندرك هذه القيم من خلال القضايا التى تثار على هذه الصفحات. بيد أننا قبل أن نعرض لهذه القيم الثقافية فإننا نشير إلى أربعة ملاحظات، الملاحظة الأولى أن تطوير شباب "الموقع الافتراضي" لبعض القيم التى يتعاملون وفقا لها، وتوجه سلوكياتهم، أنما هى فى جانب كبير منها إنعكاس لقيم واقعية رآها الشباب مقيدة لتفاعلاتهم وسلوكياتهم، او أنها قيم مرفوضة بحكم طبيعتهم الشبابية. بينما تشير الملاحظة الثانية إلى أن بعض القيم التى أعلنها شباب علي الموقع الافتراضي تعتبر مؤشراً لحجم الإختراق الثقافى الذى حدث لثقافتنا ولنوعية حياتنا الإجتماعية. حيث وجدنا شرائح وجماعات من الشباب يطالبون ببعض القيم التى تتناقض مع مرجعيتنا الثقافية

والأخلاقيـة كمطالبـة بعـض الشـباب مثـلاً بإباحـة "الشـذوذ الجنسى". وهو ما يعنـى أن صفحات "الموقـع الافـتراضي" وإن كانـت تتعامـل مـع قيـم واقعيـة رأتهـا سـلبية، إلا أنها تعـد فى ذات الوقت نافـذة لتدفـق قيـم ينبغى الحـرص على منظومات قيمنـا الثقافية من الخضـوع لإختراقاتها. يضاف إلى ذلـك ملاحظـة ثالثـة تتعلـق بـأن القيـم التـى طورهـا شـباب "الموقـع الافـتراضي" تغطـى تقريبا مختلـف مجـالات الحيـاة الإجتماعيـة. وإذا كانـت هنـاك بعـض المجـالات التـى لم يتـم التطـرق إليهـا، فـإن ذلـك لحداثـة الدخـول على صفحـات "الموقـع الافـتراضي"، أو لضآلة عـدد المتعاملين مع الموقـف. لأن الدخـول إليـه يتطلـب تجهيـزات وإمكانيـات ماديـة قـد لا تكـون فى متنـاول شرائـح إجتماعيـة واسـعة وغالبـة. أمـا الملاحظـة الرابعـة، فإننا سـوف نعرض لهـذه الملاحظات على أسـاس مـن طبيعتهـا الأساسـية مصنفـة عـلى هيئـة متصـل، القيـم السياسـية -الترفيهيـة، الـذى يبـدأ مـن القيـم السياسـية ثـم الإجتماعيـة ثـم الإقتصاديـة ثـم الثقافية ثـم الترفيهية.

وبرغـم أن هنـاك بعـض الدراسـات التى تؤكـد على عدم إهتمام شـباب المواقـع الألكترونية بالسياسـة، تأكيـدا لذلـك أن نسـبة ٨٦٪ من الشـباب على "المواقـع الافتراضية" لا يفضلون الإشـتراك فى موضوعـات ذات طبيعـة سياسـية (٦٠). غـير أننـا برغـم ذلـك نجـد أن عـدد المجموعـات التـى تهتـم بالقضايـا السياسـية تصـل إلى نحـو خمسـمائة مجموعـة سياسـية. تمـارس السياسـة بـكل أطيافهـا وتنوعاتهـا وتـتراوح توجهاتهـا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسـار، حيث يظهـر فيها أصحاب الأصـوات المكتومـة عـلى أرض الواقـع. والتـى أصبـح الشـباب شـديد الإهتـمام بهـا خصوصـاً مـع وجـود جبهـات معارضـة لهـا ووجودهـا فى الشـارع. ويعكـس إرتفـاع نغمـة المعارضـة السياسـية مـن خـلال الوسـائط الألكترونيـة "كالمواقـع الافتراضيـة" إهتـمام الشـباب الغـربى المحـدود بالقضايا السياسـية. عـلى عكـس ذلـك نجـد أن الشـباب فى مجتمعاتنـا هـم الأكـثر إهتمامـا بالقضايـا السياسـية. وذلـك بسـبب عوامـل عديـدة، من هـذه العوامل أن الأبنيـة الحزبيـة فى مجتمعاتنا غير قـادرة عـلى إسـتيعاب شريحـة الشـباب، وهـى فى الغالـب أبنيـة نخبويـة كسـولة. وبسـبب كسـلها

أصبح لجماعة الأخوان المسلمين في فترة سابقة إمتدادها فى الشارع المصرى، وللحزب الوطنى إمتداده المفروض في فترة سابقة كذلك. ومن ناحية ثانية فإننا نجد أنه برغم إتاحة الفرصة للمعارضة من خلال المجتمع المدنى والصحافة المستقلة، إلا أن النظام السياسى متمترس خلف قناعاته، يدرك أن المعارضة والآخرين على خطأ، ومن ثم ينبغى عدم الإستماع إليهم وإن أمكن ملاحقتهم وإعتقالهم. نوع من الديموقراطية المدهشة، أن تفتح النظم السياسية نسبيا باب حرية التعبير، غير انها لا تستفيد من مضامين التعبير، كأنما ساحة الوطن متروكه لكل يفعل ما يريد. ومن ناحية أخرى تحريم التعبير السياسى الصريح أحيانا، كما هى الحال بالنسبة لإنتخابات الإتحادات الطلابية لشباب الجامعات في الفترة السابقة علي ثورة ٢٥ يناير، حيث كان التدخل لكى تفرز إنتخابات الإتحادات الطلابية ذوى توجهات أيديولوجية معينة بينما، تستبعد آخرين ذوى التوجهات الأيديولوجية المخالفة. وهى الظروف التى قد تدفع لإشتعال جذوة المعارضة الشبابية، وهى وإن كانت معطلة فى الواقع، فإن البديل هنا يتمثل فى "الموقع الافتراضي" الذى يصبح منبراً لقوى الرفض الشبابية فى الواقع، حيث يصبح موقعا يتاح فيه التعبير بدون قيود أو عوائق.

فإذا حاولنا تأمل المنظومة القيمية والثقافية التى تشكل مرجعية شباب "المجتمع الافتراضي" لممارسة المعارضة السياسية، فسوف نجدها خليطا من مجموعة من العناصر. أبرز هذه العناصر الطابع الراديكالى لهذه القيم، وهو ما يتسق فى الغالب مع الطبيعة الشبابية، التى تميل إلى الرفض والتمرد، وبسبب ذلك كانت راديكالية هذه المرجعية. من هذه العناصر إدراك الشباب للقيود المفروضة على التعبير، الأمر الذى يؤجج حرية التعبير على صفحات "المواقع الافتراضية". بيد أن أننا نلمح بعض منظومات القيم التى يتم تداولها فى الثقافة السياسية المصرية كالحديث عن تداول السلطة" وعن "التوريث"، وعن ضرورة التغيير فى بنية النظام السياسى. بالإضافة إلى ذلك فإننا نجد بعض العناصر القيمية التى تعبر عن مازق الطبقة الوسطي. وهى القيم الرافضة على مرجعية أزمة ومأزق هذه الطبقة، والتى تقف نسبيا موقفا عدائيا من النخبة السياسية

والإقتصاديـة، لإعتقادهـا انهـا سـبب ازمتهـا. يضـاف ذلـك إلى عنـصر طـرأ عـلى واقعنـا الإجتماعى بفعـل إخترقـات العولمـة لفضـاء ثقافتنـا السياسـية، وهـو العنـصر المتعلـق بالقيـم الديموقراطيـة، والتأكيـد عليهـا. وكذلـك قيـم ضرورة إحـترام حقـوق الإنسـان، خاصـة أن بعـض النظـم السياسـية العربيـة موضوعـة فى مـأزق بالنسـبة لهـذه القضيـة. يضـاف إلى ذلـك التأكيـد عـلى قيم الشـفافية، وهـى القيـم التـى تـبرز إنعكاسـاً لسـلوكيات وثقافـة الفسـاد، التـى أصبـح لهـا وجودهـا البـارز فى الشـارع المـصرى. بالإضافـة إلى ذلـك يوجـد بعـد قـوى يؤكد عـلى قيم المواطنة المتسـاوية بـين أبناء الشـعب الواحـد. وإسـتناداً إلى هـذه المرجعيـة ترفـض الفـتن الطائفيـة، وتـرى أنهـا غريبـة عـلى مجتمعنـا، تقـع إمـا بسـبب السـلوك الرخو للنظام السـياسى، أو بسـبب الأزمـة التى تمر بهـا الطبقة الوسـطى. وهـى الأزمـة التـى تنجـلى مـن خـلال وقـوع إنفجـارات متنوعـة تعـبر عن تهتك نسـيج بنيـة هـذه الطبقـة. عـلى هـذا النحـو فنحـن أمـام منظومة قيميـة ذات طابع سـياسى قـوى، وذات مسـحة شـبابية راديكاليـة شـفافة. تعـبر فى الغالب عـن ثقافة شـباب الطبقة الوسـطى التى تعيش فى أزمـة ومـأزق تؤكـد عـلى أهميـة تداول السـلطة ورفـض التوريث. كـما تؤكد عـلى الديموقراطية وحقـوق الإنسـان والمواطنـة المتسـاوية وترفـض الفسـاد والتـشرذم الوطنـى، كـما ترفـض المنطـق الأمنـى فى معالجـة القضايـا الوطنيـة، وإسـتتباعا لذلـك ترفـض الإعتقـال والمعتقلات.

عـلى هـذا النحـو نجـد أن منظومـة القيـم السـابقة توجـة عديـداً مـن الممارسـات عـلى صفحـات "المواقـع الافتراضيـة". فعـلى صعيـد البنيـة الحزبيـة نجـد أن الشـباب مـن خـلال موقـع "المواقـع الافتراضيـة" يقفـون موقفـا مضـاداً لـكل مـن الحـزب الوطنـى والأخـوان المسـلمين ويضعونهـما فى سـلة واحـدة. فمثـلا نجـد مجموعـة ظهـرت عـلى صفحـات "المواقـع الافتراضيـة" بعنـوان "معـا ضـد الحـزب الوطنـى الديموقراطـى الحاكـم فى مـصر" وهـى مجموعـة يصـل عددهـا إلى نحـو مائـة ألـف فى مقابـل مجموعـة مضـادة "مـع الحـزب الوطنـى الديموقراطـى الحاكـم فى مـصر" ويصـل عـدد أفرادهـا إلى ثلاثـة أفـراد فقـط. فى مقابـل مجموعـة ثالثـة ترفـض جماعـة الأخـوان المسـلمين بعنـوان "مـش عايزيـن أخـوان، حيـث تضـم هـذه المجموعـة ثلاثـة

آلاف مشترك، يؤسسون رفضهم لجماعة الأخوان المسلمين، بإعتبارهم جماعة دينية تستهدف الوصول إلى السلطة (٦١). ولا يعنى ذلك أن الشباب الرافض للحزب الوطنى أنه رافض لليبرالية، ولكنه رافض لنخبة الحزب التى تتداخل فى بنيتها بعض الرموز التى اصبحت مرفوضة جماهيريا. فى ظل إعتقاد سائد بأن الأمور ساءت كثيراً بسبب الوجود الدائم لهذه النخبة ولهذا الحزب فى السلطة. حيث إرتبط ذلك بالظروف التعسة التى تعيشها شرائح كبيرة من المواطنين، فى مقابل الفساد والإنحراف والإحتكار الذى إرتبط ببعض رموز هذا الحزب، إلى جانب دوام بعض رموز نخبتة فى السلطة لفترة طويلة لا يعلم نهايتها إلا الله.

بالإضافة إلى ذلك رفض جماعة الأخوان المسلمين ليس بسبب الدين ولكن بسبب ميلهم للعبث بالدين فى السياسة من أجل الوصول إلى السلطة، يضاف إلى ذلك أن رفض جماعة الأخوان المسلمين من قبل شباب "المواقع الافتراضية" يرجع بالأساس إلى المنظومة القيمية للشباب، التى تعد مرجعيتهم فى إدراك الأمور والحكم عليها. حيث نجد أن الشباب بحكم تكوينهم يميلون إلى التحرر وهم - بسبب الإختراق الثقافى - تم إستيعابهم لقيم الثقافة الليبرالية التى تفتح نوافذ التحرر نسبيا. خاصة شباب الطبقة العليا والشرائح العليا للطبقة المتوسطة، حيث ممارسة الدين بصورة معتدلة، يضاف إلى ذلك إنتشار نمط التدين البعيد عن السياسة بين الشباب. يضاف إلى ذلك إستيعاب الشباب لقيم الثقافة الإستهلاكية كنتيجة لثقافة العولمة، وقيم الإستهلاك لا تتسجم كثيراً مع القيم الدينية المتقشفة التى يدعو إليها الدين، يضاف إلى ذلك الوجه القبيح الذي أطلت به جماعة الأخوان المسلمين علي المجتمع ، وكذلك الفضح السياسى لهم، يكفى أسم "الجماعة المحظورة" في فترة والجماعة الارهابية في فترة أخري حيث أصبحت هذه التغيرات، رمزا لهذه الجماعة بدلاً من تعبير الأخوان المسلمين.

تناولت صفحات "المواقع الافتراضية" أيضا التاكيد على رفض بعض الشخصيات السياسية وقبول أو تمجيد اخرى، مثال على ذلك تشكلت مجموعة على أحد المواقع الافتراضية حول كراهية "إسرائيل وبوش"، كذلك أحد الزعماء

العـرب الـذى يجـب أن يذهـب فى ظـل شـعار "يمكـن فـلان يغـور لـو وصـل عـدد المنضمـين لهذه المجموعـة إلى مائـة ألـف مشـترك، غـير انهـم لم يسـتطيعوا تجميـع سـوى ٣٣٠ صوتـا فقـط (٦٢). وبطبيعـة الحـال فـإن القيـم العربيـة هـى التـى شـكلت رفـض هـذه المجموعـة لبـوش، بإعتبـاره الرئيـس التـى هاجمـت أمريـكا فى عهده العـراق، والذى تعامل مـع العالم العربى بنـوع من الصلف. وهـو الـذى دعـم إسرائيـل وحاول تفكيـك لبنان، ووضع السـودان على طريق التفكيـك. أما رفضهم لإسـتمرار بعـض الزعـماء العرب فيرجـع إلى أن الدوام لله وحدة، والإسـتمرار فى الحكـم لمدة طويلة، فى عـالم سـنته الأساسـية التغيـير المتسـارع يشـير إلى تناقـض وجـودى واضـح. وما دمنـا نتحدث عن الزعامـات العربيـة فقـد تشـكلت جماعـة "عمرو مـوسى" الذى يعتبره شـباب "المجتمـع الافتراضي" أحـد السياسـيين العـرب الذيـن لهـم مكانتهـم الجماهيريـة (٦٣). ويبـدو أن القيـم التـى شـكلت مرجعيـة لوجهـة النظـر هـذه تتصـل بالبحث عـن زعامة شـامخة تقود المسـيرة مثل زعامـة الرئيس عبـد النـاصر فى فـترة سـابقة مـن التاريـخ المصرى. هى قيـم متعطشـة إلى الكرامة والبطولـة والقوة والرجولـة، وهـى قيم تسـتهوى سـيكلوجية الشـباب كثيراً.

ويبـدو أن تصـدى قـوات الأمن للإحتجاجات والتظاهرات فى الشـارع المـصرى فيما قبل ثورة ٢٥ ينايـر ٢٠١١، خلقـت فجـوة بـين الأمـن والشـعب، بخاصـة الشـباب الذيـن يشـكلون فى الغالـب جمهـور هـذه الإحتجاجـات والتظاهـرات. تأكيداً لذلك سـجلت عـلى حائط أحد المواقـع الافتراضية صـور لضبـاط شرطـة ضربـوا بالرصـاص أحـد مهـربى المخـدرات، ورجـال الشرطـة تظهرهـم الصـور يضحكـون بينـما المصـاب ينزف دمـا. وبرغم أن المصاب تاجـر مخدرات لا ينبغـى أن يلقى تعاطف جماهـيرى، إلا أنـه بسـبب الكراهيـة الشـعبية وبخاصـة الشـبابية للأمـن فإننا نجـد أن التدوين على حائـط "الموقـع الافـتراضي" إتجـه إتجاهـا مضـاداً لرجـال الأمـن، والغريـب أن تعاطـف نسـبيا مـع تاجـر المخـدرات المصـاب. حيـث بلغـت عـدد التعليقات عـلى الحائط نحـو ١٢٢ تعليـق، بينما بلغ عـدد المشـاهدات نحـو ٤١١٧٠ ، تعليـق يقول "مهـرب مخدرات ويسـتاهل". وآخر يقـول "الواحد مبسـوط جداً بكل المشـاهد دى لأنه إنشـاء الله هتولع قريب، الناس خلاص جابت آخرها، هانت"،

آخـر يقـول "الشرطـة النازيـة"، تعليـق آخـر يقول "عـدد المصريين حيقـل بالطريقـة دى، كل ضابط يقتلـو ٥ أو ٦ ، أكيـد دى فكـرة نظيـف فى تقليـل عـدد سـكان مـصر". وآخـر يقـول " حسـبى اللـه ونعـم الوكيـل فى النازيـين المصريـين مـن أفـراد الشرطـة، وإنشـاء اللـه هـم حيكونو هم سـبب خـراب البلـد" (٦٤). ذلـك بالإضافـة إلى تعليقات قاسـية وحادة تطـول العديدين مـن نخبة النظام السـياسى،الأمر الـذي يعنـي تحـرك الشـباب برؤيـة رافضـة للعنـف، بخاصـة مـا يصـدر عـن رجـال الأمن.

عـلى هـذه الخلفيـة يمكـن فهـم السـلوكيات الإجتماعيـة التـى إنطلقـت مـن "المواقـع الافتراضيـة" لتحـاول التأثـير فى الواقـع الإجتماعـى، مثـال عـلى ذلـك الدعـوة لإضراب ٦ إبريـل قبـل ثـورة ٢٥ ينايـر ٢٠١١. حيـث تشـير الكتابـة عـلى جـدار الموقـع إلى أن "أجـواء مـصر لم تمنـع مـن بـزوغ ملامـح جيـل جديـد و "قـوة ناشـئة" صاعـدة مـن الشـباب جميعهـم ينتمـى إلى المرحلـة الجامعيـة والثانويـة أو هـم حديثـى التخـرج أعلنـوا "ميـلاد وطـن حـر بأيـدى شـباب حـر" فقـد أكـد عـشرات الألاف مـن الشـباب المـصرى فى رسـائل جـاءت على صفحاتهـم تدعوهـم إلى الإضراب. إذ يؤكـد أحدهـم" أنـا قريـت عـلى النـت وجتـلى رسـائل عـلى الموبايـل أن فيـه إضراب عـام يـوم ٦ إبريـل للإعـتراض عـلى الغـلاء المفـرط والإرتفـاع الجنـونى فى الأسـعار. مـن ناحيـة أخـرى المرتبـات والدخـل مبيتحركـوش ومفيـش ربط مفهوم بـين الإرتفاع الجنـونى للأسـعار ... وكأن الحكومة عايزانا نـضرب دماغنـا فى الحيـط. عجبتنـى الفكـرة وفكـرة أن أحنـا يمكـن ندعـم الفكـرة بـإضراب عـام عـن الـشراء، ونعمـل إضراب عـن شراء أى سـلع فى اليـوم ده، وياريـت منكنـش سـلبيين ونشـارك كلنـا فى الإضراب بـأى صـورة مـن الصـور... مفيـش حاجـة فى البلـد ممكـن تتغـير وإحنـا واقفـين نتفـرج ونمصمـص شـفايفنا ونقـول حسـبى اللـه ونعـم الوكيـل... ومـش حنتغـير لـو عـدد قليل هو بـس إلـلى إعـترض والباقـى واقـف يتفـرج، لـو مكنـش سـبعين مليـون يقفـو ضـد حكومـة فاسـدة وظالمـه ومرتشـيه مفيـش أى حاجـة حتتغـير، وسـاعتها إياك تقـول أن الحكومة هـى السـبب فى إنك مـش لاقـى تـاكل، لازم تعـترف بأنـك واقـف تتفـرج عليهـا وهـى بتدبـح فيـك وفى أهلك وفينـا كلنا، ٦ إبريـل إضراب عـام للشـعب المـصرى. وبالنسـبة لهـذا الجـروب، وهـو يعتـبر الآن أقـوى وأكـبر

وأنشط التجمعات الداعية للأضراب فقد تم الأتفاق حتى الآن على ما يلى:

١- الإجماع على تعليق علم مصر فى البلكونات.

٢- الإجماع على إرتداء ملابس سوداء ويفضل مطبوع عليها أى شعار للإضراب، لو أمكن، مع كل شارة عن أنى هضرب إحتجاجا على الأسعار.

٣- تم بالإجماع الإتفاق على الإضراب عن شراء أى سلعة تمثل وسيلة تهديد للحكومة التى لا تعيرنا أى إنتباه ولا تحترم وجودنا ولا تحس بمعاناتنا وكذلك الإضراب عن شراء السلع يعتبر تهديد لأى تاجر يرفع الأسعار (٦٥).

ويعكس هذا الإقتباس طبيعة الشخصية الشابة التى تمتلك التعبير المباشر ورد الفعل العفوى لما هو موتر لهم بالواقع الإجتماعى، دونما إغراق فى تحليلات ذات طبيعة نظرية. يؤكد هذا الطابع العفوى أن اللغة المستخدمة هى اللغة العامية، وربما أقل من ذلك الموقفية والمباشرة بشكلها الخام، دونما تعديل أو تطوير للتفاعل مع الآخر. فإستخدام اللقب هو تعبير عن الذات بالأساس، ويبدو أن عصر إرتباط الشباب باللغة العربية قد ولى وإلى غير رجعة، وذلك بإعتبار أن الشباب هم الشريحة الأكثر تعرضا للأختراق من قبل لغة وثقافة العولمة. كما يؤكد هذا الإقتباس تأثير الإعلام وتكنولوجيا المعلومات بنقله لصور الإحتجاجات من الخارج إلى الداخل، ومحاولة تقليدها بالتأكيد على الشارات والرموز، فى محاولة لتطوير هوية وثقافة فرعية لجماعة الإحتجاج.

سادساً: الجماعات والقيم الإجتماعية لشباب المجتمع الإفتراضى

بالإضافة إلى منظومة القيم التى وجهت التفاعلات والسلوكيات السياسية للشباب على صفحات "المواقع الافتراضية" فإننا نهتم فى هذه الفقرة بإستعراض القيم الثقافية المحددة لتوجهات الشباب فيما يتعلق ببعض القضايا والسلوكيات الإجتماعية. على أنه من الضرورى ونحن نعرض لثقافة الشباب فى هذا المجال، أن ندرك ذلك فى ظل أربعة أبعاد أساسية. ويتمثل البعد الأول فى أن غالبية المشكلات أو القضايا التى طرحت على صفحات "المواقع الافتراضية" ، ذات طبيعة شبابية بالأساس، فهى قضايا تشغل حيزا من تفكيرهم أو تسبب لهم معاناة فتوترهم. ومن ثم تصبح هى القضايا التى يتفاعل بشأنها الشباب

ليقدموا تصورات بشأنها. بينما يشير البعد الثانى إلى أن بعض هذه القضايا لا يتصل بثقافتنا، بل هى قضايا دفعت إلى فضائنا الثقافى والإجتماعى من خلال عملية الإختراق الثقافى. إستناداً إلى مضامين وآليات العولمة، التى تعمل على تصدير قضاياها المرتبطة بنوعية حياتها، لتؤسس تجانسا عالميا على أساس من عناصر ثقافتها وسمات نوعية حياتها. بينما يؤكد البعد الثالث على أن غالبية القضايا والمشكلات التى طور شباب "المواقع الافتراضية" قيما وثقافة بشأنها تنتمى بالأساس للطبقة الوسطى والطبقة العليا، وهى التى تشكل الأطر الإجتماعية لشعب المجتمع الافتراضي من الشباب، إستناداً إلى ذلك فسوف نعرض لبعض القضايا التى شكلت نطاق حوار بين المشاركين من شباب "المواقع الافتراضية".

١- **جماعة المطلقات**: إستناداً إلى دراسات عديدة أجريت على ظاهرة الطلاق فى واقع المجتمع المصرى، فإن أسرة الطبقة الوسطي والعليا بدأت تعانى من تهتك نسيجها الإجتماعى إلى حد الإنهيار. وهو الإنهيار الذى كان من نتيجتة أن لدينا حوالى سته ملايين مطلقة، وتحدث واقعة طلاق كل ستة دقائق. والذى كان من نتيجة إرتفاع معدلات أطفال الشوارع أو الذين يودعون فى دور التربية للأحداث (٦٦). ونحن إذا تأملنا هذه المشكلة فسوف نجد أنها نتجت عن عوامل عديدة أبرزها الدعوات التى إخترقت فضاءنا، وأكدت على حقوق المرأة دون أن توازن ذلك بحقوق الأسرة. فحقوق الإنسان ينبغى أن تتوازى مع حقوق الجماعة، يضاف إلى ذلك الوهن الأخلاقى والثقافى. بحيث يمكن القول بأن التفاعلات الحادثة فى واقعنا الإجتماعى، أصبحت موجهة فى غالبها بلا منظومات قيمية فعالة، من بينها ضعف القيم التى كانت تخلع نوعاً من القداسة على الأسرة. إلى جانب ذلك إنتشار القيم والروح الفردية، وهى المضادة للقيم والروح الجماعية. بحيث خلع ذلك عن الأسرة قداستها، وإقتربت من أن تكون وحدة قائمة على الشراكة، إستناداً إلى التزامات متبادلة دون وجود عواطف أسرية، أو وحدة أسرية تنتج عن إمتزاج وتفاعل عناصرها المكونة. نتيجة لذلك أصبح الطلاق سلوكا فرديا، وتراجع عن كونه عملية إجتماعية، حتى أن الأسرة

بالنسبة لبعض الشباب لم تعد سكنا ولكنها تحولت إلى عبئ يمكن التخفف منه.

تشير الحقائق التى أشرنا إليها إلى بعض التفاعلات التى وردت على صفحات "المواقع الافتراضية". فعنوان الجماعة "المطلقات" ويصل عدد المشاركين فى هذه الجماعة إلى ٤٨٤ مشارك ومشاركة أبرز أعضاء الجماعة هم "سالى" و"أحمد". أطلقت الجماعة دعوة تشير إلى أن "لكل مطلقة تحب تتكلم وتشارك غيرها بتجربتها". فى إطار هذه الجماعة تبدأ المطلقات تتحدث عن التحرر من الروابط الأسرية، وعن عبئ المجتمع الذكورى، إضافة إلى التساؤل حول منطق الزواج نفسه. ولماذا يرتبط أثنان حتى الموت مع بعضهما فى إطار أسرة، حتى لو أدرك كل عيوب الآخر. السنا فى عالم متغير، وينبغى أن نتسق مع عالمنا، من الممكن أن يتحول المطلقين إلى أصدقاء، وإذا لم توفق المرأة فى زواج لماذا يستمر. لماذا لا تدخل زواج جديد، مهما كانت عدد مرات الطلاق وعدد مرات الزواج. يستحسن الطلاق قبل الإنجاب لذلك نصيحة لكل متزوجة أن تؤخر الإنجاب. فإذا تأملنا ما سبق وهو مسجل على صفحات هذه الجماعة، فإننا ندرك مساحة التخلى عن تراثنا الثقافى والدينى، والنظر إلى التفاعل والحياة الأسرية بنفس المنطق الغربى، الذى أشار إليه عالم الإجتماع فرنسيس فوكوياما فى مؤلفه "نهاية نظام" The End of Order (٦٧).

ولا يتوقف الأمر عند التخلى عن المرجعية الدينية والتراثية فى النظر إلى الأسرة والطلاق، ولكننا نجد بعض التعليقات تنحدر فتسلم الجماعة إلى ساحة الإنحراف. (٦٨). لم يلاحظ على صفحات هذه الجماعة أى أدانه للطلاق، أو حزن على العلاقات التى إنهارت، ولا تعليق يشير إلى أن أبغض الحلال عند الله الطلاق. إذ لم تعد منظوماتنا القيمية الثقافية الدينية الواقعية هى المرجعية التى ينظر من خلالها شباب "المجتمع الافتراضي" إلى الطلاق، بل تسللت وإختارت القيم الغربية لكى تصبح هى المرجعية بالأساس.

٢- **جماعة "عوانس من أجل التغيير"**: من الجماعات التى لها صفحاتها على موقع "الفيس بوك" وتدور حول الفتاة العانس التى تأخر سن زواجها ولم تتزوج بعد. فهى قد أصبحت مشكلة إجتماعية زاد من حدتها مشكلة البطالة

التـى فرضـت عـلى شريحـة مـن الإنـاث البقـاء فى المنـزل، يضـاف إلى ذلـك أن الظـروف الإقتصاديـة الصعبـة، إضافـة إلى الأعبـاء التـى يفرضهـا تشـكيل الأسرة، جميعهـا دفعـت إلى إنخفـاض معـدلات الـزواج وتأخـر سـن الـزواج. تذهب "سـالى" التى أنشـأت هـذ الموقع وعمرهـا ٢٧ عاما قائلـة "إننا كفتيـات لا نريـد ان نتـزوج مـن اجـل نيـل لقـب متزوجـة فقـط... ليسـت العنوسـة شـبحا يطـارد الفتيـات فى أحلامهـن ويقظتهـن، فيلقـين بأنفسـهن فى تهلكـة زيجـة غـير متوافقـة ليسـتبدلن لقب عانـس بمطلقـة". يعتقـد البعـض أنى أناشـد العوانـس فقـط، ولكننـى اسسـت حركـة إجتماعيـة لا تجمـع العوانـس فحسـب، بـل تضـم كل المؤمنـين بضرورة رفـع الظلم الواقـع على الفتـاة التى تأخر زواجهـا، لنحـول معـا صورة العانس من تلك الصـورة الخاطئة، التى تحصرها فى تلـك الفتاة الحاقدة إلى فتـاة ناجحـة، قـادرة عـلى إعـمار الأرض، ليس من خلال الزواج فحسـب ولكـن بالإمكانيات التى منحهـا إياهـا اللـه" (٦٩). وحـول إنتشـار الحركـة أشـارت مؤسسـة الجماعـة "أن لقـب عانس جزء مـن ثقافتنـا، وهـى مرتبطـة بأنـه يجـب أن تتزوج المرأة. من الأشـياء التى أسـعدتنى جـداً أن بنات إتصلـن بى مـن "ماليزيـا" وقالـوا لى إنهـم يعانـون مـن نفـس المشـكلة. ومـن أسـبانيا طلبـت منى فتـاة نفـس الفكـرة لتنشـئها بالأسـبانية، كل ذلـك يؤكد أن العنوسـة مشـكلة ثقافيـة فى العالم أجمع وليسـت مشـكلة ثقافيـة فى المجتمـع العربى فقـط (٧٠).

فـإذا تأملنـا منظومـة القيـم الموجهـة لآداء هـذه المجموعـة فسـوف نجـد تـآكلا فى قيمـة الحيـاة الأسريـة، يكفـى نجـاح الفتاة فى حياتهـا وعملها. ثـم هجوما على المجتمع الذكـورى، لكونه المجتمـع الـذى شـكل مرجعيـة لمفهوم العنوسـة بمعنـاه السـلبى، وإن الفتـاة يمكن أن تكـون عضواً مفيـداً فى المجتمـع مـن غـير أن تكـون بالـضرورة زوجـة. وهو ما يعنى مـرة اخرى تفكيـك منظومة القيـم الأسريـة المسـتندة إلى الديـن والـتراث إلى درجـة تفضيـل العنوسـة عـلى الـزواج مـن ناحيـة، وتفضيلـة عـلى الطلاق مـن ناحيـة أخرى.

٣- **"جماعـــة مخـــدرات"** : أصبحـــت المخـــدرات مشـــكلة إجتماعيـــة تواجـــه مختلـــف المجتمعـــات لإنتشـــارها بـــين الســـكان وبخاصـــة الشـــباب. وبســـبب المعانـــاة

المفروضة على مختلف الشرائح الإجتماعية وأبرزها الشباب، إضافة إلى زيادة المنتج العالمى للمخدرات، إلى جانب أن المخدرات المعاصرة، والموجودة بوفرة – تؤدى عادة إلى الإدمان. يضاف إلى ذلك أننا إذا تأملنا المواد المخدرة فى الزمان الحاضر فإننا نجد أن إنتشارها بدأ يتجه إلى أسفل، حيث بدأ ينتشر بين الصغار فى المرحلة الثانوية، وربما الإعدادية. من المدهش أن نجد جماعة على صفحات "المجتمع الافتراضي" تدعو إلى تعاطى المخدرات وتشجع عليها، وإن كان عدد المشاركين فيها لا يتجاوز ١٦٠ عضو فقط، النشر على صفحاتهم يتم باللغة الإنجليزية، وربما، المشاركين من خلفية طبقية بعينها. صفحات هذه الجماعة تحت شعار "عاشقى المخدرات" ثم عبارة "كل الناس يحبون المخدرات ونحن نريد لكل المصريين أن يدخنوا المخدرات كخطوه نحو الإدمان" و "فى مصر خمسون مليونا من المدمنين" (٧١). وبرغم أن الأرقام التى يشيرون إليها ليست صحيحة، غير أنهم كجماعة فرعية لها ثقافة تأمل فى نشر التعاطى والإدمان والثقافة المرتبطة بهما، حتى يشكل الإقتناع بهذه الثقافة وممارسات التعاطى تأسيس نوع من الأمان المعنوى والثقافى للجماعة.

٤- **"جماعة لمكافحة الإدمان"**: توجهات هذه الجماعة تتناقض مع توجهات الجماعة السابقة، تعمل فى ظل شعار "توقف عن تعاطى المخدرات، وغير حياتك". تذهب هذه الجماعة إلى أن عدد متعاطى المخدرات فى العالم العربى يصل إلى عشرة ملايين متعاطى، وأن مصر بها وحدها حوالى أربعة ملايين. هذا ما تقوله الإحصاءات، وإن كان الواقع يشهد أضعاف هذا العدد. ومن المتوقع أن يتزايد هذا العدد بسبب إنخفاض أسعار المخدرات وزيادة معدلات البطالة والأحباط بين الشباب. وقد إرتبط بذلك نموا متصاعداً للجرائم الكبيرة "كالإغتصاب والقتل" أو الجرائم الصغيرة كالسرقة إضافة إلى المشاحنات والحوادث العائلية بسبب تعاطى الأب والأبن للمخدرات، والتى تزايدت بحيث أصبحت مهددة للأمن الإجتماعى للعالم العربى. وإلى جانب أن التعاطى يتزايد بين الذكور إلا أنه ينتشر أيضا بين الإناث، وهو الإنتشار الذى سوف يؤدى إلى إنتشار الجرائم الأخلاقية فى المجتمع. وبرغم أن هناك سياسات وجهود لعلاج

المتعاطين والمدمنين، إلا أن عدد ما تم علاجهم فى السنوات الثلاث الأخيرة لم يتجاوز أربعة آلاف سنويا بالإضافة إلى أن تعاطى المخدرات بدأ ينتشر بين المساجين فى السجون، وفى حالة غياب إجراءات لعلاجهم فإنهم سوف يشكلون خطورة كبيرة فى المستقبل.

ويشير وجود الجماعتين المتناقضتين على نفس الموقع إلى مسألتين، الأولى أن كلا الجماعتين لهما وجودهما الواقعى، وأن الإنطلاق إلى المجتمع الإفتراضى من خلال "المواقع الافتراضية" يشهد على أن كلا الجماعتين تسعى، إلى توسيع نطاق المشاركين فيها، حتى تضمن فعاليتها. والثانية أن الثقافة العامة للمجتمع، تتضمن عادة عناصر متناقضة، فبعض العناصر تؤيد التعاطى بإعتبار أن له عوائد وفوائد بالنسبة للمتعاطين، لذلك إستمر تعاطيهم، بل ونلاحظ إتساع مساحته، ذلك فى مقابل ثقافة مناظرة ترفض التعاطى وتوضح مخاطرة.

٥- **"جماعات علاقات جنسية"** : فى بعض الأحيان يستخدم "الموقع الافتراضي" بشكل سئ ووفقا لدوافع إستغلالية غير بريئة، تؤدى إلى إنتشار الفضائح وتساعد على التحرش الجنسى. وإرتفاع معدل حدوث الجريمة والتورط فى أعمال منافية للآداب، ضد الدين والقيم والمبادئ. إذ توجد على "المواقع الافتراضية" مجموعات تروج للدعارة والشذوذ الجنسى (٧٢). وتشير إحدى الدراسات إلى أن هناك مواقع افتراضية يرتادها حوالى ثلاثة ملايين عربى حيث الدردشة الحرة مع الجنس الآخر. من بينها غرف أصبح يرتادها ٢٢٪ من العرب وهى غرف تخص الجنسيين المثليين، للحديث الحر عن المثلية الجنسية وتبادل الخبرات والعناوين وأرقام الهاتف (٧٣). يردد هؤلاء نفس المنطق الغربى فيما يتعلق بالجنس، حيث ينبغى إشباع الجنس حسبما يرغب الفرد بإعتباره غريزة فردية، وذلك حتى لا يؤدى كبته إلى تعطيل آداء الإنسان فى مجالات الحياة الأخرى، إبتداء من الجنس خارج الشرعية إلى الجنس الشاذ (٧٤).

على صفحات "جماعة علاقات جنسية" فى "المواقع الافتراضية" والتى تضم ٢٥٩ عضوا نجد إعلانا يقول "الجروب ده ياجماعة هيكون مركز إلتقاء للعلاقات والتظبيطات الجادة. أى ولد أو بنت... يابنات بلاش الحركات الأرعة

بتاعتكم وكروت الشحن والإشتغالات دى... والولاد اللى عايزين يهزروا ويتسلو وبس مالهمش مكان هيتحذفو على طول من الجروب. يا جماعة لو سمحتم أى مخالفة للكلام ده إبعتولى تفاصيل المخالفة على طول علشان أعمل ريموف للمخالف، عاوز مشاركات متميزة للجروب ... وحنعطى للمشارك المتميز فرصة أنه يكون أوفيسر للجروب" (٧٥). ذلك بالإضافة إلى وجود مجموعة من الإعلانات عن الجنس، أقل ما فيها انها تخدش الحياء العام. ومن الواضح أن هذه الجماعة تعبر عن قمة الإختراق الثقافى لفضائنا الثقافى. حيث ضخ منظومة من القيم الغربية على ساحة تراثنا، وإذا كان البعض من ناحية يروج لضرورة تعلم ثقافة الجنس حتى يكون الشباب على وعى بها. فإن تشكل هذه الجماعة وما يناظرها فى مواقع أخرى، يعنى فرض ثقافة جنسية منحرفة فى منظوماتنا الثقافية، تلعب دورها معززة بالغريزة فى تفكيك ثقافتنا المستندة إلى الدين والتراث. وعلى هذا النحو نجد أن والمواقع الإفتراضية تؤسس لنشر ثقافة الجنس على ساحتنا لتفرخ ، حتي تقضى على كل ما هو نبيل ومثالى في حياتنا.

٦- جماعة حموات من أجل التغيير": تناقش هذه في حياتنا على صفحات "المواقع الافتراضية" طبيعة العلاقة بين الحموات، وأزواج البنات أو زوجات الأبناء، فى محاولة لتغيير الصورة النمطية لهذه العلاقة. والتى تطلق عليها النكات والأمثلة الشعبية فى كل من الثقافة الشرقية والغربية على السواء. وفى ظل هذه الجماعة ظهرت جماعات أخرى مثل "بكره حماتى" و "حماتى قنبلة ذرية" و "رضاكى يا حماتى" و "الحموات الفاتنات". وقد أجريت دراسة على شبكة "الفيس بوك" كأحد المواقع الافتراضية للتعرف على رأى روادها الذين بلغوا ٢٦١٨ زائرا فى الفترة من ١٨-٢٥ يونيو ٢٠٠٨ أن أقلية محدودة رأت أن الحموات يسببون التوتر داخل البيت وهن سبب المشاكل الأسرية بنسبة ٢٩,٨٣٪. وأن نسبة ٦٥,٠١٪ من الذين أجرى عليهم الإستطلاع رأوا أن الحماة فى البيت هى سبب الدفئ العائلى. بينما أعتبر ١٦,١٪ من المشاركين فى الإستطلاع أن حمواتهم سبب لرعبهم. ويبرز الموقع عناوين متناقضة ناتجه عن تجارب ذاتية وشخصية فيما يتعلق بالحموات، بعضها يصف الحماة بصفات

سلبية مثل "حماتى ها تجننى" و "كابوس يقض مضجعى، وحماتى من بعيد لبعيد" و "حماتى متسلطة وأنانية" و" حماتى سبب همى فى الدنيا" وغير ذلك من الصفحات السلبية. ذلك فى مقابل صفحات إيجابية مثل "يارب السماوات إحفظ الحموات" و" حماتى وأنا بالذات" ، "أمى التى لم تلدنى" و "حماتى أمى الثانية" (٧٦). فى هذا الإطار تنسحب تناقضات الثقافة العامة من الواقع لتشكل ثقافة الواقع الإفتراضى، حيث نجد أن منظومة القيم المتعلقة بالحماة منقسمة على نفسها إن إيجابا أو سلبا. وهو إنقسام لا يقتصر على الثقافات الشرقية فقط، ولكنها ثقافة عالمية أشار إليها العالم الإنثروبولوجيا الشهير راد كليف براون (٧٧).

٧- **الدين وحوار الثقافة على صفحات المجتمع الإفتراضى:** شغل الدين مساحة واسعة فى مواقع المجتمع الإفتراضى عموما، ذلك لأن الحوارات على صفحات الموقع الافتراضي تكون محررة من أية قيود يفرضها المجتمع. بل يصل الأمر أحيانا إلى أن المشارك فى إمكانه أن يتنكر تحت أسماء مستعارة حتى يطلق العنان حراً فيما يتعلق بأفكاره المتعلقة بالدين. فى هذا الإطار تنوعت الجماعات المهتمة بالشأن الديني أحيانا تكون جماعات معتدلة متسامحة فتأتى إلى منطقة الوسط، وأحيانا تتطرف إلى اليمين فتعبر عن ظواهر مرضية متطرفة، وتتطرف إلى اليسار فتبرز هجوما لا هوادة فيه على الدين. الحوارات تتنوع تارة حول "الدين الصحيح" بين المسلمين والمسيحيين وتارة أخرى حول "الإسلام الصحيح" بين السنة والشيعة (٧٨). بالإضافة إلى ذلك فقد إستخدمت "المواقع الافتراضية" لفرض إثارة الفتنة بين الأديان (٧٩). فى هذا الإطار توجد مواقع عديدة منها موقع "الشباب المسلم يغير العالم" والذى وصل عدد أعضائه إلى تسعة آلاف شاب. وكذلك "مجموعات الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم" أو "الدين الإسلامى فى مواجهة الهجوم عليه" أو مجموعة "الدعوة لعمل الخير" و "مجموعة الحفاظ على الصلاة" و "حفظ القرآن" (٨٠). من المواقع المتطرفة على الصعيد الإسلامى موقع "الصارم الحاسم" الذى يرى أن تجاوز ثوابت الدين يشكل "جراة على الله" ويذهب صاحب هذا الموقع إلى

"أن الإيمـان بالغيـب هـو أسـاس الديـن، والفهـم يـأتى لاحقـا، فهناك أشـياء ربمـا لا نكشـف حكمتها عـلى الفـور، ويحتـاج منا الأمـر للإمتثال والتسـليم والرجوع لفهم السـلف الصالح والعلـماء الثقات، لنكتشـف الحكمـة الالهيـة فى العديـد مـن الأمور بـدلاً من التشـكيك فى ثوابـت الدين(٨١).

إتصـالا بذلـك حينـما تعـرض نبـى الإسـلام محمـد عليـه الصـلاة والسـلام للهجوم مـن بعض الأقـلام الأوربيـة، تشـكلت جماعـة "لمناهضـة التهكـم على الرسـول صلى الله عليه وسـلم" شـعارها "حملـة جميـع المسـلمين لمنـاصرة خاتـم الأنبيـاء محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم" تدعـو إلى تفنيـد الأفـكار التـى قيلـت بحـق الرسـول. ثـم تقـدم حـصراً بعـدد الـشركات الدنمركيـة والنرويجيـة التـى ينبغـى مقاطعتهـا، تحـت عنـوان "قاطـع هذه الشركات"، ثم يورد شـعارات وأسـماء سـبع وعشرون شركـة ينبغـى مقاطعتهـا (٨٢). وقـد يشـتد الحـماس بهـذه الجماعة أحيانـا لأن تسـقط فى نوع من الشـوفينية الدينيـة، التـى تـؤذى مشـاعر بعض أصحـاب الأديـان الأخرى.

بالإضافـة إلى ذلـك قامـت حوارات حـول الحجاب عـلى "المواقع الافتراضية" حيث تشـكلت مجموعـة "إخلعـى الحجـاب الآن" حيث نجد أن معظم المشـتركين فى هذا الموقع يحاربون الحجاب. وبرغـم أن هـذه الجماعـة ليسـت الوحيـدة إلا أنهـا الأكثر نشـاطا، حيث تـرد فى صفحاتها الرئيسـية أقوال قاسـية تسـتنفر مشـاعر الكثيرين. مثل قولهم "سـنحرق حجابنا فى ميدان التحرير.. سـنتحرر مـن رمـز التخلـف" ، "مـصر وصلـت لحالـة منحطة من أدعيـاء التدين والـكلام مبقاش نافـع .. إحنا عايزيـن واحـد زى أتاتـورك... يرجعنـا بنـى أدمين بالعافيـة". "غادرت الفاطمية مـصر تاركة خلفها الكنافـة فى الصـوانى. وسـوف تغـادر الوهابيـة مـصر تاركـة خلفهـا الكنافـة فى العقـول"، "سـنحارب قـوى الظـلام حتـى النهايـة" (٨٣). ويتـوالى الهجـوم عـلى الحجـاب حتـى التجـرؤ عـلى الديـن ذاته والرسـول، أقلهـا أن "الرسـول ليس من العـرب" (٨٤).

وقـد كان مـن الطبيعـى أن تظهـر مجموعـات مناهضـة لهـذه المجموعـة منهـا عـلى سـبيل المثـال مجموعـة "دعـوة لأغـلاق جـروب: إخلعـى حجابـك الان" أو جماعـة "معـا ضـد جـروب إخلعـى حجابـك الآن" ومجموعـة "الرجـوع إلى الحجـاب ردا عـلى

مجموعـة إخلعـى حجابـك الآن". وقـد حاولـت هـذه المجموعـات الدفـاع عـن الحجـاب بتقديـم الآدلـة العقليـة والنقليـة عـلى الحجـاب، وتتـولى أحدى العضـوات المدافعـة عن الحجـاب قائلة "أن الأفضـل لمواجهـة أعـداء الحجـاب هو التحدث عن الحجـاب عامة والرد على الشـبهات" (٨٥). وقد توصـل البعـض فى مجموعـة "دعـوة للرجـوع إلى الحجـاب ردا عـلى إخواننـا الغافلـين فى مجموعـة "إخلعـى حجابـك الآن" إلى أن الحـل الوحيـد والفعـال هـو التجاهـل التـام لهـم، فهـو الأكـثر إثـارة للجنـون فتقـول أحدهـم "أرى أنـه مـن الأفضـل تـرك الجـدال معهـم، لأنهـم أشـخاص جبلـوا عـلى محاربـة الإسـلام، مهـما إدعـوا ووظفـوا عقولهـم فى مهاجمـة شرع اللـه الـذى إرتضاه لنـا" وهدفهم إنـكار كل مـا هـو إسـلامى ولـذا لجئوا إلى أسـاليب رخيصـة" (٨٦). وترى أخرى " الجـروب ده لازم يتقفـل عشـان الكفـار اللى مشـتركين فيه يعرفوا أن المسـلمين قـوة" (٨٧). ويقول ثالـث "يا جماعة إنتـم مكبريـن الموضـوع، ده حتـه جـروب تافـة مـا فيهـوش ٥٠٠ عضو، شـوية نـاس تافهـين". ويرد الطـرف المحـارب للحجـاب فيقـول "نحـن أقـل مـن ٥٠٠ عضـو وأنتـم أكثر مـن ٣٢ ألـف عضو ومع ذلـك إنتـم فى رعـب شـديد مـن صوتنـا. لدرجـة أن أملكم الوحيـد فى الحياة، وهدفكـم الأقصى هو إغـلاق موقعنـا، أليـس هـذا دليـل دامـغ على فشـلكم وضيـق أفقكم وعـلى ضعف حجتكـم؟ يالكم مـن منافقـين ودراويـش مخابيـل، لا يتـشرف بكـم أى دين وأى نبـى" (٨٨).

جماعـة أخـرى تتعلـق بالديـن ويـدور الحـوار فيهـا حـول البهائيـة هـذه المـرة، حيـث ثـار بشـأنها جـدل ولغـط فى نطـاق المجتمـع الواقعـى، إنتقـل بـدوره إلى المجتمـع الإفـتراضى. حيـث يقـول أحـد البهائيـين صاحـب الموقـع عـلى "المواقـع الافتراضيـة" "بهـائى مـصرى" ويشـير إلى أنـه كان السـبب فى التحسـن النسـبى فى النظـرة لأبنـاء الديانـة البهائيـة، منـذ أثـارة قضيـة حقهـم فى إثبـات ديانتهـم فى البطاقـة الشـخصية. ويقـول أن "المواقـع الافتراضيـة" كان عامـلاً هامـا فى إنفتـاح غـير مسـبوق عـلى البهائيـين، لم يحـدث فى باقـى وسـائل الإعـلام، فقـد أعطـى الفرصـة للبهائيـين أنفسـهم لعـرض مشـاكلهم وقضاياهـم بشـكل واضـح، دون أى مزايـدات

إعلاميـة. وأعطـى المجـال للبهائيـين للـرد عـلى المعلومـات المغلوطـة المنشـورة عـن الديـن البهـائى. وأتـاح لناشـطى حقـوق الإنسـان والمدونـين المتضامنـين معهـم، الفرصـة لعـرض وجهة نظـر مخالفة للمألـوف عـن قضيـة البهائيـين المدنيـة، وأيضـا الجانب الدينـى منها، كـما أن ظهور مدونـين بهائيين أعطـى للأمـر بعـداً إنسـانيا بـدلا من صـورة القضيـة المجـردة"(٨٩). على خـلاف ذلك نجـد صفحة "الصـارم الحاسـم" عـلى "المواقع الافتراضية" ومعـه آخرون يثير جدلا وحواراً حـول حقوق البهائيين. رافضـين الحقـوق "بدعـوى أن الديـن البهائى دين وضعى يرفضه الإسـلام ولا يمكـن الإعتراف به" لأن الإسـلام هـو الديـن الخاتـم(٩٠). ويسـتمر الجـدل والحـوار، كأنما هو حـوار الطرشـان دون الوصول إلى قناعـات أو حلـول وسـط، ربمـا لأن العقائـد ليـس بها حل وسـط.

الفتنـة الطائفيـة بـين المسـلمين والأقبـاط نالـت مسـاحة واضحـة عـلى صفحـات "المواقـع الافتراضيـة"، حـدث فى أعقـاب إتهـام كنيسـة محـرم بـك فى الإسـكندرية بعـرض مسرحيـة رآهـا البعـض مسـيئة للإسـلام. وبسـبب ذلـك حـدث إحتقـان وتأجـج للمشـاعر وإحتجـاج وتظاهر دفع بعـض المسـلمين والمسـحيين لتشـكيل مجموعـة بأسـم "معـا أمـام اللـه - مصارحـة ومصالحـة"، كان هدفهـا تجـاوز حالـة التوتـر الطائفـى. تؤكـد "ماريـان ناجـى حنـا" المنسـق العـام للمبـادرة "التعـارف بـين العقـول تـم أولا عـلى الإنترنـت"، وبالتدريج ومـع النقاش المسـتمر إكتشـفنا إمكانية الحركـة عـلى الأرض. ولكـن حتـى بعـد إطـلاق المبـادرة ظـل الإنترنـت الوسـيلة الأهـم والأفضـل للتواصـل والمناقشـة، بسـبب ضيـق الوقـت والالتزامات"، لقـد كان الحـوار والإنصـات إلى الآخر هو أسـاس المبـادرة وهـو مـا تؤكـده "ماريـان" أنـه غـير موجـود فى الواقـع الحقيقـى، لذلـك كان مـن الـضرورى أن يبـدأ مـن الإنترنـت... الـذى سـاهم فى وجـود حـوار حقيقـى بـين الناس من المسـلمين والمسـيحيين عـلى السـواء، صحيـح أنـه أحيانـا مـا ينتهـى إلى معـارك وخطابـات كراهيـة، ولكـن عـلى الأقـل أصبـح هنـاك تفاعـل إيجـابي بـين الطرفـين، لقـد قطـع الإنترنـت المسـافة الفاصلـة بـين المتخاصمـين، ووضـع النـاس فى مواجهـة بعضهـم البعـض (٩١). وهـو مـا يعنـى أن صـوت العقـل

كان على صفحات "المواقع الافتراضية" بينما صوت الإنفعال والعاطفة كان على أرض الواقع.

٨- ثقافـة الترفيـه عـلى صفحات المجتمع الإفتراضى: الحوارات ليسـت جادة دائماً، وليسـت عقلانيـة بصـورة مسـتمرة، ولكـن تتخللهـا بعـض جوانـب الترفيـة. حيـث يتفاعـل الإنسـان بلا روح جـادة. يحـدث ذلـك كثـيرا عـلى أرض الواقـع، كـما يحـدث إنعكاسـاً لذلـك عـلى صفحـات "المواقع الافتراضيـة" فى المجتمـع الإفـتراضى. فى الواقـع تـؤدى النكتـة وظيفـة تصريف التوتـر، وتجديد ذات الفـرد أو الجماعـة، وفى نفـس الوقـت تنقل إلى سـاحة المتفاعلين مضامين يناقشـونها مع ذواتهم، مع طرحهـا فى إطـار جماعـة تؤكـد طبيعتهـا. على هذا النحو تشـكلت جماعات تعكس الروح الشـبابية التـى لا تأخـذ الأمـر بجدية فى بعـض جوانبها.

إرتباطـا بذلـك وجـدت جماعات عـلى أحد "المواقـع الافتراضية" تعبر عن إعجابهـا بالفنانين، مـن ذلـك نجـد "رابطـة محبـى احمـد منيـب ومحمـد منـير" و" محبـى فـيروز" و" محبـى صـلاح جاهـين" وطبعـا "محبـى نجـم الجيـل" الـذى يثـير كعادتـه الكثـير مـن الجـدل، حيـث تشـكلت جماعـة مضـادة لمحبـى "نجـم الجيـل" الـذى تـراه المكـروه الأكـبر، فهـو مثـال سـئ للشـباب كـما يـراه صاحـب مجموعـة "لـو الجـروب دا وصـل عـشر تـلاف هنرجع"..."السـجن" وهـو الجـروب الـذى وصـل أعضـاؤه إلى ١٧,١٥٧ مشـارك. وهـو العـدد الـذى فـاق توقعـات صاحـب الفكـرة الـذى أعلـن بمجـرد تخطـى عـدد الأعضـاء الرقـم الـذى حـددة أنـه ليـس لديـه طريـق لإرجـاع الفنـان "..." الـذى خـرج مـن السـجن العسـكرى ليعيـده إليـه مـرة أخـرى، ولكنـه أراد فقـط أن يقيـس مـدى كراهيـة أبنـاء الجيـل لمـن أطلـق عليـه نجـم الجيـل (٩٢). يضـاف إلى ذلـك خطابات جماعـة عـلى موقـع "المواقـع الافتراضيـة" تسـمى مجموعة "توسـيع بنطلونـات البنـات". وتناقش هـذه المجموعـة نقديـا الملابـس الضيقـة التـى تلبثهـا الإنـاث، يوضـح أعضـاء الجماعـة أن ذلـك مخالـف للديـن ومخالـف للأخـلاق والتقاليـد فى مجتمعنـا. كـما أنـه يعتـبر دعوة صريحـة للتحرش والإعتـداءات التـى تقـع عـلى الإنـاث فى الشـارع. فى مقابـل ذلـك نجـد مجموعـة بعنـوان "مـع إحـترام حريـة الإنـاث" تقـدم دعـوات مضـادة بأن الملبس مسـألة شـخصية بحتـه، ومن حـق الفتاة

أن تلبس ما تريد. وكفانا تاريخ من الحجر والكبت والقهر للمرأة، وهو الحجر الذى سبب التخلف الذى نحن فيه.

ذلك يعنى أن صفحات موقع "المواقع الافتراضية" ضمت حوارات متنوعة، تعكس من ناحية الجوانب المختلفة للشخصية الشابة بالأساس، تلك التى تنتمى لأعلى شرائح الطبقة الوسطى إضافة إلى الطبقة العليا، وهى الفئات التى إنفتحت على العالم الخارجى بكثافة عالية من خلال الإعلام وتكنولوجيا المعلومات. والتى عانت من صدمة الإنفتاح الشامل فتشرذمت، بعضها ذهب إلى أقصى اليمين فتبنى مواقف محافظة ومتزمتة أو أطيح به إلى أقصى اليسار، فأعلن شعارات التحرر من ثقافات الوطن وفتح باب الإختراق على مصراعية. كما تعكس من ناحية أخرى تنوعات التفاعلات الإيجابية والسلبية التى تحدث على أرض الواقع، والتى تسللت بطبيعتها وثقافتها المنظمة والضابطة إلى ساحة المجتمع الإفتراضى من خلال شخصية أعضائه المشاركين.

المراجـــع

١. ثقافة المواقع الافتراضية pho.retupmoc/moc.heysa.www//:ptth .

٢. نرمين زكريا خضر، الأثار النفسية والإجتماعية لإستخدام الشباب المصرى لمواقع الشبكات الإجتماعية، دراسة على موقع المواقع الافتراضية FaceBook، المؤتمر العلمى "الأسرة والإعلام وتحديات العصر" كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٥-١٧ فبراير ٢٠٠٩، ص ٢٣.

٣. قصة المواقع الافتراضية php.daerhtwohs/gro.alaser.murof//:ptth.

٤. دانا بويد، الشباب، مواقع الإنترنت الإجتماعية، دور شبكة الإنترنت فى الحياة الإجتماعية للمراهقين، ترجمة مصطفى محمود، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الثقافة الرقمية (١) وزارة الثقافة، ص ٨.

٥. ثقافة المواقع الافتراضية، مرجع سابق.

٦. حنان فاروق، المواقع الافتراضية يؤجج الحس السياسى لدى الشباب
http://www.middle-east-onlima.com/?id=62946= 62946&Format=0

7. Donath, Judith, Identity and Deception in The Virtual Community in Sybrspace, eds, Marc Smith and Peter Kollock "London Rautledge, 1999"

٨. دانا بويد، مرجع سابق ص ص ١٠- ٣٥.

٩. نفس المرجع، ص ١٠.

١٠. نفس المرجع، ص ص ١٠-١١.

11. Levine, Peter, The Internet and Civil Society, & Public Policy Vol 20 N.4 Pp. 32-.

١٢. نرمين خضر، مرجع سابق، ص ١١.

١٣. نفس المرجع، جدول رقم ٣٧.

١٤. نفس المرجع، جدول رقم ٣١.

١٥. نفس المرجع، جدول رقم ٣٠.

١٦. ماجدة سالم، ملتقى التنوير والمواقع الافتراضية: الحكومة تعاملت مع "الفنكوش" اليوم السابع السبت ١٧ مايو ٢٠٠٨.

١٧. حسن خليل، شعب دمياط وشعب "المواقع الافتراضية" البديل Http: // www. elbadeel.net/mdex.php.

١٨. دانا بويد، مرجع سابق، ص ١٩-٢٠.

١٩. نرمين خضر، مرجع سابق، ص ٢.

٢٠. نفس المرجع، جدول رقم ١٥.

٢١. نفس المرجع، جدول رقم ٦.

22. Negroponte, Nicholas, Being Digital "New York", Vitage, 1996, P.113.

23. Davis, Fred, Fashion, Culture and Identity" Chicago University of Chicago Press, 1992, P, 83.

٢٤. نرمين خضر، مرجع سابق، ص ٤٦.

25. Nicholas Negroponte, DP, Cit, P 133.

٢٦.ثقافة الشباب بين تحديات الإنترنت وعجز الدولة /gro.ferawla.www//:ptth 9002/cibara

٢٧. نفس المرجع.

٢٨. دانا بويد، مرجع سابق، ص ٢٦.

29. Glassner, Barry, The Culture of Fear, Why American are Afraid of The Wrong Things "New York- Basic Books, 2000" P. 137.

30. Jankins, Henry, Confronting The Challenges of Participatory Culture: Media Educuation for 21 st Century, Mac Arthur Foundation,3006, P. 31.

٣١. ماجدة سالم، مرجع سابق.

٣٢. نفس المرجع.

٣٣. شعب دمياط وشعب "المواقع الافتراضية" php.xedni/ten.leedable.www//:ptth

34. The Presentation of Self in Everyday Life , Eudinburgh, University of Eudinburgh, 1956, P.97.

35. Goffman, Erving, Behavior in Public Places, New York, The Free Press, 1963, P. 97.

36. Sunden, Jenny, Material Virtualities, New York, Peterlang Publishing, 2003, P117.

٣٧. دانا بويد، مرجع سابق، ص ٣٧.

٣٨. نفس المرجع، ص ٤٤.

٣٩. نفس المرجع، ص ٤٤.

٤٠. ثقافة الشباب بين تحديات الإنترنت وعجز الدولة /gro.ferawla.www//:ptth .9002/cibara

٤١. نفس المرجع.

٤٢. نفس المرجع.

43. Jenny Sunden, Op, Cit. P. 123.

٤٤. نرمين خضر، مرجع سابق، ص ١٠.

45. Henry Jankins, Op, Cit, P. 57.

46. Ibid, P. 73.

47. Barry Glasser, Op, Cit, P. 137.

48. Ibid, P, 141.

٤٩. محمد عصمت، إضراب المواقع الافتراضية، مجلة الشروق فى ٢٠٠٩/٤/٩.

٥٠. ماجدة سالم، مرجع سابق.

51. Barry Glasser, Op, Cit, P.

٥٢. المواقع الافتراضية تم إغلاقة فى سوريا /pv/moc.ybaramalK.www//:ptth 2157=?php.daerhtwohs

53. Nicholas Negropote,Op,Cit, P, 143.

54. Ibid,147.

٥٥. نرمين خضر، مرجع سابق، ص ٨.

56. Thomson, Sarah, Club Cultures: Music, Media and Structural Capital, Middletown, CT: Wesleyan University, 1996, P. 83.

57. Ibid, P,85.

58. Ibid, 86.

٥٩. مصر أولاً: ١٤ فبراير "على المواقع الافتراضية فى عيد الحب" -www//:ptth egap?php.xedni/moc.reyahsable

٦٠. المواقع الافتراضية تم إغلاقة فى سوريا، مرجع سابق.

٦١. "المواقع الافتراضية"..... وغواية التعبير. /telvreS/ten.enilnomalsi.www//:ptth etilletaS

٦٢. نفس المرجع.

٦٣. نفس المرجع.

٦٤. أحمد سابق، البديل تحصل على فيديو لضباط شرطة يتبادلون التهانى عقب إطلاق الرصاص على مواطن فى مطروح، فى ٢٠٠٨/١٢/١٨.

٦٥. فاطمة القللينى، الأبعاد السلبية لإستخدام الشباب للمواقع الإلكترونية، بحث غير منشور، بدون تاريخ، ص ٢١.

٦٦. على ليلة، الأمن القومى العربى فى عصر العولمة، الأبعاد الإجتماعية والثقافية، الجزء الثانى "إضعاف الدولة وتفكيك المجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠١١، ص ٢١٣.

67. Fokayama, Francis, The End of Order, The Fnee Press, New Gorkoy, 1998, P. 38.

٦٨. فاطمة القللينى، مرجع سابق.

٦٩. يمنى مختار، عوانس من أجل التغيير، حركة ضد الأفكار السلبية .www//:ptth . Files.aspx/ =147702 wohS/moc.teehom

٧٠. فاطمة القللينى، مرجع سابق، ص ص ١٦-١٧.

٧١. نفس المرجع، ص ص ١٤-١٥.

٧٢. المواقع الافتراضية وغواية التغيير bv/moc.baraskeeg.www//:ptth

٧٣. ٣٢ ألف صورة telvreS/ten.enilnomalsi.www//:ptth

٧٤. فاطمة القللينى مرجع سابق، ص ص ١٤-١٥.

٧٥. حموات من أجل التغيير telvreS/enilnomalsi.www//:ptth

٧٦. علـى ليلـة، البنائيـة الوظيفيـة فى علم الإجتـماع، القضايا والرواد، المكتبـة المصرية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ص ٩٧.

٧٧. المجموعات المناهضة ten.enilnomalsi.www//:ptth

٧٨. نفس المرجع.

٧٩. نفس المرجع.

٨٠. نفس المرجع.

٨١. فاطمة القللينى، مرجع سابق، ص ١٩.

٨٢. خناقة الحجاب على المواقع الافتراضية tecvros.ten.enilnomalsi.www//:ptth

٨٣. نفس المرجع.

٨٤. نفس المرجع.

٨٥. نفس المرجع.

٨٦. نفس المرجع.

٨٧. نفس المرجع.

٨٨. نفس المرجع.

٨٩. نفس المرجع.

٩٠. نفس المرجع.

٩١. نفس المرجع.

٩٢. المواقع الافتراضية وغواية التغيير، مرجع سابق.